ذاكرة الباطن

مذكرات

أكرم أنطاكي

ذاكرة الباطن

مذكرات

عنوان الكتاب: ذاكرة الباطن

تأليف: أكرم أنطاكي

اخراج: دارين أحمد

كتاب الكتروني

2020

تقديم

نشر أكرم أنطاكي فصول هذا الكتاب–السيرة على شكل مقالات متتابعة في مجلة معابر الالكترونية، وكان تاريخ نشر الفصل الأول المعنون بـ "على ضوء كتاب مقدس وأيقونة" هو الربع الأول من عام 2002، أي في الإصدار السادس لمعابر، أما الفصل السادس عشر والأخير وهو بعنوان "بمثابة خاتمة – طائر الليل يهذي.. " فكان بتاريخ كانون الأول 2006.

وقد قسم أكرم سيرته الذاتية إلى جزئين: الجزء الأول ينتهي مع نهاية الفصل الثامن، وهو يقابل في السيرة التحاقه بخدمة العلم؛ أما الجزء الثاني فيتابع فيه سرد تاريخه الشخصي والعام حتى عام 1986. وقد خصص للجزء الأول صفحةً في مجلة معابر، إضافة إلى إمكانية تحميل ملف وورد في مكتبة معابر الالكترونية، تضم جميع فصول هذا الجزء مُضافًا إليها فهرسًا للأسماء يتيح للقارئ متابعة كل ما كُتب في المذكرات عن اسم بعينه (وجدت أنه يمكن الاستغناء عن فهرس الأسماء في نسخة الكتاب الالكترونية هذه، ويمكن للقارئ الاستفادة من الفهرس على صفحة الكتاب الموجودة في موقع معابر)؛ لكنه لم يقم بالشيء ذاته لفصول الجزء الثاني بل أبقى عليها كمقالات متماثلة مع باقي مقالاته في معابر.

نُشر الفصل التاسع – أي بداية الجزء الثاني – بعنوان "حماة الديار" في شهر كانون الأول 2004 في حين أن الفصل العاشر المعنون بـ "ذكريات وتأملات جزراوية" كان قد نُشر قبله في شهر أيار 2004، ومرد ذلك أن "ذكريات جزراوية" قد حرضت على كتابته أحداث القامشلي 2004، وعلى الأغلب كان هو بدروه محرض استكمال المذكرات في جزء ثانٍ فكان الفصل التاسع الذي يتناول فترة خدمة العلم ليتبعه في تسلسل المذكرات الفصل العاشر الذي هو "ذكريات وتأملات جزراوية".

هذا الجهد المتواضع في تجميع فصول المذكرات على شكل كتاب الكتروني يتيح للقارئ الغوص في تاريخ سوريا من خلال سرد ممتع وصادق وجميل لكاتب له بصمته الخاصة في الكتابة عن الشأنين الخاص والعام، هو شكر بسيط له ولما قدمه حضوره في العالم أولاً، وتاليًا هو هدية للقارئ الذي سيفتح نافذة جديدة على تاريخ سوريا وحاضرها أيضًا.

دارين أحمد

أيار 2020

مقدمة

أتساءل، وقد بت قانعاً بأن البشر إنما هم جميعاً نتاج تراكمات مضت وتفاعلت فتركت بصماتها العميقة على مجرى حياتهم...

مؤكداً أنني لا أرغب من خلال هذه المقدمة الغوص في موضوع فلسفي. لكني كنت ولم أزل أفكر بالأسباب التي دفعتني لكتابة هذه الصفحات التي دعوتها بـ "ذاكرة الباطن".

ولكن، لماذا "ذاكرة الباطن"؟ ربما لأن ما قيل ويقال لم يكن صادقاً بما يكفي أيها السادة. أو ربما لأن ما سأنقله لكم هو، من بعض جوانبه، ذاكرة إنسان لم ترفعه الحياة إلى واجهة الأحداث، فاقتنع بواقعه – من حيث الظاهر – وبقي، لحسن حظِّه أو لسوئه، مستوراً، كـ"طائر الليل"، يراقب ويتأمل ويحلل بعض ما تستبقيه الحياة مخبَّئاً ويتجنَّب الناس عموماً التطرُّق إليه.

كـ" طائر الليل " نعم... كالبومة تحديداً! – وإن كان هذا لا يسرُّكم. فخرافاتكم شاءت أن تربط هذا الطائر المسكين الذي يخاف الأضواء ويتجنبها بالشؤم! ولكن، إن أمعنا النظر قليلاً، تلمسنا بسهولة كـ – تِل المهذار (espiégle’Tell l) في الأسطورة الفلمنكية – العمق الرمزي لكائن لا ينام، بل يبقى وحيداً في الظلام يراقب ويتأمل – حزيناً – مأساة الخليقة، وخاصة منها ملهاتنا الإنسانية.

وهنا، لابد من الإشارة إلى أن هذا المخطوط، بالنسبة لصاحبه، يأتي كمحاولة تفهُّم وتقويم لمرحلة مضت، الأمر الذي قد يجعله تاريخياً وسياسياً في بعض جوانبه. ولكني أؤكد منذ البداية أنني لست مؤرِّخاً ولا سياسياً في العمق، ولن أكون كذلك. فقد فاتني القطار. إنما الحقيقة هي أن ما كان وما زال يؤرقني هو أنني لم أجد ولم أقرأ بشكل عام من حيث أنا كتاباً عن أو من بلدنا ومنطقتنا يتناول الأمور بصدق ومحبة وإنسانية تتجاوز المصالح والخلافات الطبيعية في المواقف ووجهات النظر بين البشر.

وبكل سطحية، يردد بعضهم أن التاريخ يكتبه المنتصرون. فالتاريخ، كما يقولون، يكتبه من يمتلك إمكانية فرض وجهة نظره على الآخرين. وهذا قد يكون صحيحاً نسبياً – من حيث الظاهر على الأقل. فهناك حيث نحن وجهات نظر رسمية، معمَّمة ومفروضة على الجميع.

لكن "طائر الليل" لم يكن يوماً في صفِّ المنتصرين. وأنا لا أعتقد أني سأكون واحداً من أولئك الذين يفرضون وجهة نظرهم بالإكراه و/أو الخديعة على سواهم. لذا قد تكون هذه هي إحدى الدوافع الأساسية لمخطوط هو في النهاية صرخة ألم تعبِّر عن بعض ما يجب أن يقال.

خاصة وأن ما أكتب هو، أولاً وآخراً، محاسبة للنفس، هو مجموعة تساؤلات أبغي، من خلال سوقها، الإجابة على الأهم بالنسبة لي، ألا وهو ما دفعني إلى هذا الذي كان طريقي في هذه الحياة، فأوصلني، من خلال التجربة الحلوة والمرة، إلى ما أوصلني إليه؟ وأوصلنا جميعاً إلى ما أوصلنا إليه.

والبومة لم تكتسب سمعتها هباء، إنما من خلالكم على مرِّ العصور. من خلالك ومن خلالهم. نعم... من خلال الدموع والابتسامات والآلام والأخطاء المعلنة وغير المعلنة. ومنذ كانت الإنسانية.

فلكل شيء، كما سبق وأشرنا، مقدِّمات ومسببات. ونحن جميعاً أبناء تجربة ومسيرة تركت بصماتها.

ولكن، يبقى أن نفهم...

ماذا حصل؟ ولماذا؟ وإلى أين المصير؟

وهذا قد يرتبط بالمدى، وعبره، بتراكمات الحياة وتفاعلاتها في هذا المكان من العالم الذي كان بمعظمه، بالنسبة لي، تلك البلاد التي أسموها "الشام" عامة، وذلك الجزء السوري وثلاث مدن منه تحديداً: دمشق، حيث ولدتُ وحيث قضيتُ جُلَّ حياتي، وحيث قضى أبي جُلَّ حياته، وحيث عاش وترعرع أولادي؛ وحلب، حيث كانت أسرتي، وحيث تزوجتُ ورزقتُ أطفالي؛ وأخيراً، تلك التي لم أعرفها إلا من خلال أسطورتها كـ"مدينة للألوهة" على أرضنا، تلك التي كانت أولى المدن المسيحية وآخرها، أنطاكية التي لم تعد "مسيحية" اليوم، والتي أعطتني اسمها و...

هذا القليل الذي سأرويه لكم.

والله على ما أقول شهيد...

الفصل الأول..

على ضوء كتاب مقدّس وأيقونة

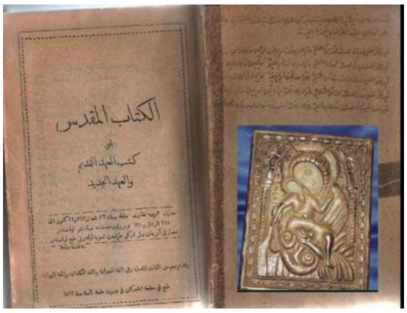

آ

لطف الله وكريم..

طائر الليل: لأن هذه، وإن كانت لن تسرَّكم، بعضٌ من أصولكم. فصاحبها من أبناء هذا البلد عموماً، ومن هذه الأسرة تحديداً، ومن حاملي تراثها الذي نقله وينقله قدر المستطاع لأبنائه (ولكم) مضيفاً إليه ما تراكَمَ عنده خلال مسيرته.

وتراثه هو قطعاً بعض من تراثكم؛ بفضائله المعلنة التي كانت، ربما، بعضاً من فضائلكم المعلنة؛ وبمساوئه المعلنة التي هي قطعاً بعض من مساوئكم التي تحاولون إخفاء ها. حيث...

تتحدث بعض المراجع التاريخية المختصة عن أسرة يونانية الأصول، سكنت أنطاكية قبل أن تنتقل لتستقر في حلب في منتصف القرن الثامن عشر. وكان مؤسِّس الأسرة في حلب من أعيان أنطاكية، ويدعى الحاج الياس بن الحاج داوود السكاكيني الشهير بالأنطاكي، الذي يقال إنه...

أراد أن يبني في مدينته، على نفقته، كنيسة لطائفة الروم الأرثوذكس، كان قد حصل على إجازة ببنائها من السلطان العثماني. لكن طائفته عارضته في ذلك، فهاجر إلى حلب في عام 1749، وأقام في دار واسعة ابتاعها من بيت البرغل كانت تقع خارج باب النصر في المحلة المعروفة باسمهم. وتعاطى صناعة الأقمشة، وتبعه في ذلك أبناؤه وأحفاده.

كانت هذه الأسرة في ذلك الحين أسرة متنفِّذة من أصحاب البراءات السلطانية (برئتلية)، ويعتمر أفرادها القلابق التي كان يختص بها أتباع الطريقة المولوية وجنود الجيش الانكشاري، خلافاً لسائر المسيحيين الذين كانت الدولة العثمانية في فترة ما قبل "التنظيمات" تفرض عليهم اعتمار العمائم السوداء. كما كانت مع آل زمريا من الأسر المسيحية الحلبية القليلة التي بقيت على المذهب الأرثوذكسي، بعد أن تحول معظم مسيحيي حلب في أواخر القرن الثامن عشر إلى الكثلكة.

ثم كان من نتائج تطبيق العثمانيين، في الستينات من القرن التاسع عشر، لبرنامجهم الإصلاحي الجديد (التنظيمات – قانون إدارة الولايات) الذي تضمن شيئاً من المساواة للرعايا غير المسلمين مع المسلمين وإشراكهم في أجهزة الحكم والإدارة، أن ظهرت بعض الأسر المسيحية البارزة على المشهد السياسي في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، وانضمت إلى النخبة المدنية في حلب في أواخر القرن التاسع عشر. وكان "آل أنطاكي" في طليعة هذه الأسر.

فمن الإداريين من ذوي المراتب الذين نطالع أسماءهم في الحوليات العثمانية السنوية لولاية حلب (سالنامه) نجد: ديميتري أفندي الأنطاكي الذي كان من أكثر وجهاء حلب احتراماً؛ وباصيل أفندي الأنطاكي ونصري بك الأنطاكي، اللذين احتلا مقعداً في مجلس إدارة الولاية، وهو أهم مجلس محلي، وفي مجلس المعارف في التسعينات من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين؛ وفتح الله أفندي

الأنطاكي، الذي كان قاضياً في محكمة الاستئناف في الفترة نفسها؛ وبشير أفندي الأنطاكي الذي كان مسؤولاً عن الشؤون التجارية في حلب في مطلع القرن العشرين؛ وتلميذ الكواكبي الأديب والصحافي عبد المسيح الأنطاكي، صاحب "القصيدة العلوية" في مدح الإمام علي؛ وفي الربع الأول من القرن العشرين كان (ابن عمنا) تيودوري أفندي الأنطاكي الذي خدم في الإدارة العثمانية... ولكن...

إن كانت الوجاهة لا تعنيني كثيراً فإن...

ذلك "الكتاب" القديم المهترئ، الذي أضحى اليوم عند شقيقتي إكرام والذي كان مرجعي الأساسي في أيام شبابي وفي لحظات تعاستي، كان يورِد على صفحاته الأولى، مخطوطاً باليد، بعضاً من سجلِّ شجرة عائلتنا. وتلك كانت تقول، على لسان ابن ذلك الجيل من الأسرة الذي عاش في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أن...

"... في الـ 14 من تموز 1863 تم زواجنا على يد صاحب الغبطة البطريرك تيموثاوس من أنصطاسيا ابنة الياس اليان...

- وفي الـ 23 من شباط 1868 رزقنا طفلاً مباركاً أسميناه في المعمودية سامي جرجي اليان اسكندر. وهبه الله طويل العمر والحياة السعيدة.

- وفي الأول من تشرين الأول 1870 رزقنا طفلاً مباركاً أسميناه في المعمودية ميخائيل توما. وقد غادرنا إلى جنان الخلود.

- وفي الـ 21 من كانون الأول 1872 رزقنا طفلاً مباركاً أسميناه في المعمودية جبرائيل. وهبه الله طويل العمر والحياة السعيدة.

- وفي الـ 20 من نيسان 1875 رزقنا طفلاً مباركاً أسميناه في المعمودية نيقولاقي. وهبه الله طويل العمر والحياة السعيدة.

- وفي الـ 3 من حزيران 1877 رزقنا طفلة مباركة أسميناها في المعمودية أفدوقيا كاتارينا. وهبها الله طويل العمر والحياة السعيدة.

- وفي الـ 11 من تموز 1879 رزقنا طفلاً مباركاً أسميناه في المعمودية قسطنطين لطف الله - وهبه الله طويل العمر والتوفيق.

- وقد رزقنا بابنة أسميناها أميلي لكنها غادرتنا إلى جنان الخلود.

- وفي الـ 12 من شباط 1885 رزقنا طفلاً مباركاً أسميناه في المعمودية ميخائيل كريم - وهبه الله طويل العمر والتوفيق.

- وفي الـ 23 من أيلول 1887 رزقنا طفلة مباركة أسميناها في المعمودية أميليا أولغا: وهبها الله طويل العمر والتوفيق..."

وأتوقف أمام ذلك الذي كان جدي لأبي، والذي كان يدعى "لطف الله"، المولود في حلب عام 1879. فمعظم الآخرين لا يعنونني بشيء، حيث لم أدرك منهم سوى أولغا الابنة الأخيرة التي أضحت جدتي لوالدتي، وكريم، الشقيق الأقرب إلى قلب لطف الله الذي...

لم يكن، ربما، شأنه شأن أبنائه وشقيقه الأصغر، كأجدادكم وأشقاؤهم وأبناؤهم من خلال ما هو معلن، مثالاً للورع وللفضيلة. فقد ارتكبوا خلال حياتهم بعض الموبقات. ولكنهم في نفس الوقت، وحالهم في هذا كحال معظمكم أيها السادة، لم يكونوا أشراراً...

"... كرَّست العائلة ابنها لطف الله –للكهنوت، فأرسلته إلى روسيا حيث قضى بضع سنين في المدرسة الكهنوتية في زاغورسك قرب موسكو، ثم في كييف عاصمة أوكرانيا. وكان من بين زملائه في الدراسة آنذاك من أضحى يعرف فيما بعد بألكسندروس (جحا)– مطران حمص. وأيضاً في المدرسة الكهنوتية في كييف، حيث قضى بعض الوقت كان يدرس، كما تقول كتب التاريخ، جوزيف دوغاتشفيلي (ستالين) ، الذي يدَّعي جدُّك أنه عرفه..." ولكن...

شاءت الحياة ألا يكمل المدعو لطف الله أنطاكي (كستالين، ولكن لأسباب مختلفة!) دراساته الكهنوتية. فستالين، الذي عرف المذلَّة، وحُرِم في طفولته وشبابه من ملذَّات هذه الحياة الدنيا، ترك الكهنوت ليطلب مجده الأرضي من خلال العنف والسياسة. أما جدي الذي كان ابن عائلة ميسورة، فقد ترك الكهنوت ضارباً عرض الحائط بكلِّ الأمجاد، الأرضية منها والسماوية، من أجل ملذات هذه الحياة الدنيا تحديداً وحصراً...

وأهم ما في هذه الحياة كان بالنسبة له النساء والميسِر. فبدَّد من أجل النساء، وعلى موائد الميسِر، ما تحدَّر إليه من ثروة أهله...

"لم يكن يهمه شيء سوى الكيف..."

"لم يكن جميلاً جداً ولكنه كان جذاباً. وكانت صبايا حلب يعشقنه ويلاحقنه..."

"في تلك الأيام أنشدت له المغنية الحلبية راحيل قدُّك الميَّاس يا لطفي..."

"كانت الصبايا الحلبيات يحضرن صلاة صباح الأحد من أجل رؤيته وجذب نظره. أما هو فكان يتبختر أمامهنَّ في باحة الكنيسة مع أصدقائه، كالديك الرومي بشاربه المفتول وطقمه الأبيض وطربوشه الأحمر..."

"كان له عدد كبير جداً من العشيقات. كان وسيماً وجذاباً. كما كان يتحدث بطلاقة خمس لغات هي: العربية والتركية والروسية واليونانية والفرنسية..."

عنه تروى القصة الطريفة التالية تقول:

"... إن إحدى عشيقاته – وكان زوجها عاجزاً – أرادت ذات يوم أن تتبناه لتحتفظ به في متناول يدها، فاتصلت بأخيه كريم وأقنعته، مقابل بعض المال، أن يقنع جدَّك بالأمر. و(اقتنع) جدُّك بالأمر لأنه وجده

طريفاً ووافق على التبنّي بعد أن اقتسم مع كريم رشوته. فأحضرت السيدة وزوجُها كاتب العدل الذي طلب رؤية المحروس. لكن كاتب العدل صُعِق حين وجد أمامه رجلاً مفتول الشوارب، مكتمل الرجولة، فأحس أن في الأمر شيئاً غير قويم ورفض تثبيت الواقعة. وهكذا بقي جدك، لحسن حظِّنا، من آل أنطاكي..." ثم...

"تزوج من امرأة جميلة جداً وغنية جداً، عشقته فهجرت زوجها الأول (المصري من بلدة المنصورة ومن عائلة الأوضه باشي التركية الأصل) من أجله..." وكان أن...

"... في الـ 16 من آب 1907 [و] على يد صاحب الغبطة البطريرك استفانوس، تم عقد قران ابننا لطف الله على أميلي هلال ابنة السيد المحترم باصيل اليان هلال..."

وانتقل "الكتاب المقدس" إلى جدِّي. ولكن معه – وهذا هو الأهم – انتقلت "أيقونة السيدة العذراء" التي تزيِّن اليوم داري، والتي أحضرتها جدَّتي "ابنة باصيل هلال" مع جهاز عرسها عربوناً من منزل أبيها إلى لطف الله الذي أحبته ووهبته حياتها والذي...

تابع مسجلاً على صفحاته وفق التقاليد العائلية أن...

– في الـ 31 من آذار 1908 رزقنا طفلاً مباركاً أسميناه رزق الله... وهبه الله طويل العمر والتوفيق...

– وفي الـ 20 من آذار 1910 رزقنا طفلاً مباركاً أسميناه فلاديمير... وهبه الله طويل العمر والتوفيق...

– وفي الـ 10 من كانون الأول 1912 رزقنا طفلاً مباركاً أسميناه جورج.. وهبه الله طويل العمر والتوفيق...

– وفي الـ 20 من كانون الثاني 1915 رزقنا طفلاً مباركاً أسميناه ألبير. لكنَّه غادرنا إلى جنان الخلود...

– وفي الـ 23 من تشرين الأول 1917 رزقنا طفلاً مباركاً أسميناه أريستيدي..." (الذي كان والدي).

وبقي لطف الله، رغم أنه أضحى أباً لعائلة، على منوال حياته السابق... يتسامر صباحاً ومساءً فقط مع أصدقائه من المتنفذين العرب والأتراك، و/أو يغزو ليلاً ونهاراً ما كان يتيسر له من النساء الجميلات – وما أكثرهنَّ! فبدَّد أيضاً ثروة زوجته التي توفيت مصابةً بالفالج نتيجة ما لحق بها من عذاب نفسي وألم على يده. حيث...

"كانت تلبس أجمل ثيابها، وتجرُّنا وهي تبكي نحن الأربعة وراءها إلى حيث تفترض أنه كان موجوداً... إلى منازل عشيقاته أو إلى حيث كان يلعب القمار أحياناً... في محاولة لا تيأس لتعيده إلى المنزل. وكان يعود معها في كلِّ مرة. ثم في اليوم التالي كان يعاود الكرَّة من جديد وكأن شيئاً لم يكن..."

كان يبدو فاسقاً. ولكن، إن نظرنا بعين التسامح إلى ذلك الجانب السلبي من حياته لقلنا إنه كان يعيش على سجيَّته، وكان بهذا صادقاً مع نفسه. فقط ما كان يفترض وفق مفاهيمكم أن يبقى مستوراً

(كالمعاصي) كان بالنسبة له معلناً بعض الشيء وموضوع تندُّر. وإن أخذنا جانبه الآخر – فلكلٍ منَّا (ألا تعتقدون؟) جانبه الإيجابي – للاحظتم ما قد يستحق بعض التأمل...

فحين واجه تلك المأساة الإنسانية العامة، التي كانت خلال حياته متمثلة بمجازر الأرمن، لم يهرب، إنما تصرف بنبل وشهامة وأنقذ من استطاع بلا أي مقابل...

"لم يكن لطف الله هكذا عبثياً كما يبدو، إنما كان له أيضاً الكثير من المواقف النبيلة. فخلال الحرب (سفر برلك أو الحرب العالمية الأولى) وجد لنفسه، للمرة الأولى والأخيرة في حياته، وظيفة كي لا يذهب إلى ساحات القتال. فاستفاد من وظيفته وأنقذ من حبل المشنقة، خلال المجازر، الكثير من العائلات الأرمنية المنكوبة..."

"هذا صحيح. فعمُّك رزق الله –كان ينجح بالنيابة عن حلب نتيجة عاملين هما: أولاً، أصوات الأرمن الذين كانوا يحبون جدك؛ وثانياً، الأصوات التي كان يؤمنها له شقيقه كريم..."

وتضيف شقيقتي إكرام –(رحمها الله) أن "ربما كان جدُّنا عظيماً فعلاً، ونحن لم نكن نعلم. على كلِّ حال، اسمع يا أكرم هذه القصة التي قد تصدِّقها وقد لا تصدقها. أنا في المكسيك، كما تعلم، منذ عشرين عاماً. وقد اشتريت مؤخراً داراً جميلة وبدأت أفرشها على مزاجي هذه المرة. وذات يوم، بينما كنت أتجول في أحد الشوارع، استوقفتني واجهة محل لبيع السجاد العجمي القديم، صاحبه أرمني. فدخلته وشرعت أتفحص موجوداته وأسأل صاحب المحل الذي وجدته أمامي عن أصلها وسعرها. وكانت الأسعار غالية إلى حدٍّ جعلني لا أفكر حتى بشراء أبسطها. عندما سألني صاحب المحل...

– من أي بلد أنت مدام؟ أجبته:

– من سورية... فسألني مرة أخرى...

– من أين في سورية؟ أجبته:

– من دمشق، ولكن أصلنا من حلب. فسألني أيضاً، وبمزيد من الاهتمام:

– مِن بيت مَن في حلب؟ فأجبته وقد بات الحديث مشوقاً:

– من بيت الأنطاكي... فسألني وقد تملَّكه العجب:

– وهل كان لطف الله أنطاكي [1] من أقربائك؟ فأجبته:

– نعم، لقد كان جدِّي...

فتأمَّلني طويلاً ثم قال للعامل الذي يعمل لديه في المحل:

– أنزل هذه السجادة يا .... واستدار نحوي ليقول:

– اسمحي لي أن أقدم لك هذه الهدية... فقلت له محتجة وكأني لم أفهم:

– ولكن... لم يدعني أكمل كلامي حيث تابع قائلاً:

– مدام، هذا مجرَّد وفاء دين صغير من أسرتي لأسرتكم. فقد أنقذ جدُّك أهلي من الموت أيام المجازر...

نعم، هذا ما حصل معي يا أكرم - كان وفاء دين بعد ثمانين سنة، أدّاه ذاك التاجر الأرمني كحفيد أسرة أنقذها جدُّك في حينه، إلى حفيدة ذلك الذي أنقذهم. والمصادفة (إن لم نقل الحكمة الإلهية) شاءت أن تحصل هذه الواقعة في المكسيك، في الطرف الآخر من الكرة الأرضية..."

– هل كان جدِّي مؤيداً أم معارضاً للحكم العثماني؟

– كان مؤيّداً له. كان، كالكثير من أبناء جيله آنذاك (كإبراهيم هنانو – فيما بعد مثلاً)، موالياً للدولة العثمانية، وبالتالي، رافضاً في بداياته ذلك الاتجاه العروبي الذي كان يبغي، بمعونة الدول الغربية، الانسلاخ عن الدولة القائمة وفرطها. كذلك كان ابن عمه تيودوري – الذي أضحى عضواً في المجلس العمومي للولاية في أواخر العهد العثماني...

وحين دخلت القوات العربية والإنكليزية إلى حلب بعد أن غادرتها القوات العثمانية، غامر جدك بحياته لينقل إلى السلطات العثمانية ما تركه الوالي الهارب عنده من باب الأمانة – "تنك من الذهب... كما يقولون – فحاز بهذا العمل على رسالة شكر من الدولة العثمانية المنهارة...

وغالباً ما كانت والدتي تقاطع والدي حين كان يقصُّ علينا هذه القصة معترضة... "بأن كان من الأفضل لو احتفظ بهذه الثروة لنفسه ولعائلته..." ودائماً كان والدي ينظر إليها شزراً وهو يتمتم قائلاً: "... إنهم لا يفهمون اليوم معنى الأمانة..."

"لأنه حين اؤتُمِن على ما ائتمنه عليه الوالي الهارب، خاطر بحياته وأعاده كما كانت تملي عليه قيمه..."

– ولكن، ماذا عن مظالم ذلك العهد؟ ماذا عن شهداء 6 أيار وعن جمال باشا السفَّاح؟

– لقد كانت هناك مظالم في هذا العهد، كما في أي عهد. لكني أعتقد أنه بولغ بقضية شهداء 6 أيار. فقد كانت الأوضاع صعبة والحالة حال حرب عالمية. وبعض الذين حوكموا وأعدموا كان من منطق الدولة القائمة على اتصال مع جهات معادية للدولة القائمة – الإنكليز والفرنسيين – فماذا كنت تتوقع؟

وأسأل والدي عن السنة التي توفيت فيها والدته–(جدَّتي) فيجيبني:

"توفيت عام 1923، وكان عمري في حينه ست سنوات. في نفس العام أصيب عمُّك جورج بالجدري وكاد أن يموت، لولا أن الخدَّامة صوفيا التي كانت تعمل لدينا أنقذته... لفَّت جسمه بالقطن وربطت يديه لتمنعه من حكِّ جلده، وظلَّت أكثر من عشرين يوم إلى جانبه حتى تعافى..."

"ثم انتقلنا إلى دمشق..."

فقد "أثَّر على جدك كثيراً موتُ زوجته التي تركته وحيداً مع أربعة أولاد، ولم يعد بوسعه الاستمرار على منواله السابق في حلب، حيث بات يُنظَر إليه كمسؤول عن وفاة زوجته. وهذا أمر لم يكن بوسعه احتماله. فانتقل مع عائلته في عام 1925 إلى دمشق..." ولكن...

– ممَّ كان يصرف جدِّي الذي لم يكن يعمل؟ وكيف كان يعيلكم؟

– كان يصرف مما تبقى له من مال زوجته. كما كان عمِّي كريم –أيضاً يساعده. فوالدي كان صاحب الفضل الأول في ثروة شقيقه الطائلة.

– كيف؟

– كان دائماً يساعده بالدعم لدى المسؤولين..."

"وكان كريم كما تعلم قبضاي، وكان في نفس الوقت صاحب نخوة، وبالتالي يعرف ويقدِّر فضل أخيه عليه..."

"ذات يوم، في أحد شجاراته، جرح كريم شخصاً تشاجر معه، فلاحقته الشرطة وكادت أن تقبض عليه، لو لم يلتجئ إلى منزل شقيقه الذي كان يتسامر مع الوالي التركي وبعض الأصدقاء. فأدخله جدك واستفسر منه عمَّا حدث. وعاد ليكمل الحديث مع الوالي وقصَّ عليه القصة مخبراً إياه بأن الجندرمة تطارد شقيقه. وطُرِق الباب بشدة، فقال الوالي لجدِّك: "بسيطة دعني أتولى الأمر..."

وفتح الوالي الباب لشرطته بنفسه وسألهم:

– ماذا تريدون؟

– أفندم نحن نلاحق شخصاً جرح شخص آخر ونشك أنه التجأ إلى هنا... قال الوالي:

– إن أصاحب هذه الدار من جماعتنا، وهم من المعتبَرين. اذهبوا الآن وراجعوني غداً...

– أمرك أفندم..

"... ولُفْلِفَت القضية، وانتهت القصة..."

– شيء عظيم...

– ربما ليس عظيماً، ولكن هكذا كانت طبيعة الأمور في حينه...

– كيف؟

– اسمع هذه القصة.

"في تلك الأيام، كان كريم مخطوباً إلى صبية من عائلة متواضعة تسكن في حي باب الفرج وتدعى بهيَّة (التي تزوجها فيما بعد). فتعرَّض منزلها للسطو، وسرق منه بعض التنك الفاضي. فالمنزل كان خاوياً. والتجأ كريم إلى أخيه (جدِّك) الذي أخبر صديقه الوالي بتلك السرقة العظيمة التي حلَّت بالبيت العامر لخطيبة أخيه. فعُمِّمَت الحادثة مبالغاً بها على كافة المخافر في المدينة. وبعد يومين، تم استدعاء عمِّي كريم وأهل خطيبته إلى المخفر الرئيسي في حي العزيزية ليخبرهم قائد الجندرمة أنه تم القبض على

اللصوص وتمَّت استعادة بعض ما سُرِق. فقط، يجب التعرُّف على ما وُجِد، هل هو حقاً ما سُرِق من المنزل. وكان ما وُجِد هو العشرات من تنك السمن والزيت وأكياس الصابون والرز والسكَّر، ما كان من الممكن أن يطعم حياً بكامله. فتعرفت بهيَّة وأهلها على بعض ما فقد من منزلهم. وانتهت القضية..."

– ولكن، هذا أيضاً عمل شنيع...

– ربما، ولكني قلت لك أن كريم كان هكذا، وأن جدَّك كان متنفِّذاً. على كل حال، يا بابا، في تلك الأيام، كانت طبيعة الأحوال هكذا. ثم إن طبيعة الأمور اليوم ليست أفضل منها بالأمس...

وأسأل والدي عن كيف كانت الحياة في حلب ودمشق في حينه؟ فيجيبني:

"يقولون إنها كانت هادئة، وإن الناس كانوا أبسط وأطيب. وقد بقيت الحال هكذا حتى جاءت الحرب الأولى وانهار كلُّ شيء. خرج العثمانيون وجاء بعدهم الفرنسيون. الذين، في ظلِّ انتدابهم، شبب وترعرع..."

ب

رزّوق، فلادو، جورج و أريس ..

طائر الليل: وزمانهم كان صعباً كزماننا. فتلك الأيام (كما يقول التاريخ الذي مضى)، كأيامنا (التي سيتحدث عنها التاريخ اللاحق)، كانت أيام حروب ومجازر وانهيارات كبرى...

ففيها انهارت إمبرطوريات ودول كبرى، وانهارت معها مفاهيمها وقيمها...

لكن البشر يبقون بشراً، يعيشون زمانهم وأيامهم وأحلامهم الخائبة، كما نعيش نحن اليوم زماننا وأيامنا وأحلامنا الخائبة. ولكن...

مع فارق صغير ومؤلم قد يتلمسه بعضهم فيقول: إن أبناء ذلك الزمان كانوا ربما أصدق مما نحن الآن، حين نجد أنفسنا مضطرين أن نعود، في أواخر هذا القرن، إلى مفاهيم التقية...

مرَّت البلاد قبل الانتداب بحقبة قصيرة، ولكن غنية جداً، من الحكم الوطني بقيادة الملك فيصل...

كانوا من جماعة المؤتمر السوري الأول الذي ضم جماعة فيصل - ووجهاء وأعيان البلد الذين كانوا ذات يوم مؤيِّدين للعثمانيين. ولكن هذا العهد لم يدم طويلاً، حيث كان الإنكليز والفرنسيون قد تقاسموا البلاد. وبالتالي، لم يستطع فيصل ضبط الأمور التي أفلتت من يده...

"كان "ابن عمّنا" تيودوري أنطاكي من وجوه المؤتمر السوري الأول، وأحد مندوبيه عن مدينة حلب..."

كان إبراهيم هنانو على اتصال بأتاتورك. وكان أتاتورك يهرِّب السلاح لهذا الأخير. وكان بعض من جماعة هنانو وآخرون يتحرَّشون بالقوات الفرنسية التي احتلَّت جبل لبنان والساحل، وباتت تخطط لاحتلال دمشق وما تبقى من سوريا...

كان الفرنسيون لا يثقون بفيصل، لذلك رفضوا إجمالاً التعامل معه. حاول فيصل أن يسايرهم، رغم أن بعض جماعته كان يفضل المقاومة. فقبل بجميع طلباتهم ليحول دون احتلالهم للبلد...

أما يوسف العظمة، وزير الدفاع آنذاك، فقد كان ابن عائلة محترمة، وعسكرياً خريج ألمانيا، ومع ساطع الحصري، من الجماعة التي كانت تفضل مقاومة الفرنسيين. وكان هذا ما فعل، فاستشهد في ميسلون...

"... لم يكن الشعب الذي أيَّد يوسف العظمة يعرف معنى القتال. تصوَّر أنهم ذهبوا معه لملاقاة الفرنسيين وكأنهم ذاهبون إلى سيران. بعضهم كان ذاهباً إلى المعركة ومعه النرجيلة. وعندما بدأ الصدام ووجد الناس أن القضية جَدْ انفضُّوا عنه، وبقي يوسف العظمة رحمه الله وحيداً..."

"شعبنا الذي جُرَّ إلى الحرب قسراً أيام سفر برلك هو شعب مسالم، لا يحب الحرب ولا يعرف ما هي..."

"ومفاهيمه كانت مختلفة عن مفاهيمنا، ووعيه لم يكن كوعينا. فنحن تفترض اليوم أن مفاهيمنا أفضل، وأن وعينا أكبر..."

"عندما انتقلت عائلتنا إلى دمشق، كان الفرنسيون قد أنتهوا من تمرُّد جبل الدروز الذي كان يدعمه الإنكليز. وانتهوا ممَّن كانوا يسمون بـ"الثوار" في الغوطة..."

– لكن، من كان أولئك الذين قلت أنهم يسمون بالثوار؟

– كان معظمهم، من وجهة نظري يا بابا، زعران وبلطجية وقطاع طرق...

– لماذا أنت قاسٍ هكذا في تصنيفهم؟

– لأنهم كانوا يعتدون على مواطنيهم، فيخطفون الأولاد ويطلبون الخُوَّة من أهاليهم حين كان هؤلاء يرفضون الدفع بشكل مباشر...

– جميعهم؟!

– أغلبهم يا بني...

"وفي دمشق استأجرنا منزلاً صغيراً في شارع العابد..."

"وسجَّلنا والدي في مدرسة الفرير ماريست [المريميين] حيث حصل عمُّك رزق الله على البكلوريا بجزئيها. ثم درس الحقوق في دمشق قبل أن يذهب (على حساب عمّي كريم) إلى باريز للتخصص..."

"فقد كان عمُّنا كريماً تجاه عائلته ومن يحب..."

"ثم انتقلنا (باقي الأخوة) بعد فترة إلى مدرسة اللاييك، حيث حصل فلادو وجورج وأنا على البكالوريا على التتالي. فلاديمير وجورج درسا الحقوق في جامعة دمشق. أما أنا فقد اكتفيت كما تعلم بالبكالوريا..."

"واتخذ جدُّك لنفسه خليلة جديدة. كانت هذه المرة الخدَّامة الجديدة التي جاءت لتعمل لدينا في المنزل، وكانت تدعى بهيجة التي..."

" طردتُها ذات يوم من المنزل حين كان أبي غائباً. وحين عاد وعلم بالأمر امتعض قليلاً ولكنه تمالك نفسه، ولم يخلق من الأمر مشكلة. كل ما فعله كان أن استأجر لها منزلاً في حيٍّ قريب واقتطع مصروفه من ميزانية منزلنا..."

لكن هذا الذي كان يبدو فاسقاً معلناً كان، في الوقت نفسه، أباً عطوفاً وحنوناً...

"وخاصة على أولاده الذين بات يرعاهم مباشرة – وإن كانت لديه بهذا الخصوص مفاهيم غريبة..."

"في تلك الأيام دخلت السينما إلى دمشق. وفي سينما اللونا بارك، كانوا يعرضون الفلم الصامت "تاراس بولبا" المأخوذ عن قصة غوغول الشهيرة. فذهبنا أنا وإخوتي لنحضر الفلم الذي أعجبنا كثيراً. وحين عدنا جلسنا لنقصَّ ما شاهدناه على جدِّك الذي استوقفنا فجأة وسألنا:

– تقولون إن تاراس بولبا قتل ابنه الحبيب... لماذا قتله؟ أجبناه:

– قتله من أجل الوطن... فصرخ جدك بنا قائلاً:

– [...] أخت الوطن!! كيف يمكن لأب أن يقتل ابنه؟ هذا وحش وليس أباً!

لأنه لم يكن مؤمناً (ربما) بما آمن به أبناؤه، وبما آمنتم به لاحقاً، ودعوتموه بالوطن أو المبدأ أو الفكرة أو الإله. لم يكن الأمر يهمه... ولكن، هل نلومه، والأوطان والمفاهيم التي آمن بها كانت انهارت وذابت كقصور الرمل أمام ناظريه. لكن...

بقيت لديه كمعظم أبناء جيله مفاهيم وقيم أخرى تتحدث عن النبل والشهامة وحب الأب لأبنائه والابن لأخوته ولأهله... فهل كان ذلك خطأ؟

وهذا الحب هو الذي جعله ذات يوم يصيح بألم أمام أبنائه: "ملعون ذاك المفهوم أو تلك الفكرة أو حتى ذلك الإله، إن كان يفترض و/أو يؤدي إلى قتل الأب لابنه والأخ لأخيه أو الجار لجاره..."

"ظلت حياتنا على منوالها في دمشق كما كانت في حلب. كان أبي يلعب القمار في "النادي العصري". كما كان عندنا طباخة وخدَّامة: صوفيا وشقيقتها وردة اللتين عادتا لخدمتنا. ودائماً كان عندنا زوار على الغذاء وزوار على العشاء..."

"وكان لطف الله يسافر كل بضعة أشهر إلى حلب ليزور الأقارب وليلاحق دعوى قضائية حول أرض كانت لنا في منطقة السبيل وحصل خلاف على ملكيتها مع عائلة أخرى. يقضي هناك بضعة أيام ضيفاً على أخيه كريم، ثم يعود إلينا محمَّلاً بالحلويات وتنك السمن والزيت والجبن..."

– يبدو لي أن أحوالكم كانت جيدة. ولكن، ألم تكونوا تريدون الاستقلال؟

– بلى، كنَّا، كالجميع، نريده ونتمناه. كان ابن عمِّنا نعيم (ابن تيودوري) من شباب "الكتلة الوطنية"، ومع إدمون ربَّاط، كان أحد أبرز وجوهها الشابة. وكان أغلب جماعة الكتلة الوطنية من أصدقاء جدِّك يلعبون الورق عندنا في المنزل. أنظر ما كتبته بهذا الخصوص في حينه مجلة المضحك–المبكي..."

ونضحك ونحن نقرأ معاً ذلك العدد من مجلة المضحك–المبكي لعام 1925 تحت عنوان "طرائف" كيف "... أضحى السيد لطف الله أنطاكي من أنصار الكتلة الوطنية، حيث يجتمع عدد من وجوهها البارزين في منزله كلَّ مساء ليلعبوا الشَدَّة..."

"كانت غالبية وجوه البلد، أصدقاء جدِّك في تلك الأيام، من الكتلة الوطنية، ومن الفرمسون..."

– هل كان جدِّي ماسونياً؟

– قال لنا مرة إنهم عرضوا عليه الانتساب فوافق، ثم تراجع في آخر لحظة، حيث صدمته طقوسهم... ولكنه بقي صديقاً لهم...

"فقد كان الكثيرون في حينه، كما قلت لك يا بابا، ماسوناً..."

– وهل كان أحد من عائلتنا ماسونياً؟

– ربما... ولكنِّي لست متأكداً...

وتخونني الذاكرة حين أعود اليوم لأتذكَّر تلك الوجوه التي غادرت. ولكني لم أنس أبداً ذلك المجلد الضخم لمجلة المضحك–المبكي لعامي 1925–1926 الذي كان أجمل ما قرأت في سني طفولتي. وأفكر اليوم بمرارة كم كانت مجلة "آل كحَّالة" راقية وجميلة، وكم كانت لاذعة في نقدها للجميع، وكم كانت في الوقت نفسه متسامحة وإنسانية...

فها هو الشيخ تاج يتحدى في أحد أعدادها كليمانصو قائلاً: "لماذا لا تستعبرني؟! أنت رئيس وزراء وأنا رئيس وزراء. أنت لديك سيارة وأنا لدي اثنتان. أنت لديك منزل وأنا لدي أربعة. أنت معاشك 5000 فرنك أنا دخلي أكبر بكثير. فلماذا لا تستعبرني؟

وها هو الداماد أحمد نامي واقف في حضرة المندوب السامي الفرنسي طالباً وظيفة وهذا الأخير يسأله: ماذا تشتغلون حضرتكم؟ فيجيبه الداماد: "ملوك..."

"لقد كانت المضحك–المبكي التعبير الأمثل عن العمق الثقافي والنقدي لذلك الزمان. كما كانت أيضاً التعبير الأمثل للتأثير الإيجابي للديموقراطية الفرنسية على بلادنا وإن في ظل الاحتلال..."

وحين لابد من بعض الحنين، أعود إلى صور العائلة. إلى ثلاث صور كان عمِّي جورج يحتفظ بهما بحرص ومحبة زائدين. وكان مكتوب عليها من الخلف... 1936...

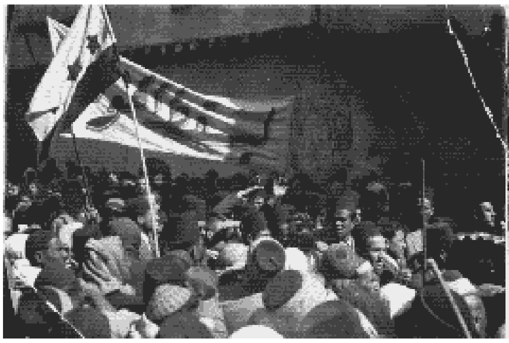

ولم يكن لأي منها، في ظاهرها، علاقة بالعائلة. كانت صور لمظاهرات عمَّت في حينه شوارع دمشق الرئيسية. الصورتان الأولى والثانية (وقد أُخِذَتا من الأعلى) كانتا لشباب يلبسون الطربوش ويحملون لافتات كبيرة كُتِب عليها "عاشت الوحدة الوطنية" و"نريد الاستقلال" و"فليسقط الخونة"... والصورة الثالثة التي كانت للشباب نفسهم ولنفس المظاهرة (والتي أخذت من الأمام) كانت تُبرِز شيوخاً من المسلمين وكهنةً من المسيحيين وحاخامين يهوداً، جميعهم متشابكي الأيدي. فقد كان هذا الإخاء المذهبي هو التعبير الأمثل للوحدة الوطنية لأبناء الشعب السوري في تلك الأيام...

وأتذكر كيف ضحك عمِّي جورج حين سألته عن هذه الصور ولِمَ كان يحتفظ بها (بهذا الحرص) بين صور العائلة. وأشار بإصبعه إلى نقطة من إحداها لا يمكن لأحد تمييزها قائلاً: "أنظر... هذا هو أنا..."

نعم... "هذا هو أنا..."، هذه النقطة التي لا يستطيع أحد تميزها سواه. هذه النقطة كانت عمِّي المسالم جورج الذي كان يخجل من ظله، عمِّي المحب لغاندي، الذي بقي يتذكر، بكل فخر واعتزاز، المظاهرة اليتيمة التي شارك بها في حياته...

"هذا هو أنا..."، طالب الحقوق في حينه، جورج بن لطف الله أنطاكي، الذي شارك من كل قلبه، وبكل جوارحه، في إضراب الخمسين يوماً، وطالب ذات يوم باستقلال بلاده التي كان يحبها... عن فرنسا التي كان أيضاً يحبها...

وقد حدَّثني والدي عن تلك الأيام قائلاً:

"كنتُ ما أزال في حينه طالباً في مدرسة اللاييك في صف البكالوريا. وقد دخلنا ذات صباح إلى المدرسة لنجد الباحات مليئة بالعسكر الفرنسي والسنغالي المتمركز أيضاً فوق السطح حيث نصبوا الرشاشات. فاجأنا الوضع. ولكن رد فعلنا كطلاب كان هادئاً جداً. عدنا أدراجنا وخرجنا بهدوء من المدرسة تحت أنظار الأساتذة والعسكر، ولم نعد حتى انتهى الإضراب..."

– ولكن كيف كانت أحوال ذلك الإضراب، وكيف كنتم تقضون أوقاتكم؟

– كان الإضراب مهيباً حقاً. تصور أن البلد كلها ظلت مغلقة بشكل كامل لمدة خمسين يوماً. كانت الحوانيت الرئيسية في الأحياء تُفتَح في الليل فقط لتبيع الحاجات الأساسية والطحين للأهالي.

لاشيء البتة كان يباع إلى الفرنسيين الذين كان عسكرهم غالباً ما يكسر أقفال المحلات التي سرعان ما كان يعاود أصحابها إصلاحها. أما نحن، كطلاب وكشباب، فقد كنا نقضي أوقاتنا متنقلين بين بيوت أصدقائنا، نلعب الورق ونقرأ ونتناقش...

"ثم حين أضحى الوضع غير محتمل بنظر للفرنسيين. اتصلوا بهاشم الأتاسي وبشكري القوتلي ، وأبلغوهما بالرغبة في التفاوض، شريطة إنهاء الإضراب. فأعطى شكري القوتلي الإيعاز للتجار بفك الإضراب. وخلال أقل من ساعة، عادت الأمور في دمشق إلى مجاريها. وكانت اتفاقية 1936. لقد كان أبناء البلد يداً واحدة في تلك الأيام. آه... لو استمروا هكذا بعد الاستقلال..."

وتضيف والدتي التي كانت غالباً ما تشارك في الحديث أن:

– في أواخر شهر تشرين الأول من عام 1935 عاد إلى حمص المطران أبيفانيوس (زائد)، الذي كان يومها منشقاً عن "الكرسي الأنطاكي"، واتخذ مقراً له في منزلنا، حيث أقام له أنصاره (ومن بينهم والدي) كنيسة مؤقتة في الطابق السفلي من بنائنا. فقامت القيامة في البلد، حيث رشق أعداؤه الذين حاولوا منعه سيارته بالطين، لكنهم فشلوا. فالشعب الأرثوذكسي في حمص كان يؤيده عامة...

– لكن، لماذا كان منشقاً عن الكنيسة؟

"في أوائل عام 1926 عُيِّن أبيفانيوس الشاب مطراناً جديداً للروم الأرثوذكس في حمص. وكان أبيفانيوس، الذي تلقى تعليمه في روسيا، يحمل أفكاراً "شيوعية"، فقام بعدة مشاريع، وحاول أن يصلح وضع الكنيسة، ويحدَّ من صلاحيات "المجلس المِلّي" للطائفة الذي كانت تسيطر عليه بعض العائلات المنتفعة. وقد بقي هناك تسع سنوات حاربه خلالها أعضاء "المجلس المِلّي" بشراسة، لكن دون جدوى. حتى كان عام 1935حيث حاولوا بهدلته وإلحاق الأذى به، مستفيدين من خلاف كان نشب بينه وبين البطريرك الجديد للروم أليكسندروس -(طحَّان).

تصور أنهم حرضوا يومها امرأة تدعى أوفيليا جاسوس، فهجمت عليه أثناء الذبيحة وهو يقيم قداساً في كنيسة الأربعين، وضربت الكأس المقدس الذي كان يحمله بيده. لكنه كان أسرع منها فتلقى الكأس باليد الأخرى ثم دفعها أرضاً وتابع قداسه. ثم حاولوا إزاحته بالتعاون مع البطريرك الذي أبعده إلى اللاذقية أولاً، ثم حاول عزله. فتمرد أبيفانيوس، وانشق عن "الكرسي الأنطاكي"، وأعلن مع بعض مؤيديه قيام "الكنيسة الأرثوذكسية المستقلة" التي هو رئيسها. وقد أيَّده في ذلك معظم الأرثوذوكس في اللاذقية التي أصبحت مقراً له. كذلك أيَّده أغلب المسيحيين الأرثوذكس في حمص وبعض المناطق السورية واللبنانية. كان عمري يومها 13 سنة، وكنتُ جميلة جداً. وكان أبيفانيوس الذي حلَّ ضيفاً على منزلنا لبعض الوقت يدلِّلني كثيراً. وكنت أنا فخورة بهذا. فمعظم الفتيات والنساء كنَّ يعشقنه لجماله ولمواهبه المتعددة. تصور أنه كان شاعراً ورساماً. وكان مختلفاً تماماً عن باقي كهنة الطائفة..."

وأتذكر أن والدتي غالباً ما كانت تدمدم بعضاً من قصيدة غزل وأغنية لهذا الكاهن–الشاعر تقول:

ظبية الأنس إليَّا   بادري قبل الفوات

وانشري طيباً ذكيًّا   منعشاً فيَّ الحياة

هل ترى أبقى شقيًّا   أم ترى الماضي يعود

لستُ واللّٰه نسيًّا   أبداً تلك العهود

"ثم اتفقت الكتلة الوطنية مع فرنسا، واعتقدنا لفترة أن الاستقلال أضحى في متناول يدنا. ولكن هذا لم يحصل، إذ سرعان ما جاءت الحرب..." ولكن...

– بعضهم، يا بابا، كجماعة عفلق - والبيطار—، عارضوا في حينه، كما يقولون، الاتفاق مع فرنسا...

– بابا... ما كان يوجد بعثيون في تلك الأيام، ولم يكن أحد قد سمع لا بعفلق ولا بجماعته. كان هناك فقط بعض المتطرفين من جماعة "النادي العربي" الذين لا يعرفون ماذا يريدون. وكان صوتهم عالياً، وكانوا يزايدون على الجميع، مستغلين ما كان يجري من أحداث في فلسطين. ولكنهم كانوا أقلِّية... فالشعب بأغلبيته كان مع الكتلة الوطنية. والشعب بأغلبيته أيَّد الاتفاق...

– لكن، كيف كان شعبنا ينظر عموماً إلى فرنسا؟

– لم يكن شعبنا، كأي شعب، يحب الاحتلال. وبالتالي، لم يكن شعبنا يحب فرنسا... خاصة وأنه كان ينظر إلى الفرنسيين كمحتلِّين. أما العثمانيون فكان ينظر إليهم استمراراً للخلافة الإسلامية...

– وكيف كانت الأحوال في تلك الأيام؟

– لم تكن سيئة. فلقد أفادت فرنسا بلدنا عموماً. فالريجي، والكاداسترو، ومفاهيم الإدارة الحديثة جاءتنا على يدها. كذلك تطور على يدها التعليم وكثر عدد المدارس في أيامها. ثم إنه كان هناك حرية للرأي وللتعبير. كما أن القضاء كان مستقلاً ومحترماً بشكل عام...

– وبشكل خاص؟

– كان هناك شواذات، كما هي الحال دائماً... كتلك التي حدثت مثلاً مع عمِّي كريم، حيث اعتُقِل كريم ذات يوم لأنه كان يصنِّع عرق التين، وهذا كان محظوراً. فاستطاع أن يرشو القاضي الذي حكمه براءة لأن التين من مشتقَّات العنب!!! لكني أؤكد مرة أخرى أن هذا كان شواذاً...

– لماذا تؤكد هكذا؟

– اسمع هذه القصة واحكم بنفسك. كان الشيخ تاج، كما تعلم، رئيساً للدولة. وذات يوم، بينما كان يتنزه بعربته على طريق الربوة، استوقف العربة أحد الزعران وتعرَّض له بالشتيمة والإهانة. فرفع الشيخ تاج دعوى ضد هذا المواطن تتهمه بالتعرُّض لرئيس الدولة وشتمه. وتصدى الوطنيون

للقضية وكلَّفوا أفضل محاميهم للدفاع عن هذا "المناضل المغوار". واستمرَّت الدعوى سنة. ثم حكمت المحكمة على هذا المواطن بغرامة قدرها ليرة سورية واحدة لتعرُّضه لموظف دولة...

"في عام 1938 عاد عمك رزق الله من باريز حائزاً على شهادة دكتوراه دولة في الحقوق التجارية. عاد بالباخرة عن طريق بيروت فذهب جدُّك وكريم إلى هناك لملاقاته في المرفأ..."

"عاد رزُّوق إلى الوطن، وكانت ترافقه زوجته الأولى التي كانت فرنسية وتدعى ميشلين.."

"كانت ميشلين امرأة شقراء نحيلة جداً وجميلة جداً. كانت كاللعبة! ولكن شكلها لم يكن ليعجب لا لطف الله ولا كريم اللذان كانا يفضلان له امرأة أكثر اكتنازاً..."

"ثم كان طلاق عمِّك رزق الله من ميشلين لأنها لم تنجب له أطفالاً. وكان قد وقع في هوى ماري المعلِّم..."

"كانت ماري المعلِّم ابنة أسرة متواضعة من معلولا. وقد تعرَّف رزق الله إليها من خلال دعوى أقامتها لديه. و..."

"كانت ماري جميلة جداً. طويلة ومكتنزة ومغرية جداً. ففُتِن عمُّك بها وتزوجها..."

"حين عرَّف رزق الله والده بماري التي أضحى مزمعاً على الزواج منها، ضحك وقال له مداعباً: "هكذا يا رزُّوق، هذه امرأة!""

"لكن قبل ذلك كان عمُّك فلاديمير قد تزوج من ليندا طرزي، ابنة شقيقة قريبنا ميخائيل اليان الصديق اللدود لعمك رزق الله..."

"كانت ليندا امرأة قوية جداً، سرعان ما سيطرت على فلاديمير ذي الشخصية المسالمة..."

"كما سيطرت ماري المعلِّم على رزُّوق ذي الشخصية القوية والشرسة..."

"كان رزق الله وفلاديمير يسكنان قريباً من منزلنا. كان منزل رزق الله في حي الشعلان قرب مدرسة الفرانسيسكان (منزل روز سانتو حالياً). وكان منزل فلاديمير في الحيّ الموازي لحيِّنا في شارع العابد... أمّا مكتب رزق الله فكان فوق سينما الروكسي (سينما الأهرام اليوم)"

"وفي العام 1939 وُلِد أول حفيد للطف الله من فلاديمير وليندا. فأسموه لطف الله تيمُّناً بوالدي. ثم، في العام 1941 وُلِد له، أيضاً من فلاديمير وليندا، حفيدة أسموها ليلى.."

"لأنه يبقى هناك دائماً من يتزوج ويطلِّق وينجب أطفالاً، وكأنما العالم بألف خير..."

"لم تتأثر عائلتنا عموماً بالحرب ولكن..."

كانت الأوضاع صعبة في البلد من الناحية المعاشية. كان هناك تقنين على المواد الأولية...

خلال فترة جماعة فيشي كان هناك حدٌّ من بعض الحريات. ولكن، لم يكن هناك تذمُّر كبير. فجماعة فيشي كانوا مع هتلر، والرعاع في بلدنا كانوا مؤيدين لهتلر. ولكن الشعب عموماً، والمثقفين منه خصوصاً، كانوا في حيرة...

وازدادت مشاعر التأييد لهتلر بين الناس أثناء تمرُّد رشيد عالي الكيلاني في العراق. وقد بقيت الحال هكذا حتى تمت إزاحة الفيشيين على يد الإنكليز والديغوليين، وعاد الوطنيون إلى الحكم مباشرة. ثم، حين بدأ هتلر يُهزَم على يد الحلفاء، بدأت مشاعر الناس المعجبين بهتلر تتحول...

وأصبحت الحكومة في أواخر عهد جماعة فيشي مؤيِّدة للوطنيين. وأصبح خالد العظم رئيسها...

وفي الثامن من حزيران 1941 دخلت القوات الإنكليزية وقوات "فرنسا الحرَّة" إلى دمشق واستسلمت القوات التي كانت مؤيدة لفيشي...

– لكن أنت يا بابا، هل أيدت هتلر؟

– كنت لفترة قصيرة معجباً بجرأته. ثم اقتنعت مع جدك أنه كان مجنوناً...

"جدُّك كان الوحيد في العائلة الذي لم يقبض هتلر على الإطلاق. فبالنسبة له كان هذا الأخير مجنوناً خطراً، وبالتالي، فإن له ولأمثاله من المجانين مكان آخر محدد يجب أن يوضعوا فيه..."

وتضيف والدتي أن:

"خلال الحرب كان هناك غلاء. وكان أيضاً غزو من الجراد الذي غطَّى ذات يوم سماء حمص..."

"وخلال الحرب، أفلس جدُّك حسيب الذي كان يملك أراضٍ في حمص ومعمل حرير في مشتى الحلو..."

وأتذكَّر أني توقفت طويلاً ذات يوم أمام أنقاض ذلك المعمل التي كانت ما زالت قائمة هناك. وكنت في حينه أتنزه مع صديق لي من المنطقة كان يحدثني قائلاً: "هذا كان معمل حرير، لعائلة العاقل..." قبل أن يسألني بماذا كنت شارد...

"لقد أُغلِق المعمل بعد أن توقفت فرنسا عن شراء حريرنا، فبعناه برخص التراب. ثم باع والدي أراضيه ليطعم عائلته وليلبي طلبات أمِّي أولغا أنطاكي.."

نعم – هي بعينها – أولغا، الشقيقة الصغرى لجدِّي لطف الله، التي كانت تزوجت في عام 1915 من المدعو حسيب العاقل، ابن العائلة الحمصية الغنية المعروفة، الذي أنجب منها خمس بنات وذكرين...

"كانت أمِّي أولغا قاسية، مشاكسة ومستهترة، لا تفكِّر إلا بنفسها. فخربت بيت زوجها. كما أنها كانت تعاملنا أسوأ معاملة..."

"ثم إنها أضحت تسيء معاملة والدي الذي أضحى مُقعَداً بعد أن وقع من على ظهر جواده وتدهورت به الأحوال..."

"لم تكن جدَّتك تخاف إلا من شقيقيها لطف الله، وخاصة من كريم الذي كان يصيح بها بصوت جهوري "اخرسي ولك!!" حين كانت تتمادى على زوجها بحضوره. ووالدي كان غالباً ما يستغيث بلطف الله وبكريم لإعانته على زوجته..."

"لقد عشنا، يا ماما، في تلك الأيام، ومنذ إفلاس أبي أياماً في منتهى التعاسة. وكنا نستدين بالفائدة لنستطيع إكمال مصروف الشهر. وكان عزيز صليبي (أبو موريس)، الشخص الذي كنا نستدين منه،

يقرع بابنا في مطلع كل شهر، مصطحباً معه ابنه البكر (موريس – الذي أصبح من ثم رئيساً في حزبكم)، ليأخذ ما ترتب له من استحقاقات وفوائد. إن وضعنا السيئ، وليس الحب، هو الذي أسرع في موافقتي على الزواج من أبيك. ولكن، بعد أن حصل خالك إميل على البكالوريا، وبدأ يعمل كأستاذ مساعد، عادت أحوال عائلتنا إلى طبيعتها بعض الشيء..."

"لقد درَّس إميل لمدة سنتين في قرية نائية تدعى الميادين. استأجر هناك غرفة منعزلة كانت تستعمل كزريبة قبل أن يسكنها..."

"وكان جاره في الغرفة خلال سنتي إقامته هناك ثعبان..."

– ثعبان؟!

– نعم ثعبان. كان إميل يتأمله كلَّ يوم حين يعود ليلاً إلى وكره في أعلى حائط الغرفة. الثعابين مخلوقات مسالمة أكثر من البشر يا ماما، فهي لا تهاجم إلا من يعتدي عليها...

"ثم انتقل خالك بعد ذلك ليدرِّس في قرية قرب حمص تدعى فيروزة..."

"بعد عودته من فرنسا اتصل رزق الله بالكتلة الوطنية وغدا من مؤيّدِيها. وكان معجباً وعلى علاقة طيبة ببعض وجوهها الشابة في حلب، كمعروف الدواليبي ورشدي الكيخيا"

بعد فترة من مجيء الديغوليين وعودة الوطنيين إلى الحكم، جاء ديجول لزيارة سورية (عام 1943). وأراد الفرنسيون أن ينظموا له استقبالاً حافلاً. لكن الوطنيين، بالتنسيق مع الإنكليز، قاطعوا استقباله الذي كان باهتاً جداً في دمشق. ثم تقرر أن يزور حلب...

"اتصل الفرنسيون في حلب آنذاك بعمِّي كريم الذي كان صاحب مقهى وشيخ حارة في باب الفرج والسليمانية. وطلبوا منه مقابل مبلغ لا بأس به من المال أن ينظم مظاهرة استقبال لديغول. وكان ما حصل أن ذلك الجمهور الذي حشده كريم أنطاكي لتحية ديغول كان يمرُّ أمام المنصة محيياً قائد "فرنسا الحرَّة" من جهة، ثم، وسط إعجاب الفرنسيين، الذين لم يكونوا يفهمون ماذا كان يجري، كان الجمهور يلتفت للطرف المقابل للمنصة فيوجِّه تحية أخرى للناس المحتشدين أي عملياً، لعمِّك كريم ولزوجته بهيَّة اللذين كانا واقفين بين الناس في الطرف الآخر..."

"وفي العام 1943 رُزِق رزق الله وماري المعلِّم ابنة أسمياها إميلي تيمناً بوالدته، فأضحى له حفيد ثالث..."

"وعُيِّن ابن عمنا نعيم وزيراً للخارجية والأشغال العامة في وزارة عطا الأيوبي.."

ولكن، ما كان يُقلِق العجوز أكثر من أي شيء آخر في حينه هو ابنه الأصغر (والدي)، الأقرب إلى قلبه، والأقرب إليه طبعاً وميولاً. لذلك قرر أن يزوِّجه. وكانت من وقع عليها هذا "الاختيار السعيد" هي ابنة عمَّته من حمص...

"... كنتُ في تلك الليلة التي سبقت زواجي من أبيك أبكي وحيدة في غرفتي. عندما جاءني والدي وضمَّني بحنان إلى صدره وقال لي: "إن كنتِ لا ترغبين في الزواج من ابن خالك فما زال بوسعك التراجع..." فتذكرت أمِّي، وما كانت تذيقنا إياه من العذاب... وأجبت أبي: "بل أنا أريد هذا الزواج..."

"... وفي عام 1943 تم زواج ابننا أريستيدي من روزين حسيب العاقل..."

الفصل الثانـي

أقاصيص الأهل...
(1954-1945)

آ

الخطوات الأولى...

طائر الليل: لعل الاعتراض الأول على أية "سيرة ذاتية" هو أن الإنسان يتحدث فيها عن نفسه. وحين يتحدث المرء عن نفسه، تضعف الموضوعية عموماً؛ حيث إن هناك ميلاً إنسانياً طبيعياً دائماً لإبراز ما يناسب وإخفاء ما لا يناسب. وهنا، لا تنفع التأكيدات، مهما صدقت و/أو تم التأكيد على صدقها. ولكن ليس هذا هو الأهم، إنما مجرى الحياة، ومن خلاله ما...

كتب أريستيدي على الصفحات الأولى من "الكتاب المقدس" أنه...

"... في الحادي عشر من شهر كانون الثاني عام 1945 رُزِقنا طفلاً مباركاً أسميناه أكرم. وَهَبَه الله طول العمر والتوفيق...".

"كانت ولادتك في مشفى الدكتور نخمن [الذي أضحى اليوم "المشفى الطبي الجراحي"] الواقع قرب مدرسة اللاييك في شارع بغداد. وقد جاء معظم أفراد العائلة من حمص وحلب في حينه إلى دمشق للمباركة...".

و"في 23 كانون الثاني 1945 ولد لرزق الله طفل أسماه كريم، تيمُّناً بعمِّنا الذي في حلب...".

"كانت تسميتك بأكرم أيضاً تيمناً بالعمِّ [الـ]كريم [الذي] قدَّم لنا ولرزق الله هدايا ثمينة جداً في هاتين المناسبتين السعيدتين...".

وكانت هناك خلافات في محيط الأسرة بين أبي وشقيقه الأكبر حول موضوع هذه التسمية. فكلاهما كان يرغب في التيمُّن بالعمِّ الغني في حلب؛ لكن هذا كان في الظاهر وحسب. أما الحقيقة فهي أن والدي كان في تلك الأيام عاطلاً عن العمل؛ وتلك كانت المشكلة الأولى، والأهم، التي عانت منها أمي في بيت زوجها، والتي أثقلت، بعض الوقت، على أجوائنا العائلية...

والأحوال كانت تغيرت كثيراً من حول لطف الله منذ زواج أبنائه الثلاثة، وخاصة منذ زواج والدي ومجيء والدتي لتسكن في منزل الأسرة. فقد أضحت في العائلة ثلاث كنائن لا يستهان بهنَّ. ثم إن الأوضاع بين الأبناء أمست متفاوتة مادياً. لذا كان من الطبيعي أن ينفرط العقد القديم القائم، وأن تتبدل الأحوال عبر الخلافات والصراعات والصغائر، فتنعكس على العلاقات العائلية...

وكانت ليندا زوجة فلادو (اسم التصغير لعمِّي فلاديمير) أول من سعى لإبعاد زوجها عن نفوذ أهله. فساعدته، عن طريق أقربائها، على إيجاد وظيفة مستقلة عن رزُّوق (وكان جميع الإخوة يعملون في البداية مع رزق الله في المكتب). كما أمَّنت من اليوم الأول منزلاً مستقلاً لها ولعائلتها – وإن ظلوا، توفيراً للمال في حينه، يتناولون الغذاء والعشاء في منزلنا...

ثم تلتها ماري التي سرعان ما أقنعت رزُّوق بالاستغناء عن خدمات شقيقيه جورج وأريس (اسم التصغير لوالدي) اللذين كانا يعملان معه في المكتب. جورج كان يعمل محامياً شريكاً في مكتبه، وكان مستلماً جميع أعماله؛ أما والدي فكان يعمل مسئولاً عن مكتبه ومسجِّلاً في كلِّية الحقوق. وبقي رزُّوق في المكتب وحده، وحلَّ فيليكس نصري لديه محلَّ أبي...

"تأثر والدك وعمك جورج كثيراً بما حدث وبإبعاد رزُّوق لهما، فانقطع والدك عن دراسة الحقوق؛ كما تأثر جدك الذي رأى فيه بداية تصدُّع لأسرته. وسرعان ما سعى فأمَّن، عن طريق معارفه، وظيفة في الدولة لكلا ولديه الأصغرين. وكانت تلك الوظيفة في الميرة (أي مكتب الحبوب)".

أما والدتي فقد افتعلت في حينه مشكلة في المنزل كان من نتائجها (الإيجابية بالنسبة لها) أنْ "توقَّفنا عن الاستقبالات اليومية على الغذاء وعلى العشاء، وأنْ سلَّمني جدك مصروف العائلة. وعادت الأمور إلى مجاريها وتصالح الجميع." وإنْ...

بقي طبعاً ذلك الواقع المتمثل بانفصال رزق الله وفلاديمير من جهة، وبقاء جورج وأريستيدي مع العجوز من جهة أخرى، في ذلك المنزل، حيث ولدتُ، وحيث كانت تعيش أسرتي، الحلبية – اليونانية الجذور، المسيحية – الأرثوذكسية المذهب، المتحررة فكراً، والمتوسطة حالاً. وكان منزلنا المستأجر المتواضع يقع، كما ذكرت، في شارع العابد قرب المجلس النيابي أو "البرلمان"...

ودمشق، التي كانت ما تزال في ظلِّ الانتداب الفرنسي، كانت تتهيأ – على بركة الله – لمرحلة استقلالها (المفترَض القادم). وكانت حكومتها حكومة "كتلة وطنية" يترأسها السيد فارس الخوري؛ وكان وزير ماليَّتها (ابن عمِّنا) نعيم أنطاكي.

وكانت "الكتلة الوطنية"، التي قادت المقاومة الوطنية ضد الاحتلال الفرنسي في سبيل الاستقلال، قد انشقَّت على نفسها، فأضحت موزعة بين أولئك (الشباب) الذين اتخذوا من حلب مركزاً لهم وباتوا يعرفون بـ"حزب الشعب"، برئاسة رشدي الكيخيا ومعروف الدواليبي، والذين انضمَّ إليهم عمي رزق الله؛ وبين من تبقى من شخصياتها في البلد، برئاسة شكري القوتلي - وسعد الله الجابري - وعبد الرحمن كيالي - وجميل مردم بك -وميخائيل ليان وصبري العسلي، وأضحوا "الحزب الوطني"، كما كانت ميالة نسبياً إلى التعامل مع إنكلترا على حساب فرنسا، حليفتها في الحرب العالمية الثانية. ففي حينه، كانت إنكلترا هي المنافس المباشر والرئيسي لفرنسا في الصراع الدائر على المنطقة عموماً، وعلى سورية خصوصاً...

"... وإنكلترا (كما كان يقول أبي رحمه الله) كانت تبدو وكأنها الراعية بين القوى العظمى للاتجاه العروبي... فهي التي كانت وراء تأسيس "الجامعة العربية"... وهي التي باتت بعد الحرب الثانية "تدعم" العرب – نسبياً – في صراعهم مع الصهاينة في فلسطين...".

وكانت ليلة ذلك الثلاثاء 29 أيار 1945، وحادث العدوان على البرلمان...

"كان صوت الرصاص يلعلع، وكأنه فوق رؤوسنا، وكنّا نختبئ جميعاً في غرفة الطعام، أنا وأنت بين ذراعيَّ تحت الطاولة، ومعنا جدك وعمك جورج. كان والدك يغطينا أنت وأنا بجسمه. وفي الصباح، وقد توقف إطلاق النار، صعدت مع والدك إلى سطح المنزل حيث جمعنا فوارغ الرصاص. ثم كان انسحاب القوات الفرنسية من وسط دمشق. وكانت مظاهرات صاخبة، هاجم المتظاهرون فيها الكوبيراتيف (التعاونية) الفرنسية التي كانت واقعة قرب منزلنا ونهبوها. وقد كان من بينهم جارنا الياس (الحلاق) الذي شاهده والدك وهو يشارك في السرقة. كما قيل، نقلاً عن شهود عيان، أن ضابطاً بريطانياً كان يرشد المتظاهرين إلى موقع اختبأ فيه زميل له فرنسي، قام المتظاهرون بالتنكيل به. وبعد أن هدأت الأحوال قليلاً، أرسلنا والدك إلى بيت أهلي في حمص حيث مكثنا بعض الوقت...".

وكان جلاء الفرنسيين – جزاهم الله خيراً! – عن سوريا نيسان 1946...

"في تلك السنة، يا أكرم، عانينا من بعض المشاكل. فقد مرضت أنت بالحصبة، وكان عليَّ أن آخذك إلى آخر خط المهاجرين صباح كل يوم لتستنشق الهواء العليل، كما أوصانا الطبيب، وكنت في تلك الأيام حاملاً. فلم أتحمل الإعياء وأجهضت. لقد كانا توأمين ذكرين، كما قيل لي فيما بعد...".

وكانت الانتخابات التي جرت في البلاد في 7 من تموز 1947...

"وفاز رزق الله بالنيابة عن "حزب الشعب" في حلب...".

"كان جدك سعيداً في تلك الأيام، لا يعطي فرحته لأحد. فقد أضحى ابنه البكر، أستاذ الجامعة، أحد ألمع وجوه البلد...".

تعززت مكانته وبات يُدعى إلى بعض الاحتفالات التي كانت تجري في بعض السفارات، وخاصة في السفارة الروسية، حيث التقى في إحدى المناسبات بألكسندروس (جحا) مطران حمص وصديقه القديم في الدراسة. ودار بينهما، بحضور السفير، حديث طريف جاء فيه على لسان المطران (جحا)...

– لو أكملتَ دراستك معي في روسيا يا لطفي لكنت اليوم مطراناً مثلي...

فردَّ لطف الله عليه ضاحكاً:

– أنا وضعي اليوم، يا صديقي، أفضل من وضعك. فأنت مطران، بينما أنا "بابا"!

ولكن لطف الله كان تجاوز "المرحلة البابوية". فقد كان أضحى "جدُّو" منذ زمن، وكان عدد أحفاده يتزايد. ففي 9 تموز 1947 كان حدثٌ فاق في أهميته بنظر الأسرة "الجلاءَ" و"الانتخابات"، حيث...

"... رُزقِنا طفلة مباركة أسميناها إكرام... وَهَبَها الله طول العمر والتوفيق...".

كانت ولادتها أيضاً في مشفى الدكتور نخمن الذي كان صديقاً لجدي وموضع ثقة الأسرة...

"فور ولادة إكرام، غادرت أمي (أولغا) منزلنا في صباح اليوم التالي عائدة إلى حمص..."، احتجاجاً منها على الله وعلى والدك اللذين خرقا عقدهما معها، فرُزِقنا بابنة؛ بينما هي كانت "متعاقدة" على ولد. فأضحت هذه الحادثة، منذ ذلك الحين، موضوع تندُّر في حلقتنا العائلية.

وحلقة الأسرة كانت – ولم تزل – الانتماء الأول لأبناء شعبنا، والموضوع الأول الشاغل لأي عائلة في هذا البلد. وشؤون أسرتنا، تحديداً، كانت تتمحور في حينه (حين يكون غائباً) حول الجد (لطف الله) ومغامراته النسائية وقصصه التي لا تنتهي؛ حول جولات لعب الورق (فعائلتنا كانت مشهورة بولعها بلعب الميسر)؛ حول الزيارات المتبادلة بين الأهل والأقارب؛ وإلى حد ما، من خلال عمي رزق الله، حول بعض السياسة المتعلّقة بما كان يجري في البلد حيث...

سحقت الحكومة الوطنية عام 1947 تمرُّد زعيم عشيرة في جبال العلويين، كان قد تسمَّى بالربِّ، يدعى سليمان المرشد، الذي، تضامن معه في حينه الكثير من أبناء طائفته...".

"وكان قريبنا حبيب هلال، زوج نديمة – رحمهما الله –، من بين الدرك الذين شاركوا في اقتحام آخر معاقل "الربِّ" واعتقاله...".

"وكان شكري القوتلي – الله يرحمه ويذكره بالخير – يماطل في التوقيع على حكم الإعدام الصادر بحق هذا الأخير، لأن أمَّه كانت "حلَّفته بأن لا يعدم أحداً"..."[1].

---

[1] لقد وردتنا، وحول هذه الفقرة بالذات عدة رسائل من أبناء الطائفة المرشدية وأهمها كان ما من الدكتور محمد منيف من مصياف الذي قدم، وفيما يتعلق بما جرى، رواية أخرى مختلفة. وملخص هذه الرواية المستقى من مجمل رسائله يقول:

- أن " سلمان المرشد لم يدَّعِ الربوبية، بل هو إمام حاول النهوض بشعبه، ففتح المدارس وشقَّ الطرقات، وطالب بأن يكون شعبُه متساويًا مع غيره من حيث الحقوق المدنية. وقد صحَّح المعتقد مما قد لَحِقَ به من خرافات.." و...
- أنه حين أتوا لاعتقاله لم يقاوم إنما " سلّم نفسه كي يحمي شعبه من التنكيل " و...
- أن رئيس الدولة آنذاك، السيد شكري القوتلي، قد ".. تدخَّل شخصيًّا واتصل بالقاضي وطلب منه أن يعدم سلمان المرشد بأية طريقة كانت، كما اعترف القاضي نفسه.. ".

"واشترينا راديو. في تلك الأيام كانوا قلائل مَن يملكون الراديو. وأضحت بنات الجيران – وكنَّ من بيت العشي – يداومن في منزلنا لسماع أغاني أسمهان التي كان شعبنا يتابعها بشغف أكثر مما كان يتابع أخبار البلد عبر الإذاعة وخاصة الصحف...".

"فقد كانت ما تزال هناك صحافة في البلد. وكانت هذه الصحافة ما تزال حرَّة...".

"وكان الدستور الذي أقرَّه أول برلمان ما يزال محترماً؛ وكان لا يتضمن أي دين أو معتقد للدولة مفترضاً؛ مما كان يبدو في تلك الأيام بديهياً (من حيث الظاهر) أن "الدين لله والوطن للجميع"... وكانت حرمة الدولة والوظيفة العامة ما زالت مصونة ومطبَّقة على الجميع. فلم يكن أحد يجرؤ على استغلال موقعه الرسمي لمنافعه الخاصة ومنافع زلمه ومحاسيبه."

عن هذا العهد يقولون – والعهدة على الراوي – أنه "تقدَّم أحد النواب ذات يوم باستجواب للحكومة مفاده أن الحكومة الأمريكية أهدت سيارة كاديلاك لرئاسة الجمهورية، وأن الحكومة قبلتْها وباتت تستعملها. ولكن، لما كانت مخصَّصات الرئاسة هي سيارة واحدة ونفقات هذه السيارة فقط، لذلك طلب ذلك النائب "رجاءً توضيح كيف يتم تأمين مخصَّصات السيارة الثانية؟""

وطلبت الحكومة الاستمهال في الإجابة، التي جاءت في الجلسة القادمة، على لسان رئيس الحكومة، تقول إن رئاسة الجمهورية لم تتجاوز ما خُصِّص لها بهذا الخصوص، وأنها لا تستعمل سوى سيارة واحدة فقط. أما السيارة الثانية فهي مستبقاة لديها من باب الاحتياط...".

كانت هذه الأوضاع طبيعية ومنطقية. لكن الأمور تغيرت، من بعدُ، نتيجة قيام "دولة إسرائيل"...

كان ذلك في أيار 1948، حين اندلعت "حرب فلسطين" بين العرب عموماً والصهاينة الذين انتزعوا، بمساعدة القوى العظمى، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا السوفيتية، ومن طرف واحد، دولةً لهم في المنطقة أسموها "إسرائيل"...

تلك الحرب التي لا أتذكر من وقائعها، وبشكل ضبابي جداً، إلا صباح ذلك اليوم (.../.../1949 – لست متأكداً تماماً من التاريخ)، حين استيقظت على دوي انفجار وزجاج متكسِّر...

"اقتحمنا، والدك وأنا، غرفة النوم بعدها مباشرة، لننتزعك وشقيقتك إكرام من تحت الزجاج الذي كان يغطي سريريكما، دون أن تصابا – شكراً لله – بأي أذى...".

يومها قامت طائرة مقاتلة (إسرائيلية على ما يبدو) بإلقاء قنبلة على دمشق للضغط على حكومتها من أجل إجبارها على قبول وقف لإطلاق النار على الجبهة السورية الفلسطينية التي كانت ما تزال

وهي أمور تستحق التوقف عندها وتحتاج من قبل المؤرخين الباحثين عن الحقيقة التاريخية إلى الكثير من البحث والتمحيص. أمور رأيت من باب الأمانة أن أوردها كما جاءتني مؤكداً أن ما ذكرته في مذكراتي هو فقط ما كان يحكى آنذاك في وسطي العائلي حيث الشيء الوحيد الذي بوسعي جزمه حول هذا الموضوع هو واقع أن قريبنا المسكين المرحوم حبيب هلال كان من بين الدرك الذين اعتقلوا سلمان المرشد آنذاك...

مشتعلة... وقبلت الحكومة السورية وقف إطلاق النار والتوقيع على اتفاق الهدنة مع إسرائيل في رودس في 1949/7/20...

أما نحن، آل أريستيدي لطف الله أنطاكي، فقد سفَّرنا والدي، كالعادة، بسيارة مستأجرة إلى بيت جدي في حمص حيث بقينا بعض الوقت...

وأعود لصور العائلة لتلك الأيام. وأحاول، من خلالها وذاكرتي، استعادة شتات بعض ما تركته السنين عالقاً...

هذا بيت جدي لوالدتي في حمص؛ وقد كان منزلاً طريفاً من حيث موقعه المميَّز في حي الحميدية. فقد كان مطلاً على مقهى عُرِف بالاسم نفسه في الجانب الآخر من الشارع. وكان فخماً من حيث طرازه، كالعديد من المنازل السورية التي تعود إلى أوائل القرن؛ يتألف من طابق أرضي مؤجَّر ومن عدة حوانيت، كانت أيضاً مؤجَّرة. وكان جدي يسكن في الطابق الثاني (العلوي) مع عائلته الكبيرة نسبياً، حيث كان يقطن في ذلك المنزل آنذاك جدتي أولغا، وخالاي إميل وألبير، إضافة إلى خالاتي إفيو وثريا وفينوس. أما خالتي أوديت فكانت تزوجت من تاجر يدعى شكري عبود وانتقلت معه إلى بيروت...

وأحاول أن أرى نفسي من خلال ابتسامة ذلك الطفل الجميل الذي يقولون إنه كان سعيداً ومدللاً في طفولته، ويتملَّكني شعور بالانقباض والألم. فهذا المظهر السعيد كان فقط بعضاً من الحقيقة...

وتمرُّ أمامي صورة كلبي بوبول الذي غادرني فجأة...

ويستعيد ذهني حلماً غريباً كان يراودني، بين الفينة والأخرى، عن حياة كنت أعيشها في غابة مع زوجة كنت أحبها؛ وآخر عن حريق ليلي واجهتُه بخوف مع كلٍّ من أبي وأمي في مكان قريب جداً من منزلنا. ثم حين سألت أمي وأبي في صباح اليوم التالي عن ذلك الحريق، ضحكا مني وطمأناني أن شيئاً من هذا لم يحدث. أما أنا، فقد كنت واثقاً أني شاهدت حريقاً كبيراً...

حريقاً كان، ربما، انعكاساً مبالغاً فيه لما تركتْه الخلافات الصاخبة بين والدي في نفسنا حين كنَّا أطفالاً من انطباع غير مستحَب رافقنا طوال سني طفولتنا وشبابنا. تلك الخلافات التي كانت تعود، من حيث مسبباتُها، إلى المزاج العصبي لكلا والديَّ، من جهة، وخاصة لضيق الحال المادية، وما كانت والدتي تدَّعيه من عدم مسئولية أبي تجاه عائلته، من جهة أخرى.

فأبي – رحمه الله – كان من بين أبناء لطف الله أنطاكي ذلك الذي لم ينجح في دراسته، فلم يتجاوز الثانوية العامة. وبالتالي، كان ذلك الابن الأصغر الذي، متشبِّهاً بوالده، ظل يتصرف كالابن المدلل، حتى بعد أن أصبح أباً لعائلة، غير عابئ باحتياجاتها المادية المتنامية وبتطلعات والدتي الطموح في التشبُّه بسواها. وأشير هنا إلى أن مصاريف منزلنا في حينه كانت مشتركة، وأن عمي جورج، الذي بقي عازباً حتى وافته المنيَّة، كان يتحمَّل قسطاً منها...

وأفكر أني لم أكن في طفولتي شديد الإعجاب بوالدي. كنت متأثراً جداً بما كانت تنقله لنا أمي عنه، المتعلق بلامبالاته فيما يتعلق بالأمور المادية. فهي كانت تفضِّله غنياً كأخيه البكر. كما كنت أخافه في صغري وأكره صداماته المتكررة مع والدتي التي كنت أحبها، ولم أزل. ولكني أعترف اليوم، بمرارة، أني كنت مخطئاً جداً في تقويمه. فقد كان صافياً وطيباً وشريفاً لأقصى حدٍ – وهذا كان الأهم في شخصه الذي نقله إلينا. لكني لم أفهمه في حينه، مع الأسف، ولم أصادقه، بالتالي، إلا متأخراً جداً...

وأتذكر بحنان كيف كان، في كل ليلة، بعد أن يعود من سهرته، وبعد أن ينام الجميع، وبعد أن كان يتأكد من أن الجميع قد نام، يشعل الزيت المقدس أمام "الأيقونة"، ثم يقف وحيداً (وهو لا يعلم أن "طائر الليل" كان يراقبه) يصلِّي...

"السلام عليك يا مريم... يا ممتلئة نعمة... الربُّ معك... مباركة أنت بين النساء... مبارك ثمرة بطنك سيدنا يسوع المسيح..."

في تلك الأيام، كان رئيس الدولة هو السيد شكري القوتلي (زعيم الكتلة الوطنية)، وكان رئيس وزرائه آنذاك هو السيد خالد العظم. ولكن هذا العهد لم يدم طويلاً؛ إذ سرعان ما انعكست الأوضاع المحيطة على الأوضاع المحلية عبر منطق الدهماء وأحزابها في المزاودة...

وكان في 30 آذار 1949 انقلاب عسكري بقيادة قائد الجيش السوري آنذاك الزعيم حسني الزعيم الذي اعتقل في حينه ممثلي السلطة الشرعية (رموز الاستقلال) وزجَّهم في سجن المزة...

والحق يقال إني لا أذكر شيئاً ملموساً عن عهد حسني الزعيم. فقد كنت آنذاك في سن الرابعة. ولكني أذكر، فيما بعد، بعض ما كان يجري حوله من حديث ضمن حلقتنا العائلية الصغيرة. فقد "كان رجلاً جدعاً..."، على حدِّ قول والدي للتعبير عن إعجابه بجرأته الشخصية. ويقصُّ لنا والدي، حين كان

يتحدث عن حسني الزعيم -، كيف واجه هذا الأخير بشجاعة، بعد أن أطيح به، فريقَ الإعدام، على عكس رئيس وزرائه السيد محسن البرازي، ويضيف: "إنه كان أزعر ومتهوراً، كغالبية ضباط جيش المشرق L'Armée du Levant الذي ورثناه عن الاستعمار، فأضحى، من بعدُ، نواة جيشنا الوطني...". ويحدِّثنا أيضاً عن مغامرات الزعيم الشهيرة أيام فرنسا، حين كان ضابطاً في "جيش المشرق"، وكيف سطا ذات ليلة، بمعونة جنوده، على كازينو اللاذقية لاستعادة ما خسره في تلك الليلة على طاولة القمار. ويضيف: "... كان السبب الحقيقي لانقلابه هو ستر فضيحة السمنة الفاسدة التي تم شراؤها للجيش في حينه، والتي كان متورطاً بها مع العقيد البستاني..". فوالدي لم يكن يعير اهتماماً كبيراً للارتباطات الخارجية المحتملة لانقلاب الزعيم الذي "... بهدل نفسه حين سلَّم أنطون سعادة، زعيم القوميين السوريين (الذي كان ملتجأً إلى سورية) إلى السلطات اللبنانية التي أعدمته. ولكن من أطاح بهم من السياسيين لم يكونوا عموماً أفضل منه بكثير. فإن استثنينا خالد العظم الذي كان نظيف اليد وجريئاً، فلم يخضع له، وكذلك رئيس الدولة شكري القوتلي الذي تعمَّد الزعيم بهدلته، وخاصة معروف الدواليبي (صديق رزُّوق) الذي كان جدعاً، ولم يخضع له هو الآخر، نرى أن الكثير منهم خضع بسرعة للدكتاتور الجديد، مما أفقد النظام البرلماني الذي كان قائماً القاعدةَ الأخلاقية لشرعيَّته. ففيضي الأتاسي وفارس الخوري -تساهلا، إن لم نقل لم يرفضا التعاون مع الزعيم؛ بينما عفلق الذي دعم الزعيم في البداية مع الحوراني، ثم اختلف معه، تنكَّر لمبادئه عندما اعتقله الزعيم ووضعه في برميل "قاذورات". فغالبيتهم، يا بني، كانوا جبناء وقصيري النظر...".

"ثم إن حسني الزعيم كانت له، رغم كلِّ مثالبه، بعض الإيجابيات. فقد كان معجباً جداً بأتاتورك، لا يحب المشايخ و"تَلْبَسَتهم". وقد أقر القانون المدني، ومنع الناس من التمختر بالبيجامات في الشوارع، وألغى لبس الطربوش. والزعيم اليوم قد مات؛ فالله يرحمه ويسامحه؛ لأنه، قطعاً، لم يكن مدركاً شناعة ما فعل. وما فعله كان، بكل بساطة، أنه بهدل الاستقلال، فجعل كل شيء مباحاً من بعده...".

دام حكم الزعيم، الذي دشَّن تقاليد تسلُّط الجيش على مقاليد الأمور في البلاد، ستة أشهر. أطاح به بعدها زميلُه وشريكُه في الانقلاب سامي الحنَّاوي الذي أعدمه، معيداً السلطة مؤقتاً، عبر "حزب الشعب"، إلى الشرعية البرلمانية المنتهَكة...

وأسأل والدي عن الحنَّاوي، وهل كان فعلاً، كما يدَّعي بعضهم، عميلاً للإنكليز؛ فيجيبني أنه...

"لم يكن حتى أهلاً لذلك. كان لا يفكر إلاً في بطنه. إن افتقدته وجدته في "المطعم الصحي"..."!

أما الوالدة فتحدِّثنا أنه في تلك الليلة التي أطيح فيها بالزعيم كان صديق العائلة المقدَّم زياد الأتاسي يقضي السهرة في منزلنا مع زوجته لمياء. وقد لحظ الجميع في المنزل في حينه أنه كان مضطرباً. لكنه رفض الإجابة على تساؤلات والدي إليه حول أسباب اضطرابه. ثم تبين في اليوم التالي أن سبب اضطرابه كان معرفته المسبقة بما كان مهيئاً في هذه الليلة...

وأستمر، مستعيداً، من خلال الصور، ملامح أصدقاء العائلة في تلك الأيام؛ أولئك الذين كان زياد ولمياء -الأتاسي من أعزِّهم...

"كانت لمياء بنت فيضي صديقتي من حمص...".

كما غدا ابنهم البكر وسيم من أصدقاء طفولتي المفضلين.

كما كان العم صلاح برمدا (ابن عم رشاد)، ذا الوجه البشوش دائماً، الصديق الحميم لوالدي ولعمي جورج، وعنه كانت تروى القصة الطريفة التالية:

"كان الجو مثلجاً في دمشق قي تلك الليلة. وكانت العائلة مجتمعة في الصالون تتسامر، ومن بينها خالتي فينوس - – وكانت جاءت من حمص لقضاء بعض الوقت في منزلنا – حين قرع باب الدار بقوة. فصاحت خالتك بعفويَّتها الحمصية: "من ذلك الحمار القادم في مثل هذا الطقس؟" وفتح والدك الباب، فدخل العم صلاح ضاحكاً، نافضاً الثلج من على منكبيه، قائلاً: "أنا هو ذلك الحمار أيها الأصدقاء!" وهربت خالتك إلى المطبخ لتختبئ وهي تردد: "لم أكن أقصد... لم أكن أقصد!" وانفجر الجميع ضاحكاً...".

كما كان يضحك نيقولا بولص (الأكتع)، الذي أسترجع اليوم صدى ضحكته العريضة الجميلة التي كان يطلقها من أعماق قلبه، والذي أتأمل صورته مع والدي وفكتور دادا (الخياط) الذي أسترجع ظلَّه الخفيف وذكرى ابنتيه الجميلتين، سامية ومنى.

"... وفي أواسط عام 1949 ذهب خالك إميل إلى فرنسا ليدرس الهندسة. وقد جاء إميل قبل أن يذهب إلى عندنا إلى دمشق. فاجتمع بأبي (خاله) وطلب منه التوسُّط لدى العم كريم (خاله الآخر) لمساعدته، كما ساعد رزق الله في دراسته. فتحمَّس جدُّو للأمر، وسافرا معاً إلى حلب، حيث وافق كريم على تحمُّل التكاليف الكاملة لدراسة ابن أخته في فرنسا، كما تحمَّل سابقاً تكاليف دراسة رزق الله. وأضحى والدي يرسل لإميل كل بضعة أشهر ما كان يصلنا من عمِّك كريم تسديداً لنفقات دراسته...".

"كان إميل يكتب في رسائله إلينا من فرنسا في تلك الأيام أنه لن ينسى لنا أبداً هذا الفضل طوال حياته، وأنه سيعيد كلَّ قرش أربعة، وسيتكفل بدراستك، كما تكفَّل العم كريم (نتيجة توسط جدِّك) بدراسته. وكان هذا الادِّعاء موضوع تندُّر في حلقتنا العائلية بين والدك وبين أبيه. فوالدك كان يسأل جدك في كل مرة وهو يضحك: "هل تعتقد يا أبي أن إميل سيوفي بدينه كما يقول؟" فيتبسَّم هذا الأخير ويجيبه: "قطعاً لا أعتقد ذلك أيها الذكي، ولكن... هذا لا يهم...".

ثم كان انتقال رزُّوق من منزله في حي الشعلان إلى منزل مستأجر آخر أوسع وأجمل، يقع في حي الحبوبي القريب. وكان جارُه في نفس البناء "الساحر" المعروف، في حينه، الدكتور سلمون..

– هل كان الدكتور سلمون ساحراً فعلاً يا بابا؟

"أنا لا أؤمن بهذه الخزعبلات. ولكن يبدو أنه كانت للدكتور سلمون طاقات غير اعتيادية؛ على الأقل، مقدرة هائلة في التنويم المغناطيسي، ومن خلاله، إيهام الجمهور بما يريد. مثلاً، وهذا حدث بحضوري، كانت هناك حفلة له في سينما الفردوس، وتأخر نصف ساعة عن الحضور، فبدأ الجمهور يتململ ويتذمَّر. وحين حضر الدكتور سلمون وسألهم عن سبب تذمُّرهم وأجابوه لأنه تأخر عن موعد الحفل، كان ردُّه ضاحكاً أنه لم يتأخر! فلينظر كلٌّ لساعة يده ليتأكد. ونظر الناس إلى ساعاتهم (وأنا منهم) فوجدوها كما قال تماماً أي متأخرة نصف ساعة...".

"وانتقل عمك فلاديمير وعائلته إلى بيروت...".

"وكان أبو رزُّوق ما زال يسافر كل بضعة أشهر إلى حلب لملاحقة دعوى الأرض...".

ب

ابن الأمير أو... ابن الفقير...

طائر الليل: ليس من الممكن عرض كل شيء. كما أنه ليس من الممكن، بعد مضي تلك السنين الطوال، تذكُّر كل شيء. ثم إنه لا يجوز، فيما يتعلق بالآخرين، تجاوز حدود معينة قد يُلحِق تجاوزُها إساءة أو أذى. فهذا ليس من حقِّك، ولا من حق أحد... ولكن...

المقصود هنا شيء آخر... شيء كان بعضه (وما زال، أصعب ما في الأمر، و) يقول إنه...

في عام 1950 تمَّ تسجيلي المبكر في صف الحضانة في مدرسة الفرانسيسكان التي كانت تقع قرب منزلنا، والتي كانت توصلني إليها و/أو تعيدني منها عموماً "أم حنا"، التي كانت امرأة مسيحية عجوز من "وادي النصارى"، عملت لدينا آنذاك خادمة...

"بقيت أم حنا بضع أعوام في خدمتنا؛ ثم تركتنا بعد ذلك لتسكن مع ابنها الذي كان جدك قد ساعد على توظيفه...".

"لأنها، وقد تحسنت أحوالها المادية، لم تعد تتعرف إلينا. هذا حال الدنيا، مع الأسف: أن يتنكَّر الفقير، حين يصبح غنياً، لمن ساعده في أيام عوزه...".

"كنت أرسلك كل يوم إلى المدرسة، وقد ألبستُك أجمل الثياب، وكأنك ابن أمير. وكان مظهرك الجميل يتناقض مع مظهر أولاد [...] "المشرشح". فـ [...] لم تكن تعتني بأطفالها كما كنت أعتني أنا بكم، إلى حدِّ أن الراهبة سألتني ذات يوم وهي تشير إلى أولاد [...]: "هل والدهم فقير الحال؟!"

وتستعيد ذاكرتي من أيام تلك المدرسة الأولى الملامح المشوَّشة لبعض مَن أشرف على رعايتنا من الراهبات، كالأخت العجوز كارلا ذات الوجه البشوش، التي كان يحبُّها الجميع، والأخت آني كارمن، العصبية ذات القلب الطيب معاً...

وأتذكَّر كيف تعرفت لأول مرة على ذلك الفارق (العظيم!) بين الأرثوذكس والكاثوليك. كان ذلك حين رفض أهلي السماح لي بالاشتراك مع رفاقي بـ"المناولة الأولى"، بحجَّة أننا أرثوذكس وأن هذا لا يخصُّنا. فبقيت أتأمل بحسرة، وحيداً ومنعزلاً، تلك الطقوس الجميلة التي أتذكر أنه شارك بها ابن عمي كريم (الذي كانت والدته كاثوليكية) وأصدقائي الكاثوليك، بينما أبعدني أهلي عنها لأني "أرثوذكس"! ثم اكتشفت، من بعدُ، فارقاً آخر؛ حيث كان الكهنة الأرثوذكس يطوِّلون شعورهم، بينما كان مظهر الكهنة الكاثوليك من هذه الناحية أكثر حداثة.

"في تلك الأيام كنا كثيراً ما نزور بيت عمك رزق الله. فقد كان ابن عمك كريم من أصدقائك المقرَّبين...".

ولدى إحدى زياراتي لبيت عمي، تعرَّفت على ابن جيران لهم من سنِّنا، وأضحى من بعدُ أحد أعز أصدقائي ولم يزل. كان اسمه [ش. ك.] و...

"كانت أمه تدعى ماري، وكانت تعمل خياطة وتؤجِّر بعض غرف منزلها للطلاب. فقد كانت متواضعة الحال، لكنها كانت إنسانة عظيمة. وقد قامت منفردةً بتربية ابنها. فوالد [...]، كما يقولون، كان عسكرياً فرنسياً، هجرها مع الاستقلال حين عاد إلى بلاده...".

أما "في 23 أيار 1950 [فقد] رُزِقنا طفلاً مباركاً أسميناه سمير، وهبه الله طول العمر والتوفيق...".

كانت ولادته أيضاً في مشفى الدكتور نخمن. ولكن سمير كان ضعيف البنية، عليلاً منذ الصغر. وسرعان ما أضحى مبعث قلق وعذاب دائم للأسرة عموماً، ولوالدتي خاصة...

"شيئاً فشيئاً بدأتُ أتأكد أنه كان متخلِّفاً من الناحية العقلية. كما كان مريضاً دائماً، وكان طبيب العائلة في حينه، الدكتور جميل سالم -، مداوماً في منزلنا...".

"ربما يعود سبب تخلُّفه العقلي إلى عامل الوراثة وصلة القربى بيني وبين والدك؛ وربما يعود أيضاً إلى حالتي النفسية السيئة خلال فترة حملي به. فخلال معظم تلك الفترة كان والدك أيضاً عاطلاً عن العمل؛ وكان هذا مصدر إزعاج دائم لي. كنَّا نتشاجر باستمرار؛ وقد بقيت الحال على ذلك حتى وَجَدَ والدك وظيفة لنفسه في الهاتف الآلي...".

"ترك والدك "الميرة" بعد أن تشاجر مع زميل له عرض عليه تقاسم الرشوة. إنه [...]، وهو الآن غني ويعيش أفضل عيشة. بينما، كما ترى، بقي والدك الذي رفض الرشوة طوال حياته مستور الحال. آه، يا ماما، طول عمري كنت أحلم بأن نكون أغنياء مثل عائلة عمك!"

وأتذكر كيف كنت أشعر بالنقص أمام الآخرين نتيجة ضيق حالنا المادية – ذلك الشعور الذي حاولتُ جاهداً تجاوزه من خلال تفوُّقي الدراسي...

"يومها جاءت خالتك أوديت من بيروت لزيارتنا. وكان من أسباب زيارتها لنا استقبال أقارب لزوجها جاءوا من أمريكا لزيارة الوطن. فذهبنا جميعاً، أقصد خالتك وزوجها وابنها نبيل وأنا وأنت ووالدك إلى المطار، الذي كان واقعاً في آخر المزة، لاستقبالهم. وكانت تلك هي المرة الأولى، يا ماما، التي رأينا فيها أنا وأنت ووالدك طائرة عن قرب. وكنت أنت منفعلاً جداً بما رأيت. لذلك، حين عدنا إلى المنزل وحدنا، بعد أن سافرت خالتك أوديت مع زوجها وأقربائه إلى حمص، بدأت تحكي لجدك بانفعال ما شاهدت... الطائرة، وكيف هبطت، وكيف نزل منها الركاب، إلخ. وكان جدك في حينه يتأملك صامتاً مستمعاً، قبل أن يعلِّق قائلاً: "إذن هكذا! لقد شاهد هذا "الفستوك" الطيارة عن قرب، وأنا لا أعرف، حتى هذه الساعة، كيف هي!"

وفي الصباح الباكر لليوم التالي، غادر لطف الله المنزل دون أن يقول لنا إلى أين هو ذاهب. ثم، حين عاد ظهراً، وجلسنا إلى مائدة الطعام، أخذك في أحضانه وقبَّلك، وقال لك ضاحكاً، دون أن يأبه لنا:

– لقد استأجرت اليوم عربة يا أكرم وذهبت بها إلى المطار، وتأمَّلت مثلك الطائرة وهي تهبط. حقاً إنها جميلة!

"ولم يمضِ شهر على تلك الواقعة إلا وكان جدك يقبل دعوة وُجِّهَت إليه لزيارة أقارب لنا في مصر. فاستقل الطائرة وذهب إلى هناك، حيث بقي شهراً كاملاً. فكان أول من ركب الطائرة في عائلتنا...".

وكان انقلاب الشيشكلي الأول (عام 1950) الذي أزاح به الحنَّاوي، وأبعد حزب الشعب عن الحكم؛ فالثاني (عام 1951) الذي أزاح به الجميع وانفرد بالحكم...

"في كلِّ مرة كان يقع فيها انقلاب، كانوا يعلنون منعاً للتجول. فنبقى جميعنا في المنزل. ويجتمع والدك وعمك جورج وجدك حول الراديو ليستمعوا إلى البيانات، وما كان يذاع حول الانقلاب...".

"كان يكفي بضعة عساكر وبضع مصفحات أو دبابات ليحتلُّوا مبنى الإذاعة، الذي كان واقعاً ما بين محطة القطار في الحجاز وسوق الحميدية، فينجح الانقلاب...".

"مع كلِّ انقلاب، كان يتثبت دور الجيش في قيادة شؤون البلد. وكان دور المدنيين يتقلَّص و...".

ثم انتقلت عائلتنا في مطلع عام 1951 من منزلنا الواقع في شارع العابد إلى منزل مستأجر آخر، أحدث وأكبر، يقع في حي عين الكرش...

"وركَّبنا هاتفاً آلياً في منزلنا، كان رقمه 18123 على ما أذكر (؟)، واشترينا بالتقسيط برَّاداً كهربائياً ماركة فريجيدير، وغسَّالة كهربائية ماركة هوفر...".

وأصبحنا (أنا وشقيقتي إكرام) نذهب إلى المدرسة (الفرانسيسكان) بالعربة (الحنطور) مع طفلتين صغيرتين جميلتين جداً من بنات الجيران تدعيان بتول وكوثر (الملاطي؟). وأصبح لنا في منزلنا الجديد جيران جدد؛ أذكر منهم بعض الأسر الفلسطينية المسيحية المتوسطة الحال، مثل آل فنان، وبناتهم الجميلات (سيلفي ودولِّي وجلوريا ويولاند وآني)، وآل جدع وآل حداد.

– كنتُ معجباً بيولا، أليس كذلك؟

– ربما...

وكان من بين جيراننا في المنزل الجديد فتى خجول مهذب، أشقر ونحيل، اسمه فاروق... أضحى، منذ ذلك الحين، من أعزِّ أصدقائي، ولم يزل...

"صديقك فاروق هو ابن فؤاد ... الذي كان ذات يوم ضابطاً في الجيش السوري، قبل أن يصير – لسوء حظه – شهيراً عبر قصة سفينة الأسلحة المشتراة خلال حرب 1948 من أوروبا لصالح الجيش، وسرقها منه الصهاينة. فكانت فضيحة سياسية استغلَّتها الأحزاب الراديكالية لتلك الأيام (كالعادة، بشكل رخيص) في دعاياتها غير المسؤولة؛ فأحيل إلى المحكمة التي برَّأت ساحته، رغم تسريحه من الجيش...".

"لقد كان صديقنا فؤاد تعس الحظ، لكنه لم يكن مذنباً (كما كان يؤكد والدي)؛ إنما كانت تنقصه الحنكة والخبرة، كجميعنا في تلك الأيام. فلو كان مذنباً فعلاً لما عاد إلى وطنه، ولما سلَّم نفسه؛ ولو كان مذنباً لهرب بماله واختفى في ديار الله الواسعة؛ ولكنه لم يفعل، إنما عاد وواجه الموقف، متحمِّلاً مسئوليته بكل شجاعة؛ ولو كان مذنباً لما برأت المحكمة ساحته، رغم ما حاق بالقضية في تلك الأيام من تهويش. على كل حال، كان فؤاد ... إنساناً في منتهى الطيبة، ومن أصدقائنا الذين نعتز بهم...".

وكان فاروق أول من أهداني في عيد ميلادي السابع كتاباً ثميناً، هو المنجد في اللغة العربية الذي ما زلت أحتفظ به إلى اليوم. فقد كان مولعاً بالمطالعة منذ الصغر؛ وحبُّه للمطالعة كان من العوامل التي دفعتني منذ تلك الأيام إلى حبِّي اللاحق لها.

كان الجميع في عائلتنا محباً المطالعة. كان جدي يتابع بانتظام سلسلة "الهلال" المصرية، ومن خلالها، مغامرات باردليان وقصص جرجي زيدان. وكان والدي وعمي جورج من عشاق قراءة القصص البوليسية وكلاسيكيات الأدب الفرنسي والعالمي. أما والدتي فكانت تفضِّل كتب جدي وتتابع معه دائماً، بتلهف، ما كان يقرأ من قصص. كما كانت صحف النصر والمضحك–المبكي موجودة دائماً في منزلنا، وكان الجميع يقرؤونها. أما أنا، فكنت أقرأ المجلات والكتب المصوَّرة الفرنسية التي كان يشتريها لي والدي وعمي جورج، إضافة إلى مجلة سندباد المصرية...

"في صيف عام 1951 ذهبنا لنقضي العطلة في قرية يبرود الواقعة في القلمون. استأجرنا هناك منزلاً كبيراً، لكنه مفتقد لأي من الكماليات (وقد كانت الكهرباء والماء الجاري في القرى من الكماليات في حينه)؛ فكانوا يملئون لنا ماء الشرب في الجرار، وماء الاستعمال في حوض كان يقع في حديقة المنزل. وكانت صيفية جميلة، حيث جاء الكثير من الأقارب لزيارتنا. وكان من بينهم من حلب ابن عم والدك وليم. وكان والدك ووليم يستأجرون البيسيكليت [الدراجة] ويأخذونك أنت وإكرام معهم في رحلات طويلة حول القرية. وكان يوجد في يبرود تلك الأيام بحيرة ومقصف كنَّا

دائماً نذهب إليه؛ فيستأجر والدك الزورق ويقودنا في نزهة قصيرة حولها. لكنك قطعاً لا تتذكر كلَّ هذا...".

– ما زلت أتذكر بعضاً من هذا يا ماما... ولكن...

الشيء الذي ما زلت أتذكره من يبرود، ولم أخبر به أحد إلى الآن، كان مشهداً ما زال يؤرقني إلى اليوم... مشهد نحر جمل. كان ذلك صباح يوم جمعة، حين أخذني بابا معه إلى سوق البلدة للتبضُّع. فرأيت ما رأيت ودُمِغَ في ذاكرتي. كان مقيَّد القوائم، ملقى على الأرض، معصوب العينين. وكان الناس من سكان البلدة ملتفين حوله للفرجة... ويالها من فرجة! وأتذكر كيف نحره ذاك الجزار اللعين وهو يبسمل، وكيف نفر الدم، وصرخ الجمل وانتفض، فكاد أن يقتل ذلك الجزار اللعين. آه... ما زلت إلى اليوم أسمع تلك الصرخة، وأرى ذاك المشهد المروِّع في أحلامي... مما جعلني، إلى اليوم، لاعناً ورافضاً لتلك الألوهة المحبة للدماء وللذبائح والتي لها يبسملون.

ثم كان في عام 1952 انتقالي من مدرسة الفرانسيسكان إلى مدرسة الفرير (الأخوة المريميين) التي كانت قد أغلِقَت في دمشق قبل الاستقلال بقليل، ثم عادت ففتحت أبوابها في منزل مستأجر كان يقع مواجهاً لبناء "الكسم والقباني". وكانت مدرسة الفرير، التي انتقلت إليها طالباً في الصف الثاني الابتدائي، تتألف من صفَّين، هما صفنا والصف الأول فقط؛ وكان عدد طلاب المدرسة آنذاك لا يتجاوز الثلاثين طالباً.

كان يديرها ثلاث رهبان هم: المدير إيزيدور، يساعده الأخ برناردوس – وكلاهما من أصل لبناني – والأخ فيانيه -البلجيكي الأصل، إضافة إلى أستاذ اللغة العربية، الذي كان سريانياً من الجزيرة السورية، يدعى جاك. وكانوا شديدين في تربيتنا وفي تلقيننا مبادئ العلوم والحساب والأخلاق والدين، وخاصة اللغة الفرنسية، إلى جانب العربية. وكان محظوراً علينا التحدث بالعربية في باحة المدرسة. فقد كانت هناك قطعة خشبية مسطَّحة تدعى الـsignal أو "العلامة"، تعطى لأحد الطلاب لا على التعيين عند الصباح، ثم كان على هذا الطالب أن ينقلها إلى من يراه لا يتكلم بالفرنسية، وهكذا دواليك، حتى نهاية الدوام، حيث كان من يبقى معه الـ signal يعاقَب بحفظ قصيدة أو نصٍّ بالفرنسية!

"وسجَّل خالك ألبير في كلية الحقوق في جامعة دمشق، وبات يأتي لزيارتنا كل شهر، وخاصة خلال فترة الامتحانات...".

كان ذلك خلال فترة حكم أديب الشيشكلي الذي حصل في عهده تضييق على الحريات السياسية، والذي جرى في أواخر عهده اعتقال الكثير من السياسيين المعارضين.

"وخاصة من بينهم، ويهمنا، عمك رزق الله..".

وكان حزب الشعب عموماً معارضاً بشدة للشيشكلي، ومن خلال معارضته، كان معارضاً لتدخل الجيش بالسياسة...".

وكان عمك من وجوه "حزب الشعب" الذين اعتقلهم الشيشكلي..".

في حينه، كان الجيش قد استلم السلطة في مصر ونصَّب محمد نجيب رئيساً... وكان الجيش السوري المستلم للسلطة مؤيداً للشيشكلي؛ خاصة وأنه، بحجة فلسطين وضرورات "استعادتها"، كان حجمه يكبر، وعدده وعتاده يزداد، مترافقاً مع ازدياد دوره السياسي و... كان من التقاليد أن يقوموا بعرض عسكري في كل مناسبة وطنية...

"... في أحد العروض العسكرية – وكان آخر عرض يجرى في عهد الشيشكلي – وقع حادث مؤلم، حيث فُقِدَتْ السيطرة على دبابة من الدبابات المشاركة في العرض، فخرجت عن مسارها وانحرفت باتجاه الجمهور، فأوقعت العديد من الضحايا الأبرياء قبل أن تهوي في بردى عند جسر فكتوريا – مما زاد النقمة على الشيشكلي وعلى الجيش من خلاله...".

"... في تلك الأيام كانت الأحزاب المعارضة للشيشكلي تحاربه عن طريق التظاهر...".

"لم يكن شعبنا خنوعاً في تلك الأيام. أتذكر، يا بابا، أنه حصل إضراب للطلاب في جامعة دمشق، وأن الشيشكلي حاول إدخال الشرطة العسكرية إلى الحرم الجامعي لقمعه؛ ولكنه لم ينجح بعد أن رفض رئيس الجامعة، الذي كان في حينه قسطنطين زريق، تنفيذ الأوامر، فمنع الشرطة العسكرية من الدخول. ثم، عندما تطاول الشيشكلي عليه بكلام مهين، تقدَّم باستقالته، وكانت فضيحة للدكتاتور مجلجلة...".

ثم كان في مطلع العام الدراسي 1954–1955 انتقالُ موقع مدرسة الفرير – وكنت في حينه في الصف الرابع الابتدائي – إلى بناء مستأجَر آخر كان يقع في الجسر الأبيض. وبات الباص يقلُّنا من أماكن سكننا إلى المدرسة صباحاً، ويعيدنا إليها مساءً...

كنت طالباً مجداً في حينه؛ ولكني، رغم هذا، لم أكن أحب مدرستي. كان هذا بسبب ذلك الراهب البلجيكي فيانيه الذي كان يدرِّسني خلال الفترة التي قضيتها لدى مدرسة الفرير ماريست. كنت أكرهه، وكان كرهي له، الذي كنت أحرص على إخفائه، يعود إلى سلوكه "غير العادل" تجاهنا كطلاب عموماً، وتجاهي كواحد من أبرز طلاب المدرسة (رغماً عنه) خصوصاً. فطلاب "الدرجة الأولى" كانوا بالنسبة له أولئك القلائل جداً من الأوروبيين الذين كان يقدِّم لهم، على حسابنا، كل مساعدة ممكنة... وأتذكر

من بينهم طفلاً فرنسياً لطيفاً لم أعد أتذكر اسمه. وأتذكر من بينهم أيضاً، وخاصةً، قريبنا "الإيطالي" كارلو الذي كان فيانيه غالباً ما يزوره في منزله المجاور لمنزلنا في حي عين الكرش، فيجلس عنده ساعات وهو يرتشف القهوة، متحدثاً بالفرنسية إلى والديه...

لكنه لم يزرْ منزلي ولا مرة واحدة. وكانت سذاجتي تجعلني أعتقد أني كنت أستحق، بحكم موقعي المتفوق في الصف، أن أعامَل كهؤلاء الأجانب، أو على الأقل كطلاب "الدرجة الثانية" الذين كان أهاليهم من الأغنياء أو المتنفِّذين. ولكن شعوري كان، مع الأسف، أنه لم يكن يحبُّني – ولم أكن أعرف السبب –، الأمر الذي جعلني أبادله نفس المشاعر...

ولقد تعمق "كرهي" له حين سمعته ذات يوم، مصادفةً، يتحدث بالفرنسية إلى والدة كارلو، مقارناً بيني وبين ابنها قائلاً:

– إن كارلو أذكى منه بما لا يقاس. ولكن أكرم أكثر كداً. إنه يكدُّ كالحمار. وهذا هو سبب تفوقه...

كانا يتحدثان بصوت خفيض، فلم يشعرا بي، لا حين دخلت منزلهم، باحثاً عن صديقي (الذي كنت أحبُّه، رغم أنه كان من أقل الطلاب تميزاً في صفنا)، ولا حين خرجت منه هارباً نتيجة ما سمعته من كلام...

وبعقل الطفل، فهمت في حينه أن من الممكن ألا يكون بعض رجال الدين قديسين...

كنت خجولاً جداً في طفولتي. كنت أقرب من حيث الطبع إلى عمي جورج – رحمه الله – في خوفه من مواجهة الآخرين، ومواجهة نفسه من خلالهم. ولكني تجاوزت هذا نسبياً الآن. كما أني لم أكن شجاعاً جداً في ذلك الحين، كما أبدو اليوم. وأتوقف هنا قليلاً...

وأستعيد، بالمناسبة، أنه كان من بين رفاقي في المدرسة في تلك الأيام شخص يدعى [...] انقطعت عنه منذ تجاوزت المرحلة الابتدائية. كان طفلاً مغروراً لكونه ابن أسرة غنية، كما كان قوي البنية. وكنت أخافه، وأحاول دائماً تجنبه؛ وكان هو يشعر بذلك، فيستغل خوفي منه لإذلالي كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً. ولكن...

حدث ذات يوم أن صدمته عن غير قصد فأوقعته أرضاً. والتقت نظراتنا لثوان فلمست الخوف في نظراته إليَّ... ولم أفهم في حينه ما حلَّ بي؛ إذ انفجر كل ما تراكم في نفسي تجاهه فجأة، وهجمت لأشبعه ضرباً وركلاً، بينما هو يبكي ويصيح. ثم جاء الرهبان وفرَّقوا بيننا، وعاقبوني لأني كنت أنا المعتدي. فتحملت العقوبة سعيداً لأني كنت قد تعلَّمت تجاوز غريزة الخوف لديَّ بفهم غريزة الخوف عند الآخرين. لكني أعترف اليوم أني كنت شديد القسوة في حينه مع هذا الفتى المسكين...

وكان نظام مدرستي، كما سبق وأشرت، صارماً: صباحياً ومسائياً. كانت هناك دروس ووظائف يومية. وكان عمي جورج يساعدني يومياً على حفظ الدروس وكتابة الوظائف. فوالداي – جزاهما الله خيراً – كانا قد ألقيا عليه أعباء تدريسي وتدريس شقيقتي إكرام، لينصرفا إلى حياتهما الاجتماعية...

وكنَّا نقضي معظم الليل، أنا وشقيقتي إكرام، ساهرين لا ننام، بانتظار عودة الأهل؛ فنحاول إسكات بكاء سمير -(الذي كان غالباً ما يستيقظ من نومه)، و/أو نتسامر ونتشاجر، فيما بيننا ومع الخدامة التي

أتذكر أنها كانت من "جبال العلويين"، وتدعى دعد. وكان عمي جورج أول من يعود إلى المنزل من سهرته، فيجلس معنا مداعباً ومحدثاً؛ ثم يليه جدي؛ فوالداي أخيراً...

وكان واقع أخي سمير مصدر ألم عميق لي ولجميع العائلة. ولكن سميراً أضحى، لهذا السبب تحديداً، محطَّ رعاية جدي لطف الله وحنانه اللامحدود... ذلك الذي ظلَّ يرفض، ما دام حياً، أن تُجرى له عملية استئصال اللوزتين، خوفاً من ألا يتحمَّلها. كذلك كان عمي جورج يتحمل العبء الأعظم من رعايته...

وكنتُ في تلك الأيام شديد التعلُّق بعمي جورج الذي كان الراعي الأول لطفولتي؛ وبجدي الذي كان يعاملني كحفيده المفضل...

"وعاد إميل مهندساً من فرنسا في مطلع عام 1954. عاد كرزق الله عن طريق البحر حيث ذهبنا لاستقباله...".

"... عُيِّن إميل، فور عودته إلى حمص من فرنسا، مهندساً لدى البلدية. وكان أول ما فعله بعد عودته أن انتسب، هو وألبير، إلى "حزب التحرير" الذي كان حزب الشيشكلي...".

وحكم الشيشكلي كان قد بدأ يتهاوى...

وأتذكر ذلك اليوم – وكنت يومئذ طالباً في الصف الثالث – حين أخرجونا من المدرسة أبكر من المعتاد على غير العادة؛ فركبت الباص لأعود إلى منزلي. ولكن سرعان ما وجدت نفسي، وأنا في قلب الباص، الذي توقف وقد أحاط به المتظاهرون من كلِّ جانب، يهتفون بسقوط الدكتاتور. وكان بين المتظاهرين شاب من حارتنا يدعى أكرم...

في تلك الليلة أُعلِن منع التجول في دمشق. وقضيت السهرة وسط أهلي الذين جمعتْهم الأحداث، والجيران الذين جاءوا لزيارتنا، أستمع إلى أحاديثهم الممتعة تدور حول ما كان يجري في البلاد. وكيف جاءت عناصر من "المكتب الثاني" – المخابرات العسكرية – قبل يومين إلى منزلنا ليستفسروا عن عمي رزق الله الذي كان قد هرَّب وباقي زملائه النوابَ والسياسيين المعتقلين من سجن المزة...

وكانت سهرة من أطرف السهرات بالنسبة لطفل بهرتْه مجريات الأمور، فاستمع بكل حماس وهولا يفهم شيئاً، وسجَّل في ذاكرته صوراً لا تُنسى. كان عمي جورج يردِّد، بكل حماس، أن الشيشكلي قد انتهى. وكان أبي يسخر من خاليَّ في حمص (إميل وألبير) اللذين انتسبا قبل أسبوع من هذا التاريخ إلى حزب الشيشكلي (حزب التحرير)، فيردد مداعباً والدتي التي كانت تضحك من أعماقها: "حقاً إن أخويكِ

المبدئيين يفهمان بالسياسة!" وكان الكلُّ فرحاً يتأمل خيراً مما اعتُبِر، في حينه، عودة للديموقراطية إلى البلاد. وأتذكَّر إلى اليوم ضحكاتهم التي كانت تعلو، وهم يرددون قصة بائع المشمش المسكين الذي اعتقلته المباحث في الصيف الماضي، فأشبعته ضرباً لأنه كان ينادي على بضاعته في السبع بحرات، قرب بيت الشيشكلي، صائحاً: "آخر أيامك يا حموي!" – وكان يقصد حمولته من المشمش الحموي..." – وهولا يعلم أن الشيشكلي كان من مدينة حماه، وأنه كان يسكن في هذا المكان...

أما جدي الذي قضى تلك الفترة الماضية مشغولاً ومنسِّقاً مع السيد توفيق الحبوباتي (صاحب نادي الشرق آنذاك) لإيصال الطعام الطازج إلى السياسيين المعتقلين في سجن المزة، ومنهم ابنه رزق الله، فقد كان يتحدث عما رآه هناك في السجن...

"كانت حالتهم ممتازة. كانوا مقضِّينها ضحك وتنكيت... تصوروا أنهم وضعوا فيضي الأتاسي في غرفة واحدة مع أكرم الحوراني. مسكين فيضي الذي يحب الضحك، ولا يستطيع البقاء دقيقة بلا حكي، وهو في غرفة واحدة مع أكرم الحوراني الذي لا يتكلم أبداً...". ويجيبه والدي لا بل قلْ: "... مسكين أكرم الحوراني الذي كان عليه أن يتحمَّل كلام فيضي الأتاسي...".

وكانت تلك هي بالنسبة لي ولعائلتي ليلة الإطاحة بأديب الشيشكلي..

ذلك الذي، حين سألت والدي عنه فيما بعد، وقد مضت الأيام، أجابني: "إنه كان دكتاتوراً... هذا لا شك فيه. ولكن ماضيه الوطني قبل أن يستولي على السلطة كان مشرِّفاً. فقد كان من أبطال حرب فلسطين. كما كان محباً لبلده ولجيشه، ولا يريد لهما الضرر. تصور أنه كان بوسعه أن يقاوم التمرُّد الذي قام ضده، لا بل أن يسحقه. فغالبية الجيش كانت ما تزال معه في تلك الأيام. ولكنه لم يفعل وفضَّل أن يستقيل عوضاً عن أن يرى قطاعات الجيش وقد اصطدمت بعضها ببعض...".

وحين سألتُه عن تلك الأحداث التي وقعت في آخر أيامه في جبل الدروز، تنهَّد وصمت قليلاً قبل أن يجيبني: "لا تغرَّك المظاهر في بلادنا، ولا الأحاديث عن الوحدة الوطنية. فالطائفية متغلغلة في الأعماق، خاصة بين العوام، وفي الأوساط الشعبية. وهي الخطر الرئيسي على وحدة البلاد. تصوَّر أن الدروز لحقوا بالشيشكلي حتى البرازيل ليقتلوه ثأراً، وقد مضت عشرون سنة على تلك الأحداث. فانتماء العامي ما زال إلى اليوم، مع الأسف، لطائفته قبل أن يكون للبلد أو للمبدأ. والشيشكلي كان تصرَّف في تلك الأحداث كأي زعيم بلد سحق تمرداً كان يمكن أن يهدِّد وحدة بلاده؛ ولكنهم لم يفهموها هكذا. على كلِّ حال، كما يقولون، يا بابا، الله ينجِّينا من الطائفية... الله ينجِّينا منها...".

الفصل الثالث

طفولة وسياسة...
(1958-1954)

آ
وأمور أخرى...

طائر الليل: لأنها مجرَّد محاولة ساذجة لإعادة تقويم أيام مضت... ولأن صاحبها ما زال، إلى اليوم، يحب "السياسة"؛ فهو ابن عائلة أحبت "السياسة" وتعاطتها... في قلب بلد كان، وما زال، رغم مصائبه، يحب "السياسة"...

لقد بقيت فترة طويلة لا أفهم كيف التقى أبي وعمِّي جورج مع عمِّي رزق الله حول ذلك التقويم السلبي جداً لتلك الحقبة الهامة من تاريخ سورية، الممتدة من عام 1954 حتى عام 1958، والقائل: إن ما جرى في حينه كان ما أجهز على الديموقراطية السورية الفتية...

فحتى فترة قريبة، كان فهمي وتقويمي لتلك السنين هو نفس ذلك الفهم العامي الذي كان (وما زال) سائداً لدى بعض الأوساط والقائل: إنها كانت الأمثل في تاريخ الدولة السورية الفتية. ولكن الحياة جعلتني أعيد النظر...

عقب سقوط أديب الشيشكلي في 25 شباط 1954 عاد السيد هاشم الأتاسي في الأول من آذار 1954 رئيساً للجمهورية، وتم استدعاء البرلمان الذي سبق للدكتاتور أن حلَّه غداة انقلابه الثاني...

وألغى البرلمان (الذي عاد مؤقتاً) الدستور الذي وضعه الشيشكلي عام 1953، وأعاد العمل بدستور عام 1950، كما كلَّف الرئيس الأتاسي السيد صبري العسلي بتشكيل الحكومة... وكانت الحكومة التي شكَّلها هذا الأخير عبارة عن ائتلاف من "الحزب الوطني" و"حزب الشعب" و"المستقلين"؛ إلا أنها لم تدم طويلاً، فسقطت بضغط من "الشارع السياسي"...

ذلك "الشارع" الذي أضحى، في حينه، متمثلاً – بشكل خاص – بأنصار تلك الأحزاب "القومية الراديكالية" و"الشيوعية" التي طفت على السطح غداة سقوط الديكتاتورية. وكانت هذه الأحزاب المزاوِدة على الجميع في مواضيع "الوحدة" و"فلسطين" و"الاشتراكية" و"العداء للإمبريالية" تتمتع آنذاك ببعض النفوذ في أوساط الطلاب وضباط الجيش، وإن لم تكن تشكل سوى أقلية صغيرة على صعيد البلد...

وجاءت حكومة السيد سعيد الغزي (المحايدة) لتشرف على الانتخابات النيابية التي تَقرَّر أن تجري في 20 آب 1954...

في أوائل صيف 1954 تزوجت خالتي ثريا من مهاجر سوري–أمريكي، أصله من قرى حمص، يدعى عيسى الخوري.

"جاءت إلينا عشية زفافها لتتجهَّز من دمشق. ثم ذهبنا معها إلى حمص لحضور حفل الزفاف، وبقينا هناك أسبوعاً كاملاً...".

كانت أوضاع أهل أمي قد بدأت تتحسن إثر عودة إميل الذي عُيِّن مهندساً لدى بلدية حمص، وافتتح لنفسه مكتباً مقابل مقهى وحديقة الروضة. كان يأخذني معه غالباً إلى مكتبه، حيث كنت أقضي الوقت متأملاً إياه منكباً بقامته الطويلة على المرسم، يرسم أو يدقِّق مخططاته التي غالباً ما كان يشرح لي مضمونها؛ الأمر الذي جعلني مولَعاً منذ الصغر بالهندسة التي أضحت مع الأيام مهنتي...

خلال الفترة التي قضيناها هناك، والتي تزامنت مع الانتخابات النيابية، غالباً ما كنت أراقب مندهشاً تلك العراضات التي كانت تجري أمام المقهى المواجِه لبيت جدي في حيِّ الحميدية، مهلِّلة للحزب الشيوعي، لمرشَّحيه عامة، ولزعيمه خالد بكداش خاصة. فـ...

الانتخابات كانت شاغل البلد، والجميع كان يسعى جاهداً لإيصال جماعته، وخاصة في دمشق التي حُمِل إليها من ملجئه في مصر في 7 آب 1954 (أي قبل الانتخابات بأقل من أسبوعين) السيدُ شكري القوتلي.

كان القوتلي وجماعتُه ميَّالين إلى السياسة المصرية–السعودية (الأقرب من حيث العمق إلى التوجُّهات الأمريكية)؛ بينما كان "حزب الشعب" ميالاً إلى التقارب مع العراق (الأقرب في حينه إلى التوجُّهات البريطانية). وإلى جانب الاثنين، كان البعثيون، الذين أضحوا قوة فعالة نتيجة اتحادهم مع أكرم الحوراني وجماعته "الاشتراكية" من ريف حماه، ميَّالين بشكل عام إلى توجُّهات السياسة المصرية. بينما كان بكداش وجماعته يدعون مباشرة إلى السياسة الروسية.

وقد نجح في هذه الانتخابات عن دمشق من الدورة الأولى السيدان خالد العظم وخالد بكداش كما نجح رزق الله أنطاكي عن "حزب الشعب" في حلب. كانت توجُّهات البرلمان تعكس نسبة القوى الحقيقية في البلد؛ ولكنها – وهذا هو الأهم – كانت تعكس خاصة ما كان يدور حولها من صراعات وتفاعلات...

لأنه لا يمكن لأي بلد أن يكون مستقلاً مئة بالمئة – بمعنى أن يكتفي بذاته ولذاته، فينعزل عن سواه حين يشاء، ويتصرف على هذا الأساس ومن هذا المنطلق فقط...

– من انتخبت آنذاك يا أبي؟

– يومها قررنا، أنا وعمك جورج، أن ننتخب خالد العظم وخالد بكداش.

– لماذا؟

– كنَّا معجبين بشخصية خالد العظم الذي كان ابن عمِّه تحسين من أصدقائنا المقربين. وكنَّا نفضله على جماعة عمك رزق الله. كما كنَّا، من الناحية المبدئية، نحلم ببرلمان تتصارع فيه الأفكار؛ وكان خالد بكداش يمثل، في حينه، تياراً سياسياً وفكرياً هاماً...

– ولكن... ألم يغضب عمِّي لأن شقيقاه لم ينتخباه؟

– بلى، غضب قليلاً، وانتقدنا أمام والدي الذي ذهب مع فلاديمير إلى حلب لانتخابه. لكن جدَّك رطَّب خاطره ولم يدعه يجعل من القضية مشكلة. ثم كان نجاحه الذي غطى على الموضوع أصلاً.

– هل تعرَّفت إلى خالد بكداش يا بابا؟

– لا... لكني أتذكر أنه قبل الاستقلال بقليل حاول كامل عيَّاد – وهو من أصدقائي الشيوعيين – أن يستميلني إلى حزبه، كما عرض أن يقدمني إلى بكداش. لكن هذا لم يحصل.

وكانت أول حكومة تشكَّلت بعد الانتخابات برئاسة فارس الخوري؛ وكان رزق الله أنطاكي فيها وزيراً للمالية...

"في تلك السنة (1954) نجحتَ يا أكرم - إلى صف "السرتفيكا"، الشهادة الابتدائية، وقضينا الصيف مع خالتك أوديت في بكفيا بلبنان...".

وتلك الصيفية كانت من أجمل الصيفيات التي قضيتها في طفولتي، حيث كنَّا نلعب أنا وإكرام معظم الوقت مع أولاد خالتنا: نبيل الذي كان من سنِّي، وشقيقته ميمي التي كانت من سن إكرام. وكان ابن خالتي مُجِداً ومتفوقاً، يقضي الصباح كاملاً في كتابة وظائفه الصيفية؛ الأمر الذي كان يدفعني إلى التشبُّه به...

وكان هناك في ذلك الصيف "مهرجان للزهور"، حضره وديع الصافي للغناء في ربوعه، وجاء كميل شمعون، رئيس جمهورية لبنان، لتدشينه.

"وحين كان يأتي بابا أو عمُّو جورج لقضاء بعض الوقت معنا كنا نذهب جميعاً للتنزه في الجبال، وتحديداً في غابات بولونيا، وفي حريصا حيث كان (وما زال) يوجد تمثال كبير للسيدة العذراء مطلٌّ على البحر...".

ثم انتهت العطلة الصيفية وعدنا إلى دمشق.

"ولكن... مع خالتك أوديت وعائلتها الذين جاءوا معنا لحضور حفل افتتاح المعرض الدولي الأول. أمَّن والدك وعمُّو جورج بطاقات دخول لنا، وذهبنا جميعاً إلى المعرض لحضور الافتتاح...".

وأتاح لنا الحظ أن نشاهد فيه عن قرب الرئيسين هاشم الأتاسي وكميل شمعون وهما يسيران جنباً إلى جنب ويفتتحان معاً الجناح اللبناني. وزرنا الجناح الأمريكي الذي كان في حينه من أجمل الأجنحة، حيث عُرِضَت – لأول مرة في دمشق – تلك العلبة الغريبة التي أدهشتنا يومذاك: "التلفزيون"! ثم عدنا إلى المعرض في اليوم التالي لمشاهدة السينيراما ومدينة الملاهي...

لأن العالم، حين لا يكون مترابطاً بمساحاته وأراضيه، يكون مترابطاً ومتداخلاً بمصالحه وأفكاره؛ وتلك لا بدَّ من أن تتفاعل، فتتصادم و/أو تتلاقى؛ وبالتالي، تُفترَض مراعاتُها حين لا تُفترَض مجابهتُها. هكذا كان الأمر منذ قديم الزمان، وبالنسبة للجميع...

"وذهب رزوق إلى السعودية ليطلب من حكومتها قرضاً لسورية...".

"أُدخِلتُ – على حد قوله؛ وكان يتحدث، نقلاً عن والدي، في جلسة عائلية وحميمة مغلقة – إلى قاعة كبيرة، حيث كان حاضراً الملك سعود بن عبد العزيز وشقيقه الأمير فيصل وعددٌ من أفراد الحاشية...

وبعد التحية وتقديم الاحترامات سألني جلالته:

– ماذا تبغون؟ أجبته:

– قرضاً لسورية بثلاثة ملايين دولار يا طويل العمر. أجابني وهو يخاطب أيضاً حاشيته:

– كيف تطلبون قرضاً جديداً وأنتم لم تسدِّدوا بعد القرض القديم؟ أي متى ستسددون لنا القرض الأول؟ أجبته ضاحكاً:

– لن نسدِّده يا طويل العمر! فضحك الملك، وقد أعجبته الإجابة، وقال لي:

– ألن تسدِّدوه حقاً؟! هذا زين! والقرض الثاني، إن وافقنا على تسليفكم إياه، هل ستسدِّدونه أم لا؟ أجبته:

– لن نسدِّده أيضاً يا طويل العمر. فهذه من أفضالكم على سورية، والأفضال لا تعاد كما تعلمون. ضحك الملك وقال لي:

– أنت زين! وافقنا على منحكم مبلغاً قدره ثلاثة ملايين دولار للحكومة السورية. هل أنت راضٍ؟ أجبته:

– ليس بعد يا طويل العمر. فضحك أيضاً وأجابني:

– إنشاء الله، لن تغادرنا إلا وأنت راضٍ.

ويضيف والدي أنه "في تلك الجلسة سأل أحد الأصدقاء رزق الله حول انطباعه عن الملك سعود بن عبد العزيز، فأجاب أنه لم يترك لديه أي انطباع؛ بينما ترك لديه الأمير فيصل الانطباع بأنه الشخص الأهم في المملكة...".

"حين عاد رزوق من مهمَّته إلى السعودية كان في استقباله في المطار جدُّك وعدد من زملائه الوزراء والنواب. وكان أن اتَّجه رزوق، الذي كان يحمل معه سيفاً مذهَّباً ومرصَّعاً أهداه إيَّاه الملك سعود، فور نزوله من الطائرة إلى والده، وقبَّل يده قبل أن يتَّجه ليحيي باقي مستقبليه من المسؤولين – مما جعل أبي يطير فرحاً...".

"كان جدك في تلك الأيام غالباً ما يتذكر تلك الواقعة فيخاطبني قائلاً: "أنظر كيف تصرَّف معي شقيقك الأكبر، بينما أنت لم تقبِّل يدي ولا مرة!" ودائماً كنت أجيبه: "أنت تعلم يا بابا أن رزوق سياسي، وأن ما فعله معك بحضور الآخرين هو السياسة بعينها!" وكان يتأمَّلني في كل مرة وهو يتبسَّم ثم يجيب: "على كل حال، سياسة أو غير سياسة، أنا كنت راضياً عن سلوكه في حينه... هيك الأصول..."."

"وقد تكررت نفس الحادثة معي مرة أخرى في مضمونها مع مجيء "سيرك ميدرانو" إلى البلد. دعا رزوق والده إلى السيرك وأجلسه في الصفِّ الأمامي، مما أفرح جدك كثيراً. وكان جدك يقول لي: "أنظر ما أحسن رزوق الذي عزمني إلى السيرك وأجلسني في الصف الأول!" وكنت أجيبه مازحاً أنه فعل هذا

ليتخلص منك! فهذا الموقع، حيث جلستَ، كان الأقرب إلى النمور... ألا تذكر؟" وكان جدك يضحك ويقول: "أحقاً؟! يا له من ملعون هذا الرزق الله...".

لقد كان قدوم سيرك ميدرانو إلى البلد حدثاً كبيراً بحدِّ ذاته. وقد ذهبنا أنا وشقيقتي، كلٌّ عن طريق مدرسته، لمشاهدته. وأتذكر النمور، والفيلة، والثعبان الضخم من نوع البُوا، والألعاب البهلوانية الرائعة. حقاً، هناك أحداث في حياة الطفل لا يمكن أن تُنسى...

ثم سقطت حكومة فارس الخوري في 7 شباط 1955 نتيجة ضغط "الشارع السياسي"... لأنها لم تكن من وجهة نظر المعارضة وشارعها (ومعهما الجيش الذي عاد من خلف الستار إلى حلبة السياسة) حازمة تجاه ما كانوا يسمونه بالأحلاف الاستعمارية...

"في تلك الأيام، كانوا يتحدثون عن حلف بغداد الذي رَعَتْه الولايات المتحدة، وسعت إليه بريطانيا، ولم تحبِّذه إسرائيل (لأنه كان يرتكز إلى العراق، بينما كانت هي تطمح لأن تكون الركيزة الأولى للغرب في المنطقة)، وعارضته روسيا، كما عارضه أيضاً غلاة الوطنية في بلادنا...".

ومنطقُهم كان يردد أن سورية، في حينه، كانت محاصرة... وأن التآمر الاستعماري الغربي عليها على أشده... مما تطلب تجنيد "إرادة الشعب"، عبر المظاهرات، للوقوف في وجه ذلك التآمر الاستعماري وإفشال مخططاته. ولكن...

"التساؤل الذي يبقى هو: من قال إن ما افترضوا تجنيده في تلك الأيام كان يعبِّر فعلاً عن إرادة الشعب؟!"

"خاصة وأن تلك الإرادة كانت تبدو، من خلال تركيبة المجلس النيابي آنذاك، أقل تطرفاً مما كانوا يدَّعون. فالمجلس النيابي هو الذي يفترض أن يمثِّل الإرادة الشعبية في الدولة الديموقراطية، وليس الغوغاء، ولا مظاهراتها...".

"ثم لنفترض نظرياً أن تلك كانت فعلاً إرادة الشعب في حينه. إن أول ما تعنيه الديموقراطية، من خلال مؤسَّساتها، هو حق الأقلية في التعبير عن رأيها الذي كان يفترض أن يُحترَم ويصان؛ كما يفترض أن يُحترَم ويصان، من خلال الديموقراطية، حقُّ الأكثرية في الحكم وتسيير شؤون البلاد وفق برنامجها الذي انتُخِبت على أساسه...".

والأكثرية في بلادنا – ونقصد بها تلك الحشود الصامتة التي بدأ التطاول على حقوقها منذ الانقلاب الأول – كانت دائماً أقل تطرفاً من الغوغاء وأحزابها ومن العسكر، وأكثر اعتدالاً تجاه ما كانوا يسمونه بالمؤامرات الاستعمارية التي نعيد اليوم التساؤل حول حقيقتها ومداها.

كانت الصحافة ما تزال حرة (عموماً)؛ وكانت الحريات العامة ما تزال محترمة عموماً. كما كان ما يزال بوسع "معظم" الآراء أن يعبِّر مبدئياً عن نفسه وأن يتصارع على صفحات الجرائد وتحت قبة البرلمان

الذي كان ما يزال، من حيث تركيبته، برلماناً حقيقياً، فيه نواب حقيقيون، يمثلون أحزاباً وتيارات حقيقية.
كان اليسار وأحزابه شبه مسيطرين على "الشارع السياسي" – أو هكذا كانوا يتوهمون – لأنه...
"كانت هناك، في كل يوم تقريباً، بمناسبة وبلا مناسبة، مظاهرات من أنصار الأحزاب الراديكالية أمام المجلس النيابي للضغط على النواب. ولكن، رغم كل هذا، كانت الأجواء في البلد متسامحة وديموقراطية نسبياً...".
وشكَّل صبري العسلي حكومته التي رفضت الانضمام إلى حلف بغداد وضمَّت وزيراً بعثياً كان السيد وهيب الغانم؛ وكان خالد العظم فيها وزيراً للخارجية وللدفاع الذي...
"كان العقيد عدنان المالكي من أهم ضباطه نفوذاً. فقد كان نظيف اليد وشجاعاً، على ما يقال؛ كما كان سُنِّياً من عائلة دمشقية محترمة. لكنه سرعان ما واجه مصرعه...".
حدث هذا في ربيع عام 1955 الذي كان عاماً حاسماً في حياتي. فقد كان عام تقدمي للشهادة الابتدائية التي جعلتني أقضي السنة الدراسية منهمكاً في التحصيل بمساعدة عمِّي جورج. فقد كان عليَّ أن أحفظ برنامجين، كما كان عليَّ أن أتقدم بشهادتين (الفرنسية والسورية). وكانت هذه السنة الدراسية أيضاً هي آخر سنة لي في مدرسة الفرير المريميين...

كانت هذه السنة صاخبة، حيث كثرت فيها التظاهرات التي غالباً ما كانت تطرق باب مدرستنا وتجبر الرهبان على إخراجنا (حدث ذلك عدة مرات خلال العام). ولكن أهمها كان ذلك اليوم الذي عمَّت فيه دمشق مظاهرات صاخبة، واعتدى أحد المتظاهرين بالضرب على الراهب برناردوس من مدرستنا لأنه تجرأ وناقشه معترضاً على إخراج الطلاب من المدرسة – وجميعهم أطفال في المرحلة الابتدائية...
كان ذلك غداة 22 نيسان 1955، يوم تمَّ اغتيال العقيد المالكي على يد الرقيب يوسف عبد الرحيم، الذي كان من الحزب السوري القومي الاجتماعي، و...

جرت محاكمات واعتقالات واسعة للقوميين السوريين ولأنصارهم، وسادت أجواء متوترة، استغلَّتها الأحزاب الراديكالية الأخرى وبعض الشخصيات السياسية والعسكرية البارزة لتدعيم مواقعها على حساب معارضيها...

وكان خالد العظم، في حينه، من أهم شخصيات البلد؛ فرشح نفسه في آب 1955، معتمداً على نفوذه وعلى تحالفاته، لانتخابات رئاسة الجمهورية التي كان يجريها البرلمان. لكنه سقط في هذه الانتخابات التي فاز فيها شكري القوتلي برئاسة الجمهورية...

وكان بكداش الشيوعي، الذي دعم العظم في ترشيحه أيضاً، في حينه، من أبرز وجوه البلد، وكان الكثيرون يرهبونه...

"ما عدا عمك رزق الله الذي لم يكن يتعامل معه بجد، إنما بطرافة...".

"كان عمك يرسل إلى أبي – والحديث هنا لعمار بن خالد بكداش – عن طريق الآذِن في القاعة قصاصات ورق تتضمن نكاتاً غير لائقة من أجل إضحاكه. وكان أبي يتقبل هذه النكات بروح طيبة...".

"لأن عمك رزق الله، الذي لم يكن يقبض لا اليسار ولا الشيوعيين، كان يجد بكداش المقتنع بنفسه طريفاً...".

ثم كُلِّف سعيد الغزي برئاسة الوزارة التي جاءت أقرب إلى "حزب الشعب". وكان رزق الله أنطاكي فيها وزيراً للمالية، ثم أصبح وزيراً للاقتصاد...

"كانت تلك الأيام بالنسبة لعائلة رزوق، ولجدك خاصة، أيام عز. أما نحن فلم يلحقنا شيء على الإطلاق من ذلك العز." فقد...

"كان أخي رزق الله حريصاً جداً، كنائب وكوزير، على ألا يتَّهمه أحد بتنفيع أقربائه؛ وكان محقاً في هذا. ولم نكن نحن على استعداد لإحراجه. ففي تلك الأيام كانت ما تزال هناك مبادئ وقيم...".

"وكان رزوق هو المتكفِّل، في حينه، بالمصروف الشخصي لوالده الذي كان ما زال مصاحباً لبهيجة التي..."

"كان من روَّاد منزلها. ولكن هذه الأخيرة ما كانت لتعتمد فقط على جدك، حيث قامت في تلك الأيام بتحويل ذلك المنزل إلى "بانسيون" تؤجر فيه غرفاً للطلاب ولغير الطلاب. وقد أمَّن لها جدك أحد أهم زبائنها: ابن عمنا كميل الذي تحوَّل مركز عمله إلى دمشق. وقد عَلِقَ كميل بابنة بهيجة التي أضحت عشيقته، وطلَّق زوجته من أجلها!"

– كميل هو الشقيق الأصغر لجودت الذي تخرج مهندساً من الجامعة اليسوعية في بيروت.

– ولكن ماذا عن نعيم وعن عائلته؟

"كان نعيم قد قاطع السياسة منذ بدايات الاستقلال وانشقاق الكتلة الوطنية، وانصرف إلى عمله كمحامٍ لامع لعدة شركات، كانت من أهمِّها "شركة نفط العراق" .I.P.C. وكان يسكن مع عائلته (أي زوجته لويزيت وابنه نبيل وابنته سامية) في الطابق الثاني من تلك البناية الجميلة التي بناها في حي أبو رمانة (وأضحت اليوم بناء وزارة النقل). أما والده تيودوري ووالدته فكانوا يسكنون في نفس البناء، ولكن في الطابق الأول. وغالباً ما كنا نزورهم. وغالباً أيضاً ما كانوا يأتون عندنا ليردوا الزيارة...".

"في تلك السنة استقال والدك من عمله لدى البريد والبرق والهاتف، إذ وجد وظيفة أفضل – تلك التي بقي فيها حتى تقاعده – لدى "مصرف سورية ولبنان" الذي كان مديره آنذاك هو السيد بيير المقنِّص. وكان ابن عمنا نعيم هو الذي ساعد أريس على إيجاد هذه الوظيفة...".

كذلك ترك عمي جورج وظيفته في الميرة وبات يعمل مع (صديق عائلتنا) زياد الأتاسي في إحدى وكالات السيارات (سكانيا وب.م.ف. اللتين كان لهما وكيل واحد). وأيضاً...

كان من بين أصدقائي في تلك الأيام أبناء تاجر الأثريات المعروف جورج نعسان أقرباء آل مقنِّص من جهة الأم. وكان سليم وسمير نعسان يرسلون إليَّ في كل يوم عطلة سيارتهم الكاديلاك لإحضاري إلى منزلهم الذي كان واقعاً في حي أبو رمانة لنلعب معاً. وكنت أيضاً ألعب خلال هذا العام في الحارة خارج المدرسة مع أبناء وبنات الجيران. أما في المدرسة فقد كان أصدقائي في ذلك الحين هم كميل وكارلو وأنطون. وكنت أحب كميل للطفه ولجدِّيته، واستمتع باللعب مع قريبنا "الإيطالي" كارلو، وخاصة مع أنطون الشجاع، لكن المهووس في تعصُّبه لمسيحيَّته...

"وفي 13 كانون الثاني 1956 رُزِقنا طفلة مباركة أسميناها ريما..."

التي ولدت أيضاً في مشفى الدكتور نخمن والتي كانت ولادتها ليلاً؛ وقد غاب عنها والدي الذي كان في سهرة خارج المنزل...

"لما لم أتمكن من الاتصال بوالدك، رافقتني جارتنا ماري الحلياني إلى المشفى، حيث تمَّت ولادتي بريما..".

وقد تركتْ هذه الواقعة بعض الأثر النفسي السلبي لدى والدتي التي كانت تستذكرها في كل مرة تختصم فيها مع أبي...

"ثم خُطِبَت أختي إفيو (تصغير إفدوكيا) إلى مهاجر سوري–أمريكي آخر يدعى توفيق عفيش، وجاءت (كخالتي ثريا قبلها) إلى عندنا لتتجهز. ثم سافرت مع خطيبها إلى الولايات المتحدة الأمريكية لتتزوج هناك...".

"وكانت في تلك السنة بدايات تعقيد من الحكومة الأمريكية فيما يتعلق بمنح تأشيرات دخول للسوريين المسافرين إلى الولايات المتحدة. وقد واجهت إفيو بعض المصاعب للحصول على تأشيرتها؛ وما كان بوسعها أن تسافر مباشرة مع "خطيبها" لو لم يساعدها والدك ويؤمِّن لها التأشيرة...".

– والدي؟!

– نعم والدك. كان، في حينه، من أفضل لاعبي البريدج في البلد. وكانت تقام آنذاك مباريات ودِّية في هذه اللعبة في نادي الشرق، وكان والدك يشارك بها. وهناك التقى ببعض موظفي السفارة الأمريكية الذين أضحوا، من خلال البريدج، من أصدقائه.

"وانقطعت بالنسبة لوالدك تلك "الصداقات الإمبريالية" نتيجة تصاعد الأجواء المعادية لأمريكا في البلد...".

"لم أكن أريد وجع رأس يا بابا. فقد أضحى كلُّ من يتحدث إلى أجنبي، وخاصة من أولئك العاملين في السفارات الغربية، موضع شبهة واتهام. وأنت تعلم كم من السهل توجيه الاتهامات في بلدنا...".

وسادت أجواء سياسية متوترة في المنطقة. جرى التوقيع على معاهدة دفاعية بين سورية ومصر والسعودية. ووقع هجوم إسرائيلي على المواقع السورية في منطقة بحيرة طبريا. ثم "أسبوع التسلح" الذي استجاب فيه الناس عموماً لطلب الحكومة بالتبرع لتسليح الجيش. حتى أُبرِمَت صفقة الأسلحة بين مصر وتشيكوسلوفاكيا، وبدأ تدفق السلاح السوفييتي على سورية...

وكان الجميع يتحدث عن "تحرير فلسطين" من الصهاينة الذين أقاموا على أرضها "دولة إسرائيل المزعومة"، التي لم تكن أية حكومة سورية أو عربية تتجرأ على مجرَّد التفكير بأية تسوية معها – تلك التسوية التي كانت الولايات المتحدة من أنشط دعاتها – والتي لم تكن إسرائيل الطامحة إلى المزيد من التوسع تحبِّذها في حينه. ولكن، بحكم كون سياسييها أكثر حنكة من سياسيينا، لم تكن إسرائيل ترفض التسوية علناً؛ إنما كانت تكتفي بالتستر وراء الرفض العربي...

وبقيت وزارة الغزي حتى شهر حزيران 1956. ثم استقالت نتيجة "قضية بيع الحبوب إلى فرنسا" وما نجم عنها من تظاهرات صاخبة هاجم المتظاهرون فيها مبنى وزارة الاقتصاد...

"اقتحموا يومها مكتب رزوق الذي كان خارج الوزارة. فعمُّك كان الوزير الذي أبرم تلك الصفقة مع فرنسا. وفرنسا كانت، في حينه، على "لائحتنا السوداء" بسبب حربها في الجزائر وصداقتها الحميمة مع إسرائيل...".

وعاد العسلي ليشكل الوزارة الجديدة التي أريد لها أن تكون وزارة وحدة وطنية. وقد ضمَّت وزيرين بعثيين هذه المرة، هما السيدان صلاح البيطار (زميل عفلق) وخليل الكلاس (من جماعة أكرم الحوراني). ولكن...

"كان الصراع بين القوى السياسية على أشده. وكان دور سفير مصر لدى سورية محمود رياض يزداد أهمية، إلى حدِّ أن بعضهم بات يسميه تندراً "المفوض السامي". وبدأ البعثيون يدعون إلى الوحدة مع مصر. وكانت دعوة متأخرة جداً من الرئيس القوتلي لـ"ميثاق وطني" يلتزم به جميع العاملين في الحقل السياسي...".

"كان النفوذ الروسي يتزايد في تلك الأيام. ولكن الدوائر الغربية أخذت تبالغ في تصويره؛ فهوَّلت من صفقات السلاح مع روسيا، وضخَّمت تصوير نفوذ الشيوعية المحلِّية...".

واستقال رئيس الأركان الزعيم شوكت شقير (الذي كان درزياً من أصل لبناني)، وحلَّ محله توفيق نظام الدين (الذي كان كردياً سُنِّياً من القامشلي). وبدأ الحديث يتزايد عن النجم العسكري الصاعد، رئيس "المكتب الثاني"، عبد الحميد السراج..

في نهاية هذا العام الدراسي نجحت في صفي، وحصلت على شهادتي الدراسة الابتدائية السورية والفرنسية، وانقطعت علاقتي بمدرسة الفرير المريميين التي فضَّل القائمون عليها إبقائها مدرسة ابتدائية...

وأتذكر لقائي الأخير في هذه المدرسة مع الراهب فيانيه الذي كنت أكره. كان ذلك حين جئت مع والدي لأتبلَّغ نتيجة نجاحي في الشهادة الابتدائية الفرنسية من مكتب الأخ إيزيدور (مدير المدرسة). والتقت نظراتُنا حين كان إيزيدور يقول لأبي إن أكرم هو من أفضل الطلاب الذين رآهم خلال حياته المهنية الطويلة. فنظرت إلى فيانيه متحدِّياً، ضاحكاً وفرحاً بنجاحي. وأشاح بناظره عني، وكأن نجاحي كان يمسُّه، أو كأن شيئاً في ضميره كان يؤنِّبه قائلاً إن هذا الطالب كان من أعاره أقل الاهتمام خلال مسارنا المشترك...

وتأكدت من خلال عقلٍ كان ما يزال بريئاً أن شعوري تجاهه كان مبرَّراً بعض الشيء... ولكني...

أعترف اليوم أن هذا الشعور كان مبالغاً فيه، حيث لم أكن أدرك آنذاك أن "رجال الدين" هم مثلنا تماماً: مجرد بشر...

"ثم ذهبنا في هذا العام لقضاء الصيف في لبنان مع عائلة أختي أوديت... ولكن كانت صيفيتنا هذه المرة في عاليه...".

ب

مدرسة الآباء العازريين (1)...

طائر الليل: وكنت لم تزل بين الطفولة والمراهقة. والطفل–المراهق لا يدرك أن السياسة ليست سوى جانباً اجتماعياً من الحياة يفترض أن ينظم العلاقات بين البشر، وأن الإنسان هو، في نهاية المطاف، أهم من كلِّ السياسات...

في أوائل صيف 1956 حصلت هزة أرضية عنيفة شعرت بها معظم دول المنطقة وألحقت بعض الأضرار ببيروت وجبل لبنان. ولكننا لم نشعر بها تماماً؛ إذ حصلت قبل قدومنا إلى عاليه لقضاء العطلة الصيفية – وكانت جميلة كالتي سبقتها. ولكن أهم الذي ما أزال أذكره منها كان حدثاً عائلياً، تمثَّل بمجيء خالي ألبير الذي كان ما يزال طالباً في السنة الأخيرة من كلية الحقوق، لزيارتنا.

"جاء ألبير إلى عاليه في يوم كان فيه أريس وشكري (زوج خالتي أوديت) موجودين؛ وقد أحضر لنا معه خروفاً هدية. سررنا بقدومه؛ ولكن بدا واضحاً منذ البداية أنه كان يحمل نبأ يريد أن يزفه إلينا...".

"حين جلسنا إلى مائدة الغداء قال متوجِّهاً بحديثه إليَّ وإلى خالتك أوديت: "لقد قررت العائلة، بناء على اقتراح والدي (حسيب) وأمي (أولغا)، تقسيم حصص المنزل والدكاكين خلال حياة والدي، وذلك حتى لا يحصل أي خلاف في المستقبل بعد وفاته (بعد عمر طويل)..."."

فعلَّق والدك مازحاً وقد فهم "المكتوب من عنوانه": "أبشر يا شكري... لقد أصبحنا أغنياء!"

وتابع ألبير، متظاهراً بأنه لم يسمع، قائلاً: "لقد قررنا وسجَّلنا لدى كاتب العدل أن يُقسَّم المنزل والدكاكين بالتساوي بيني وبين إميل وبين أمي، لكلٍّ منا الثلث. كما قررنا أيضاً أن نعطي أختنا فينوس [ولم تكن قد تزوجت بعد] مبلغ 5000 ليرة سورية. أما البنات المتزوجات اللواتي عاملناهن بالتساوي، فبارك الله في أزواجهن، وإن كنَّا على استعداد لإيجاد تسوية معهنَّ من حصة أمي (بعد عمر طويل)...".

صُعِقنا أنا وخالتك... بينما لم يتأثر لا شكري ولا أريس الذي ردَّ على ألبير ساخراً:

– كلا! أنتم لم تعاملوا البنات بالتساوي، إنما فضلتم أوديت وروزين (أمي) على ثريا وإيفون، حيث قدمتم لهما خروفاً! فانتفض ألبير وتوجَّه إلى والدك قائلاً:

– هل تسخر منِّي يا أريس؟ أجابه والدك وهو يضحك:

– نعم يا ابن عمَّتي! فصاح ألبير:

– هذا لا يليق! أنا لا أحتمل هذا! فأجابه شكري منفعلاً:

– إن كنت لا تحتمل التعليق بعد الذي قلتَه يا ألبير فالباب يتَّسع لجمل...

وغادر ألبير المنزل... وأجهشنا أنا وخالتك أوديت في البكاء لحرمان أهلنا لنا من التركة، بينما انفجر أريس وشكري بالضحك، وقالا وهما يحاولان مواساتنا:

– لا تتأثرا. فقد بقي لديكما نحن و... الخروف!
وأفهم اليوم أن ما حصل وعكَّر بعض حين العلاقات بين والدتي وأهلها كان عادياً، وإن كان ظالماً؛ حيث غالباً ما كان (وما زال) يحصل، مع الأسف، في محيط بعض الأسر التقليدية أن تُحرَم البنات من الإرث لتحافظ هذه الأسر على ثروتها ضمن نطاق حلقة أبنائها. وأسجِّل هنا أن موقف أبي وجدّي وعمي جورج كان بخصوص هذه المشكلة أكثر عقلانية وتسامحاً من موقف أمي، حيث سرعان ما لعبا دوراً إيجابياً في إعادة الأمور إلى نصابها بين أمي وعائلتها...
أما في 26 تموز 1956 فكان الإعلان عن تأميم قناة السويس...
في ذلك اليوم كان أبي وزوج خالتي جالسين قرب المذياع يستمعان بصمت إلى خطاب الرئيس المصري. فالشعور العام في حينه كان يميل إلى توقع أحداث هامة. كنا أنا ونبيل نجلس حولهما صامتين، بينما كانت إكرام تلعب مع ميمي. وكانت أمي (التي تحتضن ريما) وخالتي تتسارران على شرفة المنزل وهما تراقبان لعب أولادهما الأصغر ذكي وفريد (توأم أوديت) وأخي سمير. وحين أعلن عبد الناصر تأميمه لقنال السويس وقف أبي فجأة ثم صاح: "لقد فعلها... حيَّاه الله!"
وأتذكر أن أبي وزوج خالتي قضيا معظم اليوم الذي تلا ذلك الخطاب التاريخي وهما يتابعان الإذاعات الأجنبية راصدين أقوالها وتعليقاتها. وكانا يتبادلان التعليقات حول ردود الفعل على ما حدث.
وانتهت العطلة الصيفية وعدنا إلى دمشق... لنواجه تطوراً عائلياً سريعاً وغير متوقع؛ إذ حصل خلاف حادٌّ بين أمي وأبي، من جهة، وجدِّي لطف الله، من جهة أخرى، وأدى إلى انشطار جديد في العائلة. وكان هذا الخلاف بسبب انتقال عمِّي فلاديمير للعمل في دمشق، بينما بقيت عائلته في بيروت. وكان هذا الأخير يبحث عن سكن له عندما تبرع جدِّي، المعروف بنخوته، عارضاً عليه أن يستضيفه في منزلنا وأن يستبقيه معه في الغرفة. رفضت والدتي ووالدي ذاك الحل، بينما أصر العجوز على كلمته. وحصل ما حصل و...
تركنا المنزل واستأجرنا منزلاً منفصلاً في نهاية حيّ القصاع قرب "كازية ديوانه" المُطِلَّة على ساحة العباسيين. وبقي عمي جورج يتناول الغذاء معنا ويحضر إلى عندنا مساءً مرتين في الأسبوع للإشراف على دراستي ودراسة شقيقتي إكرام. وقد استمرت القطيعة بيننا وبين جدِّي بضعة أسابيع؛ ثم حُلَّت الأمور، وتصالحنا نتيجة تدخل جورج ورزق الله. ولكن بقي الانشقاق قائماً: أبو رزوق وأبناؤه جورج وفلاديمير في المنزل القديم، من جهة، وأبي وعائلته في منزلنا الجديد، من جهة أخرى. و...
بقيت "أيقونة السيدة العذراء" و"الكتاب المقدس" في منزل جدِّي...
الذي بقي لفترة من الزمن (سنة تقريباً) يرفض زيارتنا في منزلنا الجديد، مكتفياً بأن نزوره نحن. فقد كان متأثراً ومتضايقاً بشكل خاص من موقف والدتي، التي كان يقدِّرها ويحبها، معتبراً أنها طعنته وانتقصت من مكانته تجاه أبنائه. والحق يقال إن والدتي، التي لم تكن تقصد إطلاقاً إهانته، كانت تطمح في

أعماقها، منذ زمن طويل، أن تستقل وعائلتها عن المنزل الأبوي؛ فاستغلَّت ذلك الخلاف الذي كان من الممكن تسويته كما تريد، من خلال بعض السياسة والحكمة، من دون ترك المنزل، ودفعت الأمور باتجاه الانفصال عن المنزل الأبوي...

وأتذكر أن أمي غالباً ما كانت تردِّد على مسمعي أن...

"منذ تزوجت والدك يا أكرم وأنا أتطلع إلى أن يكون لي منزل مستقل. وقد تأمَّن لي هذا بعد ثلاث عشرة سنة من زواجي من أبيك...".

كانت أمي تحلم، منذ زواجها من أبي، بمنزل خاص لها ولعائلتها؛ وكان هذا من حقها. ولكن، بالنسبة لي، كان وَقْعُ ما حدث، وارتباطه بحادث تركِنا لما أضحى يسمى "بيت جدي"، مؤلماً جداً.

ففي تلك الليلة الأخيرة لنا في ذلك المنزل اختبأت تحت الفراش وبكيت. لم يشعر بي أحدٌ في حينه؛ ولم أحاول من جانبي أن أُشعِر أحداً بألمي. ولكن، في ذلك اليوم، وفي تلك الليلة تحديداً، انتهت طفولتي... مع انفصالي الجسدي عن ذلك العجوز الذي كنت أحب أكثر من الجميع.

أكثر ما كنت أخشى هو ألا يكون بوسعي من الآن وصاعداً أن أرى وجهه الطافح، ولا عينيه الساخرتين، ولا أن يعود بوسعي الاستماع إلى صوته المجلجل يسأل في كل صباح عن الطربوش وعن العصا...

كما كنت لا أرغب في ترك "عين الكرش" التي أصبحت أحبها، ولا أرغب في ترك أصدقائي، وخاصة منهم فاروق، ولا حتى ذلك البائع المتجول الذي كان مصاباً بمرض عضال (الساعة) و"يُتَرْغِل" معنا بعدة لغات...

كما كنت غاضباً في حينه، خاصة لأن أحداً لم يسألني عن رأيي فيما حدث. ولو سُئلت لكنت أجبت بأني لم أكن موافقاً قطعاً على تركنا المنزل البطريركي. فالاستقلال الذي كانت والدتي تحلم به لم يكن يهمني؛ لا بل كان يخيفني. وما كان يهمني كان فقط تلك الصداقة الأولى والأجمل التي كانت تربطني بالعجوز والتي لم أكن أريد فقدانها...

والحق يقال إني لم أفقدها... حيث كان أول ما فعله حين صفح عنَّا وتصالحنا من جديد أنْ أجلسني على ركبتيه وضمَّني إليه، ثم استدار ليتحدث إلى والدي ووالدتي...

كما أني لم أكن واثقاً أن يكون في وسع والدي تحمل أعباء المنزل وحده. ولكن ما حدث كان أن هذا الانشقاق مكَّن أبي الذي أضحى مسئولاً بشكل مباشر عن عائلته من ضبط الأمور على أفضل وجه. وحده عمي جورج بقي، بحجة تناوله الغداء عندنا، يشارك نسبياً في بعض مصروف منزلنا...

وكان منوال حياة جدِّي ما زال على حاله، وإن كانت معالم الشيخوخة قد بدأت تنعكس بوضوح على جسمه الضخم الذي بات يعاني بشكل خاص من آثار الزيادة في حامض البول والشحوم؛ مما كان يستلزم تغييراً جذرياً في عاداته ونظامه الغذائي. وكان هذا بالنسبة له من سابع المستحيلات. فالعادات

عنده مقدسة، والطعام الدسم كان من أهم تلك العادات – التي كان منها أيضاً أن يذهب كل شهرين إلى حلب لملاحقة دعوى الأرض (التي لا تنتهي)، ولزيارة أخيه كريم الذي بات أيضاً يعاني من تدهور في حالته الصحية ألزمه المنزل. وأيضاً...

كان الجميع قد صرف النظر عن إمكانية زواج عمِّي جورج وقبل ببقائه عازباً. أما لماذا كان ذلك؟ فالله أعلم. ولكنني أقدِّر اليوم أن عدم زواجه إنما كان يعود نسبياً إلى طبيعته الرومانسية وخجله المفرط، من جهة؛ مما لم يمكِّنه من التعرف إلى فتاة أحلامه...

ولكن ما لم أكن أفهمه آنذاك، من جهة أخرى – وربما كان هذا هو الأساس – هو أن عدم زواجه كان يعود إلى حبِّه الكبير وشعوره بالمسؤولية الشخصية تجاه عائلة شقيقه الأصغر – وتحديداً تجاهي وتجاه إكرام، وخاصة تجاه سمير وريما التي كانت ما تزال رضيعة. فنحن كنا عائلته الصغرى، ولم يكن مستعداً لأن يفرِّط بنا.

وكان مطلع العام الدراسي (1956–1957) وتسجيلي طالباً في الصف السادس لدى مدرسة الآباء العازريين التي كانت تقع في وسط حي باب توما. وبتُّ أذهب إلى المدرسة سيراً على الأقدام، بينما بقيت شقيقتي إكرام، الطالبة في مدرسة الفرانسيسكان، تذهب إلى المدرسة بالباص...

كانت مدرسة الآباء العازريين كبيرة من حيث بناؤها ومتصلة مع مدرسة أخرى (أصغر منها) للفتيات تديرها راهبات من نفس المؤسَّسة الدينية الكاثوليكية (راهبات العازرية). كانت تقع على طرفي زقاق صغير، حيث كان يوجد دير الرهبان في الجهة اليمنى إلى جانب الكنيسة، وقسم الحضانة، وباحته صغيرة؛ أما في الجهة اليسرى فيقع الجزء الأكبر من المدرسة الذي كان يشتمل على أقسامها الثلاثة: الابتدائي والإعدادي والثانوي...

وكان مدير المدرسة اللبناني الأصل (والذي عُيِّن في نفس العام) هو الأب يوسف عطا الله الذي كان يدرِّسنا مادة الديانة. ومعه كان المحاسب الأب جورج خوري الذي يدرِّسنا الرياضيات. وكان الأب سومو Seumeux (الفرنسي) يدرِّسنا اللغة الفرنسية، والأب هارود Harood (الإنكليزي) يدرِّسنا اللغة الإنكليزية.

وطبعاً، كان الأب يوسف معلولي يشرف على تربيتنا الأخلاقية والرياضية. وكان هناك أيضاً الأستاذ الطيب سبع الليل للغة العربية، وآخرون لم أعد أذكر أسماءهم للعلوم والتاريخ والجغرافيا...

كانت دراستنا تبدأ في تمام الساعة الثامنة وتستمر حتى الثانية عشرة ظهراً. ثم، بعد استراحة للغداء مدة ساعتين، كنَّا نعاود الدراسة حتى الساعة الخامسة بعد الظهر؛ ننتقل بعدها إلى قاعة المطالعة حيث كنَّا نبقى مدة ساعة ونصف، قبل أن يؤذَن لنا بالانصراف إلى منازلنا، وقد درسنا دروسنا وكتبنا وظائفنا.

كانت العطلة الأسبوعية يوم الأحد. لكننا، كمسيحيين، كنَّا ملزمين بالحضور في الساعة الثامنة صباحاً للصلاة في كنيسة المدرسة. وكان يوم الأربعاء يوم دوام نصفي. أما يوم الخميس فكانت الساعة الأولى منه بالنسبة للمسيحيين قداساً إلزامياً في الكنيسة، بينما كان المسلمون (واليهود) من طلاب المدرسة يقضون هذه الساعة وهم يلعبون في الباحة...

وأفكر اليوم أني أحببت العازرية منذ اليوم الأول لانتقالي إليها؛ بينما لم أكن، في المقابل (كما سبق وأشرت)، أحب مدرسة الفرير. وهذا كان يعود للفارق بين المدرستين، إن لم نقل بين المؤسَّستين الدينيتين، الذي شعرته منذ البداية ولم أفهمه إلا لاحقاً جداً...

فبمقدار ما كان جو الطلاب عند الفرير متعالياً، كان الجو عند العازريين أكثر بساطة، مما جعلني أحب العازرية. وحب المدرسة كان يتجسَّد من خلال تلك العلاقة الجيدة التي نشأت منذ اليوم الأول بيننا كطلاب مستجدِّين وبين جهازها الإداري والتدريسي الذي عرف كيف يتفاعل على أفضل وجه مع طلابه. وقد تعمَّقت تلك العلاقة مع الزمن. فجميعنا مثلاً كان يحب – ويهاب معاً – الأب يوسف عطا الله مديرنا. وجميعنا كان يحب – إن لم نقل يقدِّس الأب معلولي – الذي كان يختلف من حيث العمق الروحي والقلب عن جميع الآخرين؛ فقد كان يشعُّ على الجميع بحيويته وإخلاصه وتفانيه في العمل والتعامل مع الطلاب، كباراً وصغاراً. وأيضاً كنا نحب الأب سومو؛ لكني أعترف اليوم خجلاً أنه كان موضع تندُّرنا، خاصة وأنه كان المسؤول عن تعليمنا الترتيل الديني أو الكورال الذي كنَّا نجده مضيعة للوقت. كما كنا نخاف ونتجنب الأب هارود الذي، لولا قسوته الظاهرة وإصراره، لما تعلَّمنا الإنكليزية. ولكن – وهذا هو الأهم – كنَّا ننظر إليهم جميعاً كوحدة متكاملة. فهم كانوا بالنسبة لنا في حينه هذه المدرسة التي أحببنا والتي، من خلال أجوائها الطيبة ونظامها الذي كان مزيجاً من الصرامة والرفق، تجاوزنا طفولتنا...

وانقضت تلك السنة الأولى التي قضيتها في مدرسة "العازرية" التي كانت متميزة من حيث أحداثها...
ففي 29 تشرين الأول 1956 وقع العدوان الثلاثي (الإسرائيلي–البريطاني–الفرنسي) على مصر، وكانت تلك الحرب التي عُرِفَت بحرب السويس التي أتذكر منها تلك المظاهرات الصاخبة المؤيِّدة لمصر التي كان بعضها يطرق أبواب مدرستنا فيُخرِجُنا منها ويقطعنا عن دروسنا...
وأصبح عبد الناصر، نتيجة لـ "تأميم القنال" ولتلك الحرب التي ربحها "سياسياً"، معبود "الشارع السياسي" في بلدنا.
أما في كانون الثاني 1957 فكان طرح الحكومة الأمريكية لـ"مبدأ أيزنهاور" الذي نصَّ على استعداد "زعيمة العالم الحر" بأن تملأ الفراغ الذي تركته بريطانيا وفرنسا وراءهما في المنطقة، منعاً من أن تستغله الشيوعية الدولية. وكان (طبعاً) رفض سورية "القطعي" لهذا المبدأ...
نجحت بتفوق في صفِّي. وتوفي جدي حسيب. فسافر والدي ووالدتي وجدِّي إلى حمص للمشاركة في العزاء...
"لم نذهب في صيف هذا العام 1957، كما في العامين الماضيين، لقضاء كامل العطلة الصيفية في لبنان. فوضعنا المادي في تلك السنة لم يكن مريحاً بسبب انفصالنا عن جدك. فقط اكتفينا بالذهاب لمدة أسبوعين لزيارة خالتك أوديت في عاليه. وبقينا معظم الوقت في دمشق..."
حيث كانت الأجواء مضطربة. فقد كانت نقاشات مستمرة وحادة جداً داخل المجلس بين نواب "الأكثرية" الحكومية، المدعومة من "الشارع" ومن الجيش، وبين نواب "حزب الشعب" الذين اعترضوا بشدة في تلك الأيام على أجواء الإرهاب المباشر وغير المباشر التي كانت سائدة وتمارَس ضدهم...
وكانت الأحاديث تدور عن "حشود تركية"، وعن اكتشافات جديدة لمؤامرات استعمارية جديدة لقلب نظام الحكم، وعن تعيين "الشيوعي" عفيف البزري[2] لرئاسة الأركان العامة...

---

[2] يقول السيد باتريك سيل في كتابه الصراع على سورية "*... وبعد يوم واحد استقال نظام الدين من منصبه كرئيس للأركان العامة وحلّ محله عفيف البزري الذي وصفته صحيفة النيويورك تايمز في السابع عشر من آب بأنه شيوعي منظم وضابط مؤيد للسوفييت علناً ...*" وعن هذا الأمر كانت تتحدث أيضاً الأقاويل التي كانت تملأ البلد في حينه. ولكن، شكنا بصحة تلك الأقاويل هو الذي

وكانت، أيضاً ودائماً وكالعادة، مظاهرات من "الشارع السياسي" أمام البرلمان الذي كانت أغلبية نوابه تفضل اتِّباع سياسة أقل تطرفاً وأقل عداء للغرب؛ الأمر الذي انعكس سلباً على أجواء البلد التي أضحت متوترة، وخاصة على الصعيد الطائفي، حيث كانت تفجيرات قرب بعض الكنائس والمدارس المسيحية في حلب.

وأيضاً، كان الصراع مع إسرائيل قد انعكس سلباً على أوضاع اليهود من أبناء البلد الذين كانت أحوالهم قد ساءت عموماً بعد حرب فلسطين. فبعد أن كان لهم في برلمان 1947 نائبٌ عن دمشق، صارت الحكومة والناس تنظر إليهم بارتياب. كان بعضهم قد تمكَّن، في حينه، من مغادرة البلد إلى إسرائيل أو إلى أمريكا؛ لكن قسماً هاماً منهم كان ما يزال باقياً، حيث لم يكن هناك إجمالاً تمييز أو اضطهاد ضدهم، كما بقيت لهم بعض الوجوه المحترمة على صعيد البلد، كالطبيب الدمشقي طوطح الذي كان يعالج الفقراء مجاناً (تقريباً)، وكان الجميع يحترمه...

وكان معنا في مدرسة العازرية بعض الطلاب اليهود الذين كانت علاقتنا بهم عادية جداً، ولم تترك لدي أي انطباع؛ بمعنى أننا لم نكن نلحظ أنهم "يهود". وأتذكر أنه لم تكن لعائلتي أية علاقة بعائلة يهودية. أتذكر فقط خلال طفولتي اثنين من "اليهود الشوام" الذين كانوا يترددون إلى منزلنا بين الحين والآخر. كان أولهما يدعى حاييم، وكان سمكرياً (أي مصلِّح مدافئ وبوابير كاز وأدوات صحية)؛ وكان الثاني يدعى خليل، وكان تاجراً متجولاً للثياب والحاجات العتيقة...

وكان والداي، وخاصة جدي، يتعاملون مع الاثنين (كما مع الجميع) بمحبة وإنسانية، الأمر الذي خلق بينهم وبيننا نوعاً من الصداقة – وخاصة مع حاييم الذي سارَرَ والديَّ ذات يوم بألمه لانقطاع صلته بأبنائه الذين تركوه وهاجروا إلى إسرائيل. وأتبسَّم حين أتذكر ذلك اليوم الذي سألت فيه والدتي حاييم (بسذاجة "حمصية"):

– هل صحيح يا حاييم أنكم تذبحون طفلاً مسيحياً قبل كل عيد فصح، ثم تخلطون دمه بخبزكم المقدس؟

وكيف انتفض هذا الأخير صائحاً ومحتجاً وقد ترقرقت الدموع في عينيه:

– ما الذي تقولينه يا مدام؟! ما الذي تقولينه؟!! نحن بشر مثلكم!

وكادت الصلة أن تنقطع في ذلك اليوم بين والدتي، التي أحست مباشرة بخطئها فتلعثمت، وبين حاييم الذي غضب محقاً لأنه شعر بالإهانة، لو لم يتدخل جدي وأبي – رحمهما الله – الذين طيَّبا خاطره، وأعادا الأمور إلى نصابها...

دفعنا على وضع أهلتين على تلك الصفة التي نسبت في حينه إلى السيد البزري الذي لم يكن شيوعياً كما تؤكد عائلته التي يفترض أن تكون الأعلم بالموضوع.

وأتذكر كيف كنت أنظر، بطرافة، حين ألتقيه أحياناً مساء السبت في ساحة باب توما، إلى "بائع الثياب العتيقة" ذاك، وهو يتبختر متأنقاً مع زوجته وبناته، فيحييني بكل فخر مبتسماً، وأرد له التحية.
وانتهت هذه الصيفية الاعتيادية التي قضيت معظمها في دمشق، حيث كنت ألعب في الشارع أمام منزلنا، وعدت إلى المدرسة طالباً في الصف السابع.
وجاء العام الدراسي (1957-1958) الذي كان أيضاً غير عادي من حيث أحداثه.
"في نهاية عام 1957 تزوج خالك ألبير من فتاة حمصية من عائلة الشغري، واسمها ناديا...".
وأتذكر جو النقاشات الحادة والتعليقات الساذجة و/أو العميقة في أوساط عائلتي، وفي المدرسة، وفي المنزل بين أبي وعمي جورج ومن كان يأتي لزيارتنا من الأصدقاء والأقارب، كآل أتاسي وآل رزق الله، وغيرهم...
كانت آراء أبي وعمي جورج مؤيّدة عموماً للخط العام السائد، ولمواقف الرئيس عبد الناصر تحديداً، ومستنكرة لمواقف بعض السياسيين السوريين الموالين للغرب، ومنهم في تلك الأيام قريبنا السياسي الحلبي من "الحزب الوطني" ميخائيل ليان الذي اتُّهم آنذاك بالاشتراك في مؤامرة مؤيّدة للعراق تهدف إلى قلب نظام الحكم في سورية. بينما كانت مواقف البعض الآخر، كعمي رزق الله، أكثر تحفظاً تجاه ما كان يُطرَح. ووسط هذا الخضم من الآراء المتصارعة كنت أقف حائراً. فعواطفي كانت مع الموقف العام الذي كان يؤيّده أبي وعمي جورج. بينما كنت أجد الكثير من المنطق في الآراء المتحفظة والتعليقات اللاذعة لعمِّي رزق الله – تلك التي كنت استمع إليها باهتمام حين كان يزورنا أو نزوره، أو حين كنَّا نلتقيه في "مقهى البرازيل"، حيث كان يأتي ليجتمع مع بعض أصدقائه من السياسيين وغير السياسيين.
وأتذكر ذلك المقهى الطريف الشهير الذي كان ملتقى أهل السياسة ورجال الفكر في دمشق التي كانت تعيش خريف ديموقراطيَّتها؛ ذلك الذي عرفته عن طريق أبي وعمي جورج اللذين كانا أحياناً يصحبانني إليه معهما في أيام العطل. كان مقهى البرازيل، الذي يقدِّم فقط قهوة الإسبرسو، ملكاً لشخص مسيحي من عائلة دياب ويقع في زاوية مواجهة لمقهى الهافانا الذي ما زال قائماً إلى يومنا هذا. وقربه كانت تقع إحدى أفضل مكتبات دمشق آنذاك التي كانت تدعى بـ"المكتبة العمومية"؛ وكانت تقع مواجهها، ملاصقة لـ"مقهى الهافانا"، سينما روكسي (سينما الأهرام اليوم) ومكتب رزق الله...
وحيث جرى حديث طريف بيني وبين أبي:
– من هذا الشخص الجالس هناك على تلك الطاولة يا بابا؟
– إنه أكرم الحوراني. (وكانت تحيط به شلة من أصدقائه وأتباعه.)
فهززت رأسي وكأني كنت أدرك في حينه ما كان يمثِّله أكرم الحوراني بالنسبة للبلد...
– ومن هذا الطويل لابس القنباز الجالس على الطاولة المجاورة والذي يناقشه ضاحكاً؟
ضحك أبي وأجابني: هذا رئيس حزب "يصطفلوا"!" سألت أبي مندهشاً:

– وما هذا الحزب؟! أجابني:

– ربما كان صاحبه أفهم إنسان في هذه البلد!

وانقطع حديثي "السياسي" مع والدي مع دخول عمِّي رزق الله الذي حيَّا أكرم الحوراني وبعض الجالسين في المقهى ثم جلس معنا... وسأل أبي أخاه رزق الله:

– كيف الحالة يا رزوق؟ فأجابه هذا الأخير متبسماً:

– أكل هوا يا أريس..

"أكل هوا"... ربما – وإن كان من الطبيعي والمنطقي جداً أن تنعكس الأجواء والمصالح الداخلية والمحيطة آراء ومصالح تتصارع على حلبة الساحة السياسية في بلدنا وفي المنطقة، كما في أي بلد وأية منطقة. ولكن...

الذي جرى ويتعلق بنا، ولم نفهمه إلا لاحقاً، كان أن الصراع الداخلي لم يكن نزيهاً، ولا اللعبة الديموقراطية محترمة، وأن الجيش نصَّب نفسه وصياً على البلد، وأن الأحزاب العقائدية لم تكن عقائدية إلا بمقدار تفكيرها بالتسلُّط على غيرها وعلى البلد. وحين كاد كل شيء يضيع من خلال الفوضى التي وصلنا إليها، فرضوا تلك الوحدة الاندماجية مع مصر، هروباً إلى أمام، من جهة، ومحاولة متسرعة واعتباطية لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، من جهة أخرى. فالبلاد كانت أصبحت في مهب الريح، منعزلة وممزقة...

وأفكر أن السبب الحقيقي لتمزُّقها وانعزالها كان أنها لم تعرف كيف تحافظ على توازنها وسط محيطها... وكان هروب إلى الأمام، وتصعيد من "الشارع" بالدعوة إلى الوحدة مع مصر – تلك الوحدة التي فرضها الجيش ورحَّب بها الجميع... تقريباً.

الفصل الرابع

سنوات المراهقة...
(1961-1958)

آ

وفاة الجد...

طائر الليل: وما زالت عيناي تدمعان حين أسمع تلك الترنيمة الكنسية الحزينة تردِّد كالعنين: فليكن ذكرُه مؤبَّداً... فليكن ذكرُه مؤبَّداً...

كان شتاء 1957-1958 أبرد من الذي سبقه... أو، على الأقل، هذا ما ادعاه جدّي وأبناؤه الذين اتفقوا على اللقاء في صبيحة ذلك اليوم المثلج من أواخر كانون الأول 1957 في "مقهى الروضة" الذي كان – وما يزال – يقع في شارع العابد.

كان والدي – كالعادة – أول من وصل. ثم تلاه جدِّي وعمي جورج اللذان دخلا المقهى وهما ينفضان الثلج عن منكبيهما. وسرعان ما علَّق العجوز قائلاً:

– المجانين وحدهم يغادرون منازلهم في مثل هذا الطقس!

وجلس الثلاثة يرتشفون الشاي بصمت لم يقطعه إلا فتح الباب بقوة ودخول عمِّي رزق الله الذي انضم إليهم. ثم تلاه بعد عشر دقائق عمي فلاديمير الذي كان آخر الحاضرين. وردَّد العجوز مرة أخرى:

– نعم، المجانين وحدهم يغادرون منازلهم في مثل هذا الطقس!

ولم يكن في المقهى من أحد سواهم إلا صاحب المقهى وأحد الخدم الذي كان ينظر إليهم متبسماً. ولم يحضر أحد سواهم في ذلك الصباح.

ونظر الأب وأبناؤه بعضهم إلى بعض بدهشة، ثم انفجروا جميعاً مقهقهين، بينما كان والدي يعلِّق:

– هكذا إذن يا بابا! نحن في تعريفك "عائلة مجانين"!

"عائلة مجانين" – ربما! ولكن، قطعاً، عائلة كانت تعيش حياتها كسواها – وإن تخلل تلك الحياة بعض الصخب؛ وخاصة في نهاية العام، حيث كان أكثر ما يشغل منزلنا هو احتفالات أعياد الميلاد ورأس السنة. فبدءاً من العشرين من شهر كانون الأول من كل عام كان والدي يباشر نصب شجرة الميلاد (التي كانت في حينه غصن أرزة طبيعية) وتزيينها وإقامة المغارة. كما كانت والدتي تبدأ بالتحضير لطعام العيد. وكان الجميع يساهم، بالتنسيق مع عمي جورج، في شراء الهدايا و"إخفائها" في مكان (يعرفه الجميع!)، بانتظار حلول ليلة الميلاد التي كنَّا دائماً نقضيها سوية كعائلة. أما ليلة رأس السنة فكان أهلي يقضونها عند بعض الأصدقاء، بينما كنا (أنا وإكرام) نبقى وحدنا في المنزل.

ويستوقفني الحنين... فهذه المناسبة تذكِّرني بوالدي؛ خاصة وأن اكتشاف الشجرة والمغارة اللتين رافقتاني منذ أيامي الأولى كان من خلاله، وعلى يده تحديداً؛ ولأن أجمل لحظاته ولحظات العائلة كانت حين كان يصنعهما في نهاية كل عام وهو يغنِّي بصوته الأجش:

Il est né le divin Enfant...
Jouez Hautbois, raisonnez Musettes...
Il est né le divin Enfant...
Chantons tous son avènement...

[لقد ولد الطفل الإلهي...

فاعزف يا أوبوا واصدح يا مزمار...

لقد ولد الطفل الإلهي...

فلنغنِّ جميعنا لمجيئه...]

وأعترف بخجل أني كنت ما أزال أتجنَّبه في تلك الأيام... لأني، كما سبق وأشرت، كنت أخجل منه بعض الشيء، بحكم تأثير الوالدة، من جهة، وبسبب قصوري عن فهمه، من جهة أخرى. كنت أفضِّل في أعماقي – بكل غباء! – لو كان غنياً كعمِّي رزق الله، لأني قطعاً لم أكن في حينه أدرك أن كلَّ إنسان هو في النهاية ما هو. والذي بقي عالقاً منه في قلبي وذاكرتي هو ذلك الصدق المرعب الذي كان يميِّزه، والذي كان بعض أقرب المقربين إليَّ يعتبره سذاجة!

وكان في 11 كانون الثاني 1958 احتفال لطيف في منزلنا بعيد ميلادي الثالث عشر، دعوتُ إليه بعض أصدقائي القدامى والجدد من الفرير والعازرية، وبعض الفتيات من المعارف والأقارب. لَهَوْنا كما يفترض أن يلهو من هم في مثل سنِّنا، وكما يلهو اليوم أولادي في تلك المناسبات السعيدة، غير عابئين بما يجري حولهم من أحداث مصيرية وغير مصيرية!

وكان في 11 كانون الثاني 1958 الإعلان عن سَفَر وفد يمثل "اللجنة العسكرية" إلى مصر للاجتماع إلى الرئيس عبد الناصر والطلب إليه الموافقة على الوحدة الاندماجية والفورية مع سورية. وقد أضحى معروفاً اليوم أن تلك اللجنة كانت، من وراء الستار، الحاكم الفعلي للبلد في الحقبة "الديموقراطية" الماضية. كان ذلك الوفد برئاسة اللواء عفيف البزري، رئيس الأركان؛ وقد ضم عدداً من كبار الضباط أعضاء اللجنة، من بعثيين وغير حزبيين.

وكانت هذه "اللجنة" قد رفعت أيضاً في حينه إنذاراً نهائياً Ultimatum بهذا الخصوص إلى رئيس الجمهورية السيد شكري القوتلي، الذي يقال إنه فوجئ واستنكر في البدء، ثم رضخ للأمر الواقع، فوافق على التجاوز العسكري لشرعيته المنتهكة، و...

قرر ركوب الموجة "الوحدوية"، التي كان حزب البعث آنذاك من أنشط دُعاتها. فسافر إلى مصر في 13 كانون الثاني 1958 ممثلُه الأبرز في الوزارة، وزير الخارجية آنذاك، السيد صلاح البيطار، للالتحاق بالوفد العسكري ودعم مطالبته بالوحدة.

وكان في 15 كانون الثاني 1958 الإعلان من القاهرة عن قيام تلك الدولة الواحدة التي سُمِّيتْ بـ"الجمهورية العربية المتحدة"، وذلك بعد أن وافق السوريون الموجودون يومذاك في مصر على طلب الرئيس جمال عبد الناصر إبعاد الجيش عن السياسة وحل جميع الأحزاب...

تلك الدولة التي أيدت قيامها إجمالاً أيضاً الحكومة السورية آنذاك، ماعدا وزير الدفاع بالوكالة السيد خالد العظم الذي سجَّل تحفظه رسمياً في محضر جلسة مجلس الوزراء، والبرلمان السوري في شبه إجماع، ماعدا أيضاً الشيوعي خالد بكداش الذي غادر البلاد متغيباً في حينه، متعمداً عدم حضور تلك الجلسة التاريخية. فقد وافقت جميع الأحزاب السورية تقريباً (وظاهرياً) على حلِّ نفسها، ماعدا الشيوعيين الذين رفضوا حلِّ الحزب.

ثم كان الـ22 من شباط 1958، وكان استفتاءٌ مضمون النتائج في كل من سورية ومصر على الوحدة وعلى رئاسة عبد الناصر لها. وقد جاءت نتيجة هذا الاستفتاء (كما زعموا، وأضحى تقليداً بعدئذٍ) الموافقة بنسبة 99,1 % من الأصوات... فقط!

وجاء عبد الناصر الذي كان أصبح رئيساً لـ"الجمهورية العربية المتحدة" في أول زيارة له إلى سورية، وألقى خطاباً هاماً من على شرفة قصر الضيافة في دمشق، أعلن فيه عن اكتشاف مؤامرة جديدة – سعودية هذه المرة – ضد الدولة الجديدة.

وجاء تشكيل أول حكومة فيها لصالح البعثيين عموماً. فكان البعثي أكرم الحوراني والوطني صبري العسلي فيها نائبين لرئيس الجمهورية. وكان البعث (الذي يُفترَض أنه حلَّ نفسه) ممثَّلاً في هذه الوزارة بثلاثة وزراء من قيادييه، هم السادة: صلاح البيطار وخليل الكلاس ورياض المالكي. وكان أهم شخصياتها رئيس المخابرات العسكرية، العقيد عبد الحميد السرَّاج الذي أصبح وزيراً للداخلية.

"جاء جورج يومها للغداء عندنا في منزلنا كالعادة. وقد لاحظت أنه كان منفعلاً، بمعنى أنه كان يحمل أخباراً هامة يريد أن يزفَّها إلينا. وفعلاً قال فور جلوسه إلى المائدة: "كنت البارحة ليلاً يا جماعة أحضر فيلماً في سينما الأمير. وفي فترة الاستراحة، لن تصدقوا من وجدت معنا في السينما. كان الرئيس جمال عبد الناصر بشخصه قد جاء ليحضر الفيلم. فصفقت له القاعة بحرارة – وكنت أنا من بين المصفقين...".

فأجبته: "ولم العجب يا جورج؟! وقد كان خالد العظم يذهب دائماً بشكل اعتيادي إلى السينما، ويجلس بشكل طبيعي بين الناس...".

فرد جورج: "ولكن يا أريس هذا عبد الناصر! وليس خالد العظم..."."

وانتقل عمِّي رزق الله وعائلته إلى منزل جديد كبير وجميل في حيّ أبو رمانة خلف السفارة السعودية، كان قد اشتراه بـ60000 ليرة سورية. كما اشترى سيارة أمريكية كبيرة من نوع شيفروليه وعيَّن سائقاً لها، وبيتاً جميلاً في مصيف الزبداني.

وتزوجت خالتي فينوس من خياط غني من أسرة الكباش الحمصية؛ فأصبحت جدتي أولغا تسكن وحدها مع خالي إميل في الطابق العلوي من بناء الحميدية؛ بينما انتقل خالي ألبير، الذي كان يعمل في حينه قاضياً، ليسكن في الطابق السفلي من البناء.

كما اشترى لي والدي دراجة (بيسيكليت) صرت أذهب بها إلى المدرسة... وأعاكس الفتيات! ففي تلك الأيام صرت مراهقاً...

وكانت المراهقة تعني بالنسبة لي، كما بالنسبة إلى معظم الشبان الذين كنت أعرفهم من سنِّي، التغير في النظرة إلى الجنس الآخر، أولاً، والتشبُّه بالكبار من خلال المظاهر الفارغة، وخاصة التدخين والقمار، ثانياً.

والحق أقول إنني تعاطيت التدخين في تلك الحقبة، لمدة شهرين تقريباً بشكل متقطع؛ ثم، لما لم أستسغه، انقطعت عنه انقطاعاً كاملاً، ولم أزل إلى اليوم. أما القمار، فقد تعاطيتُه بنهم في حينه مع العديد من أصدقائي في الصف. وأيضاً...

لما كانت المراهقة تعني، في جملة ما تعني، التغير في الذوق والاهتمام الموسيقيين، فقد غدوت في تلك الأيام من عشاق موسيقى الروك الأمريكية، وخاصة من عشاق المغني الأمريكي إلفيس بريسلي، حيث لم أكن أتذوق في حينه الموسيقى الكلاسيكية ولا الموسيقى العربية. لكني أسجل هنا أنه كان لعمِّي جورج، المحب للأغاني الرومانسية الفرنسية والأمريكية، الذي كان أيضاً من عشاق موسيقى الجاز، دورٌ هام في تشذيب ذوقي الموسيقي نحو الأفضل. فبت منذ ذلك الحين أشاركه حبه لتلك الأغاني والموسيقى الراقية. وأخيراً...

وهذا أهم ما في الأمر، بدأت المراهقة تتجلَّى بالنسبة لي بازدياد شغفي بالمطالعة. فبدأت قراءة مؤلفات همنغواي الذي أهداني عمِّي جورج في البدء روايته الأجمل والأعمق، العجوز والبحر، التي استحوذت علي مأساتُها، وإن لم أدرك في حينه كامل عمقها.

كما بتُّ أشارك في بعض النشاطات الكشفية عن طريق المدرسة، و"الشبيبة الطلابية المسيحية"، و"النادي الغسَّاني"، الذي كان يقع في حي القصاع قرب مكان سكني...

ومن خلال "هدوء ظاهر" (هو السمة المميزة لجميع الديكتاتوريات التي عشناها) كانت الأوضاع الداخلية والخارجية تتفاعل وتنعكس بين الناس من خلال ما كانت تتناقله وسائط الإعلام، بعامة، والشائعات والأحاديث، بخاصة...

والشائعات كانت تتحدث عن تسريح "الضباط الشيوعيين" من الجيش السوري. والأنباء كانت تتحدث عن قبول استقالة رئيس الأركان "الشيوعي الميول" عفيف البزري في نيسان 1958. وكانت هذه الإجراءات متوقعة.

كما تفجرت الأوضاع في لبنان، الذي اختلَّت تركيبتُه بسبب انحياز رئيسه كميل شمعون، والمسيحيين الموارنة من ورائه عموماً، إلى التوجهات الغربية، بينما تصاعدت العواطف في الشارع الإسلامي اللبناني نحو عبد الناصر خاصة. فكان الـ8 من أيار 1958، وكان اغتيال الصحفي نسيب المتني وبداية حرب أهلية طائفية محدودة، دعمت "الجمهورية العربية المتحدة" فيها الجانب الإسلامي المعارض لشمعون ولتوجهاته...

تلك الأحداث التي كانت تتناقلها الإذاعات... التي كانت تتناقل أيضاً أنباء "الثورة الجزائرية"، وانعكاساتها الحادة على الأوضاع الداخلية في فرنسا، حيث كان في الـ31 من أيار 1958 استدعاء الجنرال ديغول للعودة إلى سدة الحكم.

وطبعاً، لم نذهب في صيف عام 1958 إلى لبنان بسبب الأحداث هناك، وإنما اكتفينا بالذهاب لمدة أسبوعين إلى بيت جدي في حمص، ثم إلى الزبداني حيث قضينا أسبوعين آخرين ضيوفاً على عائلة عمِّي رزق الله. أما باقي الصيفية فكان في دمشق. ولكن هذا الصيف كان حاراً جداً... ومتميزاً جداً من حيث أحداثه...

ففي صبيحة الـ14 من تموز 1958 – وكنا في حينه في حمص – استيقظت متأخراً على ضجيج مذياع "مقهى الحميدية" يلعلع، والناس من حوله في الشارع المواجه لبيت جدِّي تهلِّل وتهتف وتصفق... للأنباء التي كانت تنقل أولاً بأول أخبار الانقلاب (الثورة) الدموي الذي وقع في العراق، وأطاح في حينه بالأسرة الهاشمية الحاكمة، وأدى إلى انهيار حلف بغداد.

وعمَّت سورية "العَراضات" المؤيدة للثورة العراقية المظفرة والمندِّدة بالإمبريالية الأمريكية والبريطانية والفرنسية، والمؤيدة خاصة للرئيس عبد الناصر الذي سارع بالعودة إلى إقليمه الشمالي، قاطعاً رحلته إلى يوغوسلافيا. فما جرى كان من الممكن أن يؤدي إلى فَلَتان في المنطقة، وكان خطيراً جداً من وجهة نظر الغرب الذي...

سارعت أهم دوله – الولايات المتحدة في حينه – إلى إنزال قواتها في لبنان في الـ15 من تموز 1958. كما سارعت بريطانيا بعدها مباشرة، في الـ17 من نفس الشهر، إلى إنزال مظلييها في الأردن.

وانتهت الحرب اللبنانية من خلال تسوية يقال إن الولايات المتحدة رَعَتْها، وإن الرئيس جمال عبد الناصر وافق عليها؛ تمثلت هذه التسوية بامتناع شمعون عن ترشيح نفسه لرئاسة ثانية، مقابل توقف الجمهورية العربية المتحدة عن مساعدة الجانب الإسلامي المحارب، من جهة، وانتخاب (الحيادي الذي رفض تأييد أي جانب في الحرب الأهلية) قائد الجيش الجنرال فؤاد شهاب رئيساً للبنان، من جهة أخرى...

ثم اعترفت الولايات المتحدة وبريطانيا بالأوضاع الجديدة في العراق.

وبدا وكأن عبد الناصر وخطَّه قد انتصرا على طول الخط؛ أو على الأقل، هذا ما كانت تصوره لنا (ونصدِّقه عموماً) دعايتُنا الرسمية وأناشيدنا التي كانت تهلل لـ...

"الريّس..."، "كبير القلب..."، الذي "إحنا اخترناه... وحنمشي وراااااااه..." ولـ...

"بيروت بعد العدوان... [التي زال عنها] الاستعمار والطغيان...".

وتدعو العراق – الذي أضحى "شقيقاً" – إلى الالتحاق بـ"الجمهورية العربية المتحدة" التي باتت، حسبما كان يردد إعلامنا، "رأس رمح مسدَّد إلى قلب العدو الإسرائيلي" الذي غدا واقعاً "بين فكي كماشة" – ذلك الإعلام الذي كان يسبِّح طبعاً بمنجزات العهد، التي كان من أهمها في حينه "قانون الإصلاح الزراعي"، و"السدُّ العالي" الذي باشرنا بناءه "بأيدينا..."!

وكانت عودتي إلى المدرسة (العازرية طبعاً)، وقد أصبحتُ طالباً في الصف الثامن. لم يتغير طاقم أساتذتنا خلال هذه السنة عموماً؛ فقط أصبحت تدرِّسنا العلوم الطبيعية امرأة فرنسية جميلة متزوجة من سوري من عائلة منصور. ثابرت آنذاك على تفوقي الدراسي، وخاصة في مواد الرياضيات والفيزياء والكيمياء والعلوم الطبيعية...

واستمررت، فيما يتعلق بمراهقتي، في لعب القمار بشكل مكثف. كنت والشلة التي ألعب معها نستفيد من كل لحظة فراغ خارج المدرسة لـ"نلعب فَتّ"، مما كان يؤدي أحياناً إلى تأخري بعض الشيء في العودة إلى المنزل مساءً، الأمر الذي انعكس سلباً في حينه على علاقتي بوالدي.

وتزوج خالي إميل من فتاة لوائية الأصل تصغره بعشرين عاماً تدعى فدوى – وكان تعرف إليها عن طريق قريبنا الحلبي الكاهن قسطنطين أنطاكي. فذهب لقضاء أسبوعي عسل في بيروت عند شقيقته أوديت. ثم جاء إلى دمشق حيث قضى بضعة أيام في ضيافتنا.

أضحت فدوى، زوجة أميل، موضوع تندُّر في حلقتنا العائلية، بسبب ضخامة جسمها، من جهة، وخاصة بسبب ما لوحظ منها وأسمته والدتي "بساطتها"، من جهة أخرى. كانت عبارتُها الشهيرةِ حين ترى أي شيء يعجبها في السوق – وكان كل شيء تراه يروق لها: "إميل، حبيبي، اشترِ لي هادا..."، الأمر الذي صار موضوع تندُّر في منزلنا، وانعكس في النهاية سوءِ علاقة بين أهلي وبينها.

وجاءت مع نهاية عام 1958 أنباء من فرنسا تتحدث عن انتخاب ديغول لرئاسة جمهوريتها الخامسة. وحلَّ مطلع عام 1959 مع أخبار من كوبا تتحدث عن استيلاء الثوار فيها، بقيادة فيديل كاسترو، على السلطة.

أما في منطقتنا، فكانت أخبار العراق هي السائدة. وكانت الأنباء تتحدث بإسهاب عن تلك الخلافات الحادة التي نشبت بين قادة "ثورته"، عبد الكريم قاسم الذي لم يكن موافقاً على الاتحاد مع مصر وسورية – وكان يؤيده في ذلك الشيوعيون المحليون ومستنيرو البورجوازية الوطنية – وعبد السلام عارف الداعي إلى الوحدة الذي كان يؤيده البعث وباقي الفئات القومية...

خاصة وأن المسرح الداخلي في سورية ومصر شهد في مطلع عام 1959 تصعيداً كبيراً في الخلاف بين عبد الناصر والشيوعيين المحليين الذين بوشرت آنذاك حملة اعتقالات منظمة ضدهم في سائر أنحاء البلاد. كما قام عبد الناصر بمهاجمتهم بعنف في خطابه الذي ألقاه في دمشق في الـ22 من شباط 1959 من على شرفة قصر الضيافة، الأمر الذي انعكس، إلى حدٍّ ما، سلباً على علاقات عبد الناصر بروسيا والدول الدائرة في فلكها.

وكثرت رحلات عمِّي رزق الله إلى مصر، حيث كان مجلس الأمة قد عيَّنه خبيراً في لجنة توحيد القوانين بين الإقليمين التي كان يترأسها السيد أنور السادات. ولكن...

كان أكثر ما يشغلنا كعائلة، وتدور حوله الأحاديث في المنزل في حينه، هو صحة جدِّي لطف الله التي بدأت تتدهور بشكل متسارع. وكان ذلك اليوم الذي جاء فيه رزق الله وجورج إلى منزلنا في الصباح الباكر، فاجتمعا مطولاً إلى أبي وأمِّي، وطلبا منهما أن ينتقل الجدُّ إلى عندنا لتقوم والدتي على رعايته بشكل أفضل. وافق أهلي على ذلك مباشرة؛ ولكن بقي إقناع صاحب العلاقة بالأمر.

وكان أن ذهب أبي وأمي في نفس اليوم، فاجتمعا إليه بحضور عمي جورج، وأقنعاه بأن يأتي إلى عندنا لبعض الوقت ريثما يتم شفاؤه. وكما فهمت، فيما بعد، اعتذرت منه والدتي في هذا اللقاء عما كان صدر عنها وأساء إليه، ورَجَتْه باكية أن يأتي إلى عندنا، فاقتنع ووافق على المجيء في صبيحة اليوم التالي...

وكان ذلك اليوم التالي، ومجيئه عندنا ظهراً بعد أن ودَّع رزُّوق الذي سافر في نفس اليوم إلى القاهرة لمتابعة أعماله. وقد أحضره عمِّي جورج بسيارة تكسي بعد أن ساعده على ترتيب حاجاته. ولكن – وهذا هو الأهم... جاء وهو يحمل إلينا معه – وقد أعطاه لوالدي – "الكتاب المقدس" و"الأيقونة" التي علَّقها أبي مباشرة على الحائط المواجه لأسرَّتنا في غرفة النوم، مواجه سريري تحديداً...

وقد قدمت له أمي في حينه سرير إكرام، فبات ينام معي ومع سمير في نفس الغرفة، بينما انتقلت شقيقتي لتنام على الصوفا في غرفة الجلوس. أما ريما فكان سريرها الصغير ما يزال في حينه في غرفة والدي.

وكانت تلك الأيام التي تلت مجيئه إلينا، ومن خلال سعادته، أياماً في منتهى السعادة بالنسبة لي. فالوالدة وأبي كانا يدلِّلانه وكأنه طفل، إن لم نقل كأنه ملك. كانت أمي تتابع علاجه وتطبخ له كل يوم ما كان يشتهي ويتمنَّى من طعام. وكان أبي وعمي جورج يُحضِران له كل يوم الصحف اليومية التي كان يتصفَّحها بإمعان قبل أن يلقيها وهو يعلِّق ساخراً، مقارناً بينها وبين الصحافة أيام فرنسا...

فمن أول أفضال "الاستقلال" ثم "الوحدة" علينا، كما كان يقول، "أننا فقدنا "حريتنا"..."!

ثم عبَّر لأبي عن رغبته بأن يرى شقيقه كريم. فاتصل والدي مباشرة بالعم كريم هاتفياً وجاء هذا الأخير إلى عندنا في اليوم التالي. وبقي أربعاً وعشرين ساعة في ضيافتنا، نام خلالها في تلك الليلة في سريري إلى جانب شقيقه، بينما نمت أنا يومها على فراش أرضي مع إكرام في غرفة الجلوس.

وقد بقي جدي عندنا في المنزل حوالي عشرين يوماً، كثر خلالها زوار منزلنا من أصدقائه، وبدا خلالها وكأنه يتماثل للشفاء، فلم يعد حتى يسعل ليلاً. كما كان قد توقف عن التدخين، وعادت وجنتاه إلى الاحمرار. ثم كان ذلك اليوم الأخير – الأربعاء على ما أذكر... وقد عدت من المدرسة ظهراً، وكان معي صديقي الإيطالي كارلو الذي جاء يومها من مدرسته اللاييك لتناول الغداء في منزلنا. فتغدينا جميعاً، ولعبنا الشدَّة أنا وكارلو بعض الوقت، بينما كان هو يقرأ في سريره. ثم توجَّهت إليه وسألته بتحدٍّ مازحاً – وقد كنت في حينه أعتبر نفسي لاعب بوكر ماهراً:

– هل تلعب معنا البوكر يا جدو؟

فسألنا مازحاً عن مقدار المال الذي معنا. ثم قال:

– تفضلوا...

وجلسنا نلعب معه، بينما جلست إكرام إلى جانبنا تتفرج. وكانت لعبة لا تنسى!

خلال عشر دقائق كان العجوز قد "شلّحنا" – ونحن نضحك! – كل ما كان معنا! ثم أعاد الفيش إلينا، وأعدنا الكرَّة من جديد. وأعاد من جديد، خلال دقائق، تشليحنا ما كان بحوزتنا. ودخل أبي في حينه إلى الغرفة فتأمل ما كان يجري وعلَّق ضاحكاً:

– ماذا يا بابا؟! أنت تستقوي على أولاد؟

فأجابه جدِّي ضاحكاً:

– تفضل العب معنا إن كنت رجلاً!

ورفض أبي الدعوة قائلاً:

– أنا لا أضاهيك يا بابا!

وتابعنا اللعب. وأعدنا الكرَّة مرات ومرات. وأعاد تشليحنا بسهولة مرات ومرات. وكان صديقي كارلو يلعب معه بحماس، وهو لا يصدق ما كان يرى. كما كنت أنا نفسي لا أصدق أيضاً ما كنت أرى...

– كما في الأفلام! كان كارلو يردد بين الفينة والأخرى متعجباً.

ثم بدأ العجوز يعلِّمنا أن أهم قواعد هذه اللعبة (كأية لعبة في هذه الحياة) هي السيطرة النفسية على الطرف الآخر، وكيف يمكن ذلك من الدقائق الأولى. وكنا نستمع إليه بإعجاب، فاغري الفاه صامتين... ثم غادرني كارلو عائداً إلى منزله، وتناولنا العشاء معاً ونمنا جميعاً باكراً هذه الليلة. فخلال وجود جدِّي عندنا لم يعد أهلي يسهرون خارج المنزل...

وكان أن استيقظت فجأة بعد منتصف الليل بقليل على صوت ضجيج وأصوات تتعالى. فنظرت إلى السرير حيث كان ينام جدِّي فوجدته خاوياً. وخرجت من الغرفة حيث وجدت الجميع مستيقظاً وفي حال اضطراب شديد...

كانت أمي تحمل ريما وتبكي. وكانت إكرام تنظر إلى الجميع بعينيها الكبيرتين وهي تبكي أيضاً. وكان أبي يتحدث بالهاتف إلى عمِّي جورج بصوت متهدج قائلاً:

– أخبر رزوق في مصر برقياً الآن... مباشرة...

ونظرت إليَّ أمي وقالت:

– لقد مات جدو يا أكرم...

سألتها:

– أين هو الآن؟ وكيف حصل؟

أجابتني:

– إنه الآن في سريرنا أنا ووالدك. لقد توفي وهو في طريقه إلى المرحاض، وكان والدك إلى جانبه...

وجلست على الكنبة مذهولاً غير مصدق، وجلست إكرام إلى جانبي...

بعد ربع ساعة، وصل عمي فلاديمير؛ وأجهش الجميع بالبكاء بصوت عال. وبعد نصف ساعة أخرى وصل عمي جورج الذي دخل وهو يبكي قائلاً:

– لقد أرسلت هاتفاً مسجلاً وبرقية إلى رزق الله في مصر...

ولم تمضِ ساعة إلا واتصل بنا عمي رزق الله هاتفياً من الفندق في مصر، وأخبر والدي أنه سيحاول الحضور ظهراً مع أول طائرة.

مع الصباح، كان يجب إخبار باقي الأقارب والأصدقاء وملاحقة الإجراءات الضرورية في مثل هذه الأحوال، كالعم كريم، شقيقه من حلب (الذي لم يحضر يومها بسبب مرضه)، وجدتي أولغا، شقيقته في حمص (التي سارعت بالحضور مع ابنيها إميل وألبير)، وآل رزق الله، وآل نعيم، وآل مسابكي، وآل أتاسي، وجميع الآخرين من أقاربنا وأصدقائنا وأصدقاء عمي رزق الله، كالشيخ معروف الدواليبي الذي بقي عندنا ذلك اليوم بكامله وكان من أول المعزِّين...

وكان وصول رزق الله من المطار حوالي الواحدة بعد الظهر، أي قبل المراسم بساعة. وكانت جنازة مهيبة، وبرقيات وصلت من مختلف الأصدقاء والمعارف، أهمها كانت تلك التي أرسلها إلى عمّي رزق الله السيد أنور السادات من مصر...

وأذكر أنني سرت معهم في الجنازة بعض الوقت... ثم سرعان ما وجدت نفسي، وقد تخلفت عن الركب وابتعدت عنه، أستقل الباص إلى حي الصالحية، حيث نزلت... وقادتني قدماي جراً، دون أن أدري، إلى سينما الأمير... دخلت وجلست وحيداً... اختليت بنفسي في الظلام، وبكيت بصمت، دون أن يشعر بي أحد، ذلك الذي أحببته أكثر من الجميع في عائلتي، وطبع طفولتي بطابعه.

وكانت، كالعادة، ثلاث أيام للتعزية، جاءت في صباح اليوم الأخير منها خليلتُه بهيجة التي...

"انتظرت وهي تترصد عند الجيران خروج والدك من المنزل. فالمسكينة لم تكن تجرؤ الحضور بوجوده."

ومرت تلك الأيام التي بدت لي كئيبة من خلال الدراسة والمدرسة ودوامها الممل الذي لم تقطعه، في حينه، إلا الذكرى الأربعين لوفاة جدي التي حضرها العم كريم، وتلك العَراضات التي أضحت شبه رسمية، وكانت تُخرِجُنا منها في حينه هاتفة ضد الشيوعية والشيوعيين وضد "قاسم العراق"... فكنا نستفيد من هذه الاستقطاعات المدرسية للذهاب إلى السينما، أو إلى منزل أحدنا لنلعب الشدة، أو إلى مشارف مدرسة الفرانسيسكان للالتقاء ببعض الفتيات من معارفنا.

وكانت أحداث الموصل، ومحاكمات المهداوي، وتصعيد الخلاف بين العراق، الذي لم يعد شقيقاً، إنما بات يوصف بـ"الشيوعي"، وبين جمهوريتنا العربية المتحدة.

وكان حدثٌ هزَّ الوسط الشبابي في دمشق، حيث توفي أحد "أجمل" شبابها الذي كانت تعشقه معظم صبايا البلد: فتى من عائلة الحسيني، الغنية والمعروفة، يقال إنه قُتِلَ بينما كان يحاول التسلل إلى العراق عبر الصحراء. فقد كان شيوعي الميول، كما قيل.

وأتذكر بالمناسبة أن الصبايا اللواتي كنا نتابعهن باهتمام متزايد في تلك الأيام لم يكنَّ يُعِرْنَنا أي انتباه بسبب صغر سننا. ولعلي لا أذيع سراً حين أقول إن من كان يجذب الاهتمام الأكبر لتلك الفتيات الأجمل في دمشق في حينه كان بعض الشباب الـ"دونجوانية" الأكبر سناً منا، الذين أسَّس بعضهم فرقاً موسيقية، كهاري... وجوني... وإدمون... وفؤاد... إلخ...

وانتهي العام الدراسي 1958–1959، ونجحتُ وشلَّتي إلى الصف التاسع، بينما نجحت شقيقتي إكرام إلى الصف السابع. وذهبنا جميعاً في هذا العام لنقضي الصيف في الزبداني في بيت استأجرناه قريباً من ذلك الذي يملكه عمِّي رزق الله..

ب
مدرسة الآباء العازريين (2)...

طائر الليل: لأن أجمل ما يتبقى بين أيدينا هو ما بوسعنا أن نقوله عن الأمس كنتيجة وكمحصلة... ذلك الإطار حيث نشأنا وترعرعنا: العائلة أولاً... ثم الحارة و/أو المدرسة ثانياً.. وهذا البلد التعيس وأرضه المقدسة دائماً. فمن خلال كل هذا، وبسببه، كانت ذاتنا وما أكسبتنا إياه الحياة من حساسية وروح ساخرة...

كانت – ومازالت على حد علمي – في بلدة الزبداني، حيث قضينا صيف عام 1959، كنيستان: الأولى للروم الأرثوذكس، وتقع في البلدة القديمة في أسفل المنحدر؛ والثانية للروم الكاثوليك، وتقع في أعلى التل، قرب مكان سكننا في البلدة الحديثة. وقد اعتاد أهلي وعائلة عمِّي رزق الله وباقي معارفنا من "المسيحيين الدمشقيين" الذين يقضون الصيف هناك الذهاب صباح كل أحد (تقريباً) للصلاة في الكنيسة الكاثوليكية، لأنها كانت الأقرب، وخاصة لأن قداسها كان الأقصر...

وكان الكاهن الذي يؤدي خدمة القداس في تلك الكنيسة في حينه هو الأب جرجورة من بطريركية الروم الكاثوليك في دمشق – وكان "يتميز" بقلة ذكائه! وأتذكر أنه في صباح أحد الآحاد من ذلك الصيف ألقى هذا الكاهن في نهاية القداس موعظةً تحدث فيها عن أحد قديسي العصور الأولى للمسيحية الذي كان قائد مائة centurion، راوياً كيف دخل هذا القديس وسريَّته ذات يوم بلدة كان جميع سكانها من "عبدة الأوثان"، فدعاهم إلى الاهتداء. فلما رفضوا دعوته جمعهم في ساحة البلدة وأحرقهم عن بكرة أبيهم. وهكذا، على حد قول الأب جرجورة، "قتل أجسادهم، ولكنه أنقذ أرواحهم"!

وكان حين انتهى القداس أن اتجه عمِّي رزق الله إلى هذا الكاهن، وقال له بصوت منخفض وهو يضحك:

– لقد بهدلتَنا يا أبونا!

فوجئ الكاهن بقول عمِّي، فسأله مضطرباً:

– لماذا يا سيد رزق الله؟! ماذا قلت؟! ماذا فعلت؟!

فأجابه عمِّي ضاحكاً:

– لم نكن نعلم يا أبونا أن القديس "فلان" الذي تحدثتَ عنه اليوم كان "مجرماً بحق الإنسانية"!

ثم ابتعد عمِّي رزق الله وهو يضحك، تاركاً الكاهن المسكين وحيداً، فاغراً فاه، غير فاهم لما جرى، وعاد للالتحاق بالجمع من معارفه ليقصَّ عليهم ما دار بينهما من حديث غدا موضوع تندُّر خلال هذا الصيف...

أشير هنا إلى أنه، بعد وفاة والده، أصبح عمِّي رزق الله عميد أسرتنا وراعيها المعنوي. وقد انعكس هذا خاصة تحسناً في علاقته مع والدي ومع عمِّي جورج. فأصبح عمِّي جورج يساعده في تصليح أوراق الامتحانات لطلابه في الحقوق، بينما أضحى والدي شقيقه المفضل وشريكه في جلسات لعب الشدة مع الأصدقاء. كما كان ابنه كريم في حينه صديقي المفضل، إلى جانب من كانوا آنذاك يشكلون شلَّتنا المدرسية التي كانت تضم أيضاً كميل لكح، نواف نصير، وسيم عبد الله، وسيم الأتاسي، وفؤاد مرشاق...

وكانت نهاية العطلة الصيفية لعام 1959 وعودتي إلى المدرسة (الحبيبة) طالباً في صفِّ الكفاءة. وكان هذا بالنسبة لي واقعاً غطَّى على أنباء تلك التغييرات السياسية التي جرت في تشرين الثاني 1959 في قمة هرم الدولة الموحدة، وتمثلت في حينه...

بتشكيل وزارة مركزية للإقليمين، ضمت من سورية كلاً من السادة أكرم الحوراني (بعثي)، صلاح البيطار (بعثي)، أمين النفوري (ضابط سابق)، أحمد عبد الكريم (ضابط سابق)، بشير العظمة وحسن جبارة (مستقل)، ومجلسين تنفيذيين في كلا الإقليمين؛ وكان المجلس السوري منهما يضم السادة: مصطفى حمدون (ضابط سابق، بعثي) للإصلاح الزراعي، وعبد الغني قنوت (ضابط سابق، بعثي) للشؤون الاجتماعية، وخليل الكلاس (بعثي) للاقتصاد – الأمر الذي بدا في حينه وكأنه تعزيز لمكانة البعث في الدولة الموحدة.

أما على صعيد الجيش فكانت تنقلات للضباط بين الإقليمين، أدَّت إلى إبعاد معظم الضباط الحزبيين (البعثيين خاصة) إلى مصر، بينما كانت تتعزز على صعيد البلد، ومن خلال جوٍ "مباحثي" خانق أضحى الصفة المميزة لمعظم تلك السنين، مكانة وزير الداخلية المسؤول عن الأمن الداخلي، السيد عبد الحميد السرَّاج.

وحين سأل أبي شقيقه رزوق عن رأيه بتلك التغييرات، شرح له كيف أنها، من وجهة نظره، تعكس، رغم ظاهرها البراق، خلافاً متصاعداً بين البعث، من جهة، والسرَّاج وعبد الناصر، من جهة أخرى، مشيراً هنا إلى أن عمِّي وحزبه (المنحل طبعاً) لم يكونوا رافضين التعاون مع عبد الناصر. فقد كانوا يفضلونه، "على علاته"، على "حزب البعث الذي خرَّب البلد بمزاوداته وسياساته الخرقاء"...

وفعلاً، لم يمضِ العام 1959 إلا وكان الوزراء البعثيون الأهم – الحوراني والبيطار وقنوت وحمدون – قد قدموا استقالتهم من الحكومة.

ومرت السنة الدراسية 1959–1960 كالتي سبقتْها ببطء، بين دراسة وألعاب مراهقة؛ حيث لم يميزها على صعيدي الشخصي إلا تمتين علاقة صداقة مميزة بيني وبين شقيقتي إكرام التي كانت تعيش أولى سني مراهقتها المبكرة والصعبة التي سبَّبت لها ولنا العديد من المشاكل. وأتذكر ذلك بألم...

لأن إكرام كانت الأقرب الى قلبي في حينه؛ وما كانت تعانيه، بسبب حساسيتها وحدَّة طباعها، من صعوبة في التواصل مع الآخرين – وكنت أعانيه أنا أيضاً، لكن بحدَّة أقل – كان صعباً ومريراً. وأتذكره لانعكاساته السلبية على أجوائنا العائلية، خاصة وأن كلا والديَّ كان يفتقد الأسلوب في التعامل معنا خلال هذه المرحلة الأصعب من حياتنا. فلم يكن لوالدي (رحمه الله)، بسبب عصبيَّته، أسلوب لمعالجة مشاكلنا سوى تهديدنا بالضرب؛ الأمر الذي كان غالباً ما يؤدي إلى صِدام بينه وبين والدتي، فتتعقد الأجواء المنزلية وتصبح جحيماً. لذلك، أجدني دائماً، حين أفكر بتلك الخصوصيات المؤلمة، أحاول نسيان ذلك الذي كان أحد أهم دوافع توجُّهي نحو ذلك العام الذي بات يتلبَّسني ويتلبَّس البلد.

فكما أضحت العادة، كان عبد الناصر يأتي في أواسط شباط من كل عام لزيارة سورية بمناسبة ذكرى الوحدة. وكما أضحت العادة أيضاً، كان علينا أن نخرج من مدارسنا "طوعاً" لاستقباله وتحيته، وللالتقاء في نفس الوقت ببعض معارفنا من فتيات الفرانسيسكان الواقعة قرب قصر الضيافة، حيث كان عبد الناصر يلقي خطابه التقليدي الذي كان يجب علينا – "بكل سرور" – الاستماع إليه.

وأتذكر هنا، للمناسبة، كيف أتيحت لي، للمرة الأولى والأخيرة، فرصة رؤيته عن قرب. فقد كنت أقف مع إحدى الفتيات من معارفنا، عندما صرخت هذه الفتاة فجأة، وقد أطل موكبُه:

– انظروا يا جماعة! كم عيناه خضراوان!!

وفعلاً، تأمَّلتُه قدر المستطاع في تلك اللحظة التي كان ركبُه يتقدم تجاهنا – وكان يقف في مقدمة سيارته المكشوفة ملوِّحاً بيديه. فتعجَّبت من اللون الأسمر غير المألوف لبشرته الذي يكاد يقارب السواد،

وذُهِلت لبريق عينيه الخضراوين ولابتسامته الساحرة. فقد كنت في حينه، كمعظم أبناء جيلي من شباب هذا البلد، شديد الإعجاب بذلك الذي كنا نعتبره – وكان فعلاً – بطلاً قومياً؛ مؤكداً هنا، أن مشاعري تجاهه، كمشاعر معظم أبناء جيلي، لم تكن قطعاً لشكله، إنما لارتباط اسمه بتأميم القنال، وبصمود السويس، وعبر الوحدة، ربما، لتجسيده ذلك الشعور بالعزَّة القومية الذي أسَرَنا.

ولكن، إن كانت تلك في حينه مشاعر معظمنا كشباب، فإنها لم تكن قطعاً مشاعر الجميع في بلدنا، كالشيوعيين المعتقلين والملاحَقين، والبعثيين الذين أضحوا خارج الحكم، والضباط الحزبيين الذين أبعِدوا إلى مصر، وقسم هام من التجار والصناعيين الذين تضرَّرتْ مصالحُهم نتيجة عدم قدرتهم على منافسة البضائع المصرية الرخيصة التي غزت الأسواق، ومن المزارعين الذين تضرَّروا من الإصلاح الزراعي، وسوءِ المواسم بسبب شحِّ الأمطار، والمثقفين الذين فقدوا حريتهم بسبب الحكم المباحثي، إلخ.

وبدأ يظهر على السطح ما كان يُفترَض أنه واضح منذ البداية. وبدأت الوحدة السورية–المصرية تتعثر على أرض الواقع. هنا كان يجب طرح حوار وطني لمناقشة ما جرى ويجري، وتلمُّس الآفاق المستقبلية. ولكن لم يكن هذا النقاش ممكناً في حينه بسبب فقدان الديموقراطية. فلم يناقش أحد في العمق أسباب تعثر الوحدة؛ إنما جاء الحل لمشاكلها، على يد عبد الناصر، مزيداً من الهروب إلى أمام...

وكانت "القرارات الاشتراكية المباركة" – تلك التي وضعت أساس نظام رأسمالية الدولة الذي ساد في البلد منذ ذلك الحين، ولم يزل العائق الأساسي أمام أي تطور ديموقراطي محتمل لاحق.

وكان في آذار 1960 تشكيل وزارة جديدة (بلا بعثيين هذه المرة) برئاسة التكنوقراطي السيد نور الدين كحالة، ضمت في حينه وزيرين كانا أقرب إلى حزب الشعب (المنحل طبعاً)، هما السيدان عبد الوهاب حومد ومحمد العالم. وأضحى السرَّاج هو الشخص الأقوى في البلد، رغم أن بعض الشائعات بدأت تتحدث عن الخلافات بينه وبين المشير عبد الحكيم عامر، المكلَّف الشخصي لعبد الناصر بالشؤون السورية...

ومرَّ هذا العام الذي تقدَّمتُ فيه بنجاح لامتحانات الشهادة الإعدادية السورية. وجاءت العطلة الصيفية التي ما زلت أتذكر بعض أحداثها، حيث...

كان يجري تشكيل "الاتحاد القومي" حزباً وحيداً لدولتنا الموحدة...

وقد شبَّه والدي يومها هذا الحزب الحكومي بـ"حزب التحرير الذي أسَّسه الشيشكلي"...

وكان تصعيدٌ للخلاف بين "الجمهورية العربية المتحدة" و"المملكة الأردنية"، تجلَّى، بشكل خاص، بتبادل الحملات الإعلامية بين البلدين. وكان الصوت الإعلامي الأكثر جعجعة في حينه هو صوت السيد أحمد سعيد من إذاعة "صوت العرب"...

وكان استقلال الكونغو برئاسة لومومبا، وبدء الحرب الأهلية هناك...

وكان جل ما فعلتُ خلال هذا الصيف هو المطالعة. وأكثر ما قرأت خلاله تميزاً كان العقد الاجتماعي لجان جاك روسو الذي استهواني جداً بطروحاته الجذرية حول "العدالة" و"المساواة". وما زلت أذكر، إلى الآن، أن هذا الكتاب كان يبدأ بعبارة شهيرة تقول إن "أول لص في التاريخ كان ذلك الشخص الذي وضع يده على أول قطعة أرض وقال: هذه الأرض لي...". كذلك، بقي عالقاً في ذهني كتاب سياسي عن حرب السويس مرَّره لي، ولابن عمي في حينه، عمِّي رزق الله. فاكتشفت من خلاله، للمرة الأولى، ذلك الوجه الآخر للحقيقة الرسمية المعلنة، ذلك الذي كان يُحجَب عن العامة والقائل إن حرب السويس التي كانت، ربما، انتصاراً سياسياً، كانت في الوقت نفسه هزيمة عسكرية ماحقة. وأخيراً، كان أفضل ما قرأت ذلك الكتاب الرائع والأجمل الذي لا علاقة له بالسياسة أرض البشر لأنطوان دو سانت إيكزوبيري، الذي استحوذ عليَّ عمقُ نظرته الإنسانية، وأضحى، منذ تاريخه، كتابي المفضل – ولم يزل.

"وكان انتخاب ليلى، ابنة عمِّك فلاديمير، ملكة لجمال لبنان."

"كانت ليلى (رحمها الله) جميلة جداً، ولكن مشكلتها كانت أنها أصيبت حين كانت طفلة بروماتيزم حاد أثر على قلبها."

"وتوفي عمو كريم في حلب...

"توفي بعد أقل من سنتين من وفاة شقيقه والدي. أخبرونا عن الحدث بالهاتف، فتوجَّهنا جميعاً – أقصد رزوق، فلادو، جورج، وأنا – إلى حلب للمشاركة في الجنازة...

"وللاستفسار عن التَرِكَة. لكن زوجته بهية كانت "ضبَّت" على كل شيء...

"كان هذا متوقعاً، فلم يُفاجَأ أحدٌ منَّا بذلك. نحن من جانبنا، وبناء على اقتراح عمِّك رزق الله، لم نصر على الموضوع.

"وحده أثاره شقيقي ألبير ووالدتي اللذان حرَّكا – وإنْ بغير جدوى – دعوى قضائية ضد بهية...".

وبدأ في أواخر هذا الصيف التسجيل لدى الدولة لمن كان يرغب في حينه من المواطنين باقتناء جهاز تلفزيون. وسجَّل أهلي على جهاز من الحجم الصغير من نوع فيليبس، وُزِّع علينا في أواخر شهر تشرين الثاني من هذا العام، أي بعد شهر تقريباً من بدء البث التلفزيوني في البلد.

كان التلفزيون حدثاً في منتهى الأهمية، أوْجَدَ تحولاً كبيراً في الحياة الاجتماعية في سورية، يستقطب الناس ويتحلَّقون حوله، يتابعون بِنَهَمٍ كلَّ ما كان يُعرَض عليهم من أخبار مصورة ومسلسلات محلية وأجنبية. وأتذكر أنه كثيراً ما كان والدي يردد:

– آه لو كان أبي الآن حياً وعاش هذا الحدث...

ثم كانت عودتي إلى المدرسة طالباً في الصف العاشر. وقد حصل في هذا العام 1960–1961 تغيرٌ كبير على صعيد الطاقم التدريسي لمدرستنا؛ حيث كان هنالك أولاً كاهنان جديدان انضما إلى طاقم كهنة المدرسة هما: الأب خلدة، من مصر، وبات يدرِّسنا الرياضيات، والأب جورنياك الذي كان شاباً

فرنسياً لطيفاً جذاباً، وبات يدرّسنا الأدب الفرنسي. وأيضاً، بدأ يدرِّسنا، منذ مطلع العام الدراسي، طاقمٌ متميز من الأساتذة الذين كان أبرزهم، من وجهة نظري، أستاذ الفيزياء والكيمياء سيف الدين البغدادي، وأستاذ اللغة العربية الياس طعمة، وأستاذ التربية الاجتماعية... ندره اليازجي.

ولما كان أيضاً قد صدر قرارٌ تم الاتفاق فيه بين إدارة المدرسة وأهالينا يقتضي البدء بتهيئة بعضنا للتقدم، في العام الدراسي القادم، لامتحانات البكالوريا الفرنسية (الجزء الأول)، ولما كنت من بين المنتقين، الأمر الذي جعل برنامجي الدراسي مثقلاً، فقد أجبرتني الظروف على التخفيف من لعب الميسر، والالتزام بنمط حياة أكثر روتينية...

فأضحيت أعود إلى المنزل في المساء الباكر للدراسة. وعبر التلفاز، كنت أتابع الأخبار المصورة التي كانت تنقل إلينا كيف...

كانت الإطاحة بالزعيم الكونغولي باتريس لومومبا، وكيف فاز السياسي الشاب جون كنيدي برئاسة الولايات المتحدة...

وكانت أجواء البلد، المليئة بالشائعات والأقاويل، تتحدث خاصة عن انعكاسات ما تم من إجراءات "اشتراكية" كان الرئيس عبد الناصر قد أعلن عنها في أواخر شباط 1961، وقضت بتأميم البنوك والمصانع الكبيرة في كل من سورية ومصر، وإعطاء العمال نسبة من الأرباح. كما كانت الشائعات تتحدث خاصة عن تصاعد الخلافات بين عبد الناصر والسرَّاج...

ثم كان اغتيال الزعيم الكونغولي لومومبا في نيسان 1961، واضطراب الدراسة في المدارس السورية لبعض الوقت بسبب العَراضات الاحتجاجية (شبه الرسمية) التي عمَّت البلد في هذه المناسبة. كما كان نبأ إرسال الروس لغاغارين، أول رائد فضاء في تاريخ الإنسانية، عاملاً مدعِّماً لقناعاتي الاشتراكية، التي كانت بدأت تتبلور وتترسخ، غطَّى في حينه بالنسبة لي على تلك الأنباء الأخرى التي كنت أسمعها حول "جدار العار في برلين"...

تلك القناعات التي انعكست من جانبي آنذاك تأييداً متحمساً لقرارات عبد الناصر "الاشتراكية"، من جهة، ومزيداً من القراءة لما كان يتيسر لي من كتب يسارية التوجُّه من جهة أخرى...

ففي ذلك العام، تنامت اهتماماتي السياسية باطِّراد، وكذلك – إن شئت أن أكون منصفاً – اهتمامات أصدقائي. وكان هذا الواقع ينعكس من خلال النقاشات التي لا تنتهي التي كانت تجري بيننا كطلاب بعامة، وكشلة خاصة، من جهة، وبيننا جميعاً وبين الأساتذة والرهبان في المدرسة، خلال دروس الأدب الفرنسي والديانة والاجتماعيات، من جهة أخرى.

وأتذكر اليوم، بمحبة وبحنان، الروح السمحة التي كان يبديها خلال تلك النقاشات تجاهنا، عموماً، وتجاهي، خاصة، مديرُ المدرسة الأب يوسف عطا الله، وخاصة الأب معلولي، اللذين أضحت تربطني

بهما علاقة صداقة متميزة. وذلك التلاقي الفكري الذي بات يربطني بالكاهن الفرنسي الشاب جورنياك، الذي أسرَّ إلي ذات يوم أنه التحق بالكهنوت هرباً من حرب الجزائر. وقد أضحى هذا الكاهن – الماركسي الميول – المصدر الذي يزوِّدني بكتابات بعض أشهر كُتَّاب اليسار الفرنسي. فأصبحتُ من قراء مجلة الأزمنة الحديثة لسارتر، الذي بدأتُ أيضاً بقراءة كتاباته وكتابات كامو وجان جونيه إلخ.

في حينه، وكنت بدأت قراءة سارتر، توقفت – وأنا أقرأ الأيدي القذرة – أمام تعبيره القائل إن "الجحيم هو الآخرون...". وقد بُهِرت يومها بهذا التقويم الفلسفي العميق. ولكن قلبي المعارض كان يقول لي منذ ذلك الحين إن جحيمي لم يكن الآخرين، بقدر ما كان يضطرم في أعماق نفسي.

وأعماق نفسي كانت تعيدني دائماً إلى شقيقي الأصغر سمير الذي كنا نتهرب منه جميعاً.

"جميعاً؟! لا ليس تماماً يا أكرم."

فالعم جورج كان أكثر من يهتم به ويُخرِجُه معه. ثم كان يليه والدي، فوالدتي، بحكم موقعها. لهذا، ربما أشعر اليوم، حين أتذكر، ببعض الخجل. فالحقيقة التي ربما لم أكن أرغب الاعتراف بها آنذاك، أن سميراً، بحكم واقعه وما كان يذيقنا إياه من عذاب ويسببه لنا من حرج تجاه الآخرين، كان صانع طفولتي وموجِّه مراهقتي هروباً متعثراً نحو الظاهر. فقد كنت أخجل منه، بينما كان الأصح هنا أن أخجل من نفسي!

وأعترف، ضمن السياق، أني لم أكن في حينه شديد الإعجاب بعمِّي جورج، الذي لم أكن قادراً آنذاك على تفهم نعومة ورقَّة أحاسيسه التي جعلته، ربما، يكرِّس حياته من أجلنا، والتي كانت أيضاً تُعتبَر سذاجة...

ففي حينه، كانت أحلامي المتجاوزة للواقع قد بدأت تتشكل عبر قراءاتي. وكان هذا هروباً، كما قلت...

"لكن وعيك في حينه كان وعي طالب لم يتجاوز بعد المرحلة الإعدادية...". لذلك...

أجدني، حين أعود إلى تلك الأيام، لا أستطيع التعبير كما يجب عما أصابني، فأوصلني إلى تلك القناعات الجامحة – تلك التي جعلتني أتوجَّه إلى العالم الخارجي، وأنا لم أكمل بعد بناء عالمي الداخلي.

وأتذكر نقاشاتي وأصدقائي مع الأستاذ ندره اليازجي الذي لم أكن أستسيغ طروحاته، ولا أسلوبه الذي كنت أجده مملاً؛ وقد اتخذت منه في حينه موقفاً رافضاً. وأتذكر كيف بدأت أصغي، باهتمام متزايد، إلى أحاديث تُطري الشيوعيين السوريين المضطهدين على لسان الأستاذ سيف الدين بغدادي الذي قرَّبني منه في تلك الأيام تفوُّقي في مادته، والذي كان ذات يوم، على ما يبدو، شيوعياً أو صديقاً للشيوعيين.

فاهتمامي بهؤلاء (أقصد بالشيوعيين) كان بدأ يتزايد، وخاصةً بعد أن وجدت ذات يوم في أسفل الباب لدى عودتي إلى المنزل منشوراً شيوعياً يهاجم الحكم من خلال ما كان يمارسه تجاههم من تنكيل. وقد أعطيت هذا المنشور في حينه لوالدي الذي قرأه بصمت ثم مزَّقه دون تعليق...

والدي الذي أفشى إلينا في تلك الأيام "سراً خطيراً" يقول: إن سبب تزايد رحلات عمي رزق الله إلى مصر في الآونة الأخيرة إنما كان يعود إلى واقع كون الرئاسة في مصر كلَّفتْه بمهمة الدفاع الشخصي عن شقيق الرئيس، الليثي عبد الناصر، الذي كان متهماً آنذاك في قضية تهريب أقمشة بين مصر وسورية...

ثم كان خلاف بين والدي وبين الوقف الكاثوليكي المالك لمنزلنا؛ الأمر الذي نغَّص علينا صفاء العيش بعض الوقت واضطرنا إلى البحث عن، ثم الانتقال إلى، منزل مستأجر آخر. وكان ذلك المنزل الصغير الذي انتقلنا إليه في أواسط عام 1961 يقع في منطقة الجسر الأبيض، قرب منزل عبد الحميد السرَّاج. وأشير هنا، للمناسبة، إلى أن اقتناء منزل بالتملك كان أمراً نادراً، رغم رخص أسعار العقارات، وأن الاستئجار كان الحالة الأكثر شيوعاً في بلدنا آنذاك...

"ورغم أن أسعار المنازل كانت في حينه زهيدة، إلا أنه كانت تنقصنا السيولة لشراء واحد لنا. وقد حاولت يومها الاستدانة من شقيقتي أوديت، لكنها رفضت أن تُقرِضَنا ما طلبتُه وكان ينقصنا: حوالي الـ5000 ليرة. تصور! لقد رفضت أختي الحبيبة في حينه إقراضي هذا المبلغ...".

ولكن هذا لم يكن مهماً بالنسبة لي. فالأهم والمتعلق بهذا الموضوع كان يومها انتقال عمِّي جورج للسكن معنا مجدداً، مع احتفاظه بغرفته في منزل عين الكرش الذي بات عمِّي فلاديمير ساكنه الوحيد...

وكان مطلع آب 1961 وتشكيل حكومة موحَّدة للدولة الواحدة، مركزها القاهرة...

الأمر الذي اعتبره عمِّي إبعاداً لبعض الوزراء السوريين، وعلى رأسهم السرَّاج، بانتظار تَنحِيَتهم، وتفاقماً للأزمة السياسية القائمة...

حيث لم تعد سراً لأحد تلك الخلافات المحتدمة في قمة هرم السلطة بين السرَّاج، من جهة، وعبد الناصر وعبد الحكيم عامر، من جهة أخرى. فالشائعات كانت تملأ البلد والأجواء كانت مضطربة تنبئ بما هو آت.

وكان الإعلان رسمياً عن استقالة السرَّاج في الـ22 من أيلول. وقد أصبح عبد الحكيم عامر هو المكلَّف بشؤون "الإقليم الشمالي" المضطرب...

وأصبحتُ طالباً في الصف الحادي عشر و...

كان عمِّي جورج الذي ترك آنذاك العمل مع زياد الأتاسي قد عُيِّن مستشاراً لقضايا الدولة لدى القصر العدلي في دمشق. وأشير، للمناسبة، أن عمِّي الذي منذ انتقاله للعيش معنا من جديد صار ينام معي في نفس الغرفة...

واستيقظنا فجأة في تلك الليلة على أصوات رشقات رصاص تلعلع معكرة سكون الليل. وقفز عمي من سريره وسارع إلى المذياع وهو يقول:

– إنه انقلاب يا جماعة!

و"الجماعة" التي كان يقصد بحديثه كانت، طبعاً، أنا وأبي ووالدتي وإكرام الذين استيقظوا معه... ولكن الإذاعة التي كنا نترصد بقيت صامتة حتى الفجر، حين أعلن "البيان رقم واحد" قيام جيشنا الباسل [بحركته] "لإزالة الفساد والطغيان وإعادة الحقوق الشرعية إلى الشعب..."!

مما جعلني أجهش بالبكاء...

كان ذلك في 28 أيلول 1961. وكنتُ – يا صاحِ – في حينه، كمعظم أبناء البلد، من مؤيِّدي الوحدة، وزعيمها الملهم، وقراراتها الاشتراكية المباركة...

الفصل الخامس

مرحلة انتقالية...
(1963-1961)

آ

مدرسة الآباء العازريين (3)...

كان زماناً غير معقول
أجلسنا الموتى إلى المائدة
وبنينا قصوراً من رمل
والتبستْ علينا الذئابُ بالكلاب

C'était un temps déraisonnable
On avait mis les morts à table
On faisait des châteaux de sable
On prenait les loups pour des chiens

لويس أراغون

كان الانقلاب الذي قامت به القيادة الثورية العليا للقوات المسلحة "... لإزالة الفساد والطغيان وإعادة الحقوق الشرعية إلى الشعب" بدايةَ عهد كان الأقصر والأكثر اضطراباً في تاريخ سورية الحديث، ذاك الذي عُرِفَ بـ"الانفصال"!

وقد بدأ الاضطراب منذ اليوم الأول. فالعمل الذي أقدمتْ عليه هذه المجموعة من "الضباط الشوام" (نسبة إلى الشام)، التي ضمت كلاً من السادة العميد عبد الغني دهمان، العميد موفق عصاصة، المقدم عبد الكريم النحلاوي، المقدم حيدر الكزبري، المقدم مهيب الهندي، والمقدم هشام عبد ربه، كان كبيراً جداً، لا لأنه أجهز، بضربة واحدة، على التجربة الوحدوية العربية الأهم في هذا القرن وحسب (فتلك "الوحدة" المتعثرة والمفرغة من مضمونها كانت تنتظر ما حصل)، بل لأنه أعاد، عن غير قصد، سورية المدنية والمتحضرة، لكن الضعيفة والممزقة والمضطربة وذات الموقع الجيوسياسي الهام، إلى مسرح الأحداث في المنطقة...

وكان هذا، بالنسبة لمن قاموا بالانقلاب – وكانوا أصغر بكثير من أن يتحمَّلوا مسؤولية ما فعلوا – مرعباً فعلاً. لذلك...

نجدهم، منذ الساعات الأولى لانقلابهم الناجح، وقد سيطروا، بسهولة فائقة، على مجمل الأوضاع في البلاد، يتفاوضون مع المشير عبد الحكيم عامر بهدف التوصل إلى تسوية تمكِّنهم من إنقاذ ماء الوجه ضمن إطار الدولة الواحدة...

فكان "البلاغ رقم 9"، الذي "تفهَّم [المشير عامر بموجبه] أمورَ الجيش على حقيقتها واتخذ الإجراءات المناسبة لحلِّها لصالح وحدة وقوة الجمهورية العربية المتحدة..."، تسويةً رفضها الرئيس عبد الناصر؛ فأعلن "البلاغ رقم 10" عن فشلها...

وكانت مظاهرات "عفوية" لبعض الشارع السياسي، مؤيدة، كالعادة، لهذه الحركة (كما لأية حركة مباركة!)، شارك فيها الكثير من "الصادقين"! وتحولت بعد "البلاغ رقم 9" و/أو قابلتها بعده مظاهرات

"عفوية" أخرى، مؤيدة للوحدة، شارك فيها "صادقون" آخرون! وجميعها لم تكن – والحق يقال – بهذه الأهمية. فالشعب المبعَد عن الأحداث كان سلبياً ينتظر ما سيأتي ليؤيد الجانب المنتصر (من الجيش) الذي...

"... وفاء منـ[ـه] بالعهد الذي قطعـ[ـه] على نفسـ[ـه] للشعب بأن توكَل السياسة والإدارة إلى أبناء الشعب المخلصين..."، كلَّف آنذاك السيد مأمون الكزبري، الرئيس السابق لـ"الاتحاد القومي"، بترؤس حكومة تدير شؤون البلاد، توطئة لإعادة الأوضاع الدستورية إليها. وكان أبرز وجوه هذه الحكومة (الحلبي) السيد ليون زمريا من الحزب الوطني...

وانعقد في 2 تشرين الأول 1961 اجتماعٌ في دار الشراباتي في دمشق لعدد من السياسيين السوريين القدامى الذين كان أبرزهم السادة "أحمد قنبر، أحمد الشراباتي، صبري العسلي، خالد العظم، أكرم الحوراني، صلاح البيطار..."، أيَّد فيه المجتمعون الأوضاع السورية الجديدة...

قضيتُ اليوم الأول من "الانفصال" في المنزل أستمع إلى إذاعتنا العتيدة وإلى بياناتها الصاخبة وهي تقارع إذاعات "القاهرة" و"صوت العرب"! أما في اليوم الثاني فتنزَّهت مع أصدقائي عبر دمشق، الهادئة جداً رغم ما حصل.

كانت الشمس ساطعة، والأوضاع شبه اعتيادية من حيث النشاط العام والحركة التجارية في الأسواق. فقط كان هناك، عند التقاطعات وأمام الأبنية العامة، بعض المصفحات والعسكر الذين كان بعضهم من الهجَّانة (قوات البادية). وكان مجال تنزهنا في عاصمة تلك الأيام محدوداً من جهة حيِّ أبو رمانة ببساتين ما أضحى يُعرَف اليوم بحيِّ المالكي، ومن جهة مدرسة اللاييك ببساتين الأزبكية. بينما كانت حدود المدينة من جهة حيِّ القصاع تتوقف عند "كازية ديوانه" التي كانت أيضاً محاطة بالبساتين من كل جانب...

وتستعيد ذاكرتي صورة دمشق آنذاك من خلال هدوئها ونظافتها... حين كان العدد الإجمالي لسكانها لا يتجاوز الثلاث مائة وخمسين ألفاً من أصل أربعة ملايين نسمة كانوا يشكِّلون مجمل سكان سورية. وكان بردى ما يزال نهراً جميلاً يُتغنَّى به على لسان الشاعر الكبير سعيد عقل ويصدح بصوت فيروز أنْ...

"ردَّ لي من صبوتي يا بردى... ذكريات..."

تعيدني اليوم إلى الحادث الطريف التالي: حين التقينا فجأة، وكنَّا نتنزه قرب مدرسة الفرانسيسكان، بعمِّي رزق الله الذي كان يتدرج ببطء متجهاً إلى مكتبه. فاستوقفنا، وسألنا مازحاً وموجهاً حديثه إلى كميل:

– ما القصة يا كميل؟

فأجابه هذا الأخير بعفوية:

– إنه انقلاب يا عمو!

فنظر عمِّي إليه بتعجب وقال له:

– بالله عليك؟!

ثم ابتعد عنا ضاحكاً، بينما انفجرنا جميعاً أيضاً ضاحكين لما حدث، وأضحى موضوع تندر فيما بيننا.

وعدنا بعد بضعة أيام إلى مقاعد الدراسة. كان يجب علينا أن ننجز خلال هذا العام، إلى جانب البرنامج الدراسي الرسمي، برنامجاً مكثفاً آخر يمكّننا من التقدم، في نهاية السنة الدراسية، إلى امتحانات الجزء الأول من شهادة الباكالوريا الفرنسية. كنّا ثمانية طلاب منتقين لهذا الغرض، وكان علينا أن نداوم في المدرسة ما يقرب من الثماني ساعات يومياً، وأن ندرس، إضافة لذلك، (في المنزل) ما لا يقل عن أربع ساعات أخرى كل يوم لنكمل برنامجاً كان أهم ما يشتمل عليه: الأدب الفرنسي، الرياضيات والفيزياء والكيمياء، التاريخ والجغرافيا الفرنسيتين. وأشير هنا إلى أن المادة الأخطر بالنسبة لنا كانت مادة الأدب الفرنسي، التي كان علينا في امتحانها النهائي انتقاء موضوع أدبي من أصل ثلاثة والكتابة فيه، مع الأخذ بعين الاعتبار أن ارتكاب خمسة أخطاء قواعدية و/أو إملائية كان كافياً لترسيبنا – الأمر الذي جعلني أركّز بشكل أساسي على الدراسة، ولكن دون أن أخفف، كأيّ فرد سوري في تلك الأيام، من متابعتي اليومية (التي لا تقدم ولا تؤخر) للأمور العامة، وخاصة لأمور البلد الذي لم تكن الأحوال فيه على ما يرام...

فالخلاف كان على أشده بين الحكام في سورية والحكام في مصر، التي كانت وسائل إعلامها تهاجم قادة "الانفصال" بشراسة وتتهمهم (على الطريقة التقدمية) بـ"الرجعية" و"العمالة"، فترد عليها وسائل إعلامنا الصاع صاعين... الأمر الذي ترك أثراً سلبياً في أوساط شارعنا السياسي المراهق عموماً، ولدى ضباط الجيش، حيث كانت الصراعات على دوائر النفوذ والمراكز على أشدها، وحيث عُيّن أحد أقل الرتب العليا نفوذاً، اللواء عبد الكريم زهر الدين (من جبل الدروز)، قائداً للأركان العامة.

وكان ما "وصفوه" هروب السرَّاج من سجنه ولجوئه إلى القاهرة، وإبعاد المقدم حيدر الكزبري، أحد أهم ضباط الانفصال، بداية تفكك ما أسموه كتلة "الضباط الشوام". تلت ذلك استقالة حكومة الدكتور مأمون الكزبري، وتكليف (العسكر) الموظفَ السيد عزَّت النص بترؤس حكومة تكنوقراطية مهمتها الإشراف على الانتخابات التي تقرَّر لها أن تجري في الأول من كانون الأول 1961...

تلك الانتخابات التي تمخضت الإرادة الشعبية من خلالها عن مجلس نيابي محافظ في غالبيته، وكانت – لسخرية القدر – آخر انتخابات حرَّة شهدتْها البلاد خلال القرن العشرين...

وكان خوض عمي رزق الله لهذه الانتخابات في حلب موضوع نقاش في حلقتنا العائلية. فقد استنكر أبي وعمي جورج سلوك شقيقهم، الذي رشح نفسه منفرداً في حلب، ضمن قائمة جماعة الإخوان المسلمين!

"لأنه لم يُرشَّح هناك هذه المرة ضمن القائمة المشتركة للحزبين الشعب والوطني، حيث تم استبدال السيد ليون زمريا به، فاختلف مع جماعته، و[ربما؟] بالتنسيق مع صديقه معروف الدواليبي الذي كانت له علاقات جيدة بالإسلاميين، ترشَّح مع قائمة الأخوان، الأمر الذي أفقَدَه الكثير من الأصوات المسيحية والأرمنية التي كانت تدعمه تقليدياً، مما أدى إلى سقوطه."

وكان من أبرز معالم تلك الانتخابات سقوط (البعثي) السيد صلاح الدين البيطار في دمشق، ونجاح السيد أكرم الحوراني وجماعته (الذين كانوا مازالوا بعثيين في حينه) في حماه، وفوز السيد عصام العطار (المرشد العام للإخوان المسلمين في سورية) واثنان من جماعته في دمشق، التي حصل السيد خالد العظم فيها على أكثر الأصوات، وثاني الأصوات في سورية؛ إذ حصل السيد رشدي الكيخيا في حلب على أكثر الأصوات في سورية...

ثم كان انتخاب المجلس النيابي للسيد ناظم القدسي (من حزب الشعب) رئيساً للجمهورية، وللدكتور مأمون الكزبري (مستقل) رئيساً لمجلس النواب. وجاءت حكومة الدكتور معروف الدواليبي (من حزب الشعب)، التي أبقت نسبياً على الإصلاح الزراعي، لكنها أعلنت، في نفس الوقت، عبر بيانها الوزاري، إلغاء تأميمات جمال عبد الناصر الأخيرة، مما أدى إلى حدوث مظاهرات طلابية وعمالية صاخبة في العاصمة وفي بعض المدن السورية الأخرى.

فالشارع السياسي كان ناصرياً. وبالتالي، كان رافضاً لما حصل، ولما نتج عنه من تغيرات أعادت مظاهر السلطة إلى الأحزاب التقليدية السورية... هذه "الرجعية" التي فرَّقت المظاهرات المعادية لها، من دون اعتقالات ولا ضحايا، بواسطة شرطة مكافحة الشغب... بينما كانت إذاعات القاهرة وصحفُها تبالغ، على الطريقة "التقدمية"، في تصوير أهوال قمعها والعدد المرتفع جداً لضحاياها!

وكنت أتابع الأخبار من خلال الإذاعة والصحف التي أصبحتُ مهووساً بقراءتها، وخاصةً منها الصحف المحلية التي عاد معظمُها إلى الصدور، كالنصر والأيام والرأي العام، وخاصة العزيزة جداً المضحك-المبكي، التي كانت صحيفة عائلتنا المفضلة، والتي أتذكر من بين مقالاتها تعليق ذلك "الحمار" الذي كان يحلِّل، "بمنتهى الذكاء والطرافة"، الأوضاع السياسية في البلد، كصِدام الأستاذ أكرم الحوراني مع رئيس الوزراء، وتلك المظاهرات المعارِضة للحكومة التي عمَّت البلد نتيجة إلغاء الحكومة للتأميمات...

ولم أشترك بهذه المظاهرات، رغم أن عواطفي خلالها كانت طبعاً إلى جانب المتظاهرين. فقط هربت يومها من المدرسة لمعاينة الأحداث عن قرب. وفي الطريق التقيت بـ"صديق طفولتي" الذي كنت استعدت علاقتي القديمة به، فاروق الذي كان شارك في تلك المظاهرات والذي اكتشفتُ، لعظيم سروري، أنه كان يشاطرني معظم آرائي وأفكاري "الثورجية". ففي حينه كانت توجهاتي الاشتراكية قد تجذَّرت وأضحت أقرب إلى الشيوعية؛ ولكني لم أكن قد انتسبت بعدُ إلى أي حزب، وإن كان موقفي من الدين ورجاله مازال مسايراً، وإن أضحى أكثر سلبيةً...

وأتساءل اليوم حول سبب تفضيلي الشيوعيين عن غيرهم، ولماذا لم أتقرب يومها من البعث أو من الناصريين، الذين كانوا يشكلون المعارضة الحقيقية للوضع الراهن؟

ربما لأني كنت أصبحت رافضاً بحدِّةٍ للفكر القومي! وقد تأكدت من هذا، خاصةً بعد أن أعارني أحد زملائي من المدرسة كتاب كفاحي لهتلر، الذي شعرتُ بالتقزز فور شروعي بقراءته؛ ولما لم أستطع تجاوز نصفه الأول ألقيته جانباً، ثم أعدته شاكراً إلى من أعارني إياه، وقطعت صلتي به منذ ذلك الحين...

وأفكر أن سبب نفوري الباكر من أيِّ فكر قومي متعصب، الذي مهَّد من بعدُ الطريق لاختياري العقائدي اللاحق، كان يعود، من بعض جوانبه، إلى تلك الثقافة التي رضعتها في منزلي، التي كانت ليبرالية وإنسانية معاً، والتي كانت تلتقي مع تلك الثقافة الأخرى التي تلقَّنتها في المدرسة – وكانت مسيحية وإنسانية معاً.

أما الجانب الثوري فقد كان وراءه رفضُ الأوساط المحيطة بنا، من عائلية، خاصة، وغير عائلية، عموماً...

وأتذكر ذلك اليوم الذي أتيت فيه إلى منزل عمي رزق الله – وقد كنت متفقاً على اللقاء مع ابنه كريم – وكيف استقبلتني امرأة عمي (ماري المعلِّم، رحمها الله) بجفاء، وقالت لي من دون مقدمات:

– لقد سمعت أنك أصبحت شيوعياً يا أكرم. انتبه! إن هذا لا يناسبنا. فنحن أغنياء وسنبقى أغنياء!

ولم أستطع إجابتها. فصداقتي لابنها، من جهة، وعمق المفاجأة، من جهة أخرى، منعاني من ذلك. ولكن كان شعوري حين تركت منزلها شعوراً عميقاً بالغضب وبالألم... ذاك الألم الذي كان والدي أفضل من عبَّر عنه. فحين حدَّثته بما جرى معي ابتسم بسخرية وعلَّق قائلاً:

– لقد نسيتْ ماري أنها كانت ذات يوم فقيرة!

نعم لقد نسيت – رحمها الله – وقد صارت غنية على هذه الأرض، كما نسي سواها ممَّن صاروا أغنياء في عالمنا، أنهم كانوا ذات يوم فقراء. أما أنا، وإن اختلف اليوم طريقي، فإني لا أستطع أن أنسى ما يمكن أن يحمله العوز الإنساني من مذلة، كتلك التي شاهدتها حين...

كنت عائداً في ذلك المساء إلى منزلي، وكان الشارع خاوياً، عندما التقيت ذلك الإنسان القابع عند حاوية القمامة. هو لم يرني لأنه لم يكن بمقدوره أن يرى أحداً بسبب انهماكه في طعامه الذي كان يستخلصه من الحاوية. صُعِقْت وكدت أن أتقيأ! وحين اختليت بنفسي في تلك الليلة لم أستطع النوم، كما لم أستطع البكاء...

وكانت شلتي المدرسية ما تزال حلقتي الأساسية الوحيدة إلى جانب عائلتي. وضمن إطار العائلة، كانت شقيقتي إكرام، التي كان عمرها آنذاك أربعة عشر عاماً، قد أصبحت كاتم أسراري، وباتت تشاركني معظم أفكاري.

أما سمير الذي كان تجاوز الأحد عشر عاماً فكان يجاهد بمعونة عمُّو جورج لتجاوز الصف الثاني الابتدائي في مدرسة الفرير. وكان وضعه كأكبر من في الصف قد أضحى مزعجاً بالنسبة لإدارة المدرسة ولباقي طلاب صفِّه.

"اتصل يومها مدير المدرسة الأخ إيزيدور بوالدك ودعاه إلى المدرسة لمناقشة وضع سمير. وبصعوبة استطاع أريس أن يقنعه بأن يتحملوه، كرمى لنا، سنة إضافية أخرى... فقط سنة واحدة أخرى، ثم نرى بعدها ماذا بوسعنا أن نفعل بخصوصه..."

وكنَّا مازلنا نسكن في منزل الجسر الذي كان رائعاً من حيث موقعه. لكن بسبب صغر مساحته، وانتقال عمِّي جورج للسكن معنا، أصبحنا نفكر ونبحث بجد عن منزل آخر أوسع للانتقال إليه...

وكان صباح ذلك اليوم الأربعاء 28 آذار 1962، حين...

فوجئت، وأنا في طريقي إلى المدرسة، بوجود حركة غير اعتيادية في شوارع العاصمة، وبصوت الراديو، عبر شرفات بعض المحال التجارية التي كانت تفتح باكراً، يذيع الموسيقى العسكرية وقد تجمَّع حوله بعض المارة. وحين وصلت أمام البرلمان فوجئت بوجود مصفحتين وجنود مدججين بالسلاح يحيطون بالمبنى. فتيقنت بما كنت شككت به منذ اللحظة الأولى... أن انقلاباً عسكرياً جديداً قد وقع!

لكني لم أتجه عائداً إلى المنزل، إنما أكملت طريقي إلى المدرسة، التي صرفنا الرهبان منها فوراً إلى منازلنا، على أن نستأنف الدوام في صباح يوم السبت القادم، إن كانت الأمور هادئة وطبيعية. والطريف يومها أنهم لم يمنعوا التجول. فعدت وأصدقائي إلى حيِّ الصالحية، حيث تنزهنا قليلاً في وسط المدينة لنعاين عن قرب أوضاع الانقلاب الجديد. ثم ذهبنا إلى منزل كميل، حيث اتصلنا كلٌّ بأهله لطمأنتهم. وجلسنا، بعد أن فتحنا المذياع لنتابع من خلاله تطور الأوضاع، نلعب "فتة بوكر" على شرف هذه المناسبة التي قدَّمت لنا يومي عطلة مجانيين! وأتوقف هنا قليلاً، لأنه...

مازلت أجدني، حين أعاود التفكير بما جرى آنذاك، أقف حائراً، غير قادر تماماً على التقويم الأصح والأدق. فمن قام بالانقلاب الأخير الذي استعادت بموجبه "... القيادة العامة للجيش والقوات المسلحة، تحقيقاً لرغبات الشعب [الذي لم يستشره أحد] وحفاظاً على مكاسبه [المهدورة] وأمنه [المستباح] زمام الأمور في البلاد..." و"... قبلت [بالنيابة عنه وبلا تفويض] استقالة رئيس الجمهورية..." السيد ناظم القدسي الذي أضحى سجيناً في المشفى العسكري في المزة، بينما تحول باقي زملائه من النواب والسياسيين، الذين حلَّ العسكرُ مجلسَهم، إلى نزلاء في سجن المزة – من قام بالانقلاب كان تحديداً نفس الشلَّة من "الضباط الشوام" الذين قاموا بالانقلاب الانفصالي برئاسة المقدم عبد الكريم النحلاوي، حيث...

يبدو، كما أصبح اليوم ثابتاً، أن هؤلاء الضباط "الشوام"، الذين شعروا في حينه بعزلتهم وبضعف مواقعهم، في جيش كان الهيكل الغالب لبنيته، كما سبق وأشرنا، من الريف ومن الأقليات، والذين كانوا

في نفس الوقت، غير مقتنعين (إن لم نقل متخوفين) من التركيبة السياسية التي أعادت، عبر الديموقراطية والشرعية البرلمانية المفترضة، الأحزاب التقليدية إلى الحكم، كانوا أقاموا كسابقيهم، من وراء ظهر الحكومة الشرعية للسيد معروف الدواليبي، قنوات اتصال مع الرئيس "المصري" جمال عبد الناصر، ولاقوا، كما صار واضحاً اليوم، تجاوباً منه بهذا الخصوص. ولكن...

إن كان على التاريخ أن يعيد نفسه فإن ما ينطبق على حالنا هنا، هو مقولة ماركس القائلة (مع بعض التحريف من جانبي) أن:

يعتبر تكرار التاريخ مهزلة فيما لو قورن بمأسوية المرة الأولى!

فقد كان الفشل الذريع لما خُطِّط له أمراً طبيعياً، يعود، من حيث مسبباته، إلى واقع أن أغلبية ضباط جيشنا لم تكن ترغب، بكل بساطة ورغم كل ادعاءاتها الوحدوية، إعادة الوحدة مع مصر...

وكانت بضعة أيام عمَّت الفوضى خلالها قطاعات الجيش... فكانت تمردات وضحايا في بعض القطعات العسكرية. ثم انعقد مؤتمر للقادة العسكريين في حمص، تم الاتفاق فيه على إبعاد "شلَّة النحلاوي ودهمان وعصاصة.. إلخ." عن البلاد، من جهة، وإبعاد غلاة الناصريين (كجاسم علوان ولؤي الأتاسي) عن الجيش، من جهة أخرى. كما اتفق المجتمعون (مؤقتاً) على انتخاب قيادة عسكرية تمثلهم، وعلى إعادة الرئاسة (مؤقتاً أيضاً) إلى السيد ناظم القدسي، الذي أُطلِقَ سراحُه في 13 نيسان 1962 من سجن المشفى العسكري وأعيد إلى قصر المهاجرين. كما اتفقوا أخيراً على عدم التطرق لإعادة المجلس النيابي المنحل، إنما على مسايرة عبد الناصر وعلى تشكيل حكومة مؤقتة تبزُّه "تقدمية"!

وجاءت حكومة الدكتور بشير العظمة، التي كان السيد رشاد برمدا فيها وزيراً للتربية والتعليم...

وكانت شائعات "الشارع السياسي" تتحدث عن انشقاقات تمخضت عن المؤتمر القومي الخامس لحزب "البعث العربي الاشتراكي"، الذي تركه السيد أكرم الحوراني وجماعته المعارضين بشدة لإعادة الوحدة مع مصر، وبات هؤلاء يعرفون بـ"الاشتراكيين العرب" (تسميتهم القديمة)، بينما احتفظ البعثيون التقليديون (من جماعة ميشيل عفلق وصلاح البيطار) بتسمية "البعث العربي الاشتراكي" وصاروا يبدون، ظاهرياً، مواقف مؤيدة لإعادة الوحدة مع عبد الناصر. وما بين هذين الجناحين، اللذين سرعان ما أصبحا أخوة أعداء، كانت مجموعة صغيرة من المدنيين بقيادة السيد رياض المالكي، من العسكر الأقرب أصولاً إلى جماعة الحوراني، تطالب بإبعاد قادة الحزب التاريخيين (عفلق والبيطار والحوراني)، من جهة، وبإقامة حكم بعثي "وحدوي"، من جهة أخرى؛ وقد باتت هذه المجموعة تعرف بـ"القطريين"...

لكني، وإن كنت أتابع كل هذا باهتمام، فقد كان شغلي الشاغل هو تقديم امتحانات الجزء الأول من الباكالوريا الفرنسية. فالامتحان صار على الأبواب؛ وكان تقرر أن يكون هذا العام في بيروت، وبالنسبة للطلاب الشوام في "المدرسة الفرنسية للفتيات" École française des jeunes filles هناك.

وكان تبقّى أمامنا حوالي الشهرين فقط للامتحان حين أُخبِرنا أنه يجب علينا أيضاً التقدم باختبار في الرياضة، هو عبارة عن بعض التمارين السويدية وتسلق الحبل وإلقاء الكرة والجري. فبدأت أهيّئ نفسي للموضوع من خلال المدرسة التي لم نكن نمارس فيها بشكل نظامي أي نوع من أنواع الرياضة...

ثم كان أوائل حزيران 1962، وسفري إلى بيروت لتقديم تلك الامتحانات التي كانت بالنسبة لي صعبة نسبياً وطريفة معاً.

وأولى مفاجأتها السلبية غير السارة كان امتحان الرياضيات، الذي توقعت أن أبدع فيه، فكان متوسط النتيجة؛ تلاه امتحان الرياضة الذي كان مأسوياً! ثم جاء امتحان الأدب الفرنسي الذي كان متوسطاً، فامتحان التاريخ الذي كان فوق الوسط بقليل...

وكنت حللت في حينه ضيفاً على خالتي أوديت التي كان ابنها نبيل يتقدم لنفس الشهادة بسهولة فائقة (فمدارسهم في لبنان كانت دائماً أفضل من مدارسنا السورية). أما رفاقي فكانوا ينامون في فندق متوسط الحال في ساحة البرج. وكانت مدة الامتحانات ثلاثة أيام، أتذكر خلالها جيداً كيف سألتني خالتي في مساء يومها الثاني:

– هل تعتقد يا أكرم أنك ستنجح من الدورة الأولى؟

فأجبتها:

– ربما... إن حصلت غداً على العلامة الكاملة في امتحاني الفيزياء والكيمياء!

فضحكتْ ولم تعلق...

ولكن، كان هذا ما حصل فعلاً... حيث تقدمت بسهولة لهذين الامتحانين الأخيرين الذين أضحى يتوقف عليهما نجاحي من الدورة الأولى. وحين سألتني خالتي من جديد، وقد عدت إلى منزلها بعد الامتحان:

– كيف كانت امتحاناتك اليوم؟

أجبتها:

– كانت رائعة يا خالتي! أعتقد أنّي سأنجح، كنبيل، من الدورة الأولى!

نجح من مدرستنا يومها، من الدورة الأولى، أنطون نصري وأنا؛ ثم نجح أربعة طلاب آخرون، هم كميل لكح وأطناس بقلة ونواف نصير ووسيم عبد الله في "شفهي" الدورة الثانية. وهكذا أصبح مجموع من نجح هذا العام في امتحانات الباكالوريا الفرنسية – جزء أول – ولأول مرة في تاريخ العازرية منذ أكثر من عشر سنوات – ستة طلاب من أصل ثمانية... الأمر الذي كان مدعاة سرور واعتزاز كبير لإدارة المدرسة، عامة، ولنا ولأهالينا، خاصة...

وكان يجب علينا خلال هذا الصيف الذي يلي الصف الحادي عشر أداء معسكر "الفتوة" الذي كان يقام، بالنسبة للطلاب

"الشوام"، في سهل الزبداني قرب نبع بردى. وكانت خمسة عشر يوماً طريفة انقضت بسرعة فائقة ما بين الرياضة والتمارين شبه العسكرية والمحاضرات "العقائدية" والمسيرات النهارية والليلية...

وجاء أبي وأمي ذات مرة لزيارتي خلال هذا المعسكر. وسألتني والدتي:

– كيف انطباعك عن المعسكر يا "روح أمك"؟

فأجبتها مازحاً:

– رائع يا ماما! لقد قررت نتيجته، وفور انتهائي من الباكالوريا، أن أنتسب إلى الجيش!

فسألني والدي مبتسماً، وقد أعجبه جوابي:

– ولماذا صرت تريد الانتساب إلى الجيش يا ... ؟

فأجبته ضاحكاً:

– لكي أقوم بانقلاب وأستلم الحكم في البلد...

صفعت والدتي وجنتيها، وقالت لي بانفعال:

– أنا لم أربَك كل هذا العمر يا ابني حتى تتركنا وتصير عسكري!

فقد كان مفهوم "العسكري" بالنسبة لها مرادفاً للفاشل! ونضحك أنا ووالدي الذي سرعان ما أجابها:

– يا الله شو حمصية يا روزين! ألا ترين أنه يمزح؟!

وعدت بعد معسكر الفتوة إلى دمشق، حيث قضيت باقي الصيف مع العائلة. فأوضاعنا المادية لم تكن تحتمل المزيد من المصاريف، خاصة وأن أهلي كانوا منهمكين بالانتقال إلى منزل مستأجر جديد آخر في الطابق الثالث من بناية واقعة في حي الشعلان، خلف وزارة المواصلات، وخلف ما كان ذات يوم منزل المرحوم السيد صلاح الدين البيطار وشقيقته الذي أزاله التنظيم فيما بعد، وأضحى مدخل ما يدعى اليوم بـ"شارع الحمراء". وقد انتقلنا إلى هذا المنزل في أوائل صيف عام 1962، وما زالت والدتي وشقيقتي ريما تسكنانه إلى اليوم...

ومرَّ الصيف الذي قضيته في لعب الشدة مع أصدقائي... وأقصد في أوقات الفراغ (فقط!)، أي حين لا أكون على اتصال بفاروق، الذي بتُّ أستمتع بالنقاش معه أكثر من أي شخص آخر، أو حين لا أطالع ما كان يتيسر لي من كتب كان يمرِّرها إليَّ هذا الأخير. ففاروق أضحى، مع الأب جورنياك، مزوِّدي الرئيسي بالكتب.

وقد قرأت يومها، على ما أذكر، رواية الأم لمكسيم غوركي. لكنها لم تترك لديَّ أثراً كبيراً بسبب ما أحسست فيها من سطحية. كما تعمقت في التعرف إلى جان بول سارتر، الذي قرأت له مسرحية الشيطان والإله الطيب التي تأثرت بها كثيراً، وكانت نقطة علام في تسريع اندفاعي اليساري. وقرأت رواية الوضع البشري لأندريه مالرو، فتأثرت بعمق وصفها للحال التعس للعمال الصينيين المستعبَدين،

وعمق تحليلها النفسي لحال المثقفين المناضلين في سبيل معتقدهم الأممي. وقرأت كتب شعر كثيرة، وخاصة للشاعر الفرنسي المعاصر جاك بريفير، فاستحوذت عليَّ قصائده بجمالها وإنسانيتها.
ومرَّرتُ، طبعاً، بعض هذه الكتب إلى أصدقائي كميل ونواف (من شلتي)، لكنها لم تترك لديهما أي أثر. فشلَّتي، رغم حبها للمطالعة، لم تكن تشاركني ميولي التي ازدادت تبلوراً وجذرية...
ولم أقرأ خلال هذا الصيف، طبعاً، أي كتاب مدرسي، على عكس زميلي، أشطر طلاب صفنا آنذاك، أنطون (طوني) نصري، الذي قضى الصيف بكامله يتهيأ للتقدم إلى فرع "الرياضيات الأساسية" (Mathématiques élémentaires)، الجزء الأهم والأصعب من القسم الثاني للباكالوريا الفرنسية، تلك التي كنت قررت، وباقي زملائي، التقدم منها إلى فرع "العلوم التطبيقية" (Sciences expérimentales) لأنه كان الأسهل؛ وحجتنا في ذلك كانت أنه كان يجب علينا أيضاً التقدم في نفس الوقت للباكالوريا السورية والحوز فيها على علامات مميزة تمكِّننا من الانتساب إلى الكلِّيات التي نرغب في جامعتنا السورية. وأعترف هنا أننا كنَّا في أعماقنا قد تنازلنا، رغم بعض الشعور بالغيرة، عن سعينا للفوز بالمنحة الجامعية الفرنسية الوحيدة التي كانت مخصصة لمدرستنا، لصالح طوني الذي كان أجدرنا بها...
"لأنه كان يدرس، بينما كنت أنت تتابع الأخبار السياسية!"
كما كان الجميع في سورية يتابع بتعاطف أخبار الجزائر وهي على مشارف استقلالها...
سورية التي لم تستقر الأوضاع فيها بعد مجيء حكومة الدكتور بشير العظمة. فالقاهرة لم ترحب بهذه الحكومة التقدمية، إنما قابلتها بالمزيد من العداء؛ الأمر الذي أدى إلى الاستقالات المتتالية لعدد من الوزراء الذين كان بعضهم قد أضحى، من حيث توجُّهه العام، أقرب إلى الخط الناصري، كالسيد نهاد السباعي الذي كان ذات يوم من حزب الشعب، والسيد عبد الله عبد الدائم. أما السيد عبد الحليم قدور، الذي استقال أيضاً، فقد كان أقرب إلى "الاشتراكيين العرب" من جماعة أكرم الحوراني...
وتفاقمت الأوضاع بين سورية ومصر إلى حدٍّ تقدمت فيه الجمهورية العربية السورية (كما أضحى اسم سورية منذ الانفصال) بشكوى ضد مصر إلى جامعة الدول العربية. فكان مؤتمر شتوره الذي نشر على الملأ الغسيل الوسخ لعهد الوحدة المنصرم...

- ما رأيك بمؤتمر شتوره يا بابا؟
- أكل هوا وبهدلة يا بني!
- ليش يا بابا؟! أليس ما قيل فيه "حقائق"؟!
- وهل تتخيل ماذا يمكن أن يحصل في عالم لا نقول فيه بعضنا لبعض إلا الحقائق!

وبهدف الخروج من المأزق الدستوري الذي بات يعيشه الوضع السوري منذ انقلاب 28 آذار 1962، كانت دعوة أعضاء المجلس النيابي الذي حلَّه العسكر إلى الاجتماع في منزل السيد خالد العظم، حيث

قرروا حلَّ أنفسهم بأنفسهم، وإعادة الاعتماد المبدئي لدستور عام 1950، وتكليف صاحب الدار ترؤس الوزارة (التي كانت الأخيرة لذلك العهد)، بهدف التهيئة لانتخابات جديدة...

تلك الوزارة التي كلَّفه الرئيس القدسي بتشكيلها، وأُعلِنَت في 17 أيلول 1962. وقد سعى السيد خالد العظم – رحمه الله – جاهداً لأن يجعل منها "وزارة وحدة وطنية" تضم جميع الفعاليات السياسية السورية لتلك الأيام، بدءاً من اليمين التقليدي، الذي كان ممثلاً بالسادة رشاد برمدا (أحد أكثر أعضاء حزب الشعب يسارية) للتربية والتعليم، وأسعد الكوراني للأوقاف، مروراً بجماعة أكرم الحوراني، الذين كانوا ممثَّلين بالسادة خليل الكلاس للمالية، وعبد الحليم قدور للإعلام، فالبعث، من خلال السيد منصور الأطرش للشؤون الاجتماعية والعمل، وصولاً إلى الإخوان المسلمين، من خلال السادة عمر عودة الخطيب للتموين، ونبيل الطويل للصحة؛ كما ضمَّت الوزارة أيضاً الضابط السابق من اللجنة العسكرية لعهد ما قبل الوحدة السيد أمين النفوري للإصلاح الزراعي، إضافة إلى عدد من أبرز الشخصيات والكفاءات الوطنية المستقلة، كالمهندس صبحي كحالة للمواصلات، والمهندس روبير الياس للأشغال العامة، والدكتور عزت الطرابلسي للاقتصاد الوطني...

ولكن تطلعات العظم لم يُكتَب لها النجاح من اليوم الأول. فالبعث باتت له، على ما يبدو، تطلعات أخرى؛ إذ رفض، على لسان ممثِّله المقترح السيد منصور الأطرش، الاشتراك في الوزارة التي تجاوزت من حيث "ديموقراطيتها" وزارة السيد بشير العظمة، فألغت حالة الطوارئ، وأعطت في حينه تراخيص لجميع الصحف المعارضة كـ"البعث" لصاحبها صلاح البيطار (وكانت طبعاً للبعثيين)، و"الوحدة" (للناصريين)، و"اللواء" و"المنار" (للإخوان المسلمين) و"الرأي العام" (لأحمد عسَّة، وكانت مؤيدة للعظم عموماً، كما كان يكتب فيها أيضاً بعض الشيوعيين)، وأخرى لجماعة الحوراني، إلخ. الأمر الذي لم يفسره إيجابياً، لا الشارع السياسي المراهق، ولا العسكر، إنما اعتُبِر أحد دلائل ضعف الحكومة ورئيسها. ومما زاد الأمور سوءاً يومها كان...

انقلاب الـ28 من أيلول 1962 في اليمن الذي قاده العقيد عبد الله السلال وأطاح بنظام الإمامة... وكانت بداية الحرب الأهلية بين القبائل المؤيدة للجمهوريين وتلك المؤيدة للملكيين... تلك الحرب التي تورَّطت فيها مصر إلى جانب الجمهوريين، بينما كانت السعودية والولايات المتحدة تؤيدان الجانب الملكي. وكان أيضاً انتخاب صديق الرئيس عبد الناصر، السيد أحمد بن بلا، رئيساً للجزائر المستقلة... تلك الأمور التي اعتبرها الشارع السياسي دعماً لتوجهات القاهرة وانتصاراً لخط عبد الناصر الوحدوي والتقدمي...

ب

مدرسة الآباء العازريين (4)

طائر الليل: لأن لكل شيء في هذه الحياة وجهه الآخر... وهذا الوجه ليس بالضرورة حقيراً؛ كما أنه قد لا يكون بالضرورة مشرقاً، إنما هو، قطعاً، من صنع أبنائه...

وعدنا إلى المدرسة، طلاباً في الصف الأخير (الباكالوريا). فكانت مفاجأتنا، في اليوم الأول لدراستنا، خبراً نقله لنا أحد الكهنة (لم أعد أذكر اسمه)، نقلاً عن مدير المدرسة الأب يوسف عطا الله، يقول إن افتتاح صفٍّ خاص للطلاب الذين يزمعون التقدم إلى امتحانات الجزء الثاني من الباكالوريا الفرنسية هو أمر يصعب على المدرسة تحمُّله بمفردها... الأمر الذي فسَّرناه تهرباً ورفضاً من قبل إدارة المدرسة لتقديمنا للجزء الثاني من الباكالوريا الفرنسية. لذلك...

قررنا، دون الرجوع إلى أحد، وكما كانت الموضة آنذاك في البلد، الانقطاع عن الدراسة. ثم اتصلنا مباشرة، دون علم أهالينا أيضاً، بإدارة مدرسة اللاييك التي رحَّبت بنا مبدئياً، وذهبنا بعد ظهر ذلك اليوم الثاني لدوامنا المدرسي المفترض إلى السينما، احتفالاً بانتقالنا منذ الغد الباكر إلى تلك المدرسة (حيث البنات و) حيث قرَّرنا أن نقدم الجزء الثاني للباكالوريا الفرنسية...

ولكن فرحتنا لم تدم! إذ سرعان ما بادر الأب يوسف عطا الله إلى الاتصال بأهلنا الذين وجدناهم ينتظرونا في ذلك المساء عند مدخل السينما ("الحمراء"، على ما أذكر). واتجهنا جميعاً لمقابلة الأب المدير الذي انتقد سلوكنا المراهق بلطف ومحبة. ثم اتفق مع أهلنا مباشرة على تسوية يتحملون فيها، إلى جانب المدرسة، بعضاً يسيراً من التكاليف الباهظة لهذا الصف الخاص والمميز.

ففي حينه، كنَّا أصبحنا بالنسبة لمدرستنا "سوبر طلاباً"، وأصبحنا نعامَل معاملة خاصة جداً. كنَّا صفاً من خمسة طلاب فقط (كان نواف نصير الوحيد من بين الناجحين في الجزء الأول الذي قرر ألا يتقدم إلى الجزء الثاني فرنسي، مفضلاً التركيز على الباكالوريا السورية)، إن لم نقل كنا أربعة طلاب وطالباً (هو طوني نصري الذي خُصِّصت له منفرداً دروسٌ إضافية خاصة في الرياضيات والفيزياء). كنَّا نحضِر بعض الدروس المشتركة المتعلقة بالبرنامج السوري مع باقي طلاب صفنا، ولكن غالبية دروسنا كانت في صفٍّ وحدنا. فقد خصَّصت لنا المدرسة نخبة من خيرة أساتذة البلد، كالأستاذ حزّي للرياضيات، والأستاذ بغدادي للفيزياء والكيمياء؛ وأيضاً كان مدرِّسنا للعلوم الطبيعية هو الصيدلاني الأستاذ فلاح الذي كان يهودياً، والذي ساعد كثيراً في إنجاحنا في مخصَّصه في الجزء الثاني من الباكالوريا الفرنسية؛ كما كان مدرِّسنا للفلسفة وللإنسانيات (التاريخ والجغرافيا) هو الأب يوسف عطا الله

نفسه. وكانت حصصُه هي الأمتع بالنسبة لنا من حيث ديموقراطيتها وعمق النقاشات التي كانت تجري خلالها...

وخاصة في تلك الأيام المضطربة التي نمعن فيها مزيداً، قبل أن تنطوي الصفحة ويبتلعها النسيان...

وكانت في حينه أزمة الصواريخ الكوبية بين روسيا وأمريكا...

تلك الأزمة التي تناقشتُ حولها مع صديقي فاروق الذي كان أصبح طالباً في السنة الأولى حقوق، وبات ينقل إليَّ بأسلوبه الشائق الجميل ما لم أكن أعلمه من أخبار خارجية وداخلية: كيف ذهب مع بعض أصدقائه الشيوعيين للتظاهر، تضامناً مع كوبا، أمام سفارة الولايات المتحدة في دمشق، وكيف ألقوا البيض والبندورة الفاسدة على السفارة الأمريكية، أو أخبار الاضطرابات الطلابية التي وقعت مؤخراً في جامعة دمشق، حيث جرت مشاجرة عنيفة بين الطلاب الشيوعيين والاشتراكيين المسلَّحين بالجنازير، من جهة، والبعثيين والناصريين المسلحين بالعصي، الذين دعمهم الإخوان المسلمون، من جهة أخرى... تلك المعركة التي انتصر فيها البعثيون والناصريون والإخوان على خصومهم الاشتراكيين والشيوعيين وسحلوا أحدهم (الذي كان شيوعياً وصديقاً لفاروق يدعى نذير) في ساحة الجامعة، قبل أن يُنقَل، وهو غائب عن الوعي وفي الرمق الأخير، إلى المشفى حيث تم علاجه وإنقاذه...

وكان إضراب معلِّمي المدارس الرسمية الذين كان يسيطر الناصريون على نقابتهم...

وكانت أيضاً إصابة رئيس الوزراء السيد خالد العظم بتوعك صحي حادٍّ ألزمَه دخولَ المشفى بعض الوقت...

وكانت صدامات حادة في داخل الوزارة بين "الاشتراكيين" و"الإخوان"، تمخضت عن الاستقالات المتتالية للوزراء رشاد برمدا (حزب الشعب)، عبد الحليم قدور وخليل كلاس (اشتراكيين عرب، من جماعة أكرم الحوراني)، أمين النفوري (مستقل)، عمر عودة الخطيب ونبيل الطويل (إخوان مسلمين)، الأمر الذي فاقم عزلة وزعزعة العهد الانفصالي عموماً ووزارة العظم خصوصاً...

أحداث كانت تترافق مع شائعات باتت ملحة، تتحدث عن قرب وقوع انقلاب عسكري جديد...

وكان كاريكاتور سياسي معبِّر جداً في المضحك–المبكي يصوِّر السياسيين السوريين، كلٌّ واقف على درجة من نفس السلم، وفي يد كل منهم منشار ينشر به الدرجة التي وقف عليها من هو أعلى منه...

وحديث جرى آنذاك بين والدي وصديقه تحسين العظم (ابن عم خالد) – رحمهم الله جميعاً – جاء فيه:

– لم لا تتحدث إلى خالد يا تحسين، فتنصحه، وقد بلغت أوضاع البلد من الانحطاط ما بلغت، وبلغ السن بصديقنا ما بلغ، أن يبتعد عن السلطة والسياسة ومتاعبهما؟

فيجيبه تحسين:

– لقد نصحته بهذا عدة مرات يا أريس، وكان جوابه لي دائماً: "أنتم لا تعرفون كم هي لذيذة!" (وكان يقصد السلطة، وخاصة منها قمة الهرم!)

فالسلطة، عموماً، وبالتحديد منها قمة الهرم، كانت حلم ذلك السياسي العجوز؛ والصراع من أجل تملكها والسيطرة عليها كان، على ما يبدو، طريق حياته. ولكن، ربما بسبب أرستقراطيَّته وثقافته، كان سعيه في سبيلها، من خلال ما اعتقده بنفسه من كفاءة ومقدرة، في حال تملُّكها، على تحقيق مصالح بلده وشعبه، وعبر ما آمن به من ديموقراطية وشرعية دستورية. ولكن خالد العظم لم يكن الطامح الوحيد إلى السلطة بين "ساستنا". فجميعهم، بدءاً من أبرزهم، وصولاً إلى من انتزعها في النهاية، وكان يتطلع إليها حالماً، لهذا الهدف أو ذاك أو لهذه الغاية أو تلك، مع ذلك الفارق الذي يقول إن "شرعية" هذا الأخير في السعي إليها إنما كانت البندقية وأخلاقياتها!

وتلك الأخلاقيات هي التي أوصلت العراق إلى الثامن من شباط 1963...

ذلك الانقلاب الدامي الذي قاده حزب البعث، بالتحالف مع عبد السلام عارف وجماعته، فأطاح بحكم الزعيم عبد الكريم قاسم وحلفائه الشيوعيين الذين تصدوا، في حينه، للانقلاب البعثي–الناصري بشجاعة، الأمر الذي تمخض عن مجزرة لهم ولأنصارهم على يد ميليشيات الحرس القومي بقيادة علي صالح السعدي...

وكان، طبعاً، ترحيب مصر وعبد الناصر بالتطورات الوحدوية التي جرت في القطر العراقي الشقيق، الأمر الذي زاد من ارتباك الحكم السوري الذي تجاوزتْه الأحداث. و...

كان، أخيراً، ذلك الانقلاب المتوقَّع الذي أطاح في الثامن من آذار 1963 بحكم الـ"الانفصال... الرجعي... العميل"... الذي كان أحد أبرز قادته العقيد (الحموي) زياد الحريري، بالتعاون مع التنظيم العسكري لـ"حزب البعث العربي الاشتراكي"...

"حين وقع انقلاب 8 آذار 1963 كان يقف أمام باب منزل رئيس الجمهورية ناظم القدسي ورئيس وزرائه خالد العظم بعض الشرطة، واحد أو اثنان فقط، لست أدري..."

– وكان هذا خطأً جسيماً!

– ربما. ولكن كان الجيش قد فلت تماماً في حينه من يد الطبقة السياسية القديمة. وكان "البعث" قد أضحى أداته الأمثل.

ونسجل أولاً أن انقلاب 8 آذار 1963 الذي أوصل البعث إلى السلطة لم يكن، للحقيقة وللتاريخ، دموياً، كالانقلاب البعثي–الناصري في العراق، إنما تم بسهولة فائقة...

وتشكلت حكومة ائتلافية من البعثيين والناصريين، برئاسة السيد صلاح الدين البيطار؛ وكانت تضم 20 وزيراً، منهم 10 بعثيون، من بينهم السيد أمين الحافظ وزير الداخلية، و10 وزراء من مختلف الفئات الناصرية، كان أهمهم السادة نهاد القاسم، سامي صوفان، هاني الهندي، جهاد الضاحي. ووسط التهليل والمطالبة الجماهيريين للشارع السياسي، الذي أضحى لبعض الوقت مؤيِّداً، بدأتْ في 10 آذار 1963 في القاهرة مفاوضاتٌ لإعادة الوحدة بين سورية ومصر وتوسيعها لتشمل العراق أيضاً...

لم لا؟ وأغنية تلك الأيام كانت تردِّد، على لسان المغنية "المصرية" فايزة أحمد، أن:

شعب سورية والعراق... والجزائر واليمن...

[مع] مصر العزيزة بوفاق... عايزين يتحدُّوا الزمن...

وتستعيد ذاكرتي بعضاً من الصور الصاخبة للأحداث آنذاك... كتلك المظاهرة الصغيرة من "الرعاع" الذين تجمعوا في اليوم الأول للانقلاب أمام منزل السيد خالد العظم (الذي كان التجأ إلى السفارة التركية، التي كانت مستأجرة الطابق السفلي من بنايته الواقعة في أعلى حي أبو رمانة)، ليُسقِطوا ويشتموا ببذاءة سياسياً عجوزاً ومريضاً كان ذات يوم أحد أكفأ وأشرف القادة السياسيين السوريين لفترة ما بعد الاستقلال. وكانت قرارات العزل السياسي التي أصدرتْها الحكومة الأولى للمرحوم صلاح البيطار بحق جميع خصومها من السياسيين الذين اعتبرتْهم معادين للوحدة، كالسادة "ناظم القدسي، ورشدي الكيخيا، وخالد العظم، ومأمون الكزبري، ومعروف الدواليبي، وصبري العسلي، وأكرم الحوراني، و... خالد بكداش، إلخ."، وما لحق تلك القرارات من مراسيم تقضي بإحالة بعض هؤلاء إلى المحاكمة...

كما توقفت معظم صحف عهد "الانفصال" عن الصدور، ولم يبق منها بعد الثامن من آذار 1963 إلا البعث والوحدة والمضحك–المبكي (المستقلة المحايدة) واللواء (إخوان مسلمون) التي استمرت في الصدور بعض الوقت...

وكانت محادثات الوحدة بين حكومات مصر وسورية والعراق قد استمرت حتى 17 نيسان 1963، وسط أجواء بدأ يتضح فيها للجميع عمقُ التناقضات بين الناصريين المطالبين في مظاهراتهم بالإعادة الفورية للوحدة مع مصر، وبين مجلس الثورة والحكومة، حيث كان البعث مهيمناً...

الأمر الذي كانت تعبِّر عنه بحدة الهتافات الناصرية التي كانت تؤكد على أنه لن تكون هناك...

"لا دراسة لا تدريس حتى عودة الرئيس..."

(عبد الناصر) الذي كان موقفه، خلال محادثات الوحدة، متحفظاً على دور حزب البعث ومداه في الوضع السوري الجديد، ومتسائلاً عمَّن تكون القيادة الحقيقية (افهم العسكرية!) لانقلاب الثامن من آذار...

"فعبد الناصر، كزعيم "انقلابي" محنَّك، لم يكن يريد أن يكون غطاءً لحزب البعث الذي كان يسعى، في المقابل، إلى تغطية سيطرته على سورية والعراق بغلاف ناصري. والقلائل فقط في حينه كانوا يعلمون من كانت القيادة الفعلية لانقلاب 8 آذار 1963 في سورية..."

حتى جاءت مَحاضر تلك المفاوضات التي نُشِرَتْ بعد استعار الخلاف بين البعث وعبد الناصر، وكشفتْ للمرة الأولى عن أسماء كلٍّ من المقدم محمد عمران والرائد صلاح جديد – رحمهما الله – فبدأ يتضح للملأ أن تنظيماً عسكرياً بعثياً – إن لم نقل "لجنة عسكرية" – كان قائماً إلى جانب جماعة زياد الحريري، وأنها كانت القوة الأساسية التي وقفت وراء الانقلاب.

"أي، إن نظرنا من وجهة انتمائهم نرى أن جميعهم كان من ريف حمص وحماه والساحل..."

"لكن الانتماء المذهبي أو الفئوي أو الطائفي لم يكن مهماً من وجهة نظر مثقَّفي تلك الأيام، خاصة وأن ميزة بلدنا كانت – وما زالت – تكمن في ذلك التنوع المذهبي والإثني الكبير الذي يشكل المسلمون السنة والعرب فيه الأغلبية العظمى، من جهة، وفي ذلك التعايش بين مختلف طوائفه وأعراقه من جهة أخرى..."

وأتذكر أنه، في سني طفولتي وشبابي، لم يكن يجري البتة، على الأقل في الوسط حيث ترعرعت، التطرق لمثل تلك "الفوارق"، إن وجدت. فمثل ذلك الحديث كان يبدو معيباً...

"لكن ما حدث من بعدُ جَعَلَ الأمور في بلدنا تتغير بعض الشيء، مع الأسف... على الأقل بالنسبة للبعض، من الدهماء وذوي المصالح..."

ويزفُّ ميثاق 17 نيسان 1963 للجماهير العربية المترقبة نبأ قيام الوحدة بين سورية ومصر والعراق!

ولكن كان المطَّلعون فقط يعلمون أن هذه المحادثات قد فشلت...

أو على الأقل هذا ما كنت أتمنَّاه يومها، وقد أصبحتُ متعاطفاً بعمق مع الشيوعيين الذين كانوا يُذبَحون في العراق، وكتحصيل حاصل، معارضاً، من حيث المحصلة، للوحدة وللناصريين وللبعث... أولئك الذين كنت، كمعظم أبناء البلد، أتابع صراعاتهم بشماتة. فتلك كانت المتنفَّس الوحيد لسخطي ورفضي لهؤلاء. ولكن لما لم تكن الشماتة متنفَّساً حقيقياً، ولما كنت أصبحت في حينه "ثورجياً"، فقد كان أول ما انعكست ثورتي تجاهه، مع الأسف، هو ذلك الوسط الذي أحبَّني ورعاني (وأقصد أهلي والمدرسة)، والذي أصبحت رافضاً لـ"مفاهيمه وقيمه البالية"!

توجَّهت يومها إلى مكتب مدير المدرسة الأب يوسف عطا الله طالباً لقاءه، فاستقبلني بحرارة وسألني بمحبة عما أريد. أجبته بجلافة أن ما أريده فقط هو موافقته على عدم حضوري القداس الأسبوعي من الآن فصاعداً. ولما سألني عن السبب أجبته: "لأني لم أعد مؤمناً يا أبونا!" فتبسم، وقدَّم لي سيجارة، قبلتُها في حينه شاكراً، رغم أني لم أكن أدخن، ثم نظر إلي بمحبة وأجابني: "ليكن ما تريد يا أكرم..." فشكرته، وهرولت خارجاً من مكتبه مطأطأ الرأس حزيناً. فقد كنت أشعر بخجل شديد من نفسي، ولم أكن أدرك السبب. كان شعوري العام، وقد حققتُ ببساطة ما طلبت، هو شعور مرير بالهزيمة. لكني لم أفهم ذلك الشعور إلا لاحقاً جداً...

وأتذكر، للمناسبة أيضاً، ذلك الامتحان الجزئي الذي أجروه لتثبيت معلوماتنا فيما يتعلق بالجزء الثاني من الباكالوريا الفرنسية، وكيف كان تحضيري له غير كافٍ. فقد كنت بدأت أفكر بألا أتقدَّم إلى تلك الشهادة، مكتفياً، كصديقي نواف نصير، بالتركيز فقط على الباكالوريا السورية... وكيف سألني الأستاذ بغدادي، قبل الامتحان بقليل، عن مدى استعدادي، فأجبته:

– ليس كما يرام يا أستاذ. على كل حال، لقد قررت أن أبتَّ في موضوع تقدمي للباكالوريا الفرنسية على ضوء نتائج هذا الامتحان...

فابتسم، ولم يجبني. ولم أفهم في حينه معنى ابتسامته. فقط شعرت بأنه سيخبر الأب عطا الله بجوابي.

وكان تقدمي لهذا الامتحان الذي لم يكن جيداً، إنما كان، وفق تقديري، أقل من الوسط.

وجاءت الصفعة لي هذه المرة، عبر النتائج التي أعطتْني في كل ما تقدمت به علامة شبه كاملة. ففهمت يومها أنه لم يعد يحق لي التراجع، إنما بات يجب عليَّ، على الأقل إكراماً لمن عبَّر لي، من خلال تلك النتائج التي لم أكن أستحقها، عن محبته وثقته، التقدمُ لتلك الامتحانات...

وكان هذا ما حصل في أوائل حزيران، حين تقدمت بسهولة نسبية ونجاح لامتحانات الجزء الثاني من الباكالوريا الفرنسية التي دامت ثلاثة أيام، وكانت هذا العام في مدرسة اللاييك في دمشق، تلتها بعد أسبوع الباكالوريا السورية التي تقدَّمتُ إليها أيضاً بسهولة ونجاح. ولكن بجودة أقل مما كان يُفترَض...

وكنت ألتقي كل يوم، في أثناء تقديم امتحانات الباكالوريا الفرنسية، بقريبتي سامية (ابنة نعيم) التي انقطعتُ، مع الأسف، عن رؤيتها منذ تاريخه، والتي كنت في حينه شديد الإعجاب بنعومتها وتهذيبها. لقد سألتني قبل امتحان التاريخ أو الجغرافيا (فالنظام الفرنسي كان يقضي في حينه باختيار إحدى تلك المادتين بالقرعة) عن استعدادي في مادة الجغرافيا. وأجبتها:

– يا سامية أنا دارس فقط تاريخ...

فنظرت إلي بتعجُّب وقالت:

– ولكن ماذا إذا كان الامتحان جغرافيا؟!

فأجبتها بكل جدية – وكانت تلك هي الحقيقة المضحكة:

– سوف أرسب يا بنت عمي...

فلم تستوعب أني كنت جاداً، وقالت لي:

– أنا لا أصدقك! أنت تمزح يا غليظ!!

فضحكنا وافترقنا. ثم تقدمنا للامتحان الذي كان حظي فيه جيداً، حيث جاءت الأسئلة – لحسن حظي – تاريخية، فنجحت بسهولة، كان سببها هذه المرة، كما سبق وأشرت، حسن تأسيسي السابق في المدرسة، وليس عمق دراستي خلال هذا العام الصاخب الذي لهوتُ فيه أكثر من المعتاد...

فقد كان هذا العام صاخباً فعلاً... حيث تفجر الصراع بشكل علني بين البعث الذي بات مسيطراً على الجيش، وإن لم يكن يشكِّل سوى أقلية صغيرة جداً على صعيد البلد، وبين الشارع السياسي الذي كان يسيطر عليه الناصريون. ففي نهاية نيسان 1963 كانت الشائعات في البلد تتحدث عن تسريح العديد من الضباط الناصريين من صفوف الجيش الذي كانت تجري في صفوفه، بالمقابل، تعيينات مكثفة لمن هبَّ ودبَّ... الأمر الذي أدى إلى استقالة الوزراء الناصريين الخمسة الأبرز من حكومة السيد صلاح

البيطار، بمن فيهم وزير الدفاع آنذاك اللواء محمد الصوفي؛ كما استقال أيضاً نائب رئيس الأركان اللواء راشد قطيني..

"وكان أحد أعداد المضحك–المبكي يصور السيد صلاح البيطار، الذي حلَّ بشكل طبيعي مكان الوزراء المستقيلين الخمسة، مجتمعاً إلى نفسه يبحث معها شؤون وزاراتهم..."

وكانت محاولات لتطويق الخلافات المتفاقمة بين البعث والناصريين، وسط أجواء ضاغطة من الشارع الناصري ومن القاهرة... وكانت صدامات بين قوات الأمن والمتظاهرين الناصريين الذين حاول البعثيون دون جدوى مجابهة مظاهراتهم بأخرى مضادة، لكنها كانت في حينه هزيلة جداً...

التقينا يومها – وكنت أتنزه قرب قصر الضيافة مع شارل – بصديقنا المشترك، الطالب في مدرسة البطركية للروم الكاثوليك، جورج عين ملك، وهو على رأس إحدى تلك المظاهرات البعثية الصغيرة. ففهمنا أن جورج صار، كما عبَّر لنا بكل حماس، مناضلاً بعثياً...

وأتساءل اليوم إن كنت أضحيت، في حينه، مقتنعاً بذلك المنطق الذي جعلني أختار طريق الشيوعية، كما كان مقتنعاً بمنطقه "ذلك الآخر" الذي اختار في حينه طريق البعث (أو أي طريق "عقائدي" آخر)...

واستمرت المظاهرات والاضطرابات الناصرية، ولم تتوقف آنذاك حتى...

كان، للمرة الأولى في تاريخ سورية المستقلة، إطلاق الرصاص على المتظاهرين، بأمر من قائد قوات المغاوير المرابطين في حينه قرب الإذاعة، الرائد (البعثي من جبل الدروز) سليم حاطوم...

وتوقفت عن الصدور الصحف الناصرية التي كانت أهمها صحيفة الوحدة. وكانت ردة فعل عنيفة من القاهرة التي أجَّلت المحادثات التي كان من المقرَّر بدؤها في 12 أيار حول تكوين "قيادة عسكرية موحَّدة" للدولة الموحَّدة المفترضة، وصعَّدت من حملتها الإعلامية ضد ما أسمتْه "التسلط البعثي المتزايد على مجمل الأوضاع في سورية" التي تحولت صحافتها "العلنية" إلى صحافة بعثية فقط!

ثم كانت محاولة أخيرة (لست واثقاً من جدِّيتها) استمرت يوماً واحداً لإعادة الألفة البعثية–الناصرية... فاستقالت حكومة السيد صلاح البيطار، وكُلِّف السيد سامي الجندي بتشكيل حكومة جديدة تعيد الألفة المفقودة بين البعث والناصريين، لكنه أعلن في نفس اليوم عن فشله. وأعيد في نفس اليوم (13 أيار 1963) أيضاً تكليف السيد صلاح البيطار بتشكيل الوزارة التي جاءت هذه المرة بعثية صرفاً، وصار اللواء أمين الحافظ نائباً لرئيس الوزراء ووزيراً للداخلية...

وكان إبعاد العقيد زياد الحريري وجماعته من الجيش، الذي بدأ يصير "عقائدياً" بعد أن سيطرت عليه سيطرة كاملة اللجنة العسكرية البعثية...

"وكانت "دولة إسرائيل المزعومة" تتابع بإصرار سياستها الهادفة إلى التقرب من الولايات المتحدة بهدف إقناعها بأنها الحليف الأمثل في المنطقة..."

"وكان إسرائيل، المستفيد جداً من عدم رغبتنا في التفاوض معه حول أي موضوع، قد بدأ منفرداً في تحويل مجرى نهر الأردن لصالحه..."

"بينما كانت دولنا تتخبط في محاولات عقيمة لمنعه من تحويله. لكن محاولاتنا فشلت جميعاً على أرض الواقع بسبب التفوق العسكري والذرائعي لتلك "الدولة المزعومة" الذي لم يكن بوسع الحكام العرب، المشغولين بالمزاودة بعضهم على بعض، تفهُّم أسبابه..."

والأصوات كانت تتعالى، والتعبئة الإعلامية كانت تتصاعد، مردِّدة عبر الأثير أن:

"نهر الأردن ما بيتحول..."

ونهر الأردن كان بدأ يتحول رغماً عنَّا. والجميع تقريباً كان يدعو آنذاك إلى تحرير كامل تراب فلسطين. والذين استولوا على فلسطين كانوا يستعدون لما هو آتٍ، مبرِّرين استعداداتهم تلك بما كنَّا ندعو إليه...

قضينا العطلة الصيفية لذلك العام في منزل مستأجر في بلودان كان يقع وسط البلدة. كنت ما أزال على صلة بشلَّتي في المدرسة. ولكن هذه الصلة كانت تضعف بشكل متناسب مع تطور ميولي الشيوعية، تلك الميول التي كانت تدفعني للمزيد من التقرب من فاروق الذي كان أضحى صديقي المفضل...

الذي سألته ذات يوم، وقد صرت شبه مستيقن من علاقته بالحزب الشيوعي السوري، أن يعيرني ما لديه من كلاسيكيات شيوعية. فأعارني أولاً البيان الشيوعي لماركس وإنجلز الذي قرأته بحماس... حماس لم يكن يعادله إلا ذلك الذي تملَّكني حين قرأت خلال نفس الفترة رواية عناقيد الغضب للكاتب الأمريكي جون شتاينبك الذي كان أيضاً، حين كتب روايته تلك، "شيوعي" الميول... تلك الرواية التي صورت تصويراً رائعاً معاناة العمال الزراعيين الأمريكيين وآلامهم، وكيف يدفع الإنسانَ إلى "الثورة" التي أصبحتُ، نظرياً على الأقل، مقتنعاً أشد الاقتناع بضرورتها عن طريق ما اعتقدته "الحزب الثوري الحقيقي الوحيد"...

ثم عبَّرت لفاروق عن رغبتي في الانتساب إلى الحزب الشيوعي، سائلاً إياه أن يساعدني بذلك من خلال معارفه. فضحك وأجابني: "سنرى." ولكن...

بانتظار أن "يرى"، كان بعض ما عشته خلال هذا الصيف مأسوياً...

فقد ازدادت وتيرة الخلافات الصاخبة بين والديَّ، واتخذتْ بالنسبة لنا أبعاداً نفسية مؤلمة. وازدادت أيضاً مشاكل أخي سمير بحكم بلوغه؛ وكانت تلك أمور سرَّعت في "هروبي" وإكرام نحو ذلك العالم الخارجي الذي بات يستحوذ على القسط الأعظم من اهتمامنا...

وتحول الخلاف البعثي–الناصري من خلاف عقائدي فقط إلى خلاف عقائدي مسلح...

وكانت المحاولة الناصرية الفاشلة الأخيرة للاستيلاء على السلطة... تلك التي تمَّت في وضح نهار ذلك اليوم 18 من تموز 1963 والتي كان البعثيون مستعدين للقائها... فكانت معارك شوارع أوْدَتْ بأرواح الكثير من الضحايا، وأنهت، بالتالي، رسمياً مشروع تلك الدولة الموحدة الثلاثية، معيدة الحرب الإذاعية

بين سورية ومصر إلى أسوأ أيامها "الانفصالية"! – مع فارق أنه، في هذه المرة، كان "الانفصال" قد أصبح "وحدوياً"!

لم يتمكن والدي، في مساء ذلك اليوم، من الالتحاق بنا في بلودان، بسبب اضطراب الأوضاع وإعلان منع التجول؛ فقط اتصل بنا هاتفياً لطمأنتنا. ثم التحق بنا في مساء اليوم التالي برفقة عمِّي جورج. قضينا السهرة جميعاً نستمع منهما إلى ما رأوه، وكان بالنسبة لهما مرعباً... أقصد معارك شوارع في قلب دمشق، وسط النهار – وهو أمر لم تعرفه البلاد من قبل.

وعدت إلى دمشق فور هدوء الأحوال والإعلان عن بدء التسجيل في الجامعة، لأسجِّل طالباً في كلية الهندسة المدنية...

واجتمعت بفاروق الذي سألني إن كنت ما زلت مصراً على طلبي للانتساب إلى الحزب الشيوعي. ولما أجبته بنعم، أعطاني آخر عدد من صحيفة الأخبار اللبنانية المطبوعة على ورق رقيق جداً ونشرة "حياة الحزب" الداخلية لأقرأهما. وقال لي:

– غداً إذاً سنلتقي، في تمام الساعة ...، عند موقف "القزازين" الواقع في منتصف شارع بغداد.

قضيت تلك الليلة، بعد أن قرأت النشرات التي أعطانيها فاروق من أولها لآخرها، في نوم مضطرب بسبب شدة انفعالي. فما كنت مقدِماً على فعله كان عملاً سيغير مجرى حياتي.

وجاء ذلك الغد ولقاؤنا... ودخولي معه (للمرة الأولى بالنسبة لي) إلى حيٍّ لم أكن أعرفه من قبل، اتَّجهنا عبر أزقته الضيقة نحو منزل متواضع قرع فاروق بابه، ففتح لنا شاب أسمر نحيل، خفيف الشعر، طويل القامة، واستقبلنا بترحاب وبحرارة.

كان يدعى نذير يزبك، صديق فاروق والطالب في السنة الثانية في كلية الطب، الذي سحله ذات يوم (خلال الانفصال) البعثيون والناصريون والإخوان، وأضحى مسئولي الأول في الحزب الشيوعي السوري.

الفصل السادس

سنوات الصخب...
(1966-1963)

آ

الجامعة، الرفاق والآخرون (1)...

هل ما زلت تذكر "قطعة شمس" وأبياتاً جميلةً تغني بألم...

/ آه يا ناراً من العشب الطري

والقلوب القاسية...

كان الوقت بعد ظهر عشية رأس السنة الجديدة، وكنت مدعواً في تلك الليلة الأخيرة من عام 1963 إلى السهرة في منزل كميل، عندما تلقيت هاتفاً مفاجئاً وطريفاً. فالفتاة التي اتَّصلت بي يومئذٍ كانت جميلة جداً، مغرية جداً، ومن مدرسة بنات العازرية. كان اسمها ......، وكانت ابنة زوجة ...... (الذي كان مسلماً متنصِّراً ومتزوجاً من امرأة أرمنية مسيحية). كانت علاقتنا تقتصر، بحكم معرفتي بزوج أمِّها الذي كان أستاذاً في مدرستي، على تبادل الابتسامات والسلام المهذب.

– أنا آسفة لاتصالي بك يا أكرم، ولكني أواجه مشكلة. دعاني صديقك ...... إلى حفلتكم الليلة، وأرغب في الحضور؛ ولكن زوج ماما لا يوافق على ذهابي معه. ولما كنت أنت من أكثر الشباب الذين يحبهم ويثق بهم لِمَ لا تدعوني أنت إلى الحفلة؟

ضحكتُ، ثم استفسرتُ منها عن وجود الأستاذ في المنزل؛ وحين أجابتني بالإيجاب قلت لها:

– لا بأس، سأحضر إلى عندكم بعد ساعة لأدعوك.

وكان هذا ما حصل: دعوتُها، وإن حضرت الحفل مع ......، الذي تركتْه (بشكل مُخْزٍ) لترقص معي طوال الوقت في محاولة ساذجة لإفهامي أنه من الممكن أن تنشأ بيننا قصة حب جميلة! ولكن الألوهة، مقرونةً ببلاهتي، شاءت ألا يكون الحبُّ هو شاغلي في تلك الأيام التي...

كان وضعي في أثنائها كـ"جائع وقع على سلَّة تين"، لفرط ما أصبحتُ معجباً وغارقاً في الجو الجديد الذي سحرني وأحاطني معاً. كانت فرقتي الحزبية الأولى، التي كان مسؤولها نذير، تتألف منِّي ومن جعفر ...... (العزيز مروان) الذي كان أيضاً طالباً في كلِّية الهندسة المدنية، ولكنه كان يتقدمني صفاً. وقد تبين لي، منذ البداية، أن نذير ومروان كانا على معرفة قديمة واحدهما بالآخر تعود إلى أيام الثانوي والوحدة، حين تم اعتقالهما، وقضيا معاً بضعة شهور في السجن...

كان نذير في حينه طالباً مجداً، حاد الذكاء، هادئ الطباع، ذا قسط لا بأس به من الثقافة. أما مروان، الذي لم يكن يقل عنه ثقافة، فكان يمتاز بطبعه الحالم وإنسانيته المتدفقة، الأمر الذي خلق بيني وبينه علاقة صداقة أكثر تميزاً. وكنَّا نجتمع مرة كل أسبوع في منزل نذير، الذي كان يقدم لنا الشاي قبل بدء الاجتماع، أو – إن كان اجتماعنا صباحياً – يدعونا إلى مشاركته الفطور. ثم نبدأ جدول أعمالنا الذي

كانت طقوسه ثابتةً لا تتغير، ويتضمن ثلاثة بنود أساسية هي التنظيم والحديث السياسي والحديث الثقافي: أما التنظيم فكان استعراضاً ونقاشاً لأوضاع مَن حولنا من أصدقاء فعليين و/أو محتملين للحزب؛ بينما كان الحديث السياسي هو ما يصلنا من خط الحزب الذي وضعتْه قيادتُه (التي على رأسها طبعاً الرفيق خالد)، ويتضمن تقويماً للأوضاع العامة في البلد وفي المنطقة وفي العالم؛ أما الحديث الثقافي فكان موضوعاً ماركسياً يُكلَّف أحدنا بتحضيره. وكانت أولى المواضيع التي بدأنا بحثها في الفرقة هي "الفلسفة الماركسية".

ولم يمضِ بعض وقت إلا وتعرفت، عن طريق صديقيَّ الجديدين نذير ومروان، وأيضاً عن طريق فاروق الذي كان من المجموعة نفسها، إلى شلَّة من المثقفين الماركسيين وعشاق الموسيقى الكلاسيكية كانت تسمي نفسها "الكهف"، نسبة إلى قبو قديم كانوا يجتمعون فيه سراً لسماع الموسيقى (أيام المدرسة وفي عهد الوحدة). وكانت هذه الشلَّة تتألف، إضافة إلى من ذكرت، من: محمد ...... الذي كان حاد الذكاء وصاحب نكتة لاذعة، وكان، على ما قيل لي، صديقاً للحزب وعازف فيولونسيل محترف يقطن مع عائلته في بيت عربي متواضع صغير يقع في الحي القديم الواقع ما بين الشيخ محيي الدين والجسر الأبيض؛ وعدي ...... الذي كان يتميز بنعومته وكسله المريع، وكان رفيقاً أردنياً وطالباً في كلِّية الحقوق يقطن في حينه مع عائلته في قبو متواضع من حيٍّ المزرعة؛ و(المرحوم) مجيب ......، المهذب والأرستقراطي، بحكم كونه ابن أسرة دمشقية غنية ومعروفة، الذي كان محباً للفن، وصديقاً للحزب، وطالباً في كلية التجارة، ويسكن في منزل عربي كبير يقع في حي المهاجرين؛ وحسن ...... (الفلسطيني) الذي كان جلفاً واستفزازياً من حيث مظهره الخارجي، وكان في حينه طالباً في كلِّية الحقوق، وكان يقطن آنذاك قرب منزل محمد. وكان هؤلاء، الذين سرعان ما انضممتُ إليهم وأضحو شلَّتي الجديدة، يجتمعون خلال أوقات فراغهم كلَّ بضعة أيام (مرتين في الأسبوع، على ما أذكر)، غالباً في منزل محمد وأحياناً في منزل مجيب، لسماع الموسيقى الكلاسيكية التي أصبحتُ من محبيها، و/أو لتعاطي الخمرة والنقاش في موضوع ما، أدبي أو فلسفي أو سياسي...

وعن طريق هؤلاء الأصدقاء الجُدُد تعرفت إلى آخرين من الوسط الدمشقي الماركسي والمثقف: كممتاز ...... الذي كان في حينه طالباً في كلية الفنون الجميلة، وزوجته فردوس (التي كانت أيضاً قريبته)، الطالبة في كلية الفلسفة، واستمعت بإعجاب إلى ما نُقِلَ إليَّ حولهما آنذاك، ومفاده أن "... ممتازاً كان من أحضر لنا الجنازير الحديدية التي استعملناها لمقاتلة البعثيين والناصريين في تلك المعركة الطلابية الشهيرة التي وقعت في الجامعة أيام الانفصال وخسرناها مع الأسف..."، كما كان من الذين سُجِنوا بعض الوقت في أيام الوحدة، كما سُجِنَتْ لمدة شهر أيضاً في حينه قريبتُه فردوس؛ كما تعرفت، من خلال الأجواء نفسها، إلى طالبة حقوق لطيفة كانت تدعى هيام ......، وإلى ذلك التاجر الغني الطيب،

صديق الحزب، الذي كان خالها، وكان الرفاق يستغلون طيبته؛ كما تعرفت إلى غيرهم ممَّن لا أجد داعياً لذكره... وأيضاً...

بدأ وسطي الجامعي الجديد يتكون في كلِّية الهندسة المدنية التي كان دوامي فيها خلال السنة الإعدادية شبه منتظم. لم يكن البناء الرئيسي للكلّية مكتملاً في حينه؛ لذلك كانت دروسنا تتم فيما أضحى اليوم بناء المخابر، الذي كان يقع بين البناء الحالي للكلِّية وبيت الدعارة (الحكومي) لعموم دمشق، مقابل مبنى الجمارك. كان عميد كلِّيتنا في حينه، وأستاذنا للفيزياء في نفس الوقت، هو الدكتور عبد الرزاق قدورة، الذي كان، من حيث توجُّهه العام، مستقل الفكر، يساري الميول؛ كما كان أفضل أساتذتنا لهذا العام، في مختلف فروع الرياضيات، السيدان الأستاذان دعبول وسودان اللذين كانا أقرب توجُّهاً إلى الإخوان المسلمين، والأستاذ وجيه قدسي الذي كان مستقلاً، ليبرالي التفكير...

وسرعان ما انقطعتُ عن شلَّتي المدرسية القديمة التي كانت قد تشتَّتت بعض الشيء. فقد انتسب ابن عمي كريم ونواف نصير إلى كلِّية الطب، بينما سافر وسيم عبد الله؛ أما كميل فقد التحق مثلي بكلِّية الهندسة، التي التحق بها أيضاً العديد من طلاب صفي في العازرية، كمروان عبد النور واسكندر سيوفي إلخ. وكانت مشاغلي "النضالية" الجديدة هي السبب الرئيسي لابتعادي عن شلَّة العازرية التي جعلتني أيضاً أتوقف تماماً عن لعب الميسر، كمضيعة للوقت لا تليق بمناضل من أجل "قضية الطبقة العاملة"! تلك المشاغل لم تكن خافية عن أهلي الذين كانت أحوالهم المادية قد تحسنت بعض الشيء؛ فسارعوا، ربما لإبعادي عنها، وبمساعدة عمي جورج، إلى شراء سيارة فرنسية حديثة وصغيرة من نوع رينو، أضحت أول سيارة أقودها، وأصبحت أستعملها كتاكسي لصالح الحزب الذي كنت أنقل مطبوعاته أحياناً، وأحياناً أخرى أنقل بعض قادته (نصف المتخفين) من مكان لآخر. وكان من بين هؤلاء: السيد مراد يوسف (أبو سامي)، سكرتير منطقية دمشق آنذاك.

كانت قيادتي للسيارة متهورة بعض الشيء، الأمر الذي جعلني أتعرَّض لبعض الحوادث التي كان آخرها صَدْمي طفلاً كان يعبر الشارع مسرعاً؛ ولكن الحادثة – شكراً لله – مرَّت بسلام، فلم يُصَب الطفل، الذي سارعت إلى نقله إلى المشفى، بأذى يُذكَر. فقط قضيت بسبب هذه الحادثة ليلةً في نظارة "الشيخ حسن"؛ وكان من نتائجها السلبية بالنسبة لي أن باع والدي السيارة التي لم أثبت، من وجهة نظره، جدارتي بقيادتها!

ثم اشترى أبي وعمي جورج منزلاً صيفياً صغيراً لنا في بلدة الزبداني؛ وكان سعر هذا المنزل، على ما أذكر، 10000 ليرة سورية (أي ما يعادل الـ4000 دولار آنذاك). أما ثمن سيارة كالتي اشتريناها بالتقسيط فكان 4500 ليرة سورية (حوالي 1900 دولار)؛ فالأسعار كانت معقولة نسبياً في سوريا تلك الأيام، حين كان راتب والدي لا يتعدى الـ600 ليرة سورية شهرياً، بينما كان راتب عمي جورج، الذي

كان يتعاطى أيضاً التأليف الحقوقي ويشاركنا مصروف المنزل، حوالى الـ800 ليرة سورية، وكان ما آخذه من أهلي كمصروف جيب هو 10 ليرات أسبوعياً. وأيضاً...

لم تكن مشاغلي "النضالية" آنذاك، على ما يبدو، خافية عن مدير مدرستي السابقة، الأب الحبيب يوسف عطا الله، الذي استدعاني ذات يوم ليعرض عليَّ وظيفة أستاذ رياضيات لطلاب الصف السادس – وكان أول عمل أمارسه. قبلت، لكني لم أستمر فيه طويلاً، حيث تركتُه بعد شهر لنفس تلك المبررات النضالية التي باتت تستحوذ على جلِّ نشاطي...

كان الحزب الشيوعي السوري يعيش أجواءً نصف سرية؛ كانت قيادته شبه متخفية، كما كان بعض كادراته، الذين تجاوزوا في نشاطهم حداً معيناً، معتقلاً. ولكن، بشكل عام، لم يكن يجري التعرض لمعظم أعضائه وأصدقائه الذين بقوا يعيشون حياتهم العادية. فالبعث، الذي أضحى معزولاً تماماً على صعيد البلد وأضحى، بعد صدامه مع القاهرة وأنصارها، انفصالياً كالآخرين، كان بدأ التفكير بحلفاء جدد، وكانت القيادات البعثية والشيوعية أقامت منذ ذلك الحين، على ما يبدو، صلات (حواراً) فيما بينها...

"... في تلك الأيام [والكلام لممتاز] اعتُقِلتُ مع بعض الآخرين وبقيت في السجن حوالي الشهر؛ لكنه لم يكن يجري التعرض لنا عموماً، وكان هذا من دواعي استغرابي. وفي أحد الأيام، زارنا أمين الحافظ – وكان في حينه وزيراً للداخلية – فتحدث معنا بلطف، وأفهمَنا أن وجودنا هنا [في السجن] مؤقت، وأنه احترازي فقط..."

وكان في أوائل تشرين الأول 1963 انعقاد المؤتمر القومي السادس لحزب البعث العربي الاشتراكي، الحاكم في كلٍ من سوريا والعراق، الذي عكس، من خلال مقرراته وتركيب القيادة التي تمخَّضت عنه، وجود صراع بين قادته التاريخيين: أي ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار وجماعتهما، من جهة، وبين من سُمُّوا آنذاك بـ"اليساريين" الذين كانوا (في سوريا على الأقل وفي تلك الأيام تحديداً) مدعومين من العسكر، من جهة أخرى. فكان سقوط السيد صلاح الدين البيطار في انتخابات القيادة القومية للحزب – تلك القيادة التي كان السوريون فيها هم السادة: ميشيل عفلق (الأمين العام، مدني، مسيحي أرثوذكسي)، الفريق أمين الحافظ (عسكري، مسلم سني من حلب)، اللواء صلاح جديد (عسكري، علوي)، حمود الشوفي (مدني، أستاذ لغة عربية من جبل الدروز)...

ونتيجة لهذا المؤتمر استقالت حكومة السيد صلاح البيطار وتشكلت (في 11 تشرين الثاني 1963) حكومة بعثية جديدة برئاسة اللواء أمين الحافظ، كان اللواء محمد عمران فيها نائباً لرئيس الوزراء...

"في حينه [والحديث هنا للأستاذ يوسف خبّاز وهو قريب لشارل، من أوائل البعثيين – وكان آنذاك وزيراً] كنت مكلفاً من الحكومة بمفاوضة السيد خالد العظم، الذي كان لاجئاً في السفارة التركية، حول شروط انتقاله إلى بيروت، عندما استوقفني هذا الأخير قائلاً:

– أصلحكم الله يا يوسف! أنتم لا تعون بعدُ ما فعلتم. على كل حال، تذكَّرْ ما أقوله لك: خلال أقل من عام ستلحقون بي إلى خارج الوطن!

ووقع في 18 تشرين الثاني 1963 انقلاب عسكري بقيادة المشير عبد السلام عارف أطاح بحكم البعث العراقي وأقام بدلاً عنه وضعاً أكثر اعتدالاً كان، من حيث توجُّهاته العامة، أقرب إلى الخط (الإسلامي) الناصري.

وكان تفاقمٌ للأوضاع في المنطقة العربية بسبب (ما سبق وأشرنا إليه في الفصل السابق) من إقدام إسرائيل على تحويل مجرى الأردن، من جهة، والعجز العربي عن التصدي له، من جهة أخرى...

ففي تلك الأيام كان مجرد التفكير بأيِّ حلٍّ سياسي مع تلك الدولة (المزعومة) غير وارد. ولكن، لما كان الحلُّ العسكري يفوق – كالعادة – طاقة مجمل الدول العربية المحيطة بها، فقد أصبحت المزاودة والجملة الثورية الجوفاء، الداعية إلى تحرير كامل تراب الفلسطيني وإلى إزالة إسرائيل، هي السائدة لغايات الاستهلاك المحلي...

وإسرائيل كان بدأ يحقق، منذ تلك الأيام، نجاحات هامة، في سعيه الحثيث للمزيد من التقارب مع القوة الغربية العظمى، وأقصد الولايات المتحدة، التي كانت زادت من تورطها في الحرب الفييتنامية، من جهة، ووافق رئيسها جون كيندي على بيع فائض قمحها الرأسمالي إلى روسيا الاشتراكية (التي بدأ يتضح أنها كانت تعاني من مصاعب زراعية جدية)، من جهة أخرى – ذلك الرئيس الذي نقلت وسائل الإعلام المرئية، إلى العالم المذهول، الشريط الحيَّ لعملية اغتياله المروِّع في 22 تشرين الأول 1963...

ذلك الاغتيال الذي ما جاء إلا ليؤكِّد لي ولأصدقائي آنذاك مدى عمق أزمة تلك الدولة التي كانت تمثل بالنسبة لنا العدو الأكبر. أليست هي رأس حربة ذلك العالم الرأسمالي الجشع، المسؤول عن كلِّ ما حلَّ ويحلُّ بعالمنا من مصائب؟!

وكان فاروق قد أصدر ديوانه الشعري (الوحيد حتى تاريخه) قطعة شمس الذي أهداني نسخة منه، كما كان مازال مزوِّدي الرئيسي بالكتب والأدبيات، الماركسية وغير الماركسية؛ وكان من بين تلك الأدبيات التي أطلعني عليها آنذاك دواوين الشاعرين العراقيين الكبيرين محمد مهدي الجواهري وبدر شاكر السياب اللذين كانا ذات يوم أصدقاء للشيوعيين.

وكان ذلك اليوم الممطر حين التقينا بعد تواعد، فاروق وعدي وأنا، حين بدء فاروق ينشد لنا، ونحن نسير تحت المطر، تلك القصيدة الأجمل من الأيام الشيوعية للسياب، تقول:

مطر... مطر... مطر...
أتعلمينَ أيَّ حزنٍ يبعثُ المطر...
وكيف تنشجُ المزاريبُ إذا انهمر...
وكيفَ يشعرُ الوحيدُ فيهِ بالضياعِ... بلا انتهاءِ...

كالدمِ المراق... كالجياع...
كالحبِّ، كالأطفالِ، كالموتى...
هو المطر...
وعيناكِ بي تطوفانِ معَ المطر...
والعينان الجميلتان الحزينتان لتلك التي لم نكن قد التقينا بها بعدُ كانتا تطوفان بنا مع المطر الذي كان أغرقنا ونحن في منتهى سعادتنا الساذجة – حتى كان وصولُنا إلى منزل محمد، حيث كان الدفء والشاي الساخن بانتظارنا.
"كان صديقك فاروق في حينه قد بلغ العشرين ربيعاً؛ وكذلك كان سنُّك تقريباً، وسنُّ أصدقائك..."
– كنتُ آنذاك في سنِّ التاسعة عشرة، ولم أكُ عشت بعدُ أية قصة حبٍّ حقيقية...
وشباب تلك الأيام، كشباب اليوم، كان يحلم بحياة غنية عموماً، وبقصة حبٍّ صادقة. ولكن المدينة لم تكن يوماً لتعبأ بأحلام أبنائها...
وانتسبت أيضاً إكرام، وكانت طالبة في الصف الحادي عشر في مدرسة الفرانسيسكان، إلى الحزب الشيوعي؛ وكانت مسؤولتها الأولى (على ما أذكر) طالبة جامعية (من جبال العلويين)، لطيفة ومهذبة من كلِّية الأدب العربي، تدعى أمامة...
وكان الإعلان عن دستور جديد مؤقت لسوريا التي أضحت تدعى بموجبه "جمهورية اشتراكية ديموقراطية وشعبية". كما كان الإعلان عن تشكيل مجلس للرئاسة ضمَّ في حينه السادة: محمد عمران، منصور الأطرش، نور الدين الأتاسي، صلاح الدين البيطار، إضافة إلى اللواء أمين الحافظ الذي انتخب رئيساً للمجلس. وكُلِّف السيد البيطار بتشكيل الوزارة من جديد.
وكان مقتل (المأسوف على شبابه) الرفيق عبد القادر أخوان (من حمص) نتيجة التعذيب في أحد أقبية المباحث هناك؛ وكان غضب واستنكار شيوعي لذلك! ولكن هذا الغضب لم يتجاوز، من حيث مداه، حملات الاستنكار التي كان الحزب يشنُّها ضد السلطات خلال أيام عبد الناصر؛ كما بدا واضحاً أيضاً أن السلطات البعثية والقيادات الشيوعية السورية كانت تسعى لاستيعاب ذلك الحادث المؤسف.
وكان الوفد الذي ترأَّسه نذير (وكنت أحد أعضائه) مؤلفاً من حوالى عشرين رفيقاً ورفيقة من طلاب الجامعة؛ وأتذكر كيف توجهنا في صبيحة ذلك اليوم المشمس إلى قصر الرئاسة في المهاجرين طالبين مقابلة السيد أمين الحافظ الذي أضحى (تقريباً) رئيساً للدولة، وكيف استقبلنا بكلِّ لطف سكرتيره الذي تقبَّل عريضتنا التي كانت تستنكر اغتيال رفيقنا عبد القادر أخوان، ووعدنا بتقديمها إليه للنظر في فحواها...
وأفكر أنه، بما أنه لم يكن قد مضى بعد سوى أشهر معدودة على انتسابي للحزب، فإن اختياري كأحد أعضاء ذلك الوفد الهام كان دلالةً على اجتيازي الناجح لامتحاني الحزبي الأول. فقد كنت أصبحت

رفيقاً موضع ثقة، من جهة؛ وكان الحزب قد قرَّر (على ما يبدو) أن أكون أحد وجوهه العلنية في الجامعة، من جهة أخرى.

وكان لهذا الواقع أن ينعكس، أولاً، في كلِّيتي التي تشكلتْ فيها فرقة جديدة سرعان ما أصبحتُ مسؤولها؛ وكانت هذه الفرقة تضم طالباً (من وادي النصارى) من صف مروان، يدعى ناصر......، وآخر شركسياً حادَّ الطباع من صفِّي، كنت لحظتُ ترصُّده لي منذ البداية، ويدعى فتحي .... وكان مروان ونذير يتناوبان على قيادتنا من قبل فرعية الجامعة.

ويدفعني الحماس في تلك الأيام لأن أخوض تجربتي الانتخابية الأولى في الكلِّية، وأرشح نفسي بشكل اعتباطي لعضوية مجلسها الطلابي – تلك الانتخابات التي فاز فيها "الإخوان المسلمون"، الذين كان يترأسهم في كلِّيتنا طالب حموي من أسرة "أبو طوق". أما أنا فقد حزت فيها على حوالي عشرين صوتاً، لم تكن كافيةً لإنجاحي، إنما كانت أكثر من كافية للفت الانتباه إلى شخصي الكريم!

ونجحتُ في ذلك العام بسهولة في امتحانات السنة الإعدادية، هندسة، وأصبحت طالباً في السنة الأولى؛ كما نجحت شقيقتي إكرام في مدرستها في امتحانات الجزء الأول من البكالوريا الفرنسية.

في صيف 1964 ذاك ذهب أهلي إلى الزبداني لقضاء الصيف في منزلنا الجديد هناك. أما أنا وإكرام فقد بقينا معظم الوقت في دمشق، حيث كانت تتركز أجواؤنا الشيوعية الجديدة – تلك الأجواء التي أتذكر منها النقاشات الطويلة التي كانت تدور بيني وبين الشلَّة، من جهة، وبين فاروق، من جهة أخرى، حول الخلاف "الإيديولوجي" المتصاعد والمتفجر بين روسيا السوفييتية والصين الشعبية...

وكان فاروق قد أضحى متعاطفاً مع التوجُّهات الصينية، إن لم نقل إنه كان أقلنا تطرفاً في الهجوم عليها، بينما كان موقفي وموقف باقي الشلَّة مؤيداً للخط "القويم" للحزب – ذلك الموقف الذي عبَّرتْ عنه، في حينه، صحيفة نضال الشعب (نصف السرية) التي نشرت مقالاً (هاماً) للرفيق خالد بكداش يدين "كبريات الكبائر الثلاث" في المواقف التحريفية الحالية للقادة الصينيين، ودراسة مطولة للرفيق سوسلوف نشرتها صحيفة الأخبار اللبنانية، وأضحت لبعض الوقت موضوع الحديث الثقافي في قواعد حزبنا الشيوعي السوري.

وكانت، في مطلع ذلك الصيف، زيارة خروشوف، الأمين العام للحزب الشيوعي السوفييتي إلى مصر. تلاها تقارُب بين عبد الناصر والسوفييت، الأمر الذي انعكس على الحزب الشيوعي السوري، الذي سرعان ما عدَّل من خطِّه وصار ألْيَن تجاه الناصريين، يدعو، على الصعيد الداخلي، إلى وحدة جميع القوى التقدمية، من "... بعثيين وطنيين وناصريين مؤمنين إيماناً صادقاً بالتقدم والاشتراكية... واشتراكيين وقوميين تقدميين وشيوعيين... للسير بسوريا في طريق التقدم الاجتماعي...".

وكانت أيضاً وفاة القائد الشيوعي الإيطالي الكبير بالميرو تولياتي في منتجع يالطا في شبه جزيرة القرم، وما تلاه من نشر الصحافة الغربية لوصيته الشهيرة التي أبدى فيها تحفظات جدية على الأوضاع

السوفييتية الداخلية، داعياً الحزب الشيوعي الإيطالي والحركة الشيوعية إلى انتهاج سياسة أكثر تحفظاً تجاه السوفييت...

تلك الوصية التي أطلَعَني عليها فاروق الذي كان موقفه من "الحزب" يزداد استقلالية، وبالتالي ابتعاداً.

وشائعات البلد كانت تتحدث عن تصاعد في الخلافات والصراعات في صفوف حزب البعث، حيث كان يبدو أن أمين الحافظ، الداعي إلى سياسة معتدلة، أكثر انفتاحاً على القوى الأخرى (وخاصة منها جماعة أكرم الحوراني)، هو الممسك بزمام الأمور، يدعمه في ذلك رئيس الأركان اللواء محمد عمران. ولكن...

الحقيقة كانت أن باقي العسكر، ممَّن قاموا بانقلاب 8 آذار، كانت لديهم تطلعات أخرى، إن لم نقل إنهم كانوا يطمحون إلى لعب الدور الأكبر في تسيير مجريات الأمور في البلاد. وكانت أولى انعكاسات هذا الصراع استقالة وزارة السيد صلاح الدين البيطار في 3 تشرين الأول 1964، وتكليف أمين الحافظ بتشكيل الوزارة بدلاً عنه. كما استقال كلٌّ من البيطار ومنصور الأطرش من مجلس الرئاسة، حيث حلَّ محلهما الدكتور يوسف زعيِّن واللواء صلاح جديد...

ولكن تلك الأنباء الهامة لم تكن تقارَن، بالنسبة للحزب الشيوعي السوري الذي كان يحتفل بالذكرى الأربعين لتأسيسه، بتلك الأنباء الواردة من الاتحاد السوفييتي العظيم التي كانت تتحدث عن عزل خروشوف كأمين عام للحزب واستبدال ليونيد بريجينيف به، تلك الأنباء التي استقبلها الحزب الشيوعي السوري بترحاب ملفت للنظر، مقارنة بما قابلها به الحزبان الشيوعيان الفرنسي والإيطالي من تحفظ وجفاء!

وانقضى عام 1964 الذي أتذكر منه، خاصةً، ليلة رأس السنة للعام الجديد 1965... التي كانت أول سهرة من هذا النوع قضيتها مع شلَّتي الجديدة وشاركتْ فيها شقيقتي إكرام. فقد ضمَّت بعض الوجوه الجديدة، كالموسيقي العراقي صلحي الوادي وزوجته الإنكليزية سنثيا اللذين جاءا برفقة صديقنا محمد، واستمعنا برفقتهما إلى أوبرا نشيد الأرض لماهلر، تلك الأوبرا التي بناها على مقتطفات رائعة من الشعر الصيني القديم الذي ألقاه علينا محمد، مترجَماً إلى اللغة العربية، فسحرني جمال تلك القصائد وعمقها ورهافتها...

وحين عدتُ إلى المنزل بعد انتهاء السهرة لم أستطع النوم لشدة انفعالي وحماسي، فأخذت "العهد القديم" الذي كان دائماً – ولم يزل – من بين كتبي المفضلة، وأعدت عبره قراءة تلك القصيدة الغزلية الإنسانية – الأجمل كانت بالنسبة لي ولم تزل – نشيد الأنشاد الذي لسليمان يغني أنشودة حب خالدة...

ب

الجامعة،الرفاق والآخرون (2)...

سيسخرون منّا لأجمل ما في النفس
سيسخرون منّا لأننا بلغنا من حبّنا للّهب
أننا صرنا – نحن – وقوده
لويس أراغون، "القصيدة غير المنتهية"

On sourira de nous pour le meilleur de l’âme
On sourira de nous d’avoir aimé la flamme
Au point d’en devenir nous-mêmes l’aliment
Louis Aragon, « Poème inachevé »

وكانت في مطلع العام 1965 قرارات التأميم التي أصدرتها الحكومة البعثية وأيَّدها الحزب الشيوعي السوري تأييداً حاراً، بينما قوبلت بردة فعل سلبية في البلد عموماً، وعنيفة نسبياً، من جانب التجار والإخوان المسلمين خاصةً. فكانت اضطرابات في مختلف المدن السورية، وخاصة في حماه، قمعتْها السلطات البعثية بقوة وشراسة.

في تلك الليلة التي تَلَتْ التأميمات اتصل بي نذير وطلب إلي الحضور صباح اليوم التالي في تمام الساعة الثامنة إلا ربعاً عند البوابة الرئيسية للجامعة لتوزيع منشور هام للحزب بهذا الخصوص. ولما كانت هذه أول مهمة أقوم بها من هذا النوع فقد كنت خائفاً بعض الشيء، خاصةً وأن نذير كان أفهمني أن هذا التوزيع العلني سيتم بسرعة، ثم نغادر بعده المكان مباشرة ونختفي عن الأنظار بعض الوقت. وكانت صبيحة ذلك اليوم، وكان لقائي في المكان المحدد بنذير ومروان وآخرين كنت أعرف بعضهم، فاتفاقنا على أماكن توزعنا – وكان موقعي إلى جانب نذير قرب البوابة الرئيسية. وبدأنا التوزيع بإشارة من هذا الأخير في تمام الساعة الثامنة إلا خمس دقائق. وقد تم ذلك بسهولة دون أية مشكلة خلال أقل من خمس دقائق، غادرنا بعدها المكان بهدوء، فذهبنا كلٌّ في طريقه. وذهبت أنا أيضاً في طريقي (إلى الزبداني؛ إذ كنت أقنعت أهلي بأني ذاهب للدراسة!) بعد أن تواعدت مع نذير على الالتقاء به في مساء اليوم التالي في منزل محمد.

غادرت المكان، إذن، وكنت فخوراً جداً بنفسي! فقد أنجزت تلك المهمة الحزبية الهامة بسهولة، دون أيّ شعور يُذكَر بالخوف. وأتذكر أني لم أتعرف إلى أحد تقريباً ممَّن وزعت عليهم المنشور؛ فقط تذكرت وجه ذلك "الأخ المسلم" الذي نظر إليَّ شزراً قبل أن يلقي المنشور الذي أعطيته إياه أرضاً بعد الإطلاع على عنوانه؛ وذلك الطالب الأرمني من كلّيتنا الذي كان يدعى أغوب والذي أخذه مني مستغرباً، ثم ابتسم بعد أن قرأ عنوانه فوضعه في جيبه وودَّعني وهو يقول: "موفَّق!"، مما جعلني أستنتج أنه يساري الميول... وأقرر، بيني وبين نفسي، تعميق صلتي به كصديق محتمل للحزب.

كنت منقطعاً عن الكلّية لأكثر من أسبوعين. كان ذلك في 23 كانون الثاني 1965، في اليوم الثاني من الإضراب الكبير الذي قام به تجار دمشق احتجاجاً على التأميمات، وانعكست آثاره بقوة على الجامعة، حيث استطاع الإخوان المسلمون "إقناع" معظم طلابها بالانقطاع عن الدراسة، حين قررت الدوام في صفي، انسجاماً مع خط الحزب، وتشجيعاً لمن كان غير موافق على الإضراب من الطلاب. وكانت الحصة التي قررت الدوام فيها (من باب التحدّي طبعاً!) للأستاذ سودان، الذي كان، كما سبق وأشرت، أقرب توجُّهاً إلى حزب الإخوان، وبالتالي، كانت عواطفه (المفترضة) مع الإضراب. ولكنه أعطى الدرس رغم ذلك إلى حفنة المداومين التي لم تكن تتجاوز يومئذٍ العشرة طلاب، من أصل ما يقارب المئة الذين كانوا مجمل طلاب صفنا. كان من بين المداومين فتاة تدعى هيام ......، استنتجتُ يومها ميولها التقدمية؛ وكان أيضاً ذلك الطالب البعثي النحيل شاكر ......، الذي تعمدت الجلوس قربه. وانتهت الحصة وخرجنا معاً، ونظر واحدنا إلى الآخر ملياً، قبل أن يسألني مبتسماً:

– أنت شيوعي يا أكرم، أليس كذلك؟

فأجبته ببساطة:

– كما أنت بعثي يا شاكر! هل أستطيع أن أقدم لك فنجاناً من القهوة؟

فضحك وأجابني:

– لم لا... ولكني لا أستطيع التأخر، إذ يجب أن أذهب إلى اتحاد الطلبة. لم لا تأتي معي إلى هناك، فأعرِّفك إلى الشباب، وربما تتقدم إلينا بطلب انتسابك إلى الاتحاد؟

فأجبته:

– لم لا فعلاً! إن كان اتحادكم في متناولنا...

وكان هذا ما حصل: ذهبنا معاً إلى مقر "الاتحاد الوطني لطلبة سورية" الذي كان يقع في الطابق الأرضي من بناء مصادَر في حيّ عين الكرش، قرب السبع بحرات. فتعرفت عن طريق شاكر إلى قيادته التي كانت تتألف (عموماً) في حينه من البعثيين اليساريين الذين سرعان ما أفهموني – يا لسعادتي! – أنهم أيضاً "ماركسيون" مثلي! وأتذكر من بينهم رئيس المكتب التنفيذي طارق أبو الحسن (من جبل الدروز، من كلِّية التجارة)، ونواف صفدي (من جبل الدروز، من كلّية الصيدلة، ورئيس فرع دمشق)، ومحمود عبد العال (المسلم السُنّي من الميدان، ومن قسم الرياضيات في كلِّية العلوم)، وفؤاد حرب (من جبل الدروز، ومن كلّية الصيدلة)، وزينب نطفجي (المسلمة السُنّية من حيّ سوق ساروجة في دمشق، ومن كلِّية التجارة)، الذين سرعان ما أصبح معظمهم من "أصدقائي" والذين أطلعوني، تدريجياً، على طبيعة وخفايا الصراع الدائر آنذاك في قلب حزبهم.

وكان شاكر (وهو ابن عائلة مسلمة سُنّية من حيّ الميدان)، كما فهمت منه، من جماعة حمُّود الشوفي وياسين الحافظ (اليسارية)، وكان متحمساً جداً لمقررات المؤتمر السادس لحزب البعث ("المنطلقات

النظرية") التي أعطاني، بكلِّ فخر، نسخة منها؛ فأعطيته بالمقابل، وبكل فخر أيضاً، العدد الذي كنت أحمله من صحيفة نضال الشعب. أما نواف ومحمود وفؤاد وزينب فكانوا (كما قيل لي) من جماعة علي صالح السعدي الذي كان أضحى وأتباعه الذين أزيحوا عن السلطة في العراق "من أقصى اليسار". وأيضاً، كان هناك، وكما أسموهم لي – غمزاً – جماعة "العسكر" من القطرين، الذين كان أبرز من يمثلهم آنذاك في اللجنة التنفيذية للاتحاد طالبٌ من جبل العلويين (من كلِّية الأدب الفرنسي) يدعى منذر إسبر وآخر من دير الزور (أيضاً من الأدب الفرنسي) يدعى صالح رويلي، بينما كان عبد القادر قدورة (من كلِّية الحقوق)، شقيق عميد كلِّيتنا، هو الممثل الأبرز للبعث التقليدي (أقصد جماعة عفلق).

وأسأل عن هؤلاء "العسكر" الذين ذكرهم غمزاً، فيضحك شاكر ويخبرني "بما كنت أجهل"، ما مفاده أن من قاد انقلاب الثامن من آذار فعلاً كان "لجنة عسكرية" تشكلت في القاهرة أيام الوحدة؛ وكانت تتألف من: محمد عمران، صلاح جديد، حافظ الأسد، عبد الكريم الجندي. وأسأله عن أمين الحافظ ومكانته وسط التركيبة القائمة فيجيبني (ملمِّحاً) أنه لم يكن من بين الأعضاء المؤسِّسين لتلك الجنة العسكرية؛ فأفهم أن أمين الحافظ كان، بالنسبة للقادة الفعليين للحركة، كمحمد نجيب بالنسبة للضباط الأحرار في مصر.

وقد أطلعتُ حزبي "العظيم" اطلاعاً كاملاً على ما حصل معي وعلى كامل تلك المعلومات الهامة، فأيَّد الرفاق سلوكي ومبادرتي إلى الانتساب إلى "الاتحاد الوطني لطلبة سورية"، وشجعوني على الاستمرار في صِلاتي الجديدة؛ كما تقرر انتساب رفاقنا وأصدقائنا إلى الاتحاد، ولكن بشكل تدريجي، حتى لا ينكشف التنظيم. وكان هذا ما حصل.

في مطلع ذلك العام المضطرب أعلنت وسائل الإعلام عن إلقاء القبض على شبكة تجسُّس إسرائيلية كان يقودها "إيلي كوهين" الذي كان اسمه المستعار "ثابت أمين ثابت"؛ فعمَّت الشائعات في البلد، تتحدث عن مدى الاختراق الذي حقَّقه هذا الأخير في أعلى دوائر السلطة في سوريا. ثم بدأت محاكمته، التي نقلها التلفاز في أوائل آذار واستمرت شهراً كاملاً.

وكانت هذه المحاكمات في منتهى التفاهة، بمعنى أنها عززت شائعات البلد وأعطت الانطباع، من بدايتها إلى نهايتها، أن لا غاية للقائمين بها إلا تجاوز ما تسببته هذه القضية من إحراج؛ عبر التخلص بالسرعة الكلِّية من هذا الجاسوس الإسرائيلي اللعين، الذي سرعان ما صدر الحكم بإعدامه ونُفِّذ في النصف الثاني من أيار 1965.

وكانت زيارة الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة إلى مصر، ولقاؤه بالرئيس عبد الناصر، وإلقاؤه من القاهرة بتصريحات تدعو إلى التفاوض مع إسرائيل على أساس مشروع التقسيم لعام 1947. وعمَّت المسيرات "الاحتجاجية" البلد...

في حينه، كانت "المظاهرات" قد بدأت تتحول إلى "مسيرات"! وكانت "شبه المسيرة" التي خرجت يومها من جامعة دمشق متميزة إلى حد ما. فقد شارك فيها، للمرة الأولى منذ استيلاء البعث على السلطة، جميع القوى التقدمية التي اتفقت مع قيادة الاتحاد على التظاهر معاً والهتاف ضد "الخائن" بورقيبة و"مشاريعه الاستسلامية"، ضد الإمبريالية، ولوحدة القوى التقدمية.

انطلقت "المسيرة" إذن، وكان "الهتَّافون" الرئيسيون فيها هم نذير من طرفنا، ونواف ومنذر إسبر من الاتحاد، وسركيس من جماعة أكرم الحوراني؛ وسارت متجهة إلى المجلس النيابي (البرلمان). وكان سركيس (الاشتراكي) أكثر الهتَّافين تميزاً من خلال مقدرته على نقل حماسه إلى الآخرين – ذلك الحماس الذي دفع عناصر الأمن، في حينه، إلى السعي لعزل تلك المجموعة الجامعية الرئيسية التي كانت تضمنا عن سواها وتفريقها. فدبَّ الغضب والحماس في سركيس الذي تحولت هتافاته إلى شعارات معادية للسلطة التي شكَّك فيها، مذكِّراً بـ"قضية كوهين"... وبدأ يهتف للملأ ويردد الطلاب وراءه بكل حماس:

– أين كوهين؟! أين كوهين؟! نطالب بكامل الحقيقة حول كوهين...

ثم حلَّ محلَّه نذير الذي لطَّف الجوَّ قليلاً، وعاد ليدعو من خلال هتافاته إلى وحدة القوى التقدمية. وتفرقت المظاهرة عند البرلمان...

وكنت على وشك التوجُّه إلى منزلي حين اقترب منِّي أحد الرفاق (أبو صياح، من كلِّية الحقوق، على ما أذكر) ليخبرني "أنهم اعتقلوا كلاً من نذير وسركيس ..." فقلت له: "تعال معي." واتجهنا سويةً إلى مقرِّ قيادة الاتحاد الوطني قرب "السبع بحرات"، ودخلنا دون استئذان غرفة مكتبه التنفيذي الذي لم يفاجَأ أعضاؤه المجتمعين بحضورنا. أخبرناهم (بما كانوا يعلمونه) حول اعتقال نذير وسركيس، وأبلغناهم احتجاجنا على مثل تلك الأعمال المسيئة لوحدة القوى التقدمية؛ فوعدونا أنهم سيتدخلون لحلِّ هذا الإشكال. ثم غادرنا المكان.

وقد تم إطلاق سراح نذير في مساء اليوم نفسه؛ فجاء مباشرة بعد إطلاق سراحه إلى منزلي، حيث قدمت له والدتي الطعام. وقضينا (هو وإكرام وأنا) السهرة نتحدث عن هذه التظاهرة الطريفة. أما سركيس فقد أطلقوا سراحه في اليوم التالي.

لم أداوم في الكلِّية خلال ذلك العام إلا قليلاً. والحجة كانت أن قضية الطبقة العاملة باتت تتطلب مني

نشاطاً أوسع. وتشكلت في كلِّيتنا آنذاك فرقة حزبية جديدة، صرتُ مسؤولاً عنها، وكانت تضم طالباً مستجداً نشيطاً ذكياً ولطيفاً من حمص، اسمه سمير شاليش (الذي سرعان ما أصبح من أصدقائي المقربين)، وآخر عادياً جداً من حيِّ الأكراد بدمشق، اسمه هاني ...... كما بتُّ أحضر بعض اجتماعات الكادر

المتوسط التابع لفرعية الجامعة؛ فأصبحت، بالتالي، على اتصال برفاق جدد من كلّيات أخرى، كان أبرزهم، في نظري، طالب ذكي لطيف من كلّية الأدب العربي، يدعى عطية مسوح سرعان ما أصبح من أصدقائي المقربين.

فقد أصبحت هذا العام، بمحض اختياري وكما شاءت الأقدار، وجهاً شيوعياً علنياً في كلّية الهندسة وفي جامعة دمشق، حيث تحوَّل دوامي من الكلّية إلى الندوة المركزية التي كان يلتقي فيها الطلاب من مختلف الاتجاهات...

"ما عدا طبعاً "الإخوان" والناصريين الذين لم يكونوا بعد قد نسوا آثار صراعهم الدامي مع البعث."

وسرعان ما صارت للشيوعيين في ندوة تلك الأيام مائدة كان يلتقي حولها نذير وأنا ومروان وفتحي وأبو صياح ومصطفى وآخرون لم أعد أذكر أسماءهم. كما كانت هناك أيضاً مائدة للاشتراكيين العرب (جماعة أكرم الحوراني) يلتقي حولها زعيمهم سركيس (وكان مسيحياً مارونياً من مشتى الحلو وطالباً في كلية الحقوق)، الذي كان – وما زال – ضخم الجثة، شجاعاً وصاحب نكتة لاذعة، وحمدان حمدان (الفلسطيني، الذي كان أيضاً طالب حقوق)، وحازم الطرن (الحموي، من كلّية الهندسة) وآخرون. كما كانت هناك مائدة للبعثيين اليساريين (من جماعة السعدي وحمُّود الشوفي، وينضم إليها القطريون أحياناً). وطبعاً كانت هناك مائدة منعزلة لبعض عناصر الأمن الذين كانوا يكتفون بتلقُّف ما نقول والنظر إلينا شزراً أو في عجب، لأنه غالباً ما كان يحتدم النقاش بين تلك الموائد (ما عدا الأمنية منها) حول "مصائر البلاد والعروبة والعالم".

وأستعيد كيف تعانق بحرارة يومها نذير ونواف (رئيس فرع دمشق لاتحاد الطلبة)، وكيف قال نذير: متوجهاً بالكلام إليَّ – وكنت أنظر إليهما متعجباً ومتسائلاً (في نفسي) عن مدى عمق معرفتهما القديمة:

– كان نواف، يا أكرم، من بين الذين سحلوني – مع الإخوان – أثناء المعركة التي حدثت خلال الانفصال.

فضحك نواف وأجاب بلطافة وخجل (وهما صفتان جميلتان ومميزتان للكثيرين من بني معروف):

– أنا لم أدخل في حياتي إلى مسجد! ولكن يومها، يا نذير، حين هاجمتمونا بالجنازير، جُرِحتُ، فهربت إلى المسجد الواقع في الحديقة ما بين كلّية الحقوق وكلية الطب، حيث التجأت. ولست أدري ما أصابني وجعلني أصيح بالمصلّين "الله أكبر!" فلبَّى الإخوان ندائي، وانقلبت عليكم الآية!

وضحك سركيس الذي كان يشاركنا الجلسة، ثم قال، متوجهاً بكلامه إلى نواف ونذير:

– أما أنا فلم تتمكنوا منّي في حينه يا ...... كما تمكَّنتم من هذا المسكين [يقصد نذير]. إذ سارعت، حين حاصرتمونا هنا في الندوة، إلى القفز من نافذة الطابق الثاني والهرب عن طريق النهر جاراً ورائي قدمي التي التوت.

وضحكنا جميعاً، بينما كانت عناصر الأمن الجالسة حول المائدة المجاورة تنظر إلينا بتعجب، مستغربة ما كان يجري بيننا من تآمرٍ في وضحِ النهار!

وكان أن أُخبِرْنا ذات صباح أنه ستقام في مساء اليوم نفسه حفلة جاز لفرقة أمريكية، وأن تلك الحفلة التي سيقيمها قسم اللغة الإنكليزية في جامعة دمشق، بالتنسيق مع المركز الثقافي الأمريكي، ستكون برعاية زوجة السفير الأمريكي في دمشق. ولما لم يكن من الجائز آنذاك تمرير مثل هذا "العدوان الإمبريالي السافر" على حرمنا الجامعي المناضل فقد سارعنا مباشرة للاتصال فيما بيننا وبالآخرين لمنع هذا "الحفل–العدوان" من خلال عمل استعراضي. وكان على مائدتنا يومها نذير وفتحي وأبو صياح وأنا؛ وقربنا، على مائدة الاشتراكيين، كان يجلس سركيس الذي سارعنا إلى الاتصال به والاتفاق معه على ما يجب فعله الليلة. ثم جاء نواف الذي وافقَنا مباشرة على ما قررنا القيام به وقرر المشاركة شخصياً مع أحد زملائه. وكانت المجموعة التي تقرَّر أن تحضر الحفل منَّا من أجل إفساده ستة: اثنان منهم شيوعيان، هما فتحي وأبو صياح؛ واثنان اشتراكيان، هما سركيس وآخر لم أعد أذكره؛ واثنان من البعث اليساري، أحدهما نواف؛ أما أنا ورفيق لنا آخر، فقد تكفَّلنا بالحراسة خارج الندوة للإخبار عن أيِّ طارئ ممكن.

وبدأ الحفل، كما كان مقرراً، في تمام الساعة الثامنة بحضور زوجة السفير الأمريكي ووفد من السفارة. وبعد كلمات الترحيب المعتادة، بدأت الفرقة عزفها. عندئذٍ فوجئ الحضور والعازفون بتوجُّه سركيس، بجثَّته الضخمة وابتسامته الساخرة، إلى المنصة حيث كانت تعزف الفرقة، فانتزع الميكرفون من أمامها، وصاح بصوت جهوري هاتفاً بالحضور:

– أوقفوا لي هذه الأنغام! قاتل وحشي في فييتنام! فليسقط الاستعمار الأمريكي!

فرددت المجموعة (باقي الخمسة الذين كانوا واقفين في آخر القاعة) الهتاف وراءه بملء حناجرها. واستمر الهتاف لبضع دقائق، ساد الهرج والمرج فيها الحفل، الذي سارعت زوجة السفير الأمريكي مباشرةً إلى مغادرته، ثم تلتْها الفرقة الموسيقية التي غادرت أيضاً؛ ثم انسحبت مجموعتنا أخيراً، بكلِّ أبهة، وهي توزع ابتساماتها الجميلة على الحضور المذهول الذي أفسدت عليه الحفل وانتصرت من خلاله على الإمبريالية!

وكان علينا في اليوم التالي أن نواجه فقط بعض احتجاجات ممثلي الاتحاد من كلِّية الأدب الإنكليزي؛ ولكن وجود نواف معنا غطى على الموضوع.

هكذا، في وضح النهار، رغم انعدام الديموقراطية عموماً في البلد، كنَّا نعيش بسذاجة، من خلال صخبنا وضوضائنا، بقايا ديموقراطية أيام غابرة...

وكانت نقاشنا الصاخب والعلني في الندوة، فيما بيننا وعلى مرأى من الجميع، يدور حول فلسطين التي كنا ندافع عن موقف حزبنا منها، رغم أننا كنَّا نجهل حيثياته – "فلسطين السليبة" التي أعلنت في حينه

منظمةٌ أسمتْ نفسها "العاصفة" عن قيامها، انطلاقاً من الأردن، بأول عملية فدائية من أجل تحرير كامل ترابها – وحول حرب فييتنام التي كانت تتصاعد، وحول ما كان يجري في مصر، حيث قرر الحزب الشيوعي حلَّ نفسه والانضمام إلى الاتحاد الاشتراكي، وموقف حزبنا من ذلك (الحزب الشيوعي السوري كان معارضاً لفكرة حلِّ الأحزاب الشيوعية لنفسها)، وحول "اتحاد الطلبة السوريين خارج الوطن" الذي كان يسيطر عليه حزبنا الشيوعي، وهل يجب أن يحلَّ نفسه أم يتحد رسمياً مع الاتحاد الوطني، وحول الأوضاع الداخلية المتفاعلة في البلد، بعامة، وعلى صعيد البعث الحاكم، بخاصة، ولاسيما أنه...

كانت صراعات البعث الداخلية تزداد تفاقماً بين قيادته القومية، التي كانت ميالة إلى عفلق، وقيادته القطرية (السورية) التي كانت تسيطر عليها "اللجنة العسكرية". وقد انعقد في نيسان 1965 المؤتمر القومي السابع للحزب، حيث تم انتخاب السيد منيف الرزاز (الأردني، من جماعة عفلق) أميناً عاماً. وكان من أهم توجُّهات هذا المؤتمر السعي لإبعاد الجيش عن السياسة.

لم أداوم تقريباً في كلِّيتي خلال ذلك العام، إنما أضعت الكثير من الوقت. فكانت النتيجة، المخزية بالنسبة لي، أنْ رسبت للمرة الأولى في حياتي! وقد شعرت بخجل شديد من هذا، وفكرت، في حينه، بترك الهندسة والتسجيل في كلية الحقوق لتكريس نفسي من بعدُ مدافعاً عن القضية التي آمنت بها؛ ولكني لم أفعل لأن والدتي عارضت تفكيري هذا بشدة وشجَّعتني على الاستمرار في الهندسة التي أصبحتُ فيها متخلفاً عن باقي زملاء صفي من المدرسة. وأيضاً...

في نهاية ذلك العام الدراسي (1964–1965)، نجحت شقيقتي إكرام في كلٍّ من البكالوريا السورية والفرنسية (جزء ثاني فلسفة)، وانتسبت إلى كلِّية الأدب الفرنسي؛ فكسب الحزب بها واجهة علنية جديدة...

وكان في نهاية هذا العام الدراسي إخراج سمير من المدرسة التي صار وضعه فيها غير مقبول. وبات سمير يداوم في المنزل: يبقى صباحاً مع الوالدة التي كانت تشجِّعه على قراءة الصحف والمجلات، ويذهب بعد الظهر مع والدي أو عمِّي جورج إلى المقهى، فيبقى معهما حتى المساء. لم تكن له عموماً أية مشكلة في ذلك من حيث الظاهر؛ إنما مشكلته الأساسية كانت فقط حين يغافلنا، فيخرج بمفرده إلى الشارع ليشتري الصحف أو ليذهب إلى السينما، فيلتقي بجهالة مجتمعنا، ممَّن ليس بوسعهم، مع الأسف، احترام آلام الآخرين، فيسخرون منه ويُخرِجونه عن طوره... حوادث مؤسفة، ولكنها كانت تتكرر بشكل متصاعد، وكان علينا، كعائلة، تحمُّلُها بصمت وألم...

"... في حينه، على ما أذكر، قررتَ مقاطعة ابنة عمك سيرين [ابنة رزق الله الصغرى] التي فاجأتَها ذات يوم وهي تسخر من أخيك سمير..."

كان ذلك في صيف عام 1965 الذي قضيناه، إكرام وأنا، بين الزبداني، حيث الأهل والأقارب، وبين دمشق، حيث كان الحزب والرفاق.

وقد تعرفنا إبان ذلك الصيف، عن طريق فاروق، إلى طالب يساري فرنسي بات يداوم في "المعهد الفرنسي للدراسات العربية" الواقع في حيّ أبو رمانة. كان اسمه جان فرانسوا فوركاد، وكان يهيِّئ آنذاك موضوعاً لغوياً حول "الآرامية العتيقة" التي مازال يتحدث بها، إلى اليوم، المسيحيون من أبناء قرية معلولا؛ وقد أضحى من أصدقائي المقربين. كان جان فرانسوا آنذاك يسارياً مخلصاً في قناعته، ومن أولئك الشباب اليساري الفرنسي الذين ساعدوا الثورة الجزائرية، كما كان ذا ثقافة كبيرة لا تفوقها (في نظري على الأقل) إلا ثقافة صديقنا المشترك فاروق. وهكذا توسعت شلتُنا وأصبح صديقنا الجديد، لبعض الوقت، واحداً منَّا...

وكان في 20 حزيران 1965 انقلاب عسكري في الجزائر، حيث أطاح وزير الدفاع وقائد الجيش، العقيد هواري بو مدين، بحكومة الرئيس أحمد بن بلا...

ذلك الانقلاب الذي استنكره الحزب الشيوعي السوري (بلطف)، بينما استنكرته قيادة الاتحاد الوطني لطلبة سورية (بعنف)، مما أدى، على صعيدنا الطلابي، إلى إعادة طرح موضوع الصراع المتفاقم بين أجنحة البعث المختلفة.

"... هل مازلت تذكر مطلع تلك القصيدة العصماء لـ"شاعر المناسبات البعثية"، صابر فلحوط، يقول فيها:

كذبَ الدَّعيُّ بما ادَّعى   البعثُ لن يتصدَّعَ..."

وفي 20 أيلول 1965 قدَّم أمين الحافظ استقالة حكومته، وتشكلت حكومة جديدة برئاسة الدكتور يوسف زعيِّن، أحد أبرز ممثلي "القيادة القطرية" لحزب البعث...

وكان أول عمل قامت به هذه الحكومة (اليسارية) أن حلَّت القيادة اليسارية للاتحاد الوطني بحجة موقفها من الأحداث الجزائرية، وأعادت تشكيلها من عناصر أكثر طواعية؛ فأصبح المدعو متعب شنان (من جبل الدروز)، الذي لم يكن يعرفه أحد، رئيساً للاتحاد الذي عُيِّنَت له قيادة جديدة، ضمَّت في حينه: منذر إسبر، صالح رويلي، وطالب الطب (من حوران) عيسى حداد، الذي كان أكثرهم شراسة. وكان جميع هؤلاء من أنصار القيادة القطرية...

"... لقد تم استدعاؤنا في حينه [والحديث هنا لزينب نطفجي] إلى مقرِّ القيادة القطرية للتحقيق معنا. فقد كان موقفُنا المستقل، المتعارض مع ما افترضوه خطَّ الحزب حول الأحداث الجزائرية، غير محتمل بالنسبة لهم. ثم تصور من كان يحقق معنا! كانت كامل القيادة "الفعلية" للبلد في حينه تحقِّق معنا! – أولئك الذين احتجزوا الشباب لغايات التحقيق ما يزيد عن ثلاثة أيام. أما أنا فقد سمحوا لي يومها، بناءً على تدخل شخصي من نور الدين الأتاسي – الذي كان أكثرهم لباقة وشهامة، فطرح موضوع عدم جواز احتجازي كفتاة – بالعودة إلى منزلي ليلاً من أجل النوم، وأوصلني شخصياً بسيارته الفولسفاغن إلى منزلي، حيث استقبلتني والدتي، التي لم تكن تدري ما كان يجري بالصياح والتأنيب..."

وعدت إلى الكلّية في مطلع ذلك العام الدراسي (1965–1966) مجرجِراً أشلاء هزيمتي، طالباً في الصف الأول هندسة من جديد. أمسيت في صف رفيقي سمير الذي أضحى من شلّتنا التي انضمت إليها أيضاً طالبة فلسطينية سمراء، حادة الطباع، تدعى دعد ...... التي سرعان ما أصبحت رفيقة لنا؛ كما انضم إلينا في ذلك العام رفيق جديد ونشيط كان يدرس في الجزائر ويدعى بسام نصري.

وصارت إكرام من أبرز وجوهنا. وأتذكر بحنان ذلك الحدث الطريف التالي بينها وبين سركيس الذي كانت إكرام تحاول إقناعه بالخطِّ الصحيح لحزبنا الشيوعي "العظيم"، فيضحك سركيس ويقول لها:

– كان بودي الاقتناع معك، يا إكرام؛ ولكن، مع الأسف، أنت حمراء بينما أنا زهري اللون!

وننفجر جميعنا ضاحكين، ونستمر في النقاش!

ثم جاءت انتخابات اتحاد الطلبة التي خضناها، على صعيد جامعة دمشق على الأقل، منسّقين مع أصدقائنا الجدد من البعثيين "الأكثر يسارية" الذين أطاحت بهم السلطة "الأقل يسارية"؛ ففزنا جزئياً في بعض الكلّيات العلمية، كالهندسات والفنون الجميلة والطب إلخ، وهُزِمنا، خاصة وعموماً، في الكلّيات الأخرى النظرية، حيث حشد البعث "موظفيه" الذين نُسّبوا إلى الاتحاد في آخر لحظة. وقد فزت للمرة الأولى خلال هذه الانتخابات بعضوية اللجنة الإدارية لكلّية الهندسة، بفضل أصوات الناصريين الذين كنت كوَّنت معهم علاقات ودٍّ وصداقة، ففضَّلوا انتخاب صديقهم الشيوعي أكرم، وإسقاط منافسه البعثي "العفلقي" الذي كان، على ما أذكر، الطالب (المهذب والخلوق جداً) عبد الوهاب البعاج.

وكان من أبرز أصدقائي الناصريين من كلّيتنا في تلك الأيام ذلك "القومي العربي" الذي كان يدعى خلدون .... وقد بدأت صداقتُنا من خلال خلاف طريف بيننا حول أم كلثوم. فحين سألني ذات يوم عن رأيي في أغنيتها الأخيرة – وكانت، على ما أذكر، "أنت عمري"! – أجبته بأني لا أحبها (ولم أكن أحبها حقاً في حينه)؛ فنظر إلي شزراً، وسألني إن كنتُ متأكداً من عروبتي! فأجبته، وأنا أضحك، بنعم. فضحك هو أيضاً، وقال لي: "ولكنك لا تعرف، يا مسكين، ما الذي تخسره بعدم حبك لها!"

وأعلن حزب البعث الحاكم في سوريا عن منهاجه المرحلي، وتم تشكيل مجلس وطني ضمَّ بعض الوجوه الشيوعية من الصف الثاني، كالمحامي سميح عطية والسيدة نجاح ساعاتي.

وأطلق فيديل كاسترو في تلك السنة أسطورة الـ"تشي" (جيفارا) الذي تخلّى عن جنسيَّته الكوبية، ليعود إلى النضال المسلَّح ضد الإمبريالية في مكان آخر من أمريكا اللاتينية...

وكانت سهرة ليلة رأس السنة للعام الجديد 1966، تلك التي قضيناها، إكرام وأنا، ضيوفاً على صديقنا الفرنسي في غرفته في معهد الدراسات العربية، حيث عرَّفنا إلى صديقته التي جاءت خصيصاً من فرنسا لزيارته. كانت تدعى جابرييل موك، وكانت عضواً في الحزب الشيوعي الفرنسي، كما عرفتنا بنفسها، و"يهودية"، كما عرَّفنا بها صديقنا ضمن سياق الحديث، حين كانت جابرييل اللطيفة تقص علينا

بانفعال، ونحن نضحك، كيف تم تسجيلها كمسيحية من أجل الحصول على تأشيرة الدخول إلى سوريا...

– تصوروا أنه حين سألني موظف سفارتكم عن ديني وأجبته أني "بلا دين"، نظر إليَّ شزراً، ثم سجَّلني من عنده "مسيحية"، فلم أعترض. ماذا تريدون؟ لقد كنت أريد المجيء إلى سوريا، ولم يكن بوسعي أن أقول له إني يهودية الأصل!

وقضينا تلك السهرة الجميلة نستمع إلى موسيقى ناعمة، ونتناقش حول ما كان يجري في العالم، وحول الحزب ومواقفه من الأوضاع السورية، وحول فلسطين التي كانت جابربيل "اليهودية" شديدة الحماس لقضية شعبها العادلة. فقدَّم لنا جان فرانسوا خلال هذه السهرة أفضل ما لديه من النبيذ الفرنسي وأطيب منتوجه من الطعام. ثم جاء ظهر اليوم التالي (رأس السنة)، مع صديقته، ضيوفاً على مائدتنا، حيث قدمتْ لهم والدتي أفضل منتوجها من أطايب الطعام السوري. ففي ذلك اليوم، تحديداً، لم نكن جميعاً، في المنزل كما في البلد، عابئين بتفاعلات الصراع على السلطة في بلدنا...

ذلك الصراع الذي تفجر، حين قامت القيادة القومية لحزب البعث في 21 كانون أول 1965 بحل قيادته القطرية (السورية) واستبدال لجنة من أنصارها بها. فاستقالت حكومة الدكتور يوسف زعيِّن، وأعيد في 2 كانون الثاني 1966 تكليف السيد صلاح البيطار بتشكيل وزارة، كان اللواء محمد عمران وزيراً لدفاعها. وكان انقلاب الـ23 من شباط 1966، الذي تميز عن جميع الانقلابات التي سبقته بعنفه ودمويته، نقطة تحول في التاريخ السوري الحديث...

وقد جرت أشرس معاركه، على مرأى ومسمع من الجميع، في قلب البلد، وتحديداً في حيِّ أبو رمانة الأرستقراطي، ما بين بناء قصر الضيافة ومنزل أمين الحافظ، الذي ظلَّ يقاوم الانقلابيين الجدد من رفاقه القدامى حتى ساعة متأخرة من صباح ذلك اليوم... الذي منعوا فيه التجول طبعاً، فقبعنا في منازلنا، نتابع عبر الإذاعات ما كان يجري في بلدنا من أحداث مؤسفة...

وكان جان فرانسوا أول من زارني بعد ظهر ذلك اليوم، مستفيداً من رفع جزئي لمنع التجول. كان منفعلاً جداً، وكانت برفقته صديقته الفرنسية (الجديدة) من المعهد، جونوفييف التي أضحت من بعدُ زوجته. جلس معي ومع إكرام ليحدِّثنا عما انتابه من رعب في تلك الليلة التي قضاها مع جونوفيف مختبئاً تحت السرير. فالمعارك التي كانت تجري بالقرب من مكان إقامته أعطته الانطباع بأنها كانت تجري في قلب المبنى حيث سكنه!

أما في اليوم التالي فكان أول ما فعلتُه، وقد رُفِعَ حظر التجول، هو التنزه مع رفيقي سمير في حيِّ أبو رمانة، حيث عاينَّا نتائج القتال التي أذهلتْنا. كانت آثار المعارك ظاهرة بوضوح على واجهات معظم أبنية هذا الحيِّ الجميل، وخاصة على قصر الضيافة والأبنية المحيطة به في أسفل الحيِّ، وفي أعلى الحيِّ، على ذلك المبنى الذي أضحى شبه مدمَّر، الذي كان يسكنه أمين الحافظ، الذي قالوا إن ابنته

الصغيرة فقدت عينيها خلال تلك المعارك التي كان أبرز "قادتها" قائد المغاوير (من جبل الدروز) سليم حاطوم وقائد المدرعات (من جبال العلويين) عزت جديد.

ثم كان الإعلان عن تشكيل أول حكومة لهذا العهد الجديد برئاسة الدكتور يوسف زعيّن التي كان وزير الدفاع، اللواء حافظ الأسد، والدكتور إبراهيم ماخوس كوزير للخارجية من أبرز وجوهها، والتي شارك الحزب الشيوعي السوري فيها لأول مرة عبر وزير المواصلات "الرفيق" المحامي سميح عطية. أما رئاسة الدولة فكانت للدكتور نور الدين الأتاسي الذي أصبح أميناً عاماً لحزب البعث، يساعده (أو يقوده حقيقة) صلاح جديد الذي أصبح أميناً عاماً مساعداً – وأهم شخصية في البلد...

"وأتذكر أن (رفيقنا) سميح عطية كان، قبل استلامه الوزارة، مجرد محام مغمور يسكن في منزل مستأجر متواضع في حيٍّ باب شرقي!"

وأتذكر أيضاً كيف اتجه نذير في ذلك اليوم إلى حيث كنت أجلس في ندوة الجامعة مع بعض الأصدقاء وقال لي:

– تعال معي... عندنا مقابلة طريفة!

لحقت به، واتجهنا معاً إلى خلف مبنى كلِّية الطب، حيث كان ينتظرنا، متخفياً وراء زاوية البناء، "زميلنا" عبد القادر قدورة، الذي كان في حينه ما يزال من جماعة القيادة القومية البعثية المعزولة والذي بادرنا قائلاً:

– لن أطيل معكم الحديث. فالكلُّ يعرف أن حزبكم قرر الاشتراك في حكومة "أولئك الخونة"! لقد ارتكبتم بهذا العمل خطأً كبيراً. وكل ما أرجوه هو أن لا تندموا على فعلتكم هذه، فتدفعوا ثمنها غالياً!

وحاول نذير مناقشته في الموضوع، لكن الحديث بينهما كان كحوار الطرشان الذي سرعان ما انتهى حين ودَّعنا عبد القادر مغادراً. وسألني نذير عن انطباعي بما جرى فأجبته:

– إنه مكلَّف بأن يوصل لنا رسالة تهديد من جماعته.

فوافقني على انطباعي هذا. ثم علمنا، بعد حوالى أسبوعين، أن السلطات البعثية الجديدة اعتقلت "زميلنا" عبد القادر قدورة.

ثم أخبرونا في أحد الاجتماعات أن الرفيق خالد بكداش عاد إلى الوطن، وأن البعث قد أُعلِمَ بذلك، وطُلِبَ منَّا أن نحدد رفيقين كلَّ يوم، لمدة أسبوع، لحراسة منزله (الواقع عند موقف آدم في حي الأكراد) ليلاً...

قضيت الحراسة في تلك الليلة (الخميس) مع سمير، ونحن نتسامر بانفعال. فقريباً جداً سيتاح لنا مقابلة رفيقنا "العظيم" والتشرُّف، ربما، بمخاطبته! وما زاد من انفعالنا أنه كانت تقف في الطرف الآخر من الشارع سيارة مخابرات. ثم كانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل حين أطل متدرجاً كلٌّ من الرفيقين "الكبيرين" خالد ويوسف الذين جلسا معنا بعض الوقت، مما جعلنا نطير فرحاً! وانقضت تلك الليلة

التاريخية، وعدت إلى منزلي مع صياح الديك، لأجد والدي جالساً في انتظاري. فقد لاحظ عدم عودتي إلى المنزل ليلاً، مما أقلقه وحرمه النوم. سألني بهدوء، على غير عادته:

– أين كنت حتى الآن يا أكرم؟

فأجبته بتحدٍّ ووقاحة:

– احزرْ أين كنت يا بابا!

فوجئت بأنه انفجر ضاحكاً وقال لي:

– لكن انتبه إلى نفسك، فقد تلتقط مرضاً مزعجاً!

ففهمت أنه اعتقد، لطيبة قلبه، أني كنت أقضي الليل، كما كان يفعل هو في سنِّي، عند إحدى بنات الهوى. فضحكت أنا أيضاً، ولم أشأ أن أغيِّر من اعتقاده، وقلت له:

– على راسي بابا...

– تصبح على خير يا ابني.

– وأنت من أهله بابا...

وذهبنا لننام، كلٌّ في غرفته. وكان الصباح قد أطل. كان صباحاً جميلاً فعلاً، لأن معه بدأت علاقة صداقتي – المتأخرة – مع والدي..

الفصل السابع

حصاد العاصفة
(1969-1966)

آ

الجامعة، الرفاق و... الآخرون (3)...

لأن/الحياة حال طلاق غريب ومؤلم.../
ولأنه/لا يوجد حبٌّ هانئ.../
لويس أراغون، قصيدة وأغنية

Parce que la vie est un étrange et douloureux divorce…
Et qu'il n'y a pas d'amour heureux...

- أنا لا أتنكَّر اليوم لما عشت بالأمس. أعي أخطائي وسذاجتي، ولكني لا أحمِّلها لأحد. فالخيار كان خياري، والمسئولية مسئوليتي. ثم إني – والحق يقال – لست نادمًا على ما جرى معي. كلُّ ما هنالك أني مازلت أشعر بغُصَّة في كلِّ مرَّة أعود فيها لأتذكَّر تلك السنين.

"لهذا تراك اليوم، حين تحاول تفهُّم ما جرى، تقارن تجربتك حين كنت في الجامعة بتجربة هذا الآخر (أي آخر) الذي اختار، مثلك، في شبابه طريق مشابهًا. فقد كنت (مثله) مقتنعًا ومعتدًّا بنفسك؛ كما كان هو (مثلك) عاجزًا أمام الواقع الذي كان يعيش. وكان، ربما (كما كنت)، من أصول نخبوية متواضعة نسبيًّا؛ وكنتما تشعران بالظلم اللاحق بكما وبأمثالكما بسبب التواضع (النسبي) لأصولكما، وبسبب الظروف المحيطة...".

- وكان أن اقتنعتُ، من خلال قراءاتي وأحلامي، بما قيل لي (وقرأت)، وصدَّقت أن لا بدَّ لهذا الواقع من أن يتغير على يدي ويد رفاقي.

"والواقع الذي كان يعيشه بلدُنا كان، من بعض جوانبه، صراعًا مجنونًا على السلطة وعلى المصالح، أوصلَنا اليوم إلى ما أوصلنا إليه...".

- وكان من بعض الخديعة التي صدَّقتُها، كما صدقها الكثيرون، أن هناك دولة جبارة قامت عام 1917 إثر "ثورة" للعمال والفلاحين، من أجل "المعذَّبين في الأرض"، لأول مرة في تاريخ الإنسانية، وعلى سدس اليابسة – تلك الدولة المثالية المفترَضة والصامدة، رغم ما كانت تعانيه من حصار. وكان، أيضًا، أن هناك فكرًا، علميًّا صرفًا و"ثورجيًّا" صرفًا – تلك الإيديولوجيا التي آمنتُ أن بوسعها الإجابة على جميع التساؤلات، والتي بوسع الفقراء اعتمادها سلاحًا للانعتاق من واقعهم المهين، وأن هناك، في المحصِّلة، حزبًا بوسعه، من خلال تقمُّص ذلك الفكر "العظيم"، قيادةُ عملية تغيير هذا الواقع "المهين". ومن خلال هذا كلِّه، كان وهمُ "جزَّار" و/أو " قدِّيس"، أضحى يعرف بـ"لينين"؛ أو "طاغية مجنون" و/أو "قائد ملهم" و/أو "أب طيب"، لُقِّبَ هناك بـ"ستالين"، أو ماو تسي دونج، أو كيم إيل سونج، أو أنور خجا، أو فيديل كاسترو... وهنا بـ"أبو فلان"، أو "أبو فليتان"، إلخ.

"وكان جميع هؤلاء "ثورجيين" في شبابهم، كما كنتَ، أنت أيضًا، "ثورجيًّا" في شبابك...".

- كنتُ، كالكثيرين من رفاقي، ساذجًا ومثاليًّا. وكنت فعلاً، كما أسلفت، ثورجيًّا. فانتسبت إلى الحزب، وحضرت أول اجتماع، ووزعت أول منشور، وجرفتني الآلية...

"والآلية هي الجو المحيط، الذي كان، بالنسبة لك، الكتاب، والاجتماع، والرفاق، والكأس، ونقاش الليل الذي لا ينتهي...".

- كنت ثورجيًّا، أجل. ولكني أعترف اليوم، "بخبث"، أني كنتُ "ثورجيًّا محافظًا" – بمعنى أني فضَّلتُ منذ البداية ستالين (الذي بنى) على لينين وتروتسكي (اللذين هدما). وفضلت بكداش على سواه لأنه القائد التقليدي للحزب. لكن هذا لم أدركه إلا لاحقًا جدًّا. أما في حينه فقد...

"كان غباؤنا أننا كنَّا ننظر إلى "الثورة" كمفهوم تقدمي...".

- أتراكِ تلمِّحين إلى الجانب الرجعي لمفهوم الثورة؟

"فكِّر معي قليلاً في الأصل اللاتيني لكلمة revolution، حيث تعني كلمة revolutio "الدوران في دائرة مغلقة". واستنتج ما تشاء من حدث ومسار، قد يطول أو يقصر، لكنه معدوم الأفق، ويعيدك، في المحصِّلة، إلى حيث انطلقت...".

- أما من منطلق لغوي عربي فالكلمة قد تكون تأنيثًا لكلمة "ثور" تعبيرًا عما يرافق حالها، كحال "زوج" البقرة، من هيجان وفقدان للتوازن أثناء عملية الجماع!

"ثم أصبحت الكلمة – لسخرية الأقدار – في العصور الحديثة التي قلبت المفاهيم التقليدية رأسًا على عقب، رمزًا لـ "تقدمية المتطرفة"...".

وأفكر متسائلاً: هل كان الثامن من آذار 1963، بالنسبة لسورية، "ثورة"، أم مجرد انقلاب؟

كان الثامن من آذار 1963، بالنسبة إلى سورية، أكثر من مجرَّد انقلاب، وأقل من ثورة. وكذلك كان، رغم جذريَّته، الثالث والعشرين من شباط 1966 الذي تلا. كان أقرب، في العمق، إلى "الثورة"، من بعض جوانبه التي استبدلت بالسلطة الديموقراطية، الأرستقراطية والضعيفة، للنخبة المدنية المستنيرة الحكمَ الديكتاتوري، العامِّي والشرس، لطليعة عسكرية ريفية؛ فسيطر الريف المتخلف (نسبيًّا ومقارنةً) من خلاله على المدينة وعلى مقاليد الأمور في البلاد. وأيضًا...

كان أقرب، في عمقه، إلى الثورة من جهة ما أحدثَه من تغيُّرات اقتصادية واجتماعية هامة في البلد، كالقطاع العام، والتأميمات، ومشاريع البنية التحتية الصناعية الكبرى، التي كانت إيجابية، ربما، من بعض جوانبها، ولكن باهظة الثمن، وبالتالي، سلبية، ولا تستحق هذا الثمن، من بعض جوانبها الأخرى.

ولكن الثامن من آذار لم يبلغ قطعًا – والحمد لذاك الذي لا يُحمَد على مكروه سواه! – كما سبق وأسلفنا، حدَّ الثورة؛ بمعنى أنه لم يُتَحْ لعنفه (بالقوة) أن يلمس إلا القشرة. فلم يتعرض، بشكل عام، كما حدث في روسيا أو ألبانيا أو الصين، للعمق الاجتماعي والديني للبلد؛ ولم يتعرض، في العمق، لتلك القوى المدنية

الأهم، والمتمثلة بتجار المدن السورية الكبرى، وخاصةً منهم تجار دمشق، الذين سرعان ما هادنوا العهد الجديد، ثم استوعبوه في النهاية.

"وكان من باكورة "منجزات" 23 شباط 1966 الاستيلاء على المدارس الأجنبية والتبشيرية في سورية، كالعازرية (مدرستك القديمة) واللاييك والفرانسيسكان والفرير وغيرها...".

- كان السيد سليمان الخش – رحمه الله – هو وزير التربية والتعليم الذي استصدر، في حينه، أمرًا يقضي بتشديد الرقابة على تلك المدارس من خلال تعيين مدراء "موازين" معيَّنين من قبل الدولة.

"وكان الاستيلاء على تلك المدارس، التي رفضت هذا القرار في معظمها، ضربة مؤلمة لمستوى التعليم في بلدنا. فهذه المدارس كانت تقدم لطلابها وللبلد مستوى تعليميًّا متميزًا؛ ولكن هذا لم ندركه إلا لاحقًا جدًّا. وأيضًا..."

"في تلك الأيام "زوَّج" ابن عمنا نعيم ابنته سامية من تاجر غني من أسرة الربَّاط الحلبية المسيحية–الأرثوذكسية المعروفة...".

"ظلَّ نعيم – رحمه الله – طوال حياته تقليديًّا. كما كان صديقًا لآل الربَّاط، الذين كان أقربهم إلى قلبه صديقُ شبابه من أيام الكتلة الوطنية المحامي الكبير إدمون الربَّاط، أبو الدستور اللبناني...".

"لكن سامية لم تكن تريد هذا الزواج؛ وإذا وافقت عليه في النهاية فلأنها لم تكن تتجرأ على معارضة والدها؛ على عكس إميلي (ميمي)، ابنة رزق الله التي هربت من منزل أهلها لتتزوج من ضابط مسرَّح مسلم، زميل لها في كلِّية الحقوق، اسمه موفق الدقر. وكانت "فضيحة" عائلية أثَّرت سلبًا على صحة والدها...".

"وذهبنا أنتَ وأنا لنهنِّئ ميمي بزواجها وثورتها على أهلها."

"كان الجميع في وسطنا يعرف ويقدر أدب وأخلاق أبناء نعيم...".

"وتوفيت ليلى، ابنة عمِّك فلاديمير. أصيبت ليلى في صغرها، كما تعرف، بروماتيزم أثَّر على قلبها. وكان المحزن أنها، وجميع من حولها، يعلمون أنها لن تعيش طويلاً. اتصلوا يومها بفلاديمير من بيروت، وأخبروه بأن يحضر حالاً مع إخوته لأن ليلى مريضة جدًا. كانت قد توفيت، لكنهم لم يشاءوا أن يخبروه بذلك مباشرة...".

"ذهبنا نحن الأربعة إلى بيروت في سيارة مستأجرة. وتوقفت السيارة في المصنع عند الحدود اللبنانية. وهناك – يا لسخرية القدر – سمعنا، وسمع معنا فلادو، اثنان من شرطة الجمارك اللبنانية يتحدثون. كان أحدهم يقول للآخر: "هل سمعت النبأ؟ لقد توفيت اليوم بنت الأنطاكي، ملكة جمال لبنان." واصفرَّ وجه فلاديمير، ونظر بعضنا إلى بعض ببلاهة، ثم انفجرنا جميعًا بالبكاء...".

"بعد أسبوع، أصيب فلادو بنوبة قلبية، وظلَّ حوالي الشهر طريح الفراش...".

كانت العلاقات بين أبي وأخوته جيدة في تلك الأيام. لكن أمِّي، التي كانت على علاقة مقبولة مع ماري زوجة رزق الله، كانت على علاقة سيئة جدًّا مع ليندا زوجة فلاديمير، التي كانت تقطن في بيروت مع عائلتها. أما أنا وإكرام فكانت علاقاتنا بأبناء رزق الله قد ضعفت جدًّا؛ بينما كانت علاقتنا بأبناء عمِّنا فلاديمير شبه مقطوعة؛ كما كانت انقطعت أيضًا علاقاتنا بتلك الأوساط التي كانت محيطة بنا، من أقارب و"أصدقاء" للعائلة – أولئك الذين لم تعد اهتماماتهم كاهتماماتنا التي كانت تحولت، فأصبحت تتابع بنهم ما كان يجري في العالم عامةً، وفي البلد خاصةً...".

حيث ألغت الحكومة اليسارية السورية اتفاق أنابيب النفط مع الشركات البريطانية، الذي كانت وقَّعته الحكومة البعثية السابقة للسيد صلاح الدين البيطار، ووقَّعت اتفاقيات اقتصادية هامة مع الاتحاد السوفييتي "الصديق". وكان أهم هذه الاتفاقيات بناء سدِّ الفرات، وبناء خط حديدي بين اللاذقية والقامشلي، ومعمل السماد الآزوتي، ومشروع استثمار الفوسفات، إلخ.

أما في أيار 1966 فكان المجلس الوطني الفلسطيني المنعقد في غزة يكرس دور "فتح" في توجيه سياسة منظمة التحرير الفلسطينية التي كان يقودها الشقيري، وكان تصعيد (إعلامي) للعمليات الفدائية انطلاقًا من الأراضي السورية والأردنية، مما كان يُصوَّر وكأنه بداية حرب فدائية تهدف إلى تحرير كامل التراب الفلسطيني.

وجرت في 14 تموز غارات إسرائيلية عنيفة على المواقع السورية، وجرى تصعيد في توتر الأجواء في المنطقة.

قضيتُ صيف 1966 في دمشق، حيث هيأتُ لبعض المواد التي كانت متبقية لي للدورة الثانية، تلك التي تقدمت لها بنجاح (نسبي)، فانتقلت، وكذلك رفيقنا (وصديقي آنذاك) بسام نصري، إلى الصف الثاني هندسة؛ بينما رسب في صفِّهِ في الكلية مروان–جعفر، الذي أضحى في صفِّي، كما رسب من صفِّي كلٌّ من سمير ودعد. أما على صعيد الجامعة فكان نذير هو الأبرز من بين الرفاق الناجحين في دراستهم، حيث أضحى طالبًا في السنة قبل الأخيرة من دراسته الطبية. وكذلك فاروق الذي أصبح طالبًا في السنة الأخيرة حقوق.

وغادرَنا في هذا الصيف جان فرانسوا عائدًا إلى بلاده. فتوادَعنا واتفقنا على التراسُل. وكانت علاقتي به ما تزال طيبة؛ أما علاقته بالشلة فكانت انقطعت بعد أن اكتشفوا بعض ميوله المثلية. وأعترف أني انزعجت أيضًا، في حينه، عندما اكتشفت أن لديه تلك الميول. ولكن، بعد التداول مع إكرام، قرَّرنا معًا التصرف وكأن الأمر لم يكن؛ فجان فرانسوا كان طيِّب القلب، كما أنه كان صديقنا – وهذا كان الأساس الذي يهمنا.

كما غادرنا للدراسة في فرنسا ابن عمي (رزق الله) كريم، الذي رسب في صفه في كلية الطب في جامعة دمشق.

وفي أيلول 1966 كانت المحاولة الانقلابية الفاشلة للرائد سليم حاطوم.

يومئذٍ مساءً (الـ 8 منه) كنت أحضر مع عطية مهرجانًا خطابيًّا في مبنى الاتحاد العام لنقابات العمال، حين لاحظنا أن أجواء الحفل كانت غير طبيعية. ومن الأحاديث الجانبية لبعض البعثيين الذين كانوا حولنا فهمنا أن هناك محاولة انقلابية يقودها الرائد سليم حاطوم الذي كان اعتقل (كرهائن) في السويداء كلاً من رئيس الدولة نور الدين الأتاسي وصلاح جديد اللذين جاءا لمفاوضته. فأخبرنا ما سمعناه مباشرة لرفيقنا إبراهيم بكري الذي كان موجودًا في القاعة، ثم غادرنا المكان.

"حسب تقويم حزبنا الشيوعي آنذاك، تم سحق هذا الانقلاب "بفضل يقظة الشعب وقواه التقدمية و.. الطبقة العاملة بكتائبها المسلحة". فحينئذٍ كانت الحكومة السورية اليسارية قد شكَّلتْ، ضمن فولكلورها الثورجي، "الكتائب العمالية المسلحة" لحماية الثورة...".

- ولكن، في الحقيقة، لم تكن للشعب، ولا لقواه التقدمية، ولا للطبقة العاملة، أية علاقة بالموضوع. فقد... فشلت محاولة حاطوم الانقلابية على يد وزير الدفاع حافظ الأسد الذي هدَّد بقصف السويداء إن لم يفرج الأول مباشرة عن نور الدين الأتاسي وصلاح جديد. فانهارت أعصاب حاطوم الذي فرَّ هاربًا إلى الأردن حيث التجأ. ومن هناك، عبر الإذاعة الأردنية، شنَّ حملة إعلامية قاسية على "الحكم العلوي" في سورية!

"قبل هذه الحركة بأقل من شهر كان أحدُ قادة حزبنا في جملة وفد ذهب إلى كوبا، شارك فيه سليم حاطوم. وكان تقويم رفيقنا له، حين عادوا إلى الوطن، أنه "كاسترو" محتمل لسورية...".

- لا خلاف في أن تقويمات "جماعتنا"، إجمالاً، كانت في منتهى السطحية. ولكن "الأسطح" منها كان أننا كنَّا نصدقهم، ونعجب بتقويماتهم تلك.

"ووضعت الدولة يدها على بناء عمُّو نعيم أنطاكي في حي أبو رمانة (المبنى الحالي لوزارة النقل)... كان قد سبق لنعيم أن رفض طلبًا لرئيس الدولة آنذاك، السيد نور الدين الأتاسي، بتأجيره الطابق السفلي من البناء لسُكناه. وكان هذا من حقِّهِ (نظريًّا)، استنادًا إلى القانون. لكن حكومة تلك الأيام لم تكن لتعبأ بمثل تلك القوانين الرجعية البالية. فأصدرت أمرًا (عرفيًّا) بمصادرة البناء بكامله. وقد تمت عملية المصادرة حين كان نعيم وعائلته خارج الوطن، ولم يكن في البناء سوى أمه العجوز التي طُرِدَتْ من بيتها بشكل مُخْزٍ...".

"وكانت خطبتك إلى تلك الفتاة القصيرة القامة من كلِّية العمارة والتي كانت تدعى .... أليس كذلك؟"

كان هذا ما حصل فعلاً. في حينه كان الحزب يحاول إحياء إحدى منظماته الجماهيرية ("اتحاد الشباب الديموقراطي"). وقد عقد من أجل هذا الغرض عدة اجتماعات، كان أولها برئاسة عضو اللجنة المركزية رئيس الاتحاد واصل فيصل (الشقيق الأصغر ليوسف)؛ تلاه آخر برئاسة من أضحى، لبعض الوقت،

مسئولنا الحزبي في الجامعة (وكان آنذاك عضو منطقية دمشق) يعقوب كرو، الذي أصبح رئيسًا للاتحاد؛ وأصبحتُ عضوًا في اللجنة القيادية لإعادة تأسيسه. كما أصبحتُ، في حينه، عضوًا في فرعية الحزب في جامعة دمشق. ثم كان اجتماع احتفالي آخر في منزلي، حيث تعرفتُ إلى تلك الفتاة التي حضرت يومئذٍ مع رفيقنا ساسين (ابن ضيعتها) من كلّيِة العلوم، وألقت قصيدة لمحمود درويش. كانت جميلة، رغم قصر قامتها، كما كان إلقاؤها جميلاً حين كان صوتها الدافئ (كغناء حوريات عوليس) يردِّد:

... أنا من قرية عزلاء منسية

شوارعها بلا أسماء

و كلُّ رجالها في الحقل والمحجر

يحبون الشيوعية...

ففي حينه كان بدءُ تعرُّفنا إلى أدب الرفاق العرب من "الأرض المحتلة": محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زيَّاد... ففُتِنْتُ بهذه الفتاة، وتعمَّدتُ، فركزت على رؤيتها لبعض الوقت. ثم تجرأت ذات يوم، فصارحتها بإعجابي الذي وجدتُه (بكل بساطة) متبادَلاً. وكانت خطبتنا، رغم معارضة أهلها، عامةً، ومعارضة شقيقها الذي كان يدرس في تشيكوسلوفاكيا، خاصةً. وكانت هذه أول قصة حبٍّ حقيقية أعيشها...

"وكانت قصة حبٍّ تعيسة...".

ربما لأنه لم يكن شيء مهيأ من جانبي في حينه لكي أكون "خطيبًا " وفق المفهوم الكلاسيكي للكلمة. كنتُ مجرد طالب هندسة مفلس يأخذ "خرجية" من أهله؛ كنت مجرد وجه شيوعي شديد الحماس (أي أبله أيضًا)، ميزته الوحيدة أنه ابن عائلة معروفة ومثقف بعض الشيء – مما بهر الفتاة لبعض الوقت؛ ثم، حين زال الانبهار وتوازنتْ الأمور بعض الشيء، عادت المياه إلى مجاريها و...

"انتهى الحبُّ مع انقطاع المطر L'amour s'achève avec la pluie..."

كما قال ذات يوم أراغون. فأهلها كانوا معارضين لخطبتها "من هذا الولد"؛ والفتاة كانت تتأثر نسبيًّا بما كان يقول أهلها. وأخيرًا، لم يكن مفهومنا عن الحب، ولا تعاملنا معه، واحدًا. فهي "ابنة الريف المحافظة" كانت، بالنسبة لـ"ابن المدينة المتحرر"، حبَّه الأول؛ بينما كنت أنا، بالنسبة لها، حبَّها الثالث. ثم سرعان ما اكتشفت أنها كانت تتبادل الإعجاب، قبل تعرُّفها، إليَّ – ولم تزل – مع زميل (مسلم متزمّت) من صفِّها في الكلية، حرَّكتْه من بعدُ خطوبتُنا، فعاد ليركِّز على استعادتها، ونجح في ذلك. فانفرطتْ علاقتُنا بعد أشهر قليلة من التعاسة المتبادلة.

"لكن، كيف حدث هذا؟"

- يوم قررنا الافتراق وإنهاء العلاقة أعادتْ لي خاتم الخطوبة، فأخذتُه منها وودعتُها، مبتسمًا قدر المستطاع، ومتمنيًا لها حظًّا سعيدًا، ثم اتجهت إلى كلِّيتي. كنتُ ممزق القلب وتعيسًا إلى الحدِّ الأقصى J'avais la mort dans l'âme. ولكن كبريائي كانت تقول إنه يجب ألا أُشعِر أحدًا بألمي. ووجدتُ في الطريق شحاذًا مسكينًا، فألقيت إليه بالخاتمين الذهبيين لقصة حبي الأول والأفشل، وسارعتُ هاربًا لا ألوي على شيء، لكيلا أرى كيف ستكون ردة فعله.

"لعل هذه المواقف هي أجمل ما لدى أمثالك: Votre panache، كما يقال بالفرنسية...".

- ربما. لكن تريَّث لتسمع باقي القصة... حيث التقيت بعدئذٍ، عند البوابة الرئيسية للجامعة، برفيق لنا من كلِّية الطب اسمه ...... ، الذي لاحظت أن حالته كانت تفوقني تعاسة؛ إذ بادرني بالسؤال قائلاً:
- كيف حالك يا أكرم؟
- رائع يا .... وأنت؟
- أنا تعيس الحال يا أكرم. كيف حال خطيبتك ...... ؟
- .... جيدة. لقد انتهت خطوبتنا منذ عشر دقائق. كيف حال ...... ؟

لم يدرك، على ما يبدو، ما قلتُ بخصوص "خطيبتي"، لأنني، حين سألته عن صديقته ......، ترقرقت عيناه بالدموع، وأجابني وهو يكاد يبكي:

- تصور أنها تركتْني، رغم حبي لها لتلحق هذا "البرجوازي الحقير" الذي يضحك عليها...

فأجبته مبتسمًا، بهدف الرفع من معنوياته:

- ثم ماذا يا رفيق؟! [...] أمها! ستجد مائة فتاة أفضل منها...

لكن يبدو أني لم أصب الهدف، لأنه انتفض في وجهي صائحًا:

- أنت حقًّا بلا قلب يا أكرم. أنا أفهم لماذا لم تنجح في علاقتك مع ....

وتمالكت نفسي بصعوبة، وأجبته مبتسمًا:

- لقد أصبتَ لبَّ القضية يا ....

وتركتُه لتعاسته، واتجهت حاملاً وحدتي وتعاستي إلى كلِّيتي، حيث كابرتُ طوال اليوم ولم أُشعِر أحدًا بألمي. لكنني في الليل، حين اختليت إلى نفسي، لست أدري تمامًا ما الذي أصابني وجعلني أجهش في هستيريا من الضحك والبكاء معًا. آه، كم تبدو الحياة سخيفةً في مثل تلك اللحظات!

وكان في 31 تشرين الأول 1966 هجوم جريء لثوار الفييتكونغ الشيوعيين على سايغون، عاصمة فيتنام الجنوبية.

أما في 4 تشرين الثاني 1966 فكان التوقيع على معاهدة دفاعية بين سورية ومصر.

وحدث تصاعد في الضجيج الإعلامي حول العمل الفدائي، عامةً، وحول منظمة "فتح"، خاصةً. ووقع هجوم إسرائيلي على مواقع الفدائيين في قرية السموع الأردنية.

واتصل بي زميلي في الصف من الكلِّية، الذي كان منتسبًا إلى فتح، الطالب الفلسطيني الأردني، الناعم والمهذب جدًّا، هيثم ...... ، وقال لي:

- أريد منك خدمة صغيرة يا أكرم. هل لديك بضعة أبيات شعر حماسية أستطيع أن ألقيها اليوم في المهرجان الخطابي الذي ستقيمه "المنظمة" على مدرج الجامعة؟
- على رأسي يا هيثم!

وكتبتُ له على قصاصة ورق بضعة أبيات من إحدى القصائد التي كنت أحفظها لمحمد مهدي الجواهري، وأعطيتُه إياها، لافتًا نظره إلى أن...

- هذه القصيدة لشاعر شيوعي عراقي.

فقرأها بانتباه، ثم ابتسم وقال لي:

- إنها رائعة! هذا بالضبط ما كنت أبحث عنه. شكرًا لك!

وفي المساء، حين حضرتُ الحفل، شعرت ببعض الفخار وأنا أتأمل هيثم يلقي، بكل حماس، من على المنبر تلك الأبيات التي تقول:

تَقَحَّمْ، لُعِنْتَ، فما ترتجي ... منَ العيشِ عن وِرْدِهِ تُحْرَمُ
أأوجَعُ مِن أنَّكَ المُزْدَرَى ... وَأَقْتَلُ مِن أنَّكَ المُعْدمُ
تَقَحَّمْ، فمَنذا يلومُ البطينَ ... إذا كانَ مثلُكَ لا يَقْحَمُ

وأتذكر كيف كان وضع الحزب الشيوعي في الجامعة، عامةً، وفي الكليات العلمية، وفي مقدِّمتها كلِّية الهندسة، خاصةً، يتطور، متصاعدًا بشكل ملفت للانتباه. وأفكر أن الأسباب لم تكن – قطعًا – خطَّ الحزب "القويم" – ليس لأن خط الحزب لم يكن قويمًا بالإجمال، كما أصبحت مقتنعًا اليوم، ولكن لأنه، لو كان كذلك، لوجب أن يتطور الحزب باطراد أيضًا في كلِّ أنحاء البلد – وتلك لم تكن الحال عامةً. كما لم تكن الأسباب تلك الأجواء الثورجية التي كانت تجتاح العالم الثالث، عامةً، ومن بينها منطقتنا العربية؛ فهذه الأجواء، إن وُجِدَتْ نسبيًّا (وهي لم تكن موجودة – شكرًا لله – في بلدنا)، فقد كان يُفترَض أن تنعكس على جميع فصائل الشارع السياسي، وليس على الشيوعيين حصرًا. ولكن السبب الرئيسي لتطورنا في الجامعة آنذاك كان تلك العلاقة الإنسانية التي نشأت فيما بيننا، كطلاب، القائمة على المحبة والثقة المتبادلة. هو ذلك الاحترام الناجم عن الصدق في القناعة والإخلاص في الممارسة والتعامل مع الآخرين؛ مما ولَّد تلك المحبة والثقة وحافظ (إلى اليوم) على تلك الصداقة.

في حينه كان نذير ومروان قد ابتعدا عن قيادة فرعية الجامعة: نذير، لأنه أصبح في السنة الأخيرة طب، وكان عليه أن يهيِّئ لامتحانات تخرجه؛ ومروان، لأنه كان بدأ يتهيأ للسفر من أجل معاودة

الدراسة في تشيكوسلوفاكيا. وأصبحت فرعيةُ الجامعة للحزب الشيوعي تتكون من عطية الذي كان سكرتيرها ومسئولاً عن بعض الكلّيات الأدبية والطب والعلوم، ومني كمسئول عن كلّيات الهندسة، ومن ذلك الطالب الحلبي الحادِ الطباع من كلِّية الأدب الإنكليزي الذي كان اسمه مروان، وكان مسئولاً عن كلّيتيْ الأدب الفرنسي والإنكليزي، وأضحى من أصدقائي. وكان يتناوب على قيادة فرعيتنا من منطقية دمشق كلٌّ من مراد يوسف سكرتير المنطقية (وهو شركسي)، وفايز جلاحج (أبو جورج)، عضو المنطقية (أيضًا شركسي)، يعقوب كرو (أبو هلا)، عضو المنطقية من الجزيرة (مسيحي سرياني)، يوسف نمر (أبو سعيد)، أيضًا عضو المنطقية من القصاع (مسيحي أرثوذكسي)، وعبد الوهاب رشواني (أيضًا أبو سعيد)، من حيِّ الأكراد (كردي طبعًا). وكان هؤلاء، الذين ترك بعضهم لدي انطباعًا مقبولاً، وترك بعضهم الآخر انطباعًا أقل جودة، يحضرون عمومًا، على التناوب، اجتماعات فرعيتنا؛ كما كانوا يحضرون أحيانًا معنا اجتماعات حلقات الكادر المتوسط لقيادة العمل في الجامعة، الذين أذكر منهم، وكانوا أصدقائي: سمير شاليش وبسام نصري من كلّيتي، محمد ...... من كلية الفنون، ساسين ...... من كلِّية العلوم، ندرة ...... وجمعة ...... من كلية الأدب العربي، والأخ الحبيب توفيق البطل من كلِّية الطب. فعبر هؤلاء الرفاق (الطبيين عمومًا)، كان يُقاد العمل الحزبي والشبابي والاتحادي للحزب الشيوعي في جامعة دمشق في تلك الأيام، وخاصة في كلِّيتيْ الهندسة المدنية والعمارة، حيث كان بوسعنا اكتساح القائمة الطلابية للاتحاد الوطني بمفردنا.

وكان هذا بعض ما حصل في مطلع عام 1967 في انتخابات اللجنة الإدارية للاتحاد. فقد كنَّا نفاوض البعثيين حول قائمة موحَّدة تم فيها الاتفاق، من دون أية صعوبة، على ثلاثة: البعثي (في حينه) راتب رزوق (وهو إسماعيلي من صفِّي)، وخلدون ...... (الناصري، وكان من أصدقائي)، وأنا كشيوعي. لكن الاتفاق لم يكن سهلاً بالنسبة للعضوين المتبقيين كي تكتمل اللجنة، حيث اتفقت مع مفاوضي البعثي على أن يكونوا من "الحياديين" – وكنت أتفاوض يومئذٍ مع الطالب البعثي (المخضرم جامعيًّا) من كلّيتنا، من صفي (ومن دير الزور)، يحيى الخير. كان هذا الأخير يتقدم بأسماء من يقترح من حياديين مفترَضين للَّجنة، وكنت أرفضهم لمعرفتي أنهم كانوا أقرب إلى البعث، وبالتالي ليسوا حياديين؛ حتى كان أن اقترح في النهاية أسماء اثنين من "الحياديين" الذين كانوا من "أصدقائنا"، فقبلت بهم بعد تشكُّك أمام إصراره. وجاءت اللجنة التي انتُخِبَتْ لذاك العام (1967–1968) لصالحي: أربعة – واحد!

ثم كانت انتخابات كلية الفنون التي قُدْتُها بنجاح أقل، حيث أدى خطأ ترشيح اثنين من "أصدقائنا" بشكل اعتباطي، وما نجم عنه من تضارب في الأصوات، إلى سقوط الاثنين معًا وحصول البعث على مقعد إضافي على حسابنا في لجنتها الإدارية.

"... هل تذكر كيف بكى يومها محمد ...... نتيجة تأنيبك القاسي إياه بسبب ما حصل وأدَّى إلى فقداننا مقعدًا في اللجنة الإدارية لكلية الفنون؟"

- وكيف احتضنتُه حين انفجر باكيًا وقلتُ له: "ولا يهمك يا محمد! خيرها بغيرها...".

"وكيف انسحبتْ خطيبتُك السابقة من الانتخابات، فلم تشارك في الاقتراع، لأن صديقها الجديد لم يأذن لها بذلك...".

- كنت ما زلت، حتى تاريخه، أبادلها السلام، رغم ما جرى بيننا. ولكن، بعد هذه الانتخابات، أقلعت عن هذا.

"لماذا؟"

- لست أدري لماذا. أفكر اليوم أني ربما كنت قاسيًا بعض الشيء في تقويمها آنذاك. ولكن، في ذلك اليوم بالذات، بدت لي "صغيرة جدًّا" من خلال ما تلمَّستُه من سلوكها "الذليل" تجاه رفيقها الجديد، مقارنةً بسلوكها السابق معي. على كلِّ حال، أنا لم أرها منذ ذلك الحين، إلى حدِّ أني لا أذكر اليوم حتى معالم وجهها.

وكان تصاعد للأجواء في المنطقة بدءًا من أوائل أيار 1967.

فكانت تهديدات إسرائيلية لسورية، وتأكيدات سوفييتية تستنكر بشدة الحشود الإسرائيلية على الحدود السورية، وتحذِّر من قرب شنِّ هجوم إسرائيلي كاسح على دمشق. وكان طلبٌ من جانب عبد الناصر بسحب قوات الأمم المتحدة من مواقعها الفاصلة بين مصر وإسرائيل، والاستجابة الفورية لهذا الطلب، ودخول القوات المصرية إلى سيناء، وإقفال خليج العقبة أمام الملاحة الإسرائيلية.

وكان مقال في منتهى السطحية لهيكل مضمونه أن لا خيار أمام إسرائيل سوى التراجع، مما يعني خسارته أو الحرب، وبالتالي أيضًا خسارته، وفي كلتا الحالتين بداية نهايته.

كما كانت محاولات دولية لاحتواء المشكلة سياسيًّا، لكنها لم تؤدِّ إلى أية نتيجة. فالسيف كان سبق العذل، وإسرائيل ما كان ليفوِّت مناسبة كهذه ليضرب ضربته.

وكان الخامس من حزيران 1967...

كنت في صباح ذلك اليوم (الخامس من حزيران 1967) في طريقي إلى الكلِّية، حين فوجئت ببيانات إذاعتنا تعلن للملأ نشوب الحرب، والهجوم الإسرائيلي على مصر، وردَّ مصر "الناجح" على العدوان الإسرائيلي "الغادر". فسارعت راكضًا إلى الجامعة التي وجدتُ مجتمعين في ساحتها الرئيسية من هبَّ ودبَّ من الطلاب الذين كانوا يهتفون مهلِّلين للبيانات التي كانت تذيع معلنةً إسقاط مصر "للعشرات والعشرات" من الطائرات الإسرائيلية المعتدية. فالتقيت هناك بغالبية رفاقنا الذين سارعوا مثلي إلى الحضور بهدف التطوع والمساهمة قدر المستطاع في ردِّ العدوان الإسرائيلي الذي سيطالنا حتمًا.

وبوشر عند الظهر بتسجيل أسماء المتطوعين من الطلاب الجامعيين، فسجَّلنا أسماءنا. ثم طلبوا منَّا البقاء في أماكننا ريثما يتم توزيع السلاح وفرزنا إلى حيث يُفترَض أن نوجد. وطال بنا الانتظار؛ فخطفتُ نفسي إلى المنزل، حيث أخذتُ بعض الثياب الداخلية والراديو الترانزيستور الصغير الذي كان

والدي قد اشتراه من لبنان مؤخَّرًا (والذي كان اقتناؤه في البلد محظورًا في حينه)، وسارعت مغادرًا حتى لا تتغلب عليَّ العواطف بعد أن أخبرت أهلي ألا يقلقوا لأني لن أعود قبل انقضاء بعض الوقت. فتمنَّى والدي لي التوفيق، ودعاني إلى الحرص، بينما أجهشت أمي بالبكاء.

عدتُ إلى الجامعة لأجد أن الأوضاع مازالت على حالها. فقد كان الجميع (تقريبًا) في حال من الهستيريا الجماعية التي كانت تصعِّدها بياناتُنا الصاخبة. وكان الطلاب البعثيون يهلِّلون خاصةً لرفيقتهم المذيعة (لم أعد أذكر اسمها؛ ربما كانت حميدة نعنع لكني لست متأكدًا) التي كان صوتها الـsexy يلعلع، داعيًا إلى التخلص نهائيًّا، وبلا رحمة، من "الأعداء": "أقتلهم يا أخي! اذبحهم يا أخي! اذبحهم من الوريد إلى الوريد يا أخي!"

هكذا كانت تصيح في هستيريا، وكان الطلاب يصفقون. ولكن سرعان ما وجدتُ نفسي لا أصفِّق معهم، لأني كنت بدأت أشعر بغُصَّة في قلبي تقول إن هناك شيئًا ما خطأ فيما كان يجري. ومع غياب الشمس وزَّعوا علينا السلاح؛ وكان سلاحي الذي حصَّلتُه، وكذلك معظم زملائي، بندقية فرنسية الصنع قديمة (طراز 1936) وعشر طلقات.

ثم جرى فرزُنا إلى زمر من عشرة أشخاص؛ وكان المكان الذي فُرِزْتُ إليه وزمرتي وبعض الزمر الطلابية الأخرى هو المبنى الرئيسي للهاتف الآلي الواقع في أول شارع النصر. وكان المسئول عن مجموعتنا المكلفة (كما أفهمونا) بالدفاع عن هذا المبنى الهام هو ضابط أمني (تافه جدًّا) من عربستان إيران، الذي وزعنا في أماكن متفرقة حول البناء. وكان معي، في المكان الذي حُدِّدَ لي، عند البوابة الجانبية للبناء، رفيقي بسام.

وجلسنا على الأرض معًا، بسام وأنا؛ وكنَّا بدأنا نشعر ببعض التعب، مما جعل بسام يسترخي محاولاً النوم، جالسًا ومستندًا إلى الجدار. أما أنا فقد أخرجت فورًا من جيبي الراديو الترانزيستور الصغير ووضعت سماعتَه في أذني، وبتُّ أتنقل ما بين المحطات محاولاً تلمُّس حقيقة الأوضاع.

وكانت المفاجأة المذهلة الأولى تقول، عبر جميع وكالات الأنباء العالمية، أننا خسرنا الحرب منذ ساعات الصباح الأولى، حيث تم تدمير معظم الطائرات المصرية في مواقعها على الأرض، وأن القوات الإسرائيلية احتلت، مع حلول مساء ذلك اليوم الأول، معظم سيناء...

- بسام... بسام... استيقظ واستمع!

واستيقظ بسام، واستمع معي بصمت إلى ما كان يذاع، فاكفهرَّ وجهُه، وقال بصوت منخفض، وكأنه كان يخاطب نفسه:

- يجب ألا نتحدث بهذه الأخبار إلى أحد!

فوافقتُه، وأغلقنا المذياع، وغاب كلٌّ منَّا سارحًا في ليل كوابيسه.

مع حلول مساء اليوم الثاني من الحرب كانت القوات الإسرائيلية قد بلغت الضفة الشرقية لقنال السويس، وكان وزير الدفاع الإسرائيلي (آنذاك) موشي ديان يصلّي عند حائط المبكى في القدس القديمة التي تم احتلالها وكامل الضفة الغربية.

"كانت إذاعة إسرائيل تذيع، احتفالاً بذلك، أغنية عبرية هي "أورشليم الذهبية"...".

"إلهي كم هم بارعون في الدعاية لأنفسهم، وكم نحن أغبياء في الدعاية لأنفسنا!"

"نحن كنَّا ننهزم أشنع هزيمة وننشد أن "فن الحرب إحنا خلقناه"! بينما هم، البادئون بالحرب، كانوا يتحدثون عن السلام!"

ثم حين صارت أنباء الهزيمة شبه معلومة من الجميع، كان خطاب الرئيس جمال عبد الناصر الذي أعلن فيه مسئوليته عمَّا جرى واستقالته من جميع مناصبه.

وأجهش (صديقي الناصري) خلدون، الذي كان جالسًا معنا، بالبكاء وصرخ:

- لقد انتهى كل شيء! لقد انتهى كل شيء!

ثم ألقى ببندقيته أرضًا، وخرج من الغرفة حيث كنَّا، راكضًا وهو يبكي. فلحقت به خارج الغرفة وأمسكت به.

- اهدأ يا خلدون! هذا لا يجوز. لا يحقُّ لك هذا. لم ينتهِ شيء بعد...

وعاد معي، وهو في حال ذهول إلى الغرفة حيث كان الجميع يبكي. وفتح أحدنا المذياع خطأً، فالتقط إذاعة إسرائيل التي أعلنتْ نبأ استقالة الرئيس عبد الناصر مباشرة، ثم تلتْه بأغنية تنمُّ عن منتهى الشماتة والاحتقار. كانت الأغنية هي طقطوقة صباح "أبو سمرا زعلان"! فصرخ خلدون بالحضور:

- أغلقوا هذه الإذاعة، أرجوكم!

فسارعنا إلى إغلاقها مباشرة، وقد تملَّكنا الخجل. واستمر خلدون في البكاء...

ثم كان إعلان عبد الناصر بعد ساعات العودة عن استقالته، نزولاً عند الإرادة الشعبية التي فرضت عليه البقاء – مما أعاد لبعض الوقت شيئًا من الابتسامة الحزينة إلى الشفاه، وساد، لبعض الوقت أيضًا، عبر الألم الذي كان يعتصرنا، بعضُ الشعور بالأمل.

ثم كان اليوم السادس من الحرب والإعلان، من إذاعة دمشق، عن سقوط القنيطرة (قبل سقوطها)؛ وكان احتلال إسرائيل لمرتفعات الجولان وللقنيطرة، من دون أية مقاومة تُذكَر. ثم كان الإعلان عن وقف إطلاق النار على جميع الجبهات، بناءً على قرار من الأمم المتحدة، ونتيجة للتدخل الحاسم للسوفييت (كما أخبرنا الرفاق).

كانت المشاهد التي عاينَّاها في هذين اليومين الأخيرين، من موقعنا في "الهاتف الآلي"، محزنةً جدًّا. فقد كانت الشوارع حولنا شبه فارغة من المارة. ولكن من جهة حيّ الميدان، عبر شارع النصر خاصةً، بدأ يتدفق إلى المدينة بلا انقطاع سيلُ جنودنا العائدين من الجبهة. كانوا يسيرون ببطء شديد من شدة

الإعياء، وقد قطعوا، في غالبيتهم على ما يبدو، كامل المسافة بين الجبهة ودمشق سيرًا على الأقدام. لم يكن بينهم ضباط من حيث الظاهر؛ فهؤلاء، على ما يبدو، كانوا قد اختلطوا بجنودهم. وكان بعضهم بلا أيِّ سلاح؛ بينما كان البعض الآخر يحمل سلاحه، وسلاح سواه الذي انتشله ملقى على قارعة الطريق.
أما في اليوم السابع فقد صُرِفنا إلى منازلنا بعد أن استعادوا منَّا سلاحنا الذي لم نطلق منه طلقة واحدة!
اتجهتُ متدرِّجًا نحو منزلي، وكان معي رفيقي سمير. لم نكن نشعر بأية رغبة في الكلام. فقط كنَّا ننظر بذهول إلى ما حولنا من مظاهر الحياة العادية التي سرعان ما عادت لتسود شوارع دمشق، وكأن شيئًا لم يكن!

ب

الجامعة، الرفاق و... الآخرون (4)

في ذلك الزمان، كنت ساذجًا
ومجرد كلمة كانت تعني لي وعدًا،
فالتبستْ عليَّ أجراسُ الحقل بأزهار الهوى.
لويس أراغون

En ce temps-là, j’étais crédule
Un mot m’était promission
Et je prenais les campanules
Pour les fleurs de la passion.

كان تحليل الحزب الشيوعي السوري لهذه الحرب الكارثة ملفتًا للنظر.

فيه جاء أن مما لا ريب فيه أنه قد "... أصيبت الحركةُ التحررية العربية بنكسة أليمة بسبب هذا العدوان الغادر المفاجئ..."، ولكن "... مازال ميزان القوى على المسرح العالمي في صالح قوى الاشتراكية وقوى التحرر الوطني والاجتماعي...". والبرهان على ذلك أنه "... رغم النجاح العسكري المؤقت، لم تحقق [هذه الحرب، وإسرائيل من خلالها] الأهداف المرسومة لها، وهي سحق الحركة الوطنية التحررية العربية، وضرب الصداقة العربية السوفييتية، وقلب أنظمة الحكم العربية القائمة...".

وكان هذا التحليل، الذي يبدو اليوم مسطَّحًا، مرعبًا حقًّا. بمعنى أننا لم ندرك، لأول وهلة، كامل أبعاده التي سخَّرها الحزب الشيوعي السوري للدفاع عن السوفييت والتستُّر على مسئوليتهم، أولاً؛ وللدفاع عن الأنظمة القائمة وعن هزيمتها، ثانيًا؛ ولأنه أنهى أخيرًا – وهذا هو الأهم – على أرض الواقع النظري، القضية الفلسطينية لصالح قضية جديدة أخرى، صار اسمها منذ ذلك اليوم – ولم يزل – قضية "إزالة آثار العدوان".

"لأنه لو كانت الحال هكذا، يا بابا، لما كان لزامًا منذ البداية كلُّ ما فعلناه وادَّعيناه وتحملناه من أجل فلسطين. على كل حال، لست أدري. ربما كان يجب منذ البداية السعي للتوصل إلى تسوية سياسية مع اليهود. أو، ربما، كان يجب مؤخرًا القبول بمقترحات بورقيبة الذي اتهمتموه بالخيانة...".

وسمعنا خلال تلك الفترة، من الإذاعات، أن سليم حاطوم كان حاول إبان الحرب التسلُّل إلى سورية مع بعض أعوانه؛ لكنه اعتُقِلَ وأعدمتْه السلطات.

ثم كان مؤتمر القمة العربي في آب 1967 في الخرطوم الذي رفض مبدأ أيِّ تفاوض عربي مع إسرائيل ما لم تنسحب من الأراضي العربية المحتلة (في تلك الحرب).

وكان القرار 242 الصادر عن الأمم المتحدة والقاضي بضرورة انسحاب إسرائيل من "أراضٍ" محتلة، وبحقِ جميع دول المنطقة بحدود آمنة، وبحلِّ قضية اللاجئين الفلسطينيين – ذلك القرار الذي أيَّده

الاتحاد السوفييتي، وقبلتْه مصر، ورفضتْه الحكومة السورية ومنظمة التحرير الفلسطينية، وأيَّده الحزب الشيوعي السوري.

وأيضًا، لما كان "شرُّ البلية ما يضحك"، فقد كان للخامس من حزيران 1967 بعض الفائدة بالنسبة لي ولأمثالي من "الطلاب السياسيين". فعلى صعيد الجامعة تأجَّلتْ الامتحانات بعض الوقت، ثم جاءت الأسئلة في ذلك العام سهلة نسبيًا؛ مما مكَّنني من النجاح بسهولة إلى الصفِ الثالث (أي قبل الأخير) هندسة.

"خلال ذلك الصيف، خطب صديقُك شارل زميلته في الصف، وفي كلِّية العمارة ...".

ونجح فاروق في امتحانات السنة الأخيرة في كلِّية الحقوق، وبدأ يتهيأ للذهاب إلى فرنسا التي غادَرَنا إليها مع نهاية عام 1967؛ كما غادَرَنا أيضًا إلى تشيكوسلوفاكيا مروان–جعفر. وانقطعت أخبار رفيقنا (الشركسي) فتحي الذي سافر فجأة إلى تركيا...".

"لقد كان انقطاع أخبار فتحي مفاجئًا أليس كذلك؟"

- فعلاً، فقد انقطع عن التنظيم الحزبي منذ الخامس من حزيران 1967. ثم أخبرونا، بلا تعليق، أنه غادر البلد إلى تركيا ليكمل دراسته، حيث استضافه أحد أعمامه. ولكني لم أكتشف حقيقة الموضوع إلا متأخرًا جدًّا، لأن ما نقله الرفاق لنا في حينه لم يكن، كالعادة، إلا جزءًا من الحقيقة. ففتحي كان أُبعِدَ عن التنظيم إبان الحرب بناءً على طلبٍ من البعث لحزبنا لأن والدتُه كانت "يهودية". فصُدِمَ المسكين، الذي كان من أشدِّنا إخلاصًا وحماسًا، لجحود رفاقه وحزبه وتنكُّرهم له، فغادر البلد.

ووصلتْني (بعد الحرب مباشرة) رسالة تضامُن من جان فرانسوا، أعرب فيها عن استنكاره للموقف المخزي للسوفييت خلالها. فأجبته طبعًا برسالة "بهدلة"، دافعت فيها، كما كان يوجِب خطُّ الحزب، عن الموقف الرائع للسوفييت، ذلك الموقف الذي أفشل المخططات الإسرائيلية الرامية إلى إسقاط الأنظمة التقدمية!

ثم بدأت تصلني، مُرسَلةً من جان فرانسوا أيضًا، بعض المطبوعات السياسية، لأقصى اليسار الفرنسي، تعبِّر عن تضامنها مع قضية شعبنا؛ وخاصة مع العمل الفدائي الفلسطيني انطلاقًا من الأردن الذي كان الضجيج حوله يتصاعد.

"وكان استدعاؤك لهذا السبب إلى إحدى أقبية المخابرات للتحقيق...".

الحقيقة أنهم اتصلوا أولاً بعمِّي رزق الله للاستفسار. فهذه المطبوعات كانت تصل إلى صندوق بريد العائلة (رقم 157 على ما أذكر) الذي كان مسجَّلاً باسمه؛ فأحالهم إليَّ. ثم اتصل مباشرة بوالدي وطلب منه أن أخفِّف من نشاطي الشيوعي لأن هذا النشاط بات بالنسبة له مزعجًا. فردَّ عليه والدي بحدَّة قائلاً:

- نحن لم نكن نشتكي، يا رزُّوق، حين كانت المخابرات تزعجنا بالسؤال عنك أيام الشيشكلي!

فاعتذر عمِّي رزق الله من والدي، قائلاً إن طلبه هذا ليس إلا لصالحي، ولكي لا أتعرض للأذى.

ولبَّيتُ الدعوة بعد إخبار الرفاق، وذهبت إلى المركز المحدد الذي كان يقع قرب منزلنا، في حي الحبوبي، الذي أضحى اليوم مقر "رابطة خريجي الدراسات العليا". أُدخِلْتُ، بعد ساعة من الانتظار (التقليدي)، إلى غرفة الضابط المسئول الذي استجوبني حول مصدر هذه المطبوعات. فأجبتُه بأنها من منظمات فرنسية مؤيِّدة لقضيتنا. وحين سألني عمَّن يرسلها إليَّ أجبتُه بأني لا أعرف. وحين طلب إليَّ أن أزوِّدهم بنسخة منها أجبتُه أنْ لِمَ لا يصادرونها مباشرة! فأعجبه جوابي، وضحك، وطلب منِّي، بشكل غير مباشر، التعاونَ معهم. فرفضتُ طبعًا. ولما سألني عن سبب رفضي أجبتُه: لأني ملتزم، ولأن التزامي لا يجيز لي هذا. ثم دَرْدَشَ معي في السياسة بعض الوقت، قبل أن يُخلي سبيلي. فخرجت، وعدت إلى منزلي، حيث وجدت الأهل والرفيق يوسف فيصل شخصيًّا بانتظاري. فأخبرتُهم بما حدث، وبأني لم أتعرض لأيِّ ضغط يُذكَر؛ بل، بالعكس، كان "الشباب" لطفاء معي نسبيًّا.

ثم كان لي، في ذلك المساء، حديثٌ خاص مع والدي الذي قصَّ علي، بإيجاز، ما دار بينه وبين شقيقه رزق الله من حديث حول الموضوع. فموقف أبي في التضامن معي آنذاك كان أعجبني وفاجأني معًا. فسألته:

- أنا أعرف، يا بابا، أنك لا تؤمن بالشيوعية التي أعتنقها أنا. فلماذا – وهكذا الحال – لم تستنكر موقفي كما فعل عمِّي رزق الله؟

ابتسم بحنان وأجابني:

- غدًا، حين يصبح لديك أولاد يا أكرم، ستفهم أن أولادك هم أنتَ في النهاية. لذلك، ورغم أني أخالفك فيما تؤمن به عن قناعة، فأنت أنا يا بابا. وبالتالي، أنا شيوعي تجاه الآخرين لأنك أنت شيوعي، ولأني أعتقد أنك مازلت بحاجة إليَّ....

كان هكذا في حينه سلوكُه، معي ومع إكرام، الذي عَكَسَه على الوالدة؛ وكذلك كان أيضًا سلوك عمِّي جورج. وأعترف اليوم، بخجل، أنهم تحمَّلوا منَّا ومن "شيوعيَّتنا" الكثير جدًّا من السماجة والغلاظات، حيث، تحوَّل منزلُنا، دون أية مراعاة لمشاعر والديَّ وراحتهما، إلى شبه مقرٍّ ومنتدى للحزب الشيوعي السوري "العظيم". ففيه كانت تُعقَد العديد من الاجتماعات الحزبية، وحتى الجماهيرية.

- جرى يومها اجتماع في منزلي للفرعية والكادر المتوسط من الجامعة، بمناسبة ذكرى ثورة أكتوبر. وقد حضره الرفيق يوسف فيصل الذي جاء ليتحفنا بحديثه السياسي الشائق. كان الحضور مؤلَّفًا من حوالى ثلاثين رفيقًا ورفيقة.

وكانت حالة المنزل "قايمي قاعدي"، على حدِّ قول والدتي (باللهجة الحمصية). "فحين عدنا والدك وأنا من زيارتنا، كان رفيقكم سمير في المطبخ مع صديقته دعد يهيئون القهوة للحضور. ودخلت مباشرة إلى

غرفتي حتى لا أرى ما حلَّ بالمنزل من فوضى بسبب اجتماعكم. أما والدك فقد بقي جالسًا في زاوية غرفة الجلوس، يتأمل الاجتماع عن بعد..."

ويتأمل ابنه البكر الذي افتتح هذا الاجتماع "الهام" بكلمة قصيرة تحدَّث فيها عن المناسبة، ثم قدَّمَ الرفيق يوسف فيصل الذي بدأ حديثه.

وأتذكر أني جلست بعد أن باشر رفيقنا يوسف الحديث. ولكن من طرف عيني كنت أتابع أبي الذي ظلَّ يتأملنا بعض الوقت مبتسمًا، قبل أن يدخل أيضًا إلى غرفته.

ثم عاد فخرج بعد حوالي الساعة، ولم يكن اجتماعنا قد انتهى بعد. فأشار إليَّ، ولبَّيته مباشرة، لتشوُّقي إلى سماع ما كان يريد قوله، وسألني ضاحكًا:

- ألم تنتهوا بعدُ من تغيير وجه العالم؟

ضحكت وأجبته:

- ليس بعد يا بابا. لكننا على وشك أن ننهي الاجتماع.
- الله الموفق.

وسألتُه بعد انتهاء الاجتماع عن رأيه بما كان سمع من حديث لرفيقنا يوسف، فأجابني:

- ليس من الصعب يا بنيَّ إقناع شباب متحمسين مثلكم. ولكنه لم يقنعني أنا، ربما لأني أصبحت اليوم كهلاً، أو لأنه ليس مقنعًا، أو لأن ما قاله لم يكن مقنعًا... لست أدري...

لأنه – والحق يقال – إن لم تكن قيادة الحزب الشيوعي مقنعة للمثقفين خلال معظم تاريخها، فقد وُجِدَ دائمًا في بلدنا، بين المثقفين، عمومًا، وبين أنصاف المثقفين، خاصةً، من اقتنع بعض الوقت بطروحاتها، كما كنت وكانت شقيقتي إكرام في تلك الأيام...

حين كنت مثالاً للرفيق المنضبط انضباطًا شبه عسكري. فلم أكن أتصل إلا بالمسئولين الذين حدَّدتْهم لي ولهيئتي قيادةُ الحزب. أما إكرام فكان وضعها مختلفًا. إذ سرعان ما لفتتْ شخصيتُها وثقافتُها (وقطعًا أنوثتُها وشبابُها) اهتمام الرفاق "القادة"، مما جعلها تتجاوز بسرعة هيئتها الحزبية الجامعية لتصبح على صلة مباشرة بالقيادة؛ الأمر الذي سبَّبَ لها، بالتالي، الكثير من الإشكاليات مع رفيقاتها في الجامعة، ومع نفس هؤلاء "القادة"...

"الذين كنَّا ننظر إليهم كقادة عن حقٍّ وحقيق. كنَّا "قابضينهم" (نأخذهم على محمل الجد)، كما يقال بالعامِّية الشامية...".

لأنه لم يكن بوسعنا، في حينه، استنتاج سلبياتهم الكثيرة ومحدوديَّتهم المرعبة، رغم أنها كانت بادية للعيان. فها هي، على سبيل المثال لا الحصر، الرفيقة فلانة من منطقية دمشق، تكلِّف إكرام بترجمة كتيِّب فرنسي يحتوي عدة مقالات للينين "حول المرأة"، ثم تنشره باسمها هي، دون أيِّ ذكر لإكرام. وها

هما الرفيقان القياديان "الثقال"، فلان وفليتان، يصبحان (لصالح القضية) من روَّاد منزلنا؛ مما تسبَّب لإكرام ولي وللعائلة ببعض الإشكاليات المزعجة التي لا مجال لسردها هنا.

"وأصبح قادة الحزب، وخاصة منهم الرفيق يوسف، يكلِّفون إكرام بمهام ترجمة نصوص حزبية "سرّية"، من وإلى الفرنسية...".

فدار رأس الفتاة التي اعتقدت لبعض الوقت أنها أصبحت رفيقة مسئولة ومهمة. وأتذكر أنها، في حينه، أطلعتْني على تقرير كانت كُلِّفَتْ بترجمته إلى الفرنسية ويتحدث عن سيطرة "بعض المشبوهين"، برئاسة السيد جورج حاوي، على قيادة الحزب الشيوعي اللبناني، بالتعاون مع بعض "القادة الانتهازيين"، كالسيدين نقولا شاوي (الأمين العام) وأرتين مادويان (عضو المكتب السياسي)، وإبعادهم لمعارضيهم "المبدئيين" من الحزب ومن القيادة. كان التقرير عبارة عن رسالة موجَّهة إلى الأحزاب العربية الشقيقة من قبل اثنين من القادة الشيوعيين اللبنانيين المبعَدين، السيدين "المبدئيين" حسن قريطم وصوايا صوايا، على ما أذكر. وكان أهم ما جاء في هذا التقرير، وفاجأني، أنه يلمِّح إلى جهة "لا يرقى لها الشكُّ" (افهم أمنية روسية) كانت حذَّرتْهم من الصلات "المشبوهة" للسيد جورج حاوي.

"كما عملت إكرام، في حينه أيضًا، سكرتيرة في السفارة البلغارية في دمشق...".

كان هذا أول عمل لها، وقد دبَّره لها الرفيق يوسف. لكنها لم تستمر فيه سوى بضعة أشهر. وقد تحمستْ إكرام كثيرًا لدى البدء بعملها الجديد. كان معاشها 600 ليرة سورية، وكانت تتبرع بنصفه لـ"حزب الطبقة العاملة". ثم إنها سافرت، خلال عملها هذا، لمدة أسبوع إلى بلغاريا؛ وعادت من هناك وهي في أشد الحماس لما سمحوا لها بمشاهدته في هذا البلد الاشتراكي (العظيم) والأقرب إلى الروس!

وبدأت أبعاد الأزمة المستعصية والمستحكمة فيما كان يسمى بالمعسكر الاشتراكي "الجبار" تتكشف للعلن، عبر واقع صارخ يقول إنه إن لم تكن هناك أية وحدة في قلب هذا المعسكر، ولا في الحركة الشيوعية.

ففي 5 شباط 1968 كان عزل نوفوتني، الأمين العام للحزب الشيوعي التشيكي، من منصبه وتعيين ألكسندر دوبشيك بدلاً عنه.

وفي 8 شباط 1968 كانت مظاهرات طلابية، قمعتْها الشرطة، في بولونيا.

وفي 28 شباط 1968 كان انسحاب الوفد الروماني من اجتماع اللقاء الاستشاري للأحزاب الشيوعية والعمالية في بودابست احتجاجًا على ما تعرَّض له من هجوم من قبل خالد بكداش.

وفي 5 نيسان 1968 كان نوفوتني، الأمين العام المُزاح للحزب الشيوعي التشيكي، يعترف للملأ بـ"... أن السنوات الأخيرة من حكمه كانت لطخة في تاريخ تشيكوسلوفاكيا..."، وكان دوبشيك، الأمين العام المُنتخَب الجديد، يعلن عن ضمانات ديموقراطية لمواطنيه تجاه عسف السلطات الاشتراكية، ويزور موسكو في 4 أيار ليطمئنها...

موسكو التي لم تكن لتخفي قلقها لما كان يجري في تشيكوسلوفاكيا، التي قادت قواتُها في 15 أيار 1968 مناورات عسكرية ضخمة لحلف وارسو.

"وكانت الوفاة المفاجئة لعمك رزق الله بالسكتة قلبية".

اتصلوا بنا في ذلك المساء إلى المنزل، حيث كنَّا – لمحض الصدفة – موجودين جميعًا (ما عدا إكرام)، وأخبرونا النبأ المحزن. فغادر أبي وأمي وعمي جورج المنزل مباشرة للالتحاق بمنزل رزُّوق. أما أنا فقد اتفقت معهم على اللحاق بهم مع إكرام فور حضورها. وكان هذا ما حصل بعد نصف ساعة.

كان الجو في منزل عمِّي مؤثرًا. كان الجميع يبكي، وقد جلسوا حول زوجته وبناته وأبنائه (ما عدا كريم الذي كان في فرنسا). كان هناك أيضًا زوج ابنته ميمي. فرزُّوق – رحمه الله – كان تصالح معها مؤخرًا وسامحها على فعلتِها، لا بل أصبح صديقًا لزوجها. ثم بدأ الأقرباء والأصدقاء يتقاطرون على المنزل. وأتذكَّر كيف كان الحضور يستمع إلى امرأته التي كانت تتحدث عن كيف وجدتْه ملقى على سريره ميتًا، وفي يده كتاب كان يقرأ فيه، حين ضحكت فجأة، وهي تشهق بالبكاء، وقالت:

- كان "الملعون" يقرأ كتابًا غير لائق، لأنه كان يحب مثل هذه الكتب...

فذُهِلْتُ، وتأمَّلتُها بإمعان وشعرت، في تلك اللحظة بالذات، بتعاطف مع تلك المرأة التي لم أكن أحب، لأني لمست، في حينه، لثوانٍ، من خلال تلك الإشارة الطريفة، كم كانت محبةً لزوجها.

ويضحك الحضور ويبكون معها، لأنه، والحق يقال، تبيَّن لي يومها أن عمِّي رزق الله كان محبوبًا بين أقربائه وأصدقائه وزملائه. كانت جنازته بعد ظهر اليوم الثاني مهيبةً. لم يحضرها ابنه البكر كريم الذي لم يتمكن من العودة بالطائرة؛ ولكن حضرها العديد من أصدقائه من وجوه وشخصيات البلد، الذين أتذكَّر منهم خاصة زميله وصديقه المرحوم د. محمد الفاضل الذي بدا لي يومها شديد التأثر. وقد تمت الصلاة على روحه في كنيسة الصليب للروم الأرثوذكس في حيِّ القصاع. وكان البطريرك بنفسه يؤم القدَّاس، الذي حضره أيضًا مطران من طائفة الروم الكاثوليك وعدد من الكهنة؛ فزوجة رزق الله كانت كاثوليكية، كما سبق وأشرت. ثم أبَّنه البطريرك بنفسه، فأشاد، في سياق خطبته الجنائزية، بمزاياه وأخلاقه وعلمه قائلاً:

- لقد كان رجل علم طوال حياته؛ فقد توفي وفي يده كتاب...

وابتسمتُ في حينه لثوانٍ، رغم تأثري. فقد مرَّ بخاطري ما قالته امرأة عمِّي حول الموضوع مساء البارحة، وفكرت:

- آه لو تعرف يا سيدنا نوعية آخر كتاب كان يقرأ؟!

"لأننا بشر في النهاية، يا بابا؛ ولأني، أنا أيضًا، والدك الوقور، أستمتع أحيانًا بقراءة مثل هذا النوع من الكتب الخفيفة...".

كان هذا ما أجابني به والدي، حين فاتحته بالموضوع – والدي الذي حزن جدًّا لوفاة شقيقه الأكبر، كما حزنَّا جميعًا، وخاصةً إكرام وأنا...

"فقد باتت تربطني بعمّنا، في تلك السنوات الأخيرة، علاقة صداقة متميزة وطريفة. أصبح يعيرني كتبًا من مكتبته الضخمة. وكان آخر ما أعارني إياه، وبقي لدينا بعد وفاته، مذكرات تشرشل. وقد بدأت علاقتي الجيدة به بعد أن ظهرتُ على شاشة التلفزيون في تلك الندوة التي كانت تناقش موضوع تأسيس "الاتحاد النسائي"، وتصديتُ بشجاعة لطروحات سعاد العبد الله، رئيسة الاتحاد آنذاك. فاتصل بي هاتفيًّا وهنَّأني على موقفي قائلاً: "لقد رفعت رأسنا يا إكرام!" ودعاني إلى زيارته في المكتب للنقاش، فلبَّيتُ دعوته...".

"كان لقائي هذا معه طريفًا ومعبِّرًا. فقد ضمَّني إليه حين دخلت، وقال لي وهو يضحك: "هكذا إذن! لقد أصبحت شيوعية يا حمارة!" ثم جلسنا نتحادث. فحدَّثني عن بكداش الذي وصفه بالـ "ذكي جدًّا"، وقال إنه "من المؤسف أن يكون مثل هذا الإنسان شيوعيًّا، لأنه، لو لم يكن كذلك، لكان اليوم من حكام البلد...". وحدَّثَني عن بعض قصصهما خلال وجودهما معًا في المجلس النيابي ما بين 1954 و1958، وكيف هاجمه بكداش بعد إلقاء بيانه حول ميزانية الدولة (خلال وزارة سعيد الغزّي)، وكيف ردَّ عليه عمُّنا الذي تعمَّد التوجُّه نحوه في نهاية الجلسة ليقول له: "أهنِّئك يا خالد، فقد كنت من القلائل الذين تمعَّنوا في البيان وفي الميزانية...".

"لقد كان عمُّنا، رغم أخطائه، إنسانًا كبيرًا يا أكرم."

وكانت في أيار 1968 الانتفاضة الطلابية الفرنسية التي كان موقف الحزب الشيوعي الفرنسي منها متحفِّظًا – تلك الانتفاضة التي جابهها ديغول برباطة جأش مكَّنته من أن يثبِّت، عبر الديموقراطية، سلطته التي تزعزعت بعض الوقت.

وكانت ضغوط "الأشقاء" تتصاعد على تشيكوسلوفاكيا المتمردة.

وكانت عمليات فدائية فلسطينية انطلاقًا من الأردن، وغارة إسرائيلية على مواقع الفدائيين في قرية السموع الأردنية. كما كان في تموز 1968، في القاهرة، انعقاد المجلس الوطني الفلسطيني، الذي أصبح عرفات رئيسه، وإقراره ميثاقًا وطنيًّا ينصُّ على مواصلة النضال حتى تحرير كامل التراب الفلسطيني.

وكانت إصابة رفيقنا خالد بكداش بنوبة قلبية حادة، ونقله إلى موسكو للعلاج.

ووقع في 30 تموز انقلاب يعيد السلطة في العراق إلى البعث "العفلقي"، برئاسة أحمد حسن البكر وقريبه صدَّام حسين.

أما في آب 1968 فكان دخول قوات حلف وارسو إلى براغ، عاصمة تشيكوسلوفاكيا، يضع حدًّا لربيعها الذي دام بضعة أشهر؛ وكان تأييد الحزب الشيوعي السوري لهذا "العمل الرائع" الذي استنكره الحزبان الشيوعيان الفرنسي والإيطالي.

"اصطدمتُ يومها مع بسام، الذي استنكر، من منطلق ما أسمتْه أدبياتُنا الشيوعية بـ"حقِّ الشعوب في تقرير مصيرها"، دخول القوات السوفييتية إلى تشيكوسلوفاكيا؛ فتصديتُ له بحدة وأجبته:

- إن هذا المبدأ يتلاشى أمام مصلحة الطبقة العاملة. وتلك المصلحة اقتضت، بالنسبة لتشيكوسلوفاكيا، تصحيح مسارها...

"ربما لأنه كانت بدأت تنطرح في أوساط الحزب، في حينه، "آراء غريبة" ذات طابع قومي و/أو يساري و/أو ليبرالي يميني...".

لم تكن الحال هكذا تمامًا. ولكن، في حينه، كانت بدأت بعض هذه المظاهر تتجلَّى بشكل خجول من خلال "اتحاد الشباب الديموقراطي"، الذي كان بسام في الجامعة مسؤوله العلني، بينما كنت أنا مسؤوله الفعلي من وراء الستار l'éminence grise؛ بمعنى أني كنت المسئول الحزبي للجنته القيادية، مما جعلني الكابح الفعلي لنشاط الرفاق في داخله. وكان الاتحاد منظمة جماهيرية، سرعان ما وجدت نفسها محطَّ جذب ولقاء للكثير من الشبان والشابات ذوي الأصول البورجوازية، مما جعله، كما كنا نتصور، مرتعًا للأفكار الليبرالية والقومية والطفولية اليسارية؛ وكان من الممكن أن يشكل تهديدًا بالقوة للتنظيم الحديدي والالتزام الحزبي البروليتاري المفترَض. وكان ممثل هذا الاتجاه من منظورنا، في حينه، هو صديق بسام، رفيقنا الآخر من كلية الطب، حازم – ذلك الذي كنت، نظرًا لتلك الأسباب، من وراء طرده من الحزب.

"والذي مازال، إلى اليوم، يكنُّ لك مشاعر الكراهية...".

نعم، والحق معه آنذاك. لكن هكذا كانت طبيعة الحال عندما عرَّفني بسام إلى صديق له ورفيق لنا من الجزائر اسمه العفيف الأخضر. وكان هذا الأخير "تروتسكيًّا"؛ فبدأ يحرضنا ضد قيادتنا الحزبية الهرمة، عامةً، وضد الرفيق خالد، خاصةً. وكان أكثرنا "بورجوازيةً" من حيث الأصول، أقصد حازم، هو أول من تبنى تلك الأفكار "اليسارية".

ونجحت في امتحانات الدورة الثانية، وأصبحت طالبًا في السنة الأخيرة هندسة. وكذلك نجح بسام من صفِّي، كما نجح سمير ودعد إلى السنة الثالثة.

"واعتُقِلَ صديقك الناصري خلدون بسبب نشاطه المؤيد لجورج حبش الذي كان أضحى ماركسيًّا وشكَّل "الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين"...".

قضى خلدون عدة أشهر في السجن، مما تسبب في رسوبه في صفه. وقد عُذِّبَ كثيرًا هناك، فلم يحتمل العذاب، وقرَّر، بعد خروجه من السجن، اعتزال السياسة.

وكان في أيلول 1968 انعقادُ المؤتمر القطري الرابع لحزب البعث الحاكم في سوريا، وبدءُ ظهور خلاف حادٍّ بين اتجاهين: الأول يساري وطفولي، برئاسة صلاح جديد، والآخر ذرائعي، برئاسة وزير الدفاع حافظ الأسد.

وكان تشكيل حكومة سورية جديدة برئاسة زعيِّن، مثَّل الحزبَ الشيوعي فيها، كوزير للمواصلات، عضو اللجنة المركزية واصل فيصل.

وكانت نهاية العام 1968 وعودة الرفيق خالد بكداش بعد إتمام معالجته في روسيا.

وكانت حفلة رأس السنة التي اضطررنا لإلغائها في آخر لحظة نتيجة تأنيب رفيقنا المسئول يوسف نمر، الذي أنَّبنا متسائلاً: "كيف بوسعنا الاحتفال والرقص في الوقت الذي يستشهد فيه الفدائيون على بطاح فلسطين؟"

"ثم كان عليك أن تخفف ذلك العام من نشاطك الحزبي لتتفرغ لامتحانات التخرج."

لكن هذا لم يحصل مباشرة، إنما استمر نشاطي الحزبي، على حاله تقريبًا، حتى بداية الفصل الثاني من السنة الدراسية. فقد كان الفصل الأول من هذه السنة الأخيرة مليئًا بالنشاط وبالحوادث الطريفة.

لأنه – والحق يقال – كانت السنتان الأخيرتان في كلِّية الهندسة هما الأجمل بالنسبة لي. فخلالهما تعرفت إلى طبيعة تلك المواد التي ستشكِّل من بعدُ أساس مهنتي، كالبيتون، والطرق، والري والصرف، والمنشآت المعدنية، وميكانيكا التربة، الخ. وكان مدرّسونا الرئيسيون في هذين العامين من خيرة الأساتذة، وكان معظمهم من الأجانب الذين جاؤوا عن طريق اليونسكو، كالروسي ليالين لمادة البيتون، والإيطالي أكانجياجوكو لمادة الطرق وتنظيم الورش، وذلك الأستاذ التشيكي (الذي لم أعد أذكر اسمه) للمنشآت المعدنية، وخاصة منهم "رفيقنا"، خريج بلجيكا، الذي أصبح أستاذنا للريِّ والصرف، المهندس القدير زهير فرح.

وكان جو الدراسة أصبح أروع وأكثر إنسانية. فصفُّنا أضحى مؤلفًا من حوالي 80 طالبًا، كان معظمهم من أصدقائي. كذلك اتخذتْ مقرًّا مؤقتًا لها في المبنى الرئيسي للكلِّية كلِّيتا الأدب الفرنسي والإنكليزي، حيث كان العنصر الأنثوي هو الغالب.

وتستعيد ذاكرتي، من شتات تلك الأيام الرائعة، صورةَ تلك الفتاة ذات العينين الخضراوين التي كانت (رغم قصر قامتها) الأجمل بين اللواتي رأيتهن حتى تاريخه. كانت طالبة في السنة الإعدادية هندسة. وتدعى ليلى .... أما نحن، فكنَّا ندعوها بـ"الروح". وكنت وصديقي العزيز توفيق نتعمَّد الجلوس مقابلها في مكتبة الكلِّية للدراسة، وكنَّا نرسل لها، عن طريق أحد الرفاق من صفِّها، قصائد شعر كنَّا نكتبها من أجلها. أنا كنت أكتب لها قصائد من تلك التي أحفظها بالفرنسية، وتوفيق كان يكتب لها قصائد من محفوظاته بالعربية.

"وأسأتم، بالتالي، عن غير قصد، لهذه الفتاة المسكينة...".

- التي أصبحت من بعدُ رفيقة، لأنها كانت تصورت، ربما، أن معظم الشباب الشيوعي لطفاء وظُرفاء مثلنا، قبل أن تكتشف، من خلال تجربتها الحياتية التعيسة، أن معظم هؤلاء كان من الهمج.

وأتذكر حفلات التعارف في كلّيتنا، التي كانت أصبحت أجمل حفلات الجامعة، وكيف أنشدنا، في آخر حفل أقمناه، على شرف أستاذنا الإيطالي أكانجياجوكو، وأمام ذهول الحضور من الأهل والمسؤولين الذين لم يكن ليعلموا ما القصة، نشيد الحزب الشيوعي الإيطالي:

Avanti Populo. A la riscossa. Bandera rossa

"وكيف خربتم، في تلك السنة، حفل كلّية الأدب الفرنسي...".

"لأن البلهاء من "آنسات وآنسي" الحفل من هذه الكلّية أخطأوا خطأً جسيمًا، ولم يدعوا شلّتنا إلى حفلهم الذي كان سيقام على مدرَّج كلّيتنا. فطبعنا باسمهم بطاقات دخول مزورة ودخلنا بها، وقطعنا عليهم الميكروفونات خلال الحفل، وأذعنا من خلالها بيانات "هندسية"، وسرقنا لهم ما كانوا اشتروه من عصير وكاتو، إلخ...".

وحين استدعتْني قيادة الاتحاد للتحقيق في المسؤولية عن الحادث، أجبتهم أني لا أعرف! فقط أتذكر وجه من كان من أبرز المشاركين في "أعمال الشغب"، زميلنا (ورفيقهم) من الكلّية، يحيى الخيّر. فضحك رئيس فرع الجامعة للاتحاد، الذي كان يومها عبد الرحمن فرزات، وكان يجلس إلى جانبه راتب رزوق من كلّيتنا، وقال لي:

- عليك اللعنة يا أكرم! أنت تتذكَّر يحيى فقط لأنه بعثي ومن جماعتنا.

فأجبته:

- ولأن كلَّ من شارك بالحدث هم أصدقائي وطلاب صفي، ولأني أعتقد أن عليكم، بالتالي، لفلفة الأمر، إن لم يكن معالجته بمنتهى الحكمة...

وهذا ما حصل...

- من كانت شلَّتك وأعزُّ أصدقائك في الصف وفي الكلّية يا بابا؟
- كان أعزُّهم إلى قلبي خالد، الفلسطيني والمنتسب، في حينه، إلى "فتح". وكان من بينهم، أيضًا، هيثم وعزّام ورضوان وفاروق وصبحي إلخ. وكانوا من أشطر طلاب صفّنا.
- وتتذكر أيضًا حادثة زوجة الوزير...
- أتذكر أنه جاءني يومها خالد إلى مكتبة الكلّية، حيث كنت أدرس، وقال لي وهو يضحك: "لا تزعل يا أكرم، لكننا أفرغنا لتوه من الهواء الدواليب الأربعة لسيارة زوجة وزيركم واصل فيصل...".

وسألته مبتسمًا عن السبب فأجابني:

- لأن بنت الـ ...... وطالبة الأدب الإنكليزي بهدلتْنا حين جلسنا على "طاولتها" في مكتبة كلِّيتنا...

فضحكت وقلت له:

- أنا زعلان فقط لأنكم لم تستدعوني لأشارك في فعلتكم النكراء هذه!
- نحن لم نكن نريد إحراجك تجاه جماعتك!

"وكان هذا الموضوع تحديدًا هو الذي استفسر منك حوله الرفيق يوسف فيصل في مؤتمر دمشق الذي سبق المؤتمر الثالث للحزب...".

خلال استراحة الغذاء استدعاني أبو خلدون ليتحدث معي، وسألني بمنتهى الجدية: "هل صحيح يا أكرم أن بعض طلاب كلِّيتكم تعدُّوا على سيارة زوجة رفيقنا الوزير لأنها شيوعية وزوجة وزير شيوعي؟!"

فاجأني سؤالُه، وذهلت لسخف الادعاء، لكني تمالكت نفسي وضحكت وأجبته:

- إن الذين قاموا بالحادث وأفرغوا الهواء من دواليب سيارتها يا أبا خلدون هم طلاب تقدميون ومن أصدقائنا.

ففاجأه جوابي وطلب إليَّ أن أشرح له ما حدث بالتفصيل. فأخبرته بحيثيات القصة بالسلوك المتعجرف لـ"رفيقتنا"، زوجة الوزير، مع هؤلاء الطلاب الذين لقَّنوها (من وجهة نظرهم) درسًا. فضحك وقال لي:

- أنت ترى، إذن، أنه يجب لفلفة القصة وعدم الحديث حولها مع البعث.

فقلت له:

- قطعًا. وأيضًا يجب تنبيه "رفيقتنا" إلى ضرورة تلطيف سلوكها في الجامعة. فمن حسن حظِّها وحظِّنا أن هؤلاء الذين اصطدمت معهم كانوا من أصدقائنا.

وكان في الأول من حزيران 1969 انعقادُ المؤتمر الثالث للحزب الشيوعي السوري وانتخاب قيادة جديدة له، كان من أبرز وجوهها رياض الترك.

"لم يكن ممكنًا بالنسبة لمن لم يحضر المؤتمر أن يتلمس عمق الخلافات التي اندلعت في قلبه. فقط كان ملفتًا للنظر أنهم لم يقروا أيَّ تقرير سياسي، وأن القيادة الجديدة كانت كُلِّفَتْ بإعداده. لكن...".

قبل المؤتمر الثالث للحزب الشيوعي تفجَّرت للعلن الخلافاتُ الحادة بين جناحي السلطة البعثية: جديد وزعيِّن والأتاسي وماخوس، ومعهم معظم التنظيم الحزبي المدني، من جهة؛ وحافظ الأسد ومصطفى طلاس، ومعهما معظم ضباط الجيش السوري، من جهة أخرى. وكان في 20 آذار 1969 انعقاد المؤتمر القطري الاستثنائي الرابع لحزب البعث:

"ذلك الذي تتبَّعنا أخباره من خلال الصحف اللبنانية...".

وكانت الخلافات البعثية التي أضحت علنية قد أثقلت بجوِّها على البلد. فلعدة أيام سبقت المؤتمر، كانت الشائعات تتحدث عن وشوك تفجُّر الخلاف، وأن انقلابًا عسكريًّا على وشك أن يقع. وقد بلغت هذه الأحداث ذروتها حين انتحر عبد الكريم الجندي، أحد القادة البعثيين الأبرز.

في مساء ذلك اليوم، كنَّا مجتمعين في منزلي، عطية وندرة وسمير وأنا، حين تلقَّينا هاتفًا غريبًا. كان من قيادة الاتحاد الوطني لطلبة سورية، وكان المتحدث هو رئيس فرع الجامعة، عضو اللجنة التنفيذية، عبد الرحمن فرزات، الذي طلب لقاءنا. قلت له أننا سنحضر إلى عندهم خلال عشر دقائق. فأجابني أنهم يفضلون لقاءنا في الشارع، قرب منزلي في حيِّ الصالحية. وكان هذا ما حصل، حين التقينا عطية وأنا بعبد الرحمن وعيسى حداد، وربما صالح رويلي (لم أعد أذكر تمامًا). وبادرنا عبد الرحمن قائلاً:

- أنتم على اطلاع حتمًا على ما يجري في البلد. العسكر على وشك الاستيلاء على السلطة، وقد يقع انقلاب عسكري في أية لحظة. لهذا أنا مكلَّف، بناءً على توجيهات قيادتي، أن أنسِّق معكم في العهد السرّيِ القادم.

ففاجأنا عرضُه. ولكن، لست أدري كيف جاءتني سرعة البديهة لحظتها، فأجبته:

- لا أريدك أن تسيء تأويل كلامي يا عبد، ولكن مَن تتحدث معهم الآن هم مجرد "مأمورين". سنوصل ما تقترحه إلى قيادتنا. ولكن، إن شئتم المزيد، فعلى القيادات أن تنسِّق في البدء فيما بينها.

وأيَّد عطية ما قلته، وسأله المزيد من التفاصيل حول حقيقة الأوضاع. فحدَّثونا، بالتفصيل، عن المواقف المختلفة والخلافات المتفجِّرة. كان الوقت مساءً، وكنَّا نسير متدرِّجين في حيِّ الصالحية، نتحدث وقد أصبحنا فجأة أصدقاء حميمين، يجمعنا العداءُ المفترض للعهد القادم. ثم افترقنا...

وانتهت أعمال المؤتمر الرابع الاستثنائي لحزب البعث، عبر تسوية حافظت على الأوضاع القائمة، وحقَّق خلالها العسكر بعض المواقع الإضافية.

أما في أيلول 1969 فكان نجاحي في امتحانات التخرج لكلِّية الهندسة.

الفصل الثامن

بدايات عملية متعثرة
(1971-1969)

آ

رَحْ نبني سد الفرات!

طائر الليل: هنالك نقطة بداية لأيِّ تحول حقيقي في حياة الإنسان... لحظات قد لا يشعر بها المرء حينئذٍ وتكون حاسمة.

كنت سارحًا في خيالي، شاردًا، وأنا في طريقي من دمشق إلى حلب فالطبقة؛ أفكر فيما جرى معي في تلك السنة التي سبقت تخرُّجي، وفيما كان يخالجني من مشاعر متناقضة – وخاصةً في تلك الرغبة، التي لم أستطع يومًا تحقيقها، في الاستقلال والانطلاق وحيدًا، قاطعًا رباطي بكلِّ ما كان يقيِّدني. كنت أمعن التأمل في ذلك الخاص الذي يخفيه المرء عادة، ويشدُّني إلى دمشق، حيث الأصدقاء عامةً، والأهل خاصةً.

وكنت ودَّعت الرفاق وسلَّمت ما كنت مسؤولاً عنه من تنظيم حزبي وشبابي؛ فحلَّ سمير (رحمه الله) مكاني لدى فرعية الحزب في الجامعة – تلك التي كانت توسعت بناءً على اقتراح من عطية (ومنِّي)، فأضحت تضم، إضافةً، كلاً من سمير وندرة وساسين ومحمد وآخر جديد (لم أعد أذكر اسمه)، فُرِضَ فرضًا لأنه كان قريبًا لدانيال نعمة. كما ودَّعتُ أيضًا مسؤولي الحزبي المباشر؛ وكان حينذاك يوسف نمر (أبو سعيد)، الذي تلمَّستُ من حديثه يومئذٍ وجودَ خلافات حادة في أعالي هرم القيادة الحزبية. ولكن هذا لم يكن يشغلني بقدر ما كانت تشغلني يومئذٍ شؤوننا العائلية.

كانت إكرام قد غادرتنا قبل شهر إلى فرنسا، حيث أمَّنت لنفسها عملاً مؤقتًا كـBabysitter لدى شقيقة صديقة جان فرانسوا (الشيوعية اليهودية) غابرييل – عملاً كان يُفترَض أن يساعدها على الانطلاق مجددًا في باريس ومعاودة دراساتها الجامعية التي انقطعتْ في دمشق خلال السنة الأخيرة التي مضت، وكانت بالنسبة لها في منتهى الصعوبة.

وخاصة لأنها اكتشفت أن الرفاق "القادة"، الذين استغلوها بعض الوقت، باتوا يتهربون منها، بسبب حدة طباعها، من جهة، ولِما يمكن أن تسبِّبه لهم من إشكاليات، من جهة أخرى. فتحوَّلتْ مسؤولية تنظيمها الحزبي إلى رفيقات سبق لها أن اصطدمت بهنَّ وحاولن إذلالها، فصارت تُعامَل كرفيقة أقل من عادية (بهدف "تطفيشها"). وإكرام، التي لم تكن يومًا إنسانًا عاديًّا، ولا من اللواتي يتحملن الضيم، رفضت طبعًا ما حاولوا فرضه عليها، ولكن على طريقتها التي كانت المزيد من الهروب إلى أمام. وحاولت، لبعض الوقت، العمل في صفوف "الطبقة العاملة"، فتطوَّعتْ، لاستعادة اعتبارها الحزبي، عاملةً في أحد مصانع النسيج.

"... تصور ذلك الذي تحملتُه من شقيقتك آنذاك. كانت تغادر المنزل، كلَّ يوم، من الصباح إلى المساء للعمل في ذلك المعمل. مرضت يومئذٍ بالتيفوئيد؛ وكانت إصابتها حادة بسبب ما كانت تتناوله هناك من طعام ملوث. كما لحق "البقُّ" ذات يوم بملابسها وكاد أن ينتشر في المنزل...".

- كانت ما تزال شديدة القناعة والحماس لقناعتها، يا ماما. كانت مثلي تمامًا، ولكن...

كانت النتيجة، بالنسبة لها، كارثية – على جميع الأصعدة. فالرفاق لم يعيروها أيَّ اهتمام، من جهة؛ وآخر هموم تلك "الطبقة العاملة" الافتراضية كان تلقُّف ابنة الأنطاكي، من جهة أخرى! فطفشت البنيَّة في النهاية، وقررت الابتعاد إلى فرنسا؛ وساعدتْها العائلة في ذلك. كان ذلك في أواسط صيف 1969؛ وكانت مشاكل أخي سمير، التي سبق وأوضحتُها، تزداد حدةً وتفاقمًا بسبب بلوغه. كما كانت شقيقتي الصغرى ريما قد بدأت تعيش مشاكل مراهقتها، التي كانت أيضًا صعبة وعنيفة.

وكان في أثناء تلك السنة إجراء عملية جراحية خطرة لوالدي الذي نُقِلَ ذات مساء إلى المستشفى الفرنسي وهو في حالة إسعاف، بعد أن انفجرت لديه القرحة التي كان يعاني منها في الإثني عشري. كما أُجرِيَتْ عملية أخرى لعمِّي جورج الذي وجدتُ نفسي وحدي القادر على الاعتناء به. وقد أثَّرتْ بي تلك الأحوال إلى حدٍّ كبير، لأني فهمت، من خلال ما كان يعانيه عمِّي في تلك الفترة، مأساة أن يبقى المرء وحيدًا بلا رفيق، وخاصةً حين تتداركُه الشيخوخة. كما اكتشفت فجأة، بين ليلة وضحاها، ومن خلال والدي، مدى ضعف الإنسان، من جهة، ومدى هشاشة وضعنا العائلي، من جهة أخرى؛ ما وضعني أمام مسؤوليتي تجاه نفسي وتجاه من أحبُّ أولاً وأخيرًا. فأبي وعمِّي جورج ليسا مخلَّدين؛ والعائلة باتت بحاجة ملحَّة إلى دخل إضافي. وأفكر أن هذا كان ما فرَّقني، منذ ذلك الحين، عن شقيقتي التي اختارت المغادرة، بينما لم أستطع من ناحيتي سوى البقاء. صحيح أنني كنت يومئذٍ مغادرًا للعمل في الطبقة؛ ولكن ارتباطي بالأهل وشعوري بالمسؤولية تجاههم كان قد ازداد تجذُّرًا. ولكن...

لم أكن أعي تمامًا عمق هذا الارتباط حينئذٍ. فالشعور الذي تملَّكني كان شعورًا بالوحدة القاتلة، وما يرافقها عادة من يأس. وأفكر أني ربما كنت في حاجة إلى من يقف إلى جانبي؛ أو لنقل، كنت في حاجة إلى من أحب ويحبني، خاصةً وأني لم أكن عشت سوى قصة حبٍّ واحدة – وكانت فاشلة جدًّا ومؤلمة جدًّا. وكل ما عرفته، حتى تلك اللحظة، كان مجرد مغامرات عابرة.

كنت متجهًا إذًا بالكرنك إلى حلب. وشركة الكرنك كانت حينئذٍ الشركة الوحيدة المحترمة للنقل الداخلي. وبين يدي كان آخر ديوان شعر لأراغون، أرسلتْه لي إكرام فور وصولها إلى فرنسا. كان يدعى القصيدة غير المنتهية Le Poème inachevé. والأبيات التي كنت أقرأ، ووجدتها تعبِّر عن حالتي النفسية وبعض ما كان يخالجني، كانت عبثيةً وحزينةً تقول:

في حيٍّ هوهنزوليرني	Dans le quartier Hohenzolerne
ما بين السَّار والثكنات	Entre la Sarre et les casernes
أزْهَرَ نهدا لولا	Fleurissaient les seins de Lola
التي كنتُ آتي لأتمدَّد قربها	Je venais m’allonger près d’elle
على أريكة الماخور	Sur le canapé du bordel
وسط حشرجات البيانولا	Dans les hoquets du pianola

كنت متجهًا إلى "سدِّ الفرات". وسبب اختياري هذا الموقع البعيد للعمل كان قناعةً سياسية، من جهة، وأفضلية شروط العمل، نسبيًّا ومقارنةً، من جهة أخرى. لأن قناعتي (الشيوعية) كانت حينئذٍ أن هذا المشروع الحيوي الذي اتُّفِقَ على بنائه مع "الاتحاد السوفييتي العظيم" سوف يغيِّر وجه سوريا، وأنِّي سأكون أحد الذين سيساهمون في ذلك من خلال عملهم.

ثم إن الرواتب كانت أعلى على ضفاف الفرات منها لدى دوائر الدولة في دمشق: فالمهندس المتخرِّج حديثًا كان يتقاضى لدى وزارة الإسكان والمرافق، مثلاً، حوالي 500 ليرة سورية (أي ما كان يعادل 150 دولارًا أمريكيًّا)، بينما كان الراتب الصافي للمهندس الجديد في الطبقة 800 ليرة سوريا (أي حوالى الـ250 دولارًا أمريكيًّا)، إضافة إلى تسهيلات السكن، وخاصة للمتزوجين الذين كان يُقدَّم لهم منزلٌ صغير بأجر زهيد. وكانت الـ500 ليرة سورية أجرًا كافيًا لإعالة عائلة صغيرة متوسطة الحال في دمشق. وكنتُ تواعدتُ على اللقاء في الطبقة مع بعض أفراد شلَّتي في الصف (خالد ورضوان وهيثم...) الذين اختاروا أيضًا العمل هناك. ولكن كان عليَّ التوقف بعض الوقت في حلب التي اتصل والدي فيها، قبل أن أغادر، بابن عمِّه وليم الذي أصرَّ يومئذٍ على استضافتي – العم وليم الذي لم أرَه منذ أيام الوحدة، حين جاء لزيارتنا مع زوجته الشابة التي كانت تدعى فيوليت هلال. وأحاول تذكُّر ذلك الإنسان ذا القامة الطويلة والابتسامة الطيبة والوجه الجميل – هذا الذي كانت إطلالته كـ"أباطرة الرومان"، على حدِّ وصف الكاهن الذي نعاه حين وفاته.

"... ولم يكن الكاهن مخطئًا في وصفه: فلوليم (رحمه الله)، من خلال والدته إستير، جذور إيطالية مباشرة...".

وأحاول لثوانٍ استرجاع صورة العمَّة إستير، فأتذكر بشكل ضبابي وجهها الجميل البشوش، وكيف كان جدِّي لطف الله يداعبها حين كانت تأتي مع ابنها إلى دمشق لزيارتنا:

- يا إستير، ماذا ستقولين لسائق العربة كي يوصلك إلى منزلنا؟

وتجيبه إستير:

- سأقول له: أوصلني إلى الـ"بخرا"، يا لوتفي...

فيضحك جدِّي من أعماقه ويقول لها:

- قولي له إلى البحرة... البحرة [أي إلى ساحة السبع بحرات في دمشق]، يا إستير، وليس إلى "البخرا"!

وتضحك إستير معه وتجيبه:

- نعم، نعم، يا لوتفي، سأقول له: أوصلني إلى "البخرا"...

وإستير اليوم لم تعد موجودة، كما لم يعد موجودًا جدِّي لطف الله ولا شقيقه كريم. فهذه سُنَّة الحياة التي قَضَتْ أن تنقطع علاقتُنا حينئذٍ بمن تبقى لنا من أقارب في حلب، كالمهندس جودت الذي قالوا إنه تزوج فتاةً من أسرة مارونية غنية، فأصبح مارونيًّا وغنيًّا ومتعجرفًا. فقط بقي لنا مَن نحبُّ من أقاربنا هناك، ذلك الذي ظلَّ فقيرًا وطيب القلب، وليم الذي وجدتُه، كما تخيَّلْتُه تمامًا، ينتظرني أمام محطة الكرنك التي كانت تقع خلف "شارع بارون". وأتذكر أنِّي ذهبت معه إلى المنزل حيث استقبلتْنا زوجتُه التي قدمتْ لنا طعام الغذاء. أما بعد الظهر فقد تعرفت إلى حماة وليم، أنطوانيت، وإلى ابنتها الصغرى ذات العينين الجميلتين والطالبة في الصف الحادي عشر، منى، التي سرعان ما تبرعتْ بتعريفي إلى مدينة حلب – تلك التي غادرتُها في صبيحة اليوم التالي إلى الطبقة، حيث بقيت يومًا واحدًا، وقَّعْتُ فيه على عقد عملي، وعُدْتُ بعده مباشرة إلى دمشق لاستكمال بعض الأوراق الثبوتية وأداء القسم كمهندس متدرِّب.

أدَّيت القسم في مقر النقابة الذي كان يقع في شارع العابد، في الطرف المقابل للبرلمان. وأتذكر أنه كان حاضرًا، وأشرف على أدائنا إياه، نقيب المهندسين شكيب العمري، ومعاونه، أمين سرِّ النقابة، المهندس هشام الساطي، ممَّن (كما أخبرني الرفاق) كانوا يمثلون، بالنسبة لنا، ذلك "اليمين العَفِن" المسيطر على نقابة المهندسين. وأتذكر كيف تصديتُ لهما، بلا مبرِّر، فور انتهاء طقوس القسم، معترضًا على عبارة وَرَدَتْ في نصه تؤكِّد على ضرورة الحفاظ على "سرِّ المهنة"!

"... لأنك كنتَ تعتقد، من منظورك المسطَّح والشعبوي لتلك الأيام، أن ما يدعونه "سرَّ المهنة" إنما هو مفهوم "بورجوازي" يهدف إلى حصر المعرفة في أوساط الطبقات العليا ومنع وصولها إلى الكادحين...".

- يومذاك لم أكن أدرك بعدُ أن لكلِّ مهنة، وخاصةً منها مهنة "البنَّاء"، قدسيَّتها، وأن هذا – تحديدًا – ما كان يعنيه القسم.

ثم غادرت دمشق من جديد عائدًا إلى الطبقة. لكني تعمَّدتُ، من تلقاء نفسي هذه المرة، التوقف في حلب، حيث تناولت طعام الغذاء عند قريبنا. فقد كنت أبغي اللقاء مجددًا بشقيقة زوجه – تلك الفتاة الجميلة ذات العينين الساحرتين، منى، التي قضيت في رفقتها، في أثناء بعد الظهر ذلك اليوم، ساعات ممتعة، عرَّفتْني في أثنائها على بعض معالم مدينتها، وعدنا بعدها معًا إلى منزل قريبي وشقيقتها.

وكانت المفاجأة المؤلمة، وغير المتوقعة، أن نجد، لدى عودتنا، العمَّ وليم ملقى على الأرض في أسفل درج بناء منزله، وحوله الجيران وزوجته يصيحون ويبكون. لقد فارق الحياة لتوِّه نتيجة جلطة قلبية مفاجئة

وصاعقة. كانت ساعات حزينة جدًّا، سارعت خلالها إلى الاتصال مباشرة بالأهل لإخبارهم النبأ المحزن: أن قريبنا توفي، تاركًا وراءه، بلا معيل، زوجةً شابة وطفلتين.

وأتذكر أني قضيت تلك الليلة الحزينة وحيدًا في الفندق، وأني انتظرت حتى ظهر اليوم التالي لاستقبال عمِّي جورج، الذي سارع إلى الحضور بمفرده، لأن والدي كان مريضًا ولم يستطع الحضور معه، وأننا توجَّهنا معًا إلى منزل المرحوم، حيث شاركنا في الجنازة. ثم حين حلَّ المساء، ودَّعتُ صديقتي الجديدة (التي وعدتُها بمعاودة الزيارة والمراسلة)، كما ودَّعتُ عمِّي جورج قبل أن أتوجَّه في صبيحة اليوم التالي إلى مقرِّ عملي.

وهناك كان خالد قد أمَّن لشلتنا منزلاً صغيرًا من ثلاث غرف.

"... لم نكن نرغب أن نفترق كشلَّة، ولا أن نشارك سكننا مع أشخاص لا نعرفهم...".

وأصبح المهندس (الحمصي) أكرم غراب، الذي كان منزل عائلته مجاورًا لمنزل جدِّي في حمص، وكان أهله من معارف أهلي، شريكًا لي في الغرفة؛ بينما تقاسم خالد الغرفة الثانية مع رضوان؛ وبقيت الغرفة الثالثة لهيثم ولراجح. أما فرزي في العمل فكان إلى "الدائرة الفنية" التي كان على رأسها من الجانب السوري آنذاك المهندس (البعثي والعلوي) معين عمران.

قلت من الجانب السوري، نعم؛ فالمسؤولية الفنية الحقيقية هناك كان 99% منها مسؤولية ذلك (الآخر) السوفييتي؛ وجل ما كان يطلب من المحلِّي هو... التعلُّم (إن رغب) والمساعدة في التنفيذ (قدر المستطاع).

"... وكان قرار إنشاء هذا السد الضخم في موقعه المقرَّر، وبحجمه المقرَّر، سياسيًّا بالدرجة الأولى؛ قرار فرضتْه الحكومةُ (اليسارية) في سوريا آنذاك على السوفييت الذين كان لهم، على ما يبدو، رأيٌ آخر حول الموضوع، لأنه..."

يقال أنه كانت هناك دراسات فنِّية واقتصادية أولية سابقة لسدِّ الفرات ولموقعه. وكان أهم تلك الدراسات تلك التي قامت بها الشركة الهندسية الاستشارية البريطانية "ألكسندر جيب"، التي اقترحت إقامة عدة سدود للري وتوليد الطاقة وسدود تنظيمية صغيرة ومتوسطة على مجرى النهر، أهمها: سد في موقع يوسف باشا، عوضًا عن الموقع الحالي. وكان الروس من أنصار الرأي "الإنكليزي" الذي عادت الحكومة السورية لتتبنَّاه مجددًا اليوم، أي بعد حوالي ثلاثين سنة من تاريخه!

وكان بناء مدينة الطبقة، التي وصلتُها في تشرين الأول 1969، قد استُكمِل تقريبًا؛ كما كانت أعمال إنشاء السدِّ قد بوشرت. كانت المدينة عبارة عن معسكر ضخم للفنيين، الروس والسوريين، العاملين في المشروع: أبنية متكررة ومتشابهة (وقميئة) من أربعة طوابق، إلى جانب بعض "الفِلَل" الأرقى للمدراء. وكان هناك أيضًا، سوق مركزي ومطعم مركزي ونادٍ مركزي للعاملين في المشروع وللنشاطات الفنية والسياسية، ومبنى للإدارة العامة، كان يضم أيضًا تلك الإدارة الفنية حيث كنت أعمل. أما العمال من

أبناء المنطقة ومن مختلف أنحاء البلد فكان المحظوظون منهم يسكن في أبنية أكثر تواضعًا، بينما كان يسكن الباقون، في ذلك التوسع، "الحزام" العشوائي البائس الذي أضحى يحيط بهذه المدينة، كما أحاط بمعظم مدننا السورية.

وكان المدير العام للمشروع هو النقيب (السابق) للمهندسين، الشخصية الفنية والإدارية المحترمة، السيد صبحي كحَّالة، الذي كان أبرز نُوَّابه للشؤون الفنية المهندس زهير فرح؛ بينما كان نائبه (البعثي والأمني) للشؤون الإدارية هو الحقوقي فايز بكفلاوي.

"... قبل كحَّالة، كان المدير العام للسدِّ هو (رفيقنا)، ضابط الجيش المسرَّح أيام عبد الناصر، المهندس إبراهيم فرهود. كما كان المدير العام للشركة العامة للإسكان التي بَنَتْ المدينة السكنية ومَرافقها هو (رفيقنا الآخر) المهندس نبيل الخاني. ثم أُبْعِدَ الاثنان...

"... لأن البعث الحاكم، الذي لم يكن غافلاً عن أهمية المشروع، تنبَّه بسرعة لخطورة أن يهيمن الشيوعيون على هذا المركز العمَّالي الضخم. فأُبْعِدَ إبراهيم فرهود بعد صدامه كما يقال مع رئيس الوزراء في حينه أو ربما مع نائبه (البعثي) الذي كان يومئذٍ الأستاذ محمود الأيوبي؛ كما أُبْعِدَ نبيل الخاني بسبب ما ادُّعِيَ حول سوء إدارته وسكره الدائم."

وانتقل تنظيمي الحزبي من دمشق إلى الطبقة. وكانت تلك الحقبة بالنسبة لي، رغم قصرها، غنيةً ومثيرة. كان تنظيم الحزب الشيوعي في موقع سدِّ الفرات قويًّا جدًّا، مقارنةً بتنظيم الحزب أو أي حزب آخر في أي موقع آخر في سوريا، لا يفوقه، ربما، إلا تنظيم الإخوان المسلمين الذين كانوا يعملون في الخفاء. وكان على رأس هذا التنظيم مجموعة متميِّزة من الرفاق المهندسين الذين سرعان ما أضحوا يترأسون بعض قطاعات العمل الرئيسية، كالمهندس الكهربائي رأفت الكردي (خريج تشيكوسلوفاكيا) من دمشق، الذي كان يترأس مديرية الطاقة؛ والمهندس المدني رضوان مارتيني (أيضًا خريج تشيكوسلوفاكيا) من إدلب، الذي كان مديرًا للمنشآت المعدنية؛ والمهندس الطبوغرافي صريح البنِّي (أيضًا خريج تشيكوسلوفاكيا) من حمص، الذي كان يترأس قسم المساحة؛ والمهندس المدني مروان قولي (خريج حلب) من دمشق، وكان نائبًا لمدير الإدارة الفنية؛ والمهندس جورج مدني (خريج الجامعة الأمريكية في اسطنبول)، وكان لوائي الأصول من حلب، ويترأس المخبر؛ وكثيرون غيرهم. وكان المسؤول عن المنظمة من قِبَل قيادة الحزب هو عضو المكتب السياسي من حلب، عمر قشاش.

وأصبحت عضوًا في إحدى اللجان الحزبية ومسؤولاً عن فرقتين: كانت الفرقة الأولى التي استلمتُها من المهندسين الجُدُد؛ أما الثانية فكانت عمَّالية. وأصبحتْ تربطني ببعض هؤلاء الرفاق، وخاصةً منهم جورج ومروان وصريح ورأفت، علاقات متميِّزة. ولكن كان وسطي الرئيسي هناك هو شلَّتي التي توسَّعتْ، فأضحت تضم عددًا آخر ممَّن كان يعمل معنا من المهندسين التقدميين.

كانت مهمة الإدارة الفنية، حيث كنت أعمل، هو حلُّ المشاكل التنفيذية ووضع المخططات التفصيلية للتنفيذ. وقد شاركت يومئذٍ، تحت إشراف خبير روسي لطيف يدعى إيغور، بقسطي المتواضع من هذا العمل.

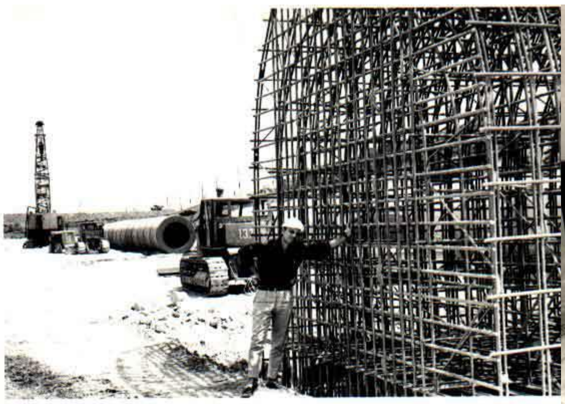

كنَّا نعمل من السابعة صباحًا إلى الثالثة بعد الظهر؛ ثم نلتقي في المطعم المركزي لتناول طعام الغذاء؛ ثم نعود إلى منازلنا للاستراحة. وبعد قيلولة قصيرة، كنَّا نشرب القهوة على شرفة شقتنا...

"... ونتأمل، يوميًّا تقريبًا، في تمام الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر، الروسية الفاتنة لاريسًا وهي في طريقها إلى السوق لتتبضَّع...".

"... إلهي كم كانت جميلةً ومغريةً، وهي تسير ببطء، متبخترةً بكلِّ أُبَّهة، من دون أن تنظر إلى أحد. كانت متيقنة من أنوثتها، وتعلم أن الجميع كان يتابعها بنظراته المعجبة...".

"... وكنَّا نقضي بعد الظهر في القراءة أو في الزيارات...".

"... فقط أنت، يا أكرم، كنت تختلق الأعذار أحيانًا، لتغادرنا إلى أحد اجتماعاتك...".

وكذلك كنَّا نقضي السهرات، ونحن نتناقش حول الأوضاع السياسية في المنطقة وفي البلد، حيث...

كان الصراع البعثي–البعثي على السلطة يتفاقم في سوريا. وفي المنطقة، كان الضجيج يتصاعد حول الوجود الفلسطيني المسلَّح؛ ذلك الذي كانت الدول العربية الأقوى تدعم نشاطه لدى جيرانها العربية الأضعف، بهدف خلخلة استقرارها الداخلي...

ووقعتْ، خلال شهري تشرين الأول وتشرين الثاني 1969، صداماتٌ دامية في لبنان بين الجيش والفدائيين، أدت إلى ما سمِّيَ بـ"اتفاق القاهرة"...

وكان تصعيدٌ على الجبهة المصرية، وغارات للطيران الإسرائيلي على مواقع الجيش المصري حول القاهرة...

أما في مطلع العام فجَرَتْ صداماتٌ عنيفة في عمَّان، بين الجيش الأردني وبين الفدائيين، الذين تحوَّلوا إلى شبه سلطة موازية. وقد أسفرت تلك الصدامات عن اتفاق 22 شباط 1970 الذي كان محاولة أخيرة (ربما) لوضع ضوابط للنشاط "الفدائي" الفلسطيني انطلاقًا من الأردن...

وكان في الـ3 من آذار بيان مشترك للأحزاب الشيوعية في سوريا ولبنان والأردن والعراق يعلن عن تشكيل منظمة فدائية جديدة تدعى "قوات الأنصار"...

"... لم تنجح المحاولة الهادفة إلى خلق منظمة فدائية شيوعية لأنها كانت مفتعلة...".

"هذا من جهة – ولأن الساحة حينئذٍ كانت أُشبِعَتْ بالمنظمات الفدائية، من جهة أخرى...".

"... لقد جاءت هذه المنظمة تلبيةً لضغط العناصر "القومية–الماركسية"، داخل الأحزاب الشيوعية العربية وخارجها. فالمشاركة المحدودة جدًّا للأحزاب الشيوعية في العمل الفدائي [من أجل إزالة آثار العدوان و(ربما) تحرير فلسطين] كانت تتم من خلال بعض المنظمات الفدائية "اليسارية" القائمة، كالجبهة الشعبية للسيد جورج حبش، والجبهة الشعبية الديموقراطية للسيد نايف حواتمة. وهذا كان ينعكس دعايةً لهؤلاء على حساب الأحزاب الشيوعية في البلدان العربية...".

وكان بعض أصدقائي من الرفاق الجامعيين قد تطوَّع في العمل الفدائي. وأخص منهم ندرة وعطيَّة، الذي التقيت به ذات يوم في دمشق بعد أن ترك العمل الفدائي، حيث لم يبقَ سوى شهرين. وكان رأيُه الذي وجدته مقنعًا:

"... إن 90 % مما ينشره الإعلامُ العربي حول هذا العمل وحول العمليات الفدائية مجرد دعاية ولا صحَّة له. لقد أصبحت قناعتي، يا أكرم، أنه ما لم يجرِ شيء من الداخل فلا جدوى من كلِّ هذا العمل الذي ضررُه أكثر من نفعه...".

فقد كنت أتابع عن بعد، ومن موقع عملي في الطبقة، نشاط رفاقي ومنظمتي السابقة في الجامعة، وفي كلِّية الهندسة تحديدًا، حيث حصل هذا العام، خلال الحفل السنوي للكلِّية، تفجير إرهابي صغير أسفر عن عدد من الجرحى...

ومن الملفت للنظر أنه، لم يُذَعْ شيء حول هذا التفجير، الذي قيل إنه كان من صنع بعض "الإسلاميين المتطرفين" في حينه، وأدى في النتيجة إلى تزايد التواجد الأمني في الجامعة، من جهة، وإلى مزيد من التقليص لما تبقى فيها من فتات ديموقراطية، من جهة أخرى.

وأخيرًا، كان الأهم بالنسبة لي حينئذٍ أني كنتُ أعيش علاقة جديدة مع منى، التي أصبحتُ أراسلها مراسلةً منتظمة، وأراها أيضًا بانتظام بعد ظهر كلِّ خميس وصباح جمعة، حين أذهب إلى حلب خصِّيصًا لهذا الغرض، فنقضي الوقت معًا، أو برفقة صديقنا ورفيقنا (الكردي) من الجامعة، أستاذ اللغة العربية ذي الروح المرحة، جمعة عبد القادر، وزوجته اللطيفة غاده. ففي حينه كانت منى قد تعرَّفت على معظم أصدقائي ورفاقي؛ كما عرَّفتْني هي على بعض صديقاتها، وخاصةً منهن ماري روز كاتشو، الماردينية الأصل، ذات الشخصية المتميِّزة، والجميلة جدًّا.

"... لكنك لم تكن الوحيد الذي يعيش علاقة آنذاك. فشريكك في الغرفة، أكرم [الآخر]، كان يتابع قصة حبه الجامعية [التي لم تكتمل] مع برناديت؛ وكان خالد يعيش أيضًا قصة حبٍ جميلة مع زميلته المسيحية من حلب ماريا [التي تزوجها فيما بعد]؛ وكذلك كان هيثم قد تقدَّم لخطبة زميلتنا هيام، شقيقة رفيقنا مروان قولي، التي كانت تعمل معنا في المشروع؛ وكان جورج بدأ يغازل ليزا؛ كما كان رضوان يغازل لمعة...".

"... والجميع كان يعتقد أن قصته هي الأطرف...".

- وربما أنا أيضًا، حيث سرعان ما تقدَّمتُ لخطبة منى، بعد أن أخبرتُ أهلي الذين رحَّبوا بالأمر هذه المرة.

"... لأن الفتاة بنت عائلة محترمة، ومن معارفنا...".

وأتذكر أن خطبتنا كانت خارجة على المألوف بعض الشيء. فقد اشترينا الخاتمين بمفردنا، وخطبنا بمفردنا، ثم أخبرنا الأهل بما فعلنا...

وفي ذلك اليوم المشمس، في تلك الزيارة الجميلة، جاءت برفقة والدتها وشقيقها وديع وشقيقتها (الأرملة) فيوليت؛ كما جاءت معهم أيضًا شقيقتها هيلدا وزوج هذه الأخيرة مدحت قنواتي. وأتذكر الحفاوة التي استقبلهم بها الشباب في منزلنا، وكيف هيأ لهم رضوان المقلوبة (مطبوخة "على حبتها")، وقدَّم ما كان مخزونًا لديه من نبيذ "محرداوي". وأتذكر أني أخذت إجازة في ذلك اليوم للبقاء مع خطيبتي وأهلها، وأن كلَّ الشباب في المنزل تركوا أعمالهم للاحتفال معي بهذه المناسبة.

"... وتتذكر خاصةً كيف قامت هيلدا [شقيقة منى]، بتهيئة النرجيلة لزوجها...".

وكيف كان هذا الأخير (رحمه الله) متربِّعًا كالسلطان التركي يدخن نرجيلته. يومئذٍ، همس أحد الشباب في أذني قائلاً وهو يضحك: "هيك "الرجال" يا أكرم، وليس كأمثالنا!" ولكن حين ذهبت يوم الجمعة التالي برفقة منى لزيارة شقيقتها، وقرعت الباب ففتح زوج شقيقتها مدحت الباب وهو شبه متعرٍ، في يده المكنسة ويشطف المنزل، انفجرت ضاحكًا، لأني لم أتمالك نفسي أمام مشهد رؤيته بهذه الحال. فقلت له: "أهكذا إذن يا مدحت؟! أهذا هو ثمن النرجيلة؟!" وأضحت هذه الحادثة، من بعدُ، موضوع تندُّر فيما بيننا.

لقد كان كلُّ شيء يبدو وكأنه مثالي. وكنت بدأت أهيئ نفسي للزواج من خلال السعي لتأمين منزل في الطبقة. ولكن الأمور كانت تتفاعل في البلد؛ وكان لبعض هذه التفاعلات انعكاساتها السلبية وغير المتوقعة...

فبسبب هذه التفاعلات، وخاصةً منها الصراع المستعر في قلب حزب البعث الحاكم بين أنصار صلاح جديد وأنصار حافظ الأسد، وبسبب الحماس العلني المبالَغ به لقسم من الشيوعين وعامة الحزب لأحد الأطراف (وتحديدًا لطرف جماعة صلاح جديد)، كانت اعتقالات محدودة لبعض الرفاق في بعض المحافظات. وقد تعرَّض بعض هؤلاء للتعذيب خلال التحقيق معهم، كعبد الجليل بحبوح (أبو فياض) عضو منطقية دمشق، الموظف في وكالة سانا للأنباء، وزوج زينب نبوة (أم فياض طبعًا)، وخاصةً الرفيق مصطفى الزعبي، الذي توفي نتيجة للتعذيب...

وكان أيضًا، وخاصةً، ذلك التفجُّر المتجدِّد لخلاف قديم مستعر في قلب الطائفة الأرثوذكسية بين من سُمُّوا يومئذٍ بالمطارنة "التقدميين" ومن نُعِتوا بالمطارنة "الرجعيين"...

ولم يؤدِّ اغتيال (الرفيق) مصطفى الزعبي إلى تفجير للوضع بين البعث وحلفائه الشيوعيين، الذين سرعان ما سارعوا إلى لفلفة الموضوع وضبط عناصرهم. وكذلك كان الأمر بالنسبة للصراع الأرثوذكسي–الأرثوذكسي...

"... الذي كان له، بالنسبة لك، بعض الذيول السلبية وغير المتوقَّعة...".

فحين بلغ الصراع ذروته بين البطريرك الياس الرابع (معوض) ومؤيِّديه في السينودس، الذين كان يدعمهم بعض البعث (من جماعة حافظ الأسد ومصطفى طلاس)، وبين المطارنة "التقدميين" الستة، الذين كانت تؤيِّدهم آنذاك المجالس الملِّية للطائفة في كلٍّ من دمشق وحمص واللاذقية، ويؤيِّدهم، على مستوى الشارع، الشيوعيون والبعث الآخر (جماعة صلاح جديد)، انفجرت الأوضاع بين الأرثوذكس في حمص حين "عُيِّن" ألكسي عبد الكريم مطرانًا على المدينة، بينما رشَّح المجلس الملِّي للطائفة المطران فضُّول لهذا المنصب، فصعَّد المجلس الذي كان يسيطر عليه الشيوعيون (من عائلتي أبو خاطر وعطيَّة وغيرهما) الموقف، واستنفروا الرفاق، الذين احتلوا مبنى المطرانية كي يمنعوا المطران "المعيَّن" من استلام مهامه. وتدخلتْ قوى الأمن التي قمعتْ بعنف حوادث الشغب هذه. وكانت من النتائج المؤسفة لتلك الأحداث وفاة المأسوف على شبابه رفيقنا الطالب، ابن الثمانية عشر ربيعًا، نمير شاليش الذي أصيب يومئذٍ برصاصة طائشة.

وكنت أعرف نميرًا (رحمه الله) بحكم كونه الشقيق الأصغر لصديقي سمير. لذلك، توليتُ مهمة التوقيع، بين صفوف المهندسين، على عريضة تستنكر الحادث، وتحمِّل مسؤوليتَه للسلطات وقوى الأمن، وتتضامن مع العائلة المنكوبة. وأرسلت نصَّ هذه العريضة، التي وقَّعها معظم المهندسين (في الطبقة)، برقيةً مهتوفةً وموقعةً من قبلي، إلى عائلة الفقيد.

"... ولم تلبث ردة الفعل على هذه العريضة–البرقية أن انعكست قرارًا أمنيًّا يقضي بتسريحك من العمل في سدِّ الفرات...".

وفي دمشق العربية، التي كانت على موعد مع "الذكرى المئوية لميلاد لينين"، كان الرفيق رياض الترك، عضو المكتب السياسي (الذي أضحى من أهمِّ الشخصيات في الحزب)، يلقي، إلى جانب بكداش، كلمة يؤكِّد فيها على الدور الكبير للحركة الفدائية بالنسبة لحركة التحرر الوطني العربية.

وفي الأردن، كان تصاعدٌ جديدٌ في المناوشات بين الجيش والفدائيين.

وكان قبول الرئيس عبد الناصر في تموز 1970 لمشروع وزير الخارجية الأمريكي روجرز، القاضي بمبدأ التسوية بين البلدان العربية وإسرائيل على أساس قرار مجلس الأمن 242، يلقى التأييد من الأردن وإسرائيل، والرفض العنيف من سوريا والمنظمات الفدائية. وكانت مظاهرات فلسطينية في الأردن وسوريا وغيرها ضد عبد الناصر، أدَّتْ إلى إغلاق مصر حينئذٍ للإذاعات الفلسطينية على أراضيها، وإلى قبول مصر، في مطلع آب، بوقف لإطلاق النار على جبهتها لمدة ثلاث أشهر.

وفشلت محاولات الرفاق، عن طريق المدير العام للسدِّ، السيد صبحي كحَّالة، لإلغاء القرار الأمني بتسريحي من العمل في سدِّ الفرات – ذلك المكان الذي أحببتُه وغادرته مكرهًا في أواسط آب 1970.

وكان موعد زواجي قد تقرَّر يوم الـ27 من آب 1970. وكانت بطاقات الدعوة للعرس قد طُبِعَتْ ووُزِّعَتْ.

فكَّرت للحظات أن أؤجِّل موعد الزفاف، لأني كنت أصبحت عاطلاً عن العمل. فحدَّثتُ منى والأهل بذلك، ولكنهم اعترضوا بشدَّة.

"وفي السابع والعشرين من شهر آب 1970 تمَّ (بالرفاه والبنين) في منزل السيد جوزيف هلال (1601)، وعلى يد الخوري قسطنطين أنطاكي، زفاف ابننا أكرم على ابنتنا منى...".

ب

أمانة العاصمة

طائر الليل: وتغني القصيدة، لكن بصوت منخفض:

من أعاد، يا ترى، الألوان الضائعة	Qui donc a rendu, leurs couleurs perdues,
للأيام وللأسابيع؟	Aux jours, aux semaines ?
وأعاد حقيقتَه للصيف الواسع	Sa réalité, à l’immense été
للأشياء الإنسانية؟	Des choses humaines ?
لويس أراغون	Louis Aragon

وأستعيد اليوم، من خلال ما تبقى من صور فوتوغرافية، ذكريات حفل زفافي، فأتذكر أنه كان جميلاً ومتواضعًا. كان الحضور محصورًا جدًّا، حيث شارك، من طرفي، كلٌّ من أبي وأمِّي وإكرام، التي جاءت خصِّيصًا من فرنسا لحضور المناسبة، وكذلك ريما وسمير وعمِّي جورج. كما شارك، من طرف منى، والدها ووالدتها، وشقيقها إدمون وزوجته وأطفاله، وشقيقها وديع، وشقيقتها فيوليت وطفلتاها، وشقيقتاها لوريس وهيلدا وزوجاهما وأطفالهما – أي الأقرباء المباشرين. كما حضر أصدقائي المقرَّبين من الطبقة، وبعض صديقات منى.

"... وقضيتم ليلة زفافكما الأولى لدى جمعة الذي أعاركما منزله..."

"... والذي أيقظكما، في الساعة الثانية بعد منتصف الليل، ليدعوكما إلى التنزه في شوارع حلب النائمة... "

"... ثم غادرتما حلب إلى دمشق في مساء اليوم التالي...".

وكان الأهل قد خصَّصوا لنا هناك غرفة نوم، أصبحت حينئذٍ غرفتنا الأولى، التي وضعنا فيها ما قُدِّم لنا من هدايا الأهل والأقارب والأصدقاء.

لأنه لم يكن بوسعي، بسبب ظروفي الجديدة، التنطُّح لاستئجار منزل خاص. فقد بات أول ما يجب عليَّ فعله هو إيجاد عملٍ لي، وربما لزوجتي، التي كان عليها أيضًا التقدُّم بشهادتها الثانوية خلال العام

الدراسي القادم. لذلك، وبسبب ضيق الحال المادية، اقتصرت إجازتُنا الزوجية على "أسبوع عسل" قضيناه في بيروت...

"... التي كانت تتابع، أكثر من غيرها من العواصم العربية، ما كان يجري في المنطقة، وخاصةً أنباء عمَّان المفجعة...".

ففي 30 و31 آب 1970 وقعتْ صِدامات دامية بين المنظمات الفلسطينية والسلطات الأردنية؛ تلاها وقف قصير لإطلاق النار. ثم كانت، في الأول من أيلول، محاولة فاشلة لاغتيال العاهل الأردني حسين وتجدُّد للاشتباكات...

وكانت محاولات فاشلة لوقف الاقتتال عن طريق الجامعة العربية، التي اجتمعت ما بين الخامس والسادس من أيلول 1970؛ ثم وقف جديد لإطلاق النار...

ثم كان قيام "الجبهة الشعبية" لجورج حبش، كتعبير عن الاحتجاج على مشروع روجرز الذي وافق عليه جمال عبد الناصر، بخطف خمس طائرات مدنية تابعة للخطوط الجوية السويسرية والبريطانية والألمانية الغربية، واحتجاز ركابها الـ600، بعد تحويلها إلى مطار الزرقاء في الأردن؛ تلاه إطلاق سراح الرهائن نتيجة للتدخلات العربية والضغوط الأمريكية...

ثم نُسِفَتْ الطائرات المخطوفة على أرض المطار. وفي ليلة 14-15 أيلول 1970 كان بدء الهجوم النهائي للقوات الأردنية على مواقع الفدائيين. وكانت أيضًا محاولات عربية لم تنجح لوقف القتال...

وكانت، خاصةً، محاولة تدخُّل مدرَّع سوري في الرمثا لصالح الفدائيين، أفْشَلَها الجيش الأردني بمساعدة لوجستية إسرائيلية...

وكانت إحدى النتائج غير المباشرة لهذا التدخُّل ضربة قاصمة لآخر مواقع جماعة صلاح جديد في الجيش السوري. فركيزتهم الأولى كانت ذلك اللواء "السبعين" المتمركز في قطنا، جنوب دمشق، وقائده عزَّت جديد...

"... كان هذا، باختصار، ما أسموه بـ"أيلول الأسود"، الذي أنهى الوجود الفلسطيني المسلَّح في الأردن، وحوَّله إلى لبنان...".

"... والذي كلَّف العرب من الضحايا، على أيدي العرب، أكثر مما كلَّفتْهم كلُّ الحروب العربية-الإسرائيلية حتى تاريخه...".

وانتهت معارك الأردن في 27 أيلول 1970 نتيجة قمة عربية محدودة، رعاها عبد الناصر في القاهرة، وحضرها الملك حسين وياسر عرفات...

أما في 28 أيلول 1970 فكانت وفاة (المغفور له) الرئيس جمال عبد الناصر...

وكنتيجة مباشرة للمأساة الأردنية، تفاقم الصراع على السلطة في سوريا. وكان الـ16 من تشرين الثاني 1970 و"الحركة التصحيحية"...

في ذلك اليوم، غادرتُ المنزل باكرًا برفقة سمير الذي جاء يصطحبني. تجوَّلنا في شوارع دمشق الرئيسية ونحن في طريقنا إلى منزله. لم يكن هناك منع للتجول، ولا مدرعات في الشوارع. ما شهدناه أمام البنك المركزي وقرب أمانة العاصمة كان فقط بعض المظاهرات المعارِضة الهزيلة التي فرَّقتْها "سرايا الدفاع" بسهولة.

"... انتشر "سرايا الدفاع" يومئذٍ في دمشق، وهم يلبسون الثياب المدنية ويحملون العصي الغليظة. وكانوا يهاجمون المتظاهرين وهم يلوِّحون بعصيهم صائحين: "جيش وشعب وشعب وجيش!" فتفرَّقتْ أمامهم المظاهرات المعادية للانقلاب، التي كان معظمها طلابيًّا...".

"... ثم ذهبنا بعدئذٍ إلى بيت سمير لحضور اجتماع اللجنة الفرعية للجامعة الذي دُعيتُ إليه، وحَضَرَه عضو اللجنة المنطقية الرفيق عبد الوهاب رشواني الذي كان يومئذٍ مسؤولاً عن الفرعية...".

"وهناك، أخبرنا [الرفيق أبو سعيد] قرار قيادة الحزب بالتعاون مع الأوضاع "البعثية" الجديدة...".

وكان البيان الصادر عن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري، القاضي بتأييد "الحركة التصحيحية" والاشتراك في حكومة الفريق حافظ الأسد بحجة إعلانها، بين أمور أخرى، الموافقة على إقامة "جبهة وطنية تقدمية"، ملفتًا للنظر، لأنه، من خلال إعلانه موافقة اللجنة المركزية على هذا القرار بالأكثرية، إنما كان يلفت انتباه من يهمهم الأمر إلى وجود أقلية تعارض هذه المشاركة. وكان هذا جديدًا فعلاً.

وكانت هذه المشاركة، بشخصَيْ السيدين الوزيرين "... الرفيق يوسف فيصل، عضو المكتب السياسي وأمين الحزب، والرفيق عمر السباعي، عضو اللجنة المركزية ورئيس لجنة المراقبة..."، دلالة أن وضع الحزب الشيوعي في السلطة السورية قد تطوَّر نوعيًّا... وأضحت قضايا الخلاف في الحزب الشيوعي علنية...

"... لكن هذا لم يكن مهمًّا إلا بالنسبة للشيوعيين من جماعتك. فالأهم كان أن حافظ الأسد عرف كيف يحجِّم يسارييه وقومييه ضمن إطار سلطته التي بدا واضحًا، منذ اليوم الأول، أنها كانت سلطة حقيقية وليست سلطة صورية...".

- ماذا تقصد حين تقول إن هذا كان "واضحًا منذ اليوم الأول"؟

"تأمَّل معي في مغزى أن يتساوى في تلك الوزارة الأولى كلٌّ من رفاقكم "الكبار" فيصل والسباعي مع هؤلاء الآخرين أولئك الذين كان أبرز مَن عُيِّنَ منهم يومئذٍ وزيرًا للدفاع...".

"فعلاً، كان أطرف وزير ضمَّتْه الحكومة الأولى للعهد الجديد، التي ترأَّسها الفريق حافظ الأسد شخصيًّا، هو وزير الدفاع، زميلنا متعب شنان، رئيس الاتحاد الوطني لطلبة سوريا..."

"... ومتعب، الذي لم يكن أدَّى بعد خدمته الإلزامية، والذي لم يكن يفقه شيئًا في شؤون الدفاع، كان مجرد شخصية صورية..."

"... كذلك كان أيضًا ذلك الذي عيَّنوه رئيسًا مؤقتًا للدولة، الأستاذ أحمد الخطيب، الذي يقال إن جلَّ طموحه كان أن يصبح مديرًا لمدرسة اللاييك، ما قد يتيح له الاحتكاك بالأوساط الدمشقية الراقية...".

"... وكانت تلك المظاهر، التي لم يتوقف عندها أحدٌ حينئذٍ، دلالةً على مدى انهيار المجتمع المدني في سوريا – ذلك المجتمع الذي ما فتئ يتدهور منذ الانقلاب الأول، وبشكل متسارع جدًّا، منذ الوحدة والثامن من آذار..."

"... ثم، ألم تلاحظ أن أحدًا تقريبًا لم يدافع يومئذٍ عن عهد صلاح جديد وجماعته الذين كانوا قطعًا مخلصين لقناعاتهم العقائدية؟!"

"... لأن الناس في البلد، وخاصةً منهم تجَّار المدن، كانوا سئموا من تطرُّفهم ويساريَّتهم المفرطة...".

"... من هذه الناحية، كان هناك تقبُّل عام للعهد الجديد [برئاسة حافظ الأسد]، الذي بدا أكثر اعتدالاً وانفتاحًا من سابقيه...".

وأتذكر جيدًا كيف أشاد خالد بكداش، الذي ذهبنا يومئذٍ لزيارته، بذكاء ووطنية قائد هذا العهد.

وكنت ما زلت "شبه" عاطل عن العمل... فقط زوجتي منى كانت وجدتْ لنفسها عملاً كسكرتيرة لدى أحد المكاتب التجارية. أما أنا فكنت، بتوجيه من الرفاق، أداوم في مكتب رفيقنا، عضو لجنة المراقبة، المهندس مراد القوتلي (أبو راشد)، الذي كان (ذكره الله بالخير) يساعدني من خلال تكليفي ببعض الأعمال الهندسية الصغيرة، كتدقيق هذه الرخصة أو تلك. وهناك، تعرفت إلى شريكيه في المكتب، المهندس بسام مراد، وخاصةً إلى المهندس هاشم العبيسي، الذي كان عُيِّنَ مديرًا عامًّا لشركة قطاع عام محدثة اسمها "شركة الأعمال الإنشائية".

وتعرفتُ أيضًا إلى معظم قيادات الحزب، وخاصةً منهم على وزير المواصلات الجديد عمر السباعي (أبو محمد). ولكن علاقتي الأساسية كانت بأبي راشد، الذي جاءني ذات يوم، وكنَّا نحضر معًا اجتماعًا لإحدى فرق المهندسين، ليسألني:

- ما رأيك، يا أكرم، بالعمل في مكتب مراقبة البناء لدى أمانة العاصمة؟

ولما وافقته، مع بعض التحفظ حول إمكانية أن يرفض "الأمن" تعيني، أجاب:

- هذا أمر من الممكن تدبيره. ثم لا تنسَ أن أمين العاصمة الجديد هو صديقنا وزميلك في الجامعة. إنه الدكتور ياسين الأسطة. هل تتذكره؟"

وأتذكَّر شاردًا وجه طالب الطب، ذلك الدمشقي الخجول من حيِّ الميدان، صديق شاكر عرقسوسي، الذي كان ينتمي يومئذٍ إلى البعث اليساري، ومدى حماسته حين اشتركنا معًا في تلك المظاهرة الشهيرة المعادية لبورقيبة. ثم انقطعت أخبارُه وأخبار شاكر عنِّي منذ ذلك الحين. وأعلِّق ببلاهة:

- إذن، أصبح ياسين الأسطة من جماعة حافظ الأسد!

"وكذلك أيضًا أصبح الكثيرون غيره، كعبد القادر قدورة الذي كان، حتى الأمس، من جماعة عفلق، فأصبح اليوم من أهم شخصيات العهد الجديد...".

وكان في الخامس عشر من كانون الأول 1970 صدورُ قرار وزاري بتعييني مهندسًا لدى قسم مراقبة البناء في أمانة العاصمة.

وباشرت في مطلع العام 1971 الدوام في موقع عملي الجديد، هناك حيث كان يعمل رفيقُنا وصديق طفولتي شارل ......، بينما كانت زوجتُه ليلى تداوم في نفس البناء، لكن في قسم الدراسات.

وأتذكر "أمانة العاصمة" في تلك الأيام، وموقعها المطلّ على ساحة الشهداء في قلب دمشق الحديثة. لم يتغير إلى اليوم؛ فقط كان المبنى أصغر مما هو الآن، كما كانت دمشق أصغر. ولكن كانت دمشق حينئذٍ بدأت تكبر وتتسع، وكانت حركة البناء فيها مزدهرةً ونشطة. لذلك كان مكتبنا في الطابق الخامس، بحكم ما يمسه من مصالح الناس المباشرة ويتيحه من إمكانية إقامة علاقات (حميمة) مع تجار البناء والمكاتب الهندسية، من أهم مكاتب بلدية العاصمة – تلك العاصمة التي كانت، بالنسبة لنا، مقسَّمة إلى مناطق. والمسؤول عن كلِّ منطقة كان مهندسًا، يساعده مراقب فنِّي، وتحت تصرفه سيارة جيب وسائق.

"سيارة! خلال الدوام فقط؟!"

- صحيح! ففي تلك الأيام كانت ما تزال سائدة تلك التقاليد [البورجوازية الحقيرة] القاضية بعدم استعمال سيارات الدولة لأغراض خاصة خارج أوقات الدوام!

وكان عملنا هو مراقبة البناء، كلٌّ في منطقته، وما يقتضيه هذا من حدٍّ للمخالفات، إن تعذَّر منعها. وكانت المخالفات تقسم إلى ما هو قابل للتسوية، فيستوجب التغريم، أو ما هو غير قابل للتسوية، فكان (نظريًّا) يستوجب الهدم. وكان بعضه أيضًا إعطاء "أذونٍ بالصب" للمباني المرخَّصة. ورئيس المكتب حينئذٍ كان مهندسًا قديمًا لم أعد أذكر اسمه.

- لكن الطريف يومئذٍ أننا كنَّا ستة مهندسين في المكتب، وأن ثلاثة منَّا كانوا شيوعيين.
- تقصد أنت وشارل و...
- صادق ......، خال خطيبتي السابقة، وخريج تشيكوسلوفاكيا.

وكان أول ما واجهناه (أقصد شارل وأنا) هو مخاطر انعكاسات طيبة قلب رفيقنا صادق على شخصه وعلى العمل. فقرَّرنا التعاون معًا ووحَّدنا مناطقنا؛ ما جعلنا نحن الثلاثة مسؤولين عن مناطق البرامكة والمزَّة والميدان. فقد كنَّا يومئذٍ في أوج عنفواننا ومثاليتنا. فرفضْنا كلَّ ما كان يمكن أن يجعلنا نستفيد (كالآخرين) من أهمية موقع عملنا.

"... ورفضتم، أولاً، قبول دعوات الغداء التي كانت تدعو إليها لجنة المكاتب العائدة للنقابة، وكان يقبلها عادة زملاؤكم الآخرون في المكتب؛ ما أفسد عليهم الأجواء...".

وكان هذا أبسط ما رفضنا. رفضنا الكثير مما كان يمكن أن يجعلنا أغنياء. وأفكر اليوم أنه، لو أتيحت لي إعادة الكرَّة في نفس المكان، لفعلت الشيء نفسه – ولكن، ربما، بمرونة أكثر؛ أقصد بدون تلك الحدَّة التي كانت تميّزنا آنذاك، فتجعلنا نصطدم مباشرة بتلك المصالح المتفاوتة في صغرها و/أو في كبرها، التي هي دمشق التجارية – تلك المصالح التي غالبًا ما كانت تتجاوزنا. وأتوقف هنا قليلاً لأتذكر...

أني ذهبت ذات صباح لأتفقَّد الوضع وأوافق على صبِّ سقف الطابق الأرضي لبناء في المزَّة. وكان هذا البناء لوزير المالية آنذاك، السيد نور الله نور الله، الذي كان ينتظرني واقفًا على سطح بنائه، وسارع إلى تعريفي بنفسه؛ ما جعلني أفكر – والأمر لم يكن يستدعي وجود السيد الوزير – أنه يريد التأثير عليَّ لتمرير ما كان يريد تمريره. وما كان يريد تمريره كان واقعًا تنفيذيًّا لا علاقة له بالرخصة الممنوحة لبنائه. لذلك، ورغم أن القضية كانت ممكنة التسوية، رفضت إعطائه إذن الصبِّ، وطلبت منه، "بكل أبهة"، تعديل رخصته وغادرت المكان. ولكن حين عدت إلى مكتبي بعد إنهاء جولتي، فوجئت بأمين العاصمة ياسين الأسطة يتصل بي على الهاتف ويقول لي:

- هل رفضت يا أكرم إعطاء إذن بالصبِّ للسيد الوزير نور الله؟

فأجبته بنعم، وبدأت أشرح له الموضوع. لكنه لم يدعني أكمل كلامي، حيث قاطعني قائلاً:

- ليس هناك أية مشكلة. لقد أعطيته أنا إذنًا بالصب!

وأفكر أنه (شكرًا لله) مرَّتْ بخير هذه الحادثة التي كان يمكن أن تُلحِق بي بعض الضرر، ربما بسبب معرفتي السابقة بياسين الأسطة، لست أدري، ولكن...

تبقى العبرة هنا أن المخالفات في بلدنا هي حقٌّ للكبار فقط وأن عليك عدم التطاول حفاظًا على سلامتك...

وأتذكر أيضًا كيف جاءني شارل ذات يوم، في أواخر الدوام، فتفقَّد المعاملات التي كنت استلمتُها لتوِّي والتي كانت على مكتبي، ثم أخرج واحدة منها، وقال لي وهو يغادر المكتب ضاحكًا: "انتبه من هذه المعاملة..."

التي تصفَّحتها في الحال، فلم أجد فيها، للوهلة الأولى، ما يستدعي الريبة. فهي كانت مجرد طلب عادي من مالك عقار لتسوية مخالفات العقار الواقع في الطابق الرابع من البناء الذي يملك. لكن، شارل، الذي أعرفه جيدًا، لا يلقي كلامه جزافًا. لذلك سارعت مباشرة إلى طلب إضبارة البناء المذكور، فوجدت أن رخصة هذا البناء هي لطابقين فقط!

"ابن الحرام" صاحب المعاملة كان يطالب بتسوية مخالفات الطابق الرابع! أي أنه كان يريد، من خلال تلك التسوية، تمرير بنائه للطابق الثالث، الذي تمَّ بلا رخصة، وللطابق الرابع. لذلك سارعت في صبيحة اليوم التالي إلى كتابة مطالعتي حول الموضوع، وتسجيله في الديوان مباشرة. لكن بقي التساؤل: كيف علم شارل بأمر هذه المعاملة؟!

وأجابني حين سألته عن ذلك: "اتصل بي صاحبها – وهو من كبار قوّادي البلد – عن طريق ذلك القوّاد الآخر الرفيق غازي ....، ليسألني حول كيف يمكن "تطبيقك"...".

- وماذا قلت له؟

- قلت له: حذارِ أن تقدم له المال؛ فهذا "لوح" لا يرتشي. ولكن، إن أردت إقناعه، فعليك بالنساء. فأجابني أنه موافق. وهذا ما أفسدتَه علينا الآن، يا أكرم...".

وانفجرنا كلانا بالضحك من أعماق قلبينا. فما فعلناه كان يرضي ضميرنا. وكان هذا هو الأهم، خاصة وأننا كنَّا نعلم أن...

المخالفة، حين تتعقد، يزداد سعرها بالنسبة لمن سيُكلَّف بحلِّها لاحقًا.

وقد اكتشفت هذه الحقيقة ذات يوم، حين ذهبت لتسوية مخالفات بناء منجز كان مهندسه (رفيقنا السابق) ياسين ....، الذي وجدتُه ينتظرني مع تاجر البناء ومالكه. وقد لفت انتباهي، منذ البداية، مدى الحفاوة التي استقبلاني بها والتي بدت لي مريبة، فسألتهم:

- ما هي مخالفات بنائكم؟

فأجابني الاثنان مبتسمين:

- أنظر بنفسك، يا أستاذ... لا توجد في بنائنا أية مخالفات....

وأفكر أن وراء الأكمة ما وراءها – وإلا لما انتظرني هذان الـ........ ، ولما استقبلاني بمثل هذه الحفاوة. وأتفقَّد البناء بدقة، والمخطَّطات المرخَّصة بين يديَّ، فلا أجد فعلاً أية مخالفة. ويضحك المهندس ياسين ومعه تاجر البناء...

- ألم نقل لك، يا أستاذ، أنه لا توجد مخالفات في بنائنا!

وفجأة، بينما أنا على وشك مغادرة المكان، لفت انتباهي ضيق عرض الوجيبة المحيطة. فخفق قلبي وصحت في نفسي "وجدتها!" توقفت، وطلبتُ من المراقب الذي كان يرافقني قياس طول البناء وعرضه. فاكفهرَّ وجهُ المهندس ياسين، واكفهرَّ معه وجهُ التاجر. فقد اكتشفتُ أن المخالفة الرئيسية الوحيدة التي كانوا يحاولون تمريرها هي أن كامل البناء متجاوز على الوجيبة 1.5 متر طولاً و1.5 متر عرضًا. ثم غادرت المكان بسرعة وأنا أضحك للمنظر الكاريكاتوري الذي نجم، حيث كان تاجر البناء ومهندسه يلاحقانني قائلين:

- يا أستاذ... يا أستاذ... لِمَ لا نتفاهم؟

وسارعت، كالعادة، إلى مكتبي لتدوين المخالفة وتسجيلها (كي لا أتعرض لأي ضغط) في الديوان مباشرة. لكن في المساء، حين كنت مع شارل في مكتب أبي راشد، وبعد أن قصصت على هذا الأخير ما حدث بيني وبين زميله ياسين، أجابني:

- لقد كان تصرفك سليمًا يا أكرم. لكن يجب أن تعلم أن نتيجة ما فعلته ستكون أنه سيرتفع سعر هذه المخالفة التي ستسوَّى في النهاية...".

فالمشكلة في بلدنا قد تكون مشكلة تشريعات مهترئة، من جهة؛ ولكنها، حتمًا، مشكلة بشر كانوا وما زالوا أسرى مصالحهم المباشرة جدًّا، من جهة أخرى.

"لأنه هكذا كانت أحوال دمشق على مرِّ العصور. ألم تقرأ "مذكَّرات البديري الحلاق"؟"

ودمشق، ذلك المركز التجاري الأقدم في التاريخ، دمشق التي لم يحكمها يومًا (تقريبًا) أبناؤها، كانت تعيش حينئذٍ الأيام الأولى لـ"الحركة التصحيحية"...

والقيادة القطرية "المؤقتة" لحزب البعث كانت أقرَّتْ مبادئ الترشيح لمجلس الشعب الذي تقرَّر أن يضم 173 عضوًا، منهم 78 للبعث، و11 للاتحاد الاشتراكي، و8 للشيوعيين، إلخ. كما أقرَّتْ مشروع الدستور المؤقَّتْ، الذي لم يتضمَّن تحديد دين رئيس الدولة.

وكانت اضطرابات قادها الإخوان المسلمون في مختلف أنحاء البلاد، احتجاجًا على ذلك ومطالبةً أن يكون دين الدولة الإسلام؛ تلاه، تراجع السلطة وتعديل تلك الفقرة من الدستور، بحيث أصبح ينصُّ على أن يكون "الإسلام" دينًا لرئيس الدولة السورية.

"... وكان هذا، يا بني، عودة إلى الوراء بالنسبة لأيام البورجوازية، التي تقرُّ اليوم أنها كانت أكثر ثقافةً ووعيًا من "الثورجيين" الذين حلُّوا محلَّها...".

" تقصد مقارنة بدستورَيْ 1947 و1950 اللذين لم يتضمَّنا أيَّ ذكر لدين الدولة ورئيسها؛ وبالتالي، كان من الممكن، نظريًّا على الأقل، أن يكون هذا الأخير مسيحيًّا.

"... أليس المسيحيون مواطنين كغيرهم؟ ألا يُفترَض أن تكون الكفاءة والإخلاص للوطن هما المقياس، وليس الانتماء المذهبي أو الطائفي؟!"

"هذا الحكي مثالي، يا أريس! ثم إن المشكلة، في حالنا، كانت تكمن في انتماء الحكام الجدد، في معظمهم، إلى أقلية مذهبية معينة. ولهذا السبب، تحديدًا، قدموا لغلاة "المسلمين السُّنَّة" تنازلات لم تكن واردة بالنسبة لمن سبقوهم، وكانوا من نفس الأكثرية السُّنِّية...".

"والأكثرية السُّنِّية في بلدنا لا تعتبر "هؤلاء" مسلمين...".

"تقصد العامة منهم. فبالنسبة للخاصة لا يشكِّل الانتماء المذهبي أية مشكلة. ثم إن المفتي العام للديار السورية – وكان حينئذٍ الشيخ أحمد كفتارو – كان حَسَمَ الموضوع، واعتبرهم مسلمين كغيرهم...".

وكان في الـ12 من آذار 1971 الاستفتاء على ترشيح السيد حافظ الأسد لرئاسة الجمهورية. وكانت نتيجة الاستفتاء نجاحه المنقطع النظير، وحصوله (كما جرت العادة بعدئذٍ) على 99.2 % من الأصوات...

وكان انشقاق في صفوف الحزب الشيوعي الأردني، يقوده الرفاق الأمميون برئاسة (المغفور له) فهمي السلفيتي...

وفي موسكو جرى في الـ30 من آذار 1971 انعقادُ المؤتمر الرابع والعشرين للحزب الشيوعي السوفييتي...

أما في الـ17 من نيسان 1971 فكان الإعلان عن قيام "اتحاد الجمهوريات العربية" بين مصر وسوريا وليبيا...

تلك الوحدة التي أيَّدها الحزب الشيوعي السوري فورًا؛ لأنه، بحسب آخر اجتهادات الرفاق القادة في تلك الأيام، فإن "أية وحدة عربية لن تكون إلا وحدة عربية متحررة".

"لكن، اليسار المصري من جماعة عبد الناصر – أقصد جماعة علي صبري وشعراوي جمعة، الذين أبعدهم يومئذٍ رئيس مصر الجديد السيد أنور السادات، والذين يفترض أن يكونوا أكثر قومية من جماعتكم، عارضوا تلك المحاولة...".

وكان هذا ما حصل ما بين 11 و15 مايو 1970، حين تخلَّص السادات في مصر ممَّن دعاهم بمراكز القوى من أعوان عبد الناصر المخلصين (علي صبري وجماعته) الذين كانوا يشكِّلون الأغلبية المطلقة في اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي، وأعلن عن تسريح قائد الجيش، وحوَّل مجلس الأمة إلى مجلسٍ للشعب...

ثم وقَّع السادات معاهدة صداقة وتعاون مع الاتحاد السوفييتي...

حدث هذا لاحقًا. أما حينئذٍ فقد توجَّه وفدٌ كبير من حزبنا إلى الاتحاد السوفييتي وبلغاريا، ليناقش مع الرفاق "الكبار" و"الصغار" مشروع برنامجه السياسي وقضايا خلافه المستفحلة...

وكانت قضايا الخلاف في قلب الحزب الشيوعي السوري تدور حول: الموقف من السوفييت الذي أصبح مقياسًا للأممية؛ وحول فلسطين والعمل الفدائي؛ وحول الوحدة العربية والحزب الشيوعي العربي الموحَّد؛ وحول طريق التطور اللارأسمالي الذي يُفترَض أن يؤدي إلى الاشتراكية...

فحول الموقف من السوفييت، كان بكداش وجماعته يرون أن هذا هو مقياس الأممية الحقَّة، وأن سياسة أيِّ حزب شيوعي محلِّي يجب أن تنسجم، بالتالي، مع الاستراتيجية السوفييتية؛ بينما، كان الاتجاه الآخر أكثر تحفظًا. ولما كان الحزب الشيوعي السوري قد سبق وأيَّد (بخجل) الموقف السوفييتي من قرار تقسيم فلسطين لعام 1947 فقد كان رأي "القوميين" في الحزب أن هذا كان خطأً كبيرًا. وكلا الطرفين كان يؤيِّد العمل الفدائي؛ لكن درجة التأييد كانت تختلف بين جماعة رياض الترك، التي كانت تؤيِّده بلا تحفظ، وبكداش–فيصل الذين كانا أقل حماسًا في تأييده. وكان القوميون يرون أن من الواجب تأييد وحدة 1958 حينئذٍ من دون تحفظ؛ بينما كان جماعة بكداش يخالفونهم في ذلك.

وكان ذلك الاتجاه "القومي"، الذي كاد أن يسيطر بعض الوقت على الحزب الشيوعي السوري، أقرب وأكثر تأثرًا بتلك الفئات القومية التي استولت على السلطة في عدد من الدول العربية؛ بينما كان الطرف الآخر أكثر ارتباطًا بالروس وما يمثلون...

وكان هذا الخلاف قد تفجَّر في المؤتمر الثالث للحزب؛ ففُرِزَ جناحان: الأول ذلك "الأممي" و"المبدئي" المفترَض (من وجهة نظرنا)، الذي كان يمثله خالد بكداش ويوسف فيصل؛ والثاني ذلك "القومي" و"اللامبدئي" (وفق تقويمنا)، الذي كان يمثِّله دانيال نعمة ورياض الترك...

" أليس رياض الترك هو زوج أسمى، شقيقة يوسف فيصل؟"

"رياض الذي كنت تلتقي به أحيانًا في مكتب أبي راشد، لكن الذي لم يجذبك، حيث كنت اخترتَ وشلَّتك حينئذٍ الوقوف إلى جانب الطرف "المبدئي" و"الأممي"...".

بالضبط. وأفسِّر هذا اليوم بأني لم أكن يومًا ميالاً إلى الفكر القومي، من جهة. (فلو كنت كذلك لكنتُ انتسبت إلى حزب البعث منذ البداية.) ومن جهة أخرى، لأن الممارسة الحزبية في السنوات الأخيرة للجامعة كانت أتاحت لي ولرفاقي الاحتكاك بمعظم هؤلاء "القادة" الذين أصبحوا قوميين، والتعرُّف إليهم بشكل أفضل...

وأتذكر تلك "الدورة الحزبية" التي تم تنظيمها للكادر الجامعي في أواسط صيف 1969 والتي حضرها محاضرًا معظم أولئك القادة من أعضاء "المكتب السياسي" و"اللجنة المركزية" للحزب. وأتذكر أن روحنا النقدية الحادة كانت أبرز ما يميِّزنا كفرعية وككادر جامعي آنذاك.

"... تلك الروح التي انعكست يومئذٍ على تقويماتنا القاسية لمعظم أولئك الرفاق "القادة"...".

فقد أُعجِبنا جميعنا يومئذٍ بالشخصية "القيادية" و"الجذابة" للرفيق يوسف فيصل، وأُعجِبنا بالمحاضرة التي قدَّمها حول المادية الجدلية. لكن، في المقابل، سخرنا جميعنا (تقريبًا) من المحاضرة التي ألقاها الرفيق إبراهيم بكري حول الحركة النقابية، ومن حقيبته التي كنَّا نتخيَّلها مليئة بالثقافة، فإذا بنا نجدها مليئة بالسندويش! وجميعنا (تقريبًا) أيضًا تحفَّظ على مضمون تلك المحاضرة التي ألقاها يومئذٍ الرفيق ظهير عبد الصمد والتي تطرَّقتْ إلى بعض جوانب الحركات الإسلامية، أو من تلك التي ألقاها رفيقنا رياض حول العمل الفدائي. ومعظمنا (أيضًا) تابع بمنتهى النعاس تلك المحاضرات الأخيرة التي قدَّمها لنا دانيال نعمة حول الحركة الفلاحية، أو تلك التي قدَّمها أبو سامي، مراد يوسف (الذي كنَّا جميعنا نحبه آنذاك)، حول حركة التحرر الوطني...".

"... أي أنكم كنتم بدأتم تكتشفون أن هؤلاء "القادة" هم، في النهاية، مجرَّد بشر كسواهم...".

- بشر كسواهم قطعًا؛ ولكنهم ليسوا بمعظمهم "قادة"، كما كان يُفترَض، إنما ربما بمعظمهم مجرد أتباع. لهذا لم تسحرنا معظم تلك الشخصيات التي بدأنا نتلمَّسها عن قرب. ولكن أعود فأؤكد أن

هذا لم يكن الأساس؛ إنما كان أهم ما حدَّد حينئذٍ مواقفَنا من قضايا الخلاف في الحزب عامةً هو رفض ذلك المنطق القومي المزاوِد والرافض لكلِّ تاريخ الحزب...

وكان الرفيق فايز جلاحج (أبو جورج) قد أطلعني على تفاصيل مضمون قضايا الخلاف، وعلى ما كان يرفضه الاتجاه المبدئي في مشروع البرنامج السياسي الذي كان مطروحًا للنقاش. فسارعتُ مباشرة، بالتعاون مع عطية، إلى نقل هذا "الخط" الذي بلَّغناه بشكل "غير رسمي" إلى الرفاق الذين كنَّا نعمل معهم...

وكان عملي الحزبي يومئذٍ مساعدًا لفرعية الجامعة، من جهة، ولكن في صفوف المهندسين الذين سرعان ما وجدت نفسي عضوًا في فرعية تنظميهم في دمشق، من جهة أخرى؛ وأخيرًا، مع اتحاد الشباب الديموقراطي الذي كان يترأَّسه يومئذٍ يعقوب، والذي كنت أصدر مع زوجتي جريدته المركزية.

ولكن رغم أن عملي الحزبي، وعملي في أمانة العاصمة، كان يأخذ جلَّ وقتي، إلا أني لم أكن راضيًا عن نفسي. فقد كان شعوري أن وضعي هذا ما هو إلا مؤقت، وأن استمراري في هذا الموقع من العمل سيقضي على طموحي الهندسي والإنساني. لذلك، حين جاء شهر حزيران، كان أول ما فعلت هو أن طلبت إيقاف خدمتي في البلدية من أجل الالتحاق بخدمة العلم...

تلك العسكرية التي التحقت بها في يوم 20 حزيران 1971.

الجزء الثاني

مقدمة – أو لنقل، هو طائر الليل "يهذي"

وحيدًا، مختبئًا، تُراجِع محصِّلة ما مضى. كنتَ صادقًا، إلى حدٍّ كبير، فيما عرضتَه وما ذهبتَ إليه. ولكن، وسط الظلام الدامس، أتُراك تدرك أن ما تمَّ حتى الآن، إنما كان الأبسط والأسهل؟! – لأن الأصعب والأهم لم تقلْه بعدُ يا صديقي!

ولأنك قد لا تقوى على الذهاب من خلاله حتى النهاية... لأن هذا قد يتطلب في الحقيقة مواجهة أعماق نفسك؛ ومن خلالها، مرة أخرى، استعادة كلِّ دقائق حياتك الماضية.

ولأن هذا سيفترض حتمًا مراجعة دائمة لأفكارك وأحكامك ومشاعرك؛ ومن خلالها، مراجعة البشر المحيطين بك. وأيضًا وخاصةً...

لأنك خائف، ربما، وأنت على وشك الإقدام على ما قد يقودك إلى التهلكة...

والتهلكة قد تكون من الخارج – من أولئك الذين تابعوك في صمت واهتمام و/أو بحماس ظاهر أو حقيقي و/أو حتى... باستنكار!

والتهلكة قد تكون من أعماق نفسك التي قد لا تصمد أمام الامتحان العسير.

لذلك مهلاً، يا صديقي، مهلاً. هو صوت "عقل" يدعوك إلى التروِّي، وربما إلى الاكتفاء بهذا الباطن–الظاهر، وبما أنت عليه الآن. ولكن...

أنت وحدك تعلم، قبل سواك، ماذا تقول أحجارُ نَرْدِك التي ألقتْها يدُ القدر منذ البداية لتحدِّد ماهية النهاية.

أنت وحدك يعرف أنه ربما... لم يعد في وسعك لا التوقف ولا التراجع!

الفصل التاسع

حماة الديار...
(1971-1973)

آ

الدورة وما تلاها!

"حماةَ الديار عليكم سلام

أبَتْ أن تُذَلَّ النفوسُ الكرام..."

خليل مردم بك، النشيد الوطني السوري

... وأعود، اليوم، وقد توصلتُ إلى قناعة مفادها أن نفوسنا هي التي "أُذِلَّتْ" على أيدينا، قبل أن تُذَلَّ على أيدي "حماة ديارنا" – الذين هم نحن في نهاية المطاف. أعود لأستعيد تلك الأيام التي بدأتْ منها رحلتي الحقيقية في الحياة العملية. و...

أتذكر جيدًا أنني كنت حزينًا وأنا في عربة النقل العام التي كانت تقلني وسواي من دمشق إلى معسكر ...... الذي حُدِّدَ موقعًا لتجمُّعنا. لأني – والحقُّ يقال – لم أكن مسرورًا البتة بالالتحاق بخدمة العلم والابتعاد عمَّن أحب؛ خاصة وأن وضعي المادي لم يكن أضحى مريحًا بعد؛ ما كان يعني أني سأمر من جديد بفترةٍ مالية صعبة، لعل أسوأ ما فيها اعتمادي المتجدد (وزوجتي معي)، ولو نسبيًّا، على الأهل لفترة أخرى من الزمن. وكنت أفكر متسائلاً: أنْ لماذا لم أستفد من الوضع الصحِّي لأخي سمير؟ لماذا لم أضع نفسي في موضع "الوحيد" أو "المعيل"، وأُعْفَى من هذا الفَرْض اللعين؟ ربما، إلى حدٍّ ما، لأن "المعاملة"، كما كنت أتخيلها، كانت صعبة في حدِّ ذاتها؛ ما جعلني أفضل الخدمة وضياع سنتين ونصف من حياتي على مواجهة صعوبةِ بيروقراطيتنا العسكرية وجلافتها! و/أو ربما لأنني وجدت يومئذٍ أن من المهين – أنا الذي كنت لم أزل مقتنعًا حينئذٍ بكوني "مناضلاً" من أجل ما أفهمه اليوم قضية "خاسرة" – أن أتهرَّب من هذا "الواجب الوطني" المقدور والمطبَّق على معظم شبابنا.

ويصرخ السائق بالركَّاب أنْ "وصلنا إلى "المعسكر" يا شباب!" فينزل البعض، وأنزل معهم مترنحًا، وأسمع قهقهةً وصوتًا جهوريًّا ورائي يقول:

- مرحبا يا أكرم!

فألتفت، لأرى جورج حمصي، بقامته الطويلة وابتسامته الصبوح، وهو ينظر إليَّ مبتسمًا.

- أهلاً، جورج، ومعذرة لأني لم أنتبه إلى وجودك في هذا الباص اللعين. ولكن، لماذا لم تنبِّهني أنت؟!

- ربما لأني لم أشأ أن أقطع عليك شريط أحلامك!

ونتجه معًا نحو بوابة المعسكر، حيث نسلِّم أوراقنا، فنوجَّه إلى "برَّاكة" عفنة، قيل إنه من المفترض أن تكون مهجعًا لنومنا. ثم، يُطلَب منَّا الذهاب إلى عند الحلاق لقصِّ شعرنا، فإلى عند المصوِّر لأخذ

صورة هوية ونحن في وضعنا الجديد. وننظر أنا وجورج باشمئزاز إلى "الحلاق المفترض" الذي كان يجزُّ رأس أحد الجنود، بينما كان يجلس حوله أربعة أو خمسة أفراد ينتظرون دورهم. وينظر واحدنا إلى الآخر في عجب، قبل أن يبادرني صديقي الجديد[3] بالتساؤل الذي كان يراود خاطري:

- هل ستحلق رأسك عنده؟!
- فما الحل؟
- أن نقصَّ شعرنا بأنفسنا. أنا معي مقص، وكلانا معه عِدَّة حلاقة ومرآة.

وكان هذا ما حصل: قصَّ كلٌّ منَّا شعر الآخر على "الزيرو"، ونحن نقهقه ضاحكين.

- لقد بتَّ تشبه المجرمين يا أكرم!
- وأنت لست أفضل حالاً منِّي بكثير!

ونتَّجه معًا إلى عند المصور ليأخذ لنا صور هوية مائية. فنأخذها ونحن نضحك إلى "الذاتية"، حيث كان المفروض أن يعدُّوا لنا أوراقنا الثبوتية المؤقتة. فيستلمها الرقيب المسؤول وهو ينظر إلينا باحتقار ويقول:

– ستكون هويتكم المؤقتة جاهزة يوم الاثنين [أي بعد ثلاثة أيام]، وستوزَّع عليكم بعد اجتماع المستجدين في الساعة العاشرة صباحًا. لذلك يمكن لكم حتى ذلك الموعد أن تستريحوا وتقضوا الوقت في الرياضة أو في برَّاكاتكم.

ويبادرني جورج بالسؤال فور خروجنا من الذاتية:

- وهل سنبقى حتى الاثنين في هذا الماخور؟
- أتعني أن نجد طريقة لنهرب من هنا الآن، ونعود إليه يوم الاثنين قبيل الاجتماع؟

ونجد جنديًّا ونحن في طريقنا إلى البرَّاكة، فنسأله عن طريق "جانبي" للخروج من المعسكر. فيضحك ويرشدنا إلى نقطة منزوية من السور قائلاً:

- من هناك، حيث توجد ثغرة يدعونها "اللواء شريط". وطريق العودة هو أيضًا عبر نفس "اللواء"؛ فأدوا له التحية! فقط حذارِ من الشرطة العسكرية على الطريق وفي المدينة، لأن العلقة معهم بهدلة!

وأفكر أنه ليس منضبطًا جدًّا، ذلك المعسكر الذي كانت هاجمتْه، قبل بضعة أشهر، فرقةُ كوماندوس إسرائيلية! وأعود إلى دمشق، حيث فوجئتْ منى بعودتي، فنقضي معًا ثلاثة أيام من الإجازة السعيدة غير المتوقعة، لأعود إلى المعسكر صباح الاثنين (مع جورج هذه المرة)، فندخله عبر "اللواء شريط"،

[3] في الحقيقة جورج من معارفي القديمين. كان يسكن مواجه المشفى الإيطالي، أي قرب منزلنا. ووالدته كانت صديقة والدتي وشريكتها في لعب الورق. وهو قد دَرَسَ هندسة العمارة في نفس تلك الفترة التي كنت أدرس فيها الهندسة المدنية. لكن صداقتنا الحميمة لم تترسَّخ حتى "العسكرية".

ونحضر الاجتماع الذي افتتحه اللواء قائد المعسكر بخطبة وطنية "عصماء"، استلمنا بعدها كلٌّ هويته المؤقتة وأمر مهمة يحدِّد لنا مكان التحاقنا. وكان توقيت التحاقي مع دورة المهندسين هو يوم السبت القادم، وكان المكان "مدرسة الهندسة العسكرية" في حلب.

وأعود من جديد إلى دمشق – لكن بشكل نظامي هذه المرة – فأقضي إجازة قصيرة أخرى، قبل أن ألتحق بدورتي التي في حلب. حيث...

وصلت إلى المعسكر مساء يوم الجمعة. وقد بدا لي المكان، للوهلة الأولى، وكأنه أكثر انضباطًا من ذلك الآخر الذي في .... فهنا كان الجو العام أكثر جدّيةً عند استقبالنا، حيث كان أن تمَّ اقتيادُنا مباشرةً، بعد تسلُّم أوامر مهمتنا وتسجيلها والتأكد من هوياتنا المؤقتة، إلى حيث تمَّ تسليمنا ملابس التدريب العسكري وبطَّانيتين لكلِّ عنصر. ثم اقتادني أحد جنود المعسكر إلى حيث يُفترَض أن تكون منامتنا، فتوقَّف أمام إحدى البرَّاكات التي كان يجلس عند عتبتها بعض مَن سبقني إلى الالتحاق بالدورة – وكانوا أربعة من "الملتحين" (أي من "الإخوان المسلمين" أو الأصوليين) الذين تبيَّن لي أني أعرف أحدهم – وسألني:

- ما رأيك بهذه البرَّاكة مع الشباب من الشام؟
- ليش ما في غيرها؟

فضحك لأنه فهم أني لا أرغب مشاركة أولئك "الملتحين" برَّاكتهم، وقال لي:

- جميع هذه البرَّاكات التي ما تزال فارغة تحت تصرفك.

فاخترت إحداها. وبعد ترتيب سريري، جلست عند عتبة الباب أنتظر، لعلَّه يُتاح لي انتقاءُ شركائي في البرَّاكة. وكان جورج، الذي وصل في وقت متأخر من الليل، آخر أولئك الذين "انتقيتهم".

وبدأت تلك الدورة، التي دامت ثلاثة أشهر والتي لم تترك لديَّ إجمالاً، حين أتذكرها، انطباعات سيئة، لأنها كانت، في مجملها، مجرد حياة تدريبات رياضية وعسكرية عند الصباح وبعيد الظهر، بالإضافة إلى بعض دروس ما يدعونه بـ"النظام المنضم" في حدود الساعتين يوميًّا، ودروس في المساحة والهندسة العسكرية والسلاح الخفيف إلخ – دروس عادية، كان بعضها مفيدًا لنا حتى...

حيث كان مفيدًا لنا فعلاً أن نخرج من روتين حياتنا المدنية وأن نستعيد حيوية أجسامنا. وكان مفيدًا – حتى ولو لبعض الوقت – عدم التفكير: لأنك تكتشف، أول ما تكتشف، أن العسكرية هي، باختصار ومن حيث المبدأ، "الطاعة" – من منطلق عدم التفكير والخضوع للأوامر التي هي تحديدًا – كما يقولون، وعلى ما أذكر – أنْ "... بما أن قوة الجيش في نظامه فإن أول ما ينبغي هو خضوع المرؤوس لرئيسه وتنفيذ الأوامر بحذافيرها، لأن السلطة التي تُصدِر هذه الأوامر مسؤولة عنها..." – هذا القانون الأول الذي يلقِّنونه لكلِّ عسكري، المقتبَس، كما اكتشفت لاحقًا، من نظام الجيش الفرنسي. وأتفكر أن السلطة التي تصدر الأوامر مسؤولة عنها فعلاً، كأية سلطة؛ لكن التساؤل يبقى دائمًا: تجاه مَن؟ لأن

هذا هو التساؤل الرئيسي الذي لم يكن أحدٌ منَّا يتجرأ على سؤاله لنفسه – وربما مازال لا يتجرأ إلى اليوم! لأنه حين يكون البلد ديموقراطيًّا تكون المسؤولية – مسؤولية أية جهة حكومية أو مسؤول حكومي – هي تجاه المؤسَّسات المدنية، وخاصة منها البرلمان الذي يمثل الشعب. أما في البلدان غير الديموقراطية، فمسؤولية مَن يُصدِر الأوامر هي تجاه نفسه – وفهمنا كفاية! لذلك تراني لا أتوقف أمام هذا الأمر، إنما أتابع، متذكرًا أن...

حياتنا كانت، إذن، حياة روتين عسكري، يتلخص، قبل كلِّ شيء، بـ: الاستيقاظ المبكر عند الصباح... وأتذكر أني كنت دائمًا من أوائل مَن يستيقظون، حوالي الخامسة والنصف قبيل أذان الفجر، لأرتب أموري قبل أن "تعجق" ويستيقظ الجميع... وأتذكر أنه كان يليني في الاستيقاظ " شلة الملتحين" الذين كانوا يمرون كلَّ يوم من أمامي وهم يحملون أباريقهم متجهين نحو المراحيض للوضوء وأداء صلاة الفجر. وكانوا يتجنَّبون النظر إليَّ، بينما كنت أتابعهم بنظراتي الساخرة وأنا أبتسم.

ثم كان "التفقُّد" وتحية العلم، ثم الرياضة، ثم الإفطار، فالدروس حتى الظهيرة، فالغداء، فقيلولة بعد الظهر، فالتفقُّد من جديد، فالدروس المسائية، فالعشاء، فالتفقُّد مرة أخيرة، فالانصراف إلى النوم استعدادًا ليوم جديد؛ و/أو غالبًا، بين الحين والحين، الاستعداد لدروس تدريب ليلي أو لمسير أو لمناوبات حراسة حول المعسكر... حياة عادية وخشنة، أهم ما فيها كان أنها تعلمك اكتشاف ذاتك وحقيقة مَن حولك...

حياة أهم ما فيها أيضًا، ربما، كان انتظار نهاية الأسبوع (أي الخميس) بلهفة للانصراف في إجازة يوم الجمعة، حيث تُتاح لنا رؤية الأهل والأحباب – إجازة كنت أقضيها في صحبة زوجتي التي تركت دمشق وعادت إلى حلب – إلى بيت أهلها – لتكون بقربي. أيام جميلة، كنَّا نقضيها في التنزه و/أو زيارة بعض الأصدقاء، كصديقي ورفيقي في الحزب جمعة وزوجته غادة، اللذين كانا يسكنان في حلب – جمعة الذي كان يؤدي أيضًا خدمة العلم، وكان فرزُه في "مدرسة المدفعية" الواقعة في نفس مجمَّع المعسكرات الذي كانت فيه مدرستنا.

وأتذكر هنا، للمناسبة، أنه أحيانًا كانت هذه الإجازة تتعرقل بفعل "حماقة" أحدنا؛ ما كان يحرمنا منها. عندئذٍ، كان يجب علينا البحث عن طريقة للهرب عبر "اللواء شريط" (وهذا ما كان يفعله بعضنا غالبًا لأنه كان الأسهل) و/أو السعي لإقناع الضابط المناوب كي "يتحنَّن علينا" ويدعنا نذهب (وهذا كان شبه مستحيل، إلا لمن عنده "واسطة"). وأيضًا...

- في تلك الفترة، أصبحتُ آتي لزيارتكَ مرتين في الأسبوع لمدة ساعة، أنا وغادة، زوجة جمعة...
- وأيضًا، في تلك الفترة، نجحتِ في امتحانات الباكالوريا السورية، وسجَّلتِ في "المعهد العالي للمدرِّسين" بدمشق، قسم اللغة الفرنسية، حيث كان نظام ذلك المعهد ينص بأن يدفعوا للطالب راتبًا خلال دراسته، مقابل أن يردَّه بعد تخرجه من خلال توظُّفه في الدولة. سجَّلتِ كطالبة، وكان عليك أن تسبقيني إلى دمشق، وذلك على الرغم من أن...

دورتي لم تكن قد انتهت بعد؛ حيث كانت مدتها المقررة نظريًّا ستة أشهر، كزملائنا في الدورة التي سبقتْنا والذين التقينا بهم في المدرسة، والذين كان من بينهم صديقي في مدرسة العازرية والكلِّية مروان عبد النور – أولئك الذين كنا نحسدهم، لأن عذابهم سينتهي قريبًا، فيصبحوا ضباطًا، ويُفرَزوا إلى أماكن قريبة مبدئيًّا من أماكن سكناهم. ولكن...

بدأت تصلنا فجأة شائعات تقول بأن دورتنا ستُختصَر، وأنها ستستمر ثلاثة أشهر فقط، وذلك لحاجة الجيش حينئذٍ إلى مهندسين عاملين في صفوفه.

خلال تلك الفترة، كانت أهم الأحداث السياسية التي وقعتْ هي محاولة الانقلاب الفاشلة التي قام بها الشيوعيون في السودان ضد حليفهم السابق في السلطة، العقيد جعفر النميري، الذي كان بدأ ينحرف نحو اليمين – وأتفكر – يا إلهي! – أن إكرام كانت في السودان قبيل أسابيع قليلة ضيفةً على الحزب الشيوعي السوداني – وما تبع ذلك من عمليات تنكيل ومجازر لحقت بهم حينذاك لأنهم، كما قال أحد الرفاق، "أخطأوا، فتركوا خصومهم أحياء!" ولست أخفي اليوم أنني شعرت بغُصَّة حين سمعت هذا الكلام، الذي عبَّر عنه، ببرود، أحد الرفاق الذين كنت أمحضهم المودة وأحترمهم. شعرت بغُصَّة حينئذٍ – لست أعرف لماذا – خاصةً وأني كنت، على الأقل من الناحية النظرية، مقتنعًا معه آنذاك أنه لا لعب في الثورات، وأنه كان من المفترض أن يفعلوا كما فعل ثوار أكتوبر في روسيا، فيُجهِزوا على جميع خصومهم. وقد استنكر حزبُنا حينئذٍ عمليات التنكيل التي لحقت برفاقنا السودانيين (الذين لم تُتَحْ لهم لا الفرصة ولا الوقت للتنكيل بخصومهم!). وكذلك فعل مجملُ الحركة الشيوعية العالمية – مع ذلك التنويه الذي كان يردَّد علينا عبر الحديث السياسي والذي يقول إن "الرفاق السودانيين قد أخطأوا، لأنهم قاموا بحركتهم دون أن يحسبوا حساباتهم جيدًا، وخاصةً لأنهم لم ينسِّقوا حول هذا الأمر الخطير مع الرفاق السوفييت" – أولئك "الكبار" الذين من أهم "ميزات" حزبنا في سوريا أنه ينسِّق معهم تنسيقًا كاملاً في كلِّ شيء، وخاصة آنذاك، في تلك الظروف التي كان الصراعُ فيها يتعمَّق داخل حزبنا؛ أولئك الرفاق "الكبار" الذين قاموا، مع الرفاق البلغار "الصغار"، بتبليغنا ملاحظاتهم المتعلقة بالبرنامج السياسي... تلك الملاحظات التي كنت قرأتها حينئذٍ، والتي كان الرفاق في الحزب يروِّجون لها، كلٌّ طرف من جانبه، لاطلاع أنصاره على المواقف وعلى ما كان يقال ويحكى. لأني، وإن كنت في العسكرية، حيث كان محظورًا علينا تعاطي العمل السياسي تعاطيًا مباشرًا، بقيت على صلة مع الرفاق في حلب، الذين كانوا يوصلون إليَّ وإلى جمعة كلَّ ما يصدر من مطبوعات.

وأيضًا، خلال تلك الفترة، كان اتفاق زعماء سورية ومصر وليبيا على ميثاق اتحاد فدرالي بين دولهم – مشروع وحدة إضافي آخر وغير جدِّي، على ما يبدو، خاصةً وأنهم رشَّحوا السيد محمد الخطيب لرئاسة الاتحاد – ميثاق صوَّتنا عليه في المعسكر بـ"نعم" جماعية (99.99%) كالعادة.

كان هذا قبيل إنهاء دورتنا وفَرْزِنا. لأنه، حينذاك، بدأ يزداد تواتُر أخبار وشائعات مفادها أنه ستأتي لجنة من الأشغال العسكرية لتنتقي عددًا من المهندسين للعمل لديها. ويسارع كلٌّ منَّا ليلاحق واسطته كي يُفرَز إلى "المكان الأفضل" لقضاء الخدمة.

وكان أن هربنا في تلك الليلة من المعسكر، أيضًا عبر "اللواء شريط": ستة مهندسين – أنا وجورج من بينهم – متوجِّهين إلى دمشق، كلٌّ ليؤمِّن واسطة تيسِّر له الفرز إلى ذلك المكان "الأمثل". وكانت واسطتي هي اللواء زهير غزال (صديق والدي وشريكه في إحدى شلل لعب البريدج)، الذي أمَّن بالفعل فرزي إلى "الأشغال العسكرية" في دمشق، التي كان من مسؤوليها صديقه اللواء ساطع برمدا (والاثنان، كما ألاحظ، كانا من أولاد العائلات السورية العريقة).

لذا فإننا، حين أُبلِغنا بفرزنا، لم يكن أحدنا متفاجئًا في الحقيقة؛ لا بل إن أغلبنا كان يعلم مكان فَرْزِهِ مسبقًا بحكم "الواسطة" – ماعدا طبعًا بعض "المساكين" الذين ليست عندهم إمكانية تجاوُز سواهم، والذين كان نصيبهم الفرز إلى المكان "الأسوأ"! وأتفكر (مع بعض الاحتقار لنفسي آنذاك) فيما قاله جورج أورويل ذات يوم: "كلُّ الناس متساوون، لكن بعضهم متساوٍ أكثر من غيره."[4]

انتهت دورتنا في أواسط أيلول، وانتقلت بعدها إلى "الأشغال العسكرية" في دمشق، مدينتي التي عدت إليها من جديد، ساكنًا، بادئ ذي بدء، مع زوجتي، في غرفة في المنزل العائلي – زوجتي التي كانت بدأت تداوم في معهدها الذي كانت تتقاضى منه راتبًا يعادل الـ100 ل س شهريًّا؛ ما جعل مجمل دخلها ودخلي، على أساس راتب العسكرية حينئذٍ، 350 ل س – وكان هذا غير كافٍ على الإطلاق؛ ما يعني أن أول ما كان يجب عليَّ تأمينه آنذاك عملٌ أؤمِّن من خلاله دخلاً إضافيًّا يسمح لي باستئجار منزل خاص بنا.

وقد فُرِزْتُ حينئذٍ إلى ورشة تقع خلف "الأشغال العسكرية"، حيث كانت مقررةً إشادةُ بناء إداري ضخم لإحدى إدارات الجيش، يتألف من قبو وخمسة طوابق. وكان قد فُرِزَ إلى نفس المكان، قبلي بأيام، المهندس مسعف س. الذي كان (عسكريًّا، وكذلك هندسيًّا) متقدِّمي بسنة. إذن، كما بدا واضحًا لنظري، كان عملي في العسكرية عمل هندسي سهل وفي صلب اختصاصي؛ مما كان يدعني حرًّا بعد الظهر – الأمر الذي يعني، على أرض الواقع، إمكانية إيجاد عمل إضافي آخر.

وهذا العمل الآخر، سرعان ما وجدته من خلال مكتب رفيقنا أبو راشد (المهندس مراد القوتلي، رحمه الله). كان مع شريكه في المكتب آنذاك، المهندس بسام مراد، الذي كلَّفني، بادئ ذي بدء، أن أحسب وأرسم له المخططات الإنشائية لمبنى تجاري وسط دمشق. ثم عملت مع رفيقنا الطبيب مروان قولي، الذي كان ترك الطبقة وانتقل إلى دمشق، وباشر بتعهد بعض المشاريع؛ عمل كان يؤمِّن لي بعض

[4] جورج أورويل، مزرعة الحيوان.

الدخل الإضافي (ما بين الـ500 إلى الـ1000 ل س أخرى)، مما صار يتيح لي استئجار منزل خاص بي وبزوجتي و"التبحتر" بعض الشيء.

وأتذكر أنه حينئذٍ، قبل المباشرة بالبناء، زار ورشتَنا – مما يدلِّل على أهمية ذلك البناء – كلٌّ من اللواء مصطفى طلاس، رئيس الأركان ووزير الدفاع، واللواء عوَّاد باغ من قيادة الجيش، وناقشانا في إمكانية أن يُعهَد بالمشروع إلى المتعهد الأرمني يعقوبيان، لأن هذا أسرع وأفضل، أو أن ننفِّذه بأنفسنا. وكان رأي اللواء باغ أنه من الأفضل أن يُعهَد بالمشروع إلى يعقوبيان. ولكن حين سألنا وزير الدفاع آنذاك عن رأينا – المتعلق بمدة إنجاز المشروع، إن نفَّذناه نحن أو نفَّذه يعقوبيان – أتذكر كم كان طريفًا وجريئًا جوابُ زميلي مسعف الذي سأل وزير الدفاع:

- أتريد جوابًا نابعًا من كوننا عسكرًا، سيدي، أم جوابًا نابعًا من قناعتنا كمهندسين؟
- لا، حدِّثني عن قناعتك كمهندس، كان جواب وزير الدفاع.
- كمهندس، سيدي، أقول إن في وسعنا، إن نفَّذنا المشروع بأنفسنا، أن ننجزه خلال ما يقارب السنة.
- وإذا نفَّذه يعقوبيان؟
- كمهندس، أجيبك، سيدي، أنه يحتاج إلى نفس المدة!

فضحك وزير الدفاع، وقال لنا: "هيئوا لي، إذن – وبسرعة – حساب كلفة، وقدِّموه لقيادتكم، لأنه على ضوئه سنقرِّر فيما إذا كنتم أنتم أم يعقوبيان مَن سينفِّذ المشروع.

وكان هذا ما حصل، أنْ كُلِّفنا بتنفيذ المشروع بأنفسنا.

يومذاك، استغرق بحثي عن منزل مناسب، "على قدِّ الحال"، حوالي الشهرين – حتى وجدنا مرادنا: منزلاً أجرُه في حدود الـ125 ل س شهريًّا لدى زميلي المهندس مناف رحمون، في بناء كان بناه لنفسه في آخر أوتوستراد المزة، وكنت قمت حينئذٍ بدراسته الإنشائية من خلال مكتب "أبو راشد"؛ وهو منزل أصبح موقعه ممتازًا اليوم لأنه كان يقع في منطقة الفيلات الغربية. أما يومذاك فقد كان موقعه نائيًا، وكان من أواخر أبنية البلد. وقد أمنَّا له أثاثًا متواضعًا جدًّا، فرشًا "من قريبو"، أخذتُ بعضَه من منزل أهلي.

وأتذكر أنه بعد الساعة الحادية عشرة لم يكن هناك نقل عام يوصل إلى تلك المنطقة النائية. لكن، على الرغم من هذا، كان المنزل جميلاً جدًّا ومناسبًا جدًّا لنا – كان أول منزل لنا!

- خاصة لأنه كان قريبًا من معهدي الذي كان يقع في أواسط الأوتوستراد، وقريبًا من مكان عملك في العسكرية، الذي كان يقع في أوائله. وأيضًا...

في تلك الفترة تعرفتُ إلى صديقتكِ الحميمة مارغو ق.، زميلتكِ الحمصية في الدراسة، التي سرعان ما جاءت لتشاركنا السكن.

ب

عاصم وفايز أو...

المهندسون الشباب و... حرب تشرين

"ويدور بنا الزمن على كعبيه المسعورين
وإلزا ترقص الفالس وسترقص..."
لويس أراغون، إلزا ترقص الفالس

Puis le temps a tourné sur ses talons de rage
Elsa valse et valsera…
~ Louis Aragon

وأضحك بيني وبين نفسي حين أعاود استذكار تلك الأيام.

وأفكر، أول ما أفكر، في نشاطي الحزبي. لأنه صحيح أن العمل الحزبي كان محظورًا داخل الجيش (وفق "ميثاق الجبهة الوطنية التقدمية" الموقَّع بين حزبنا وحزب البعث)، لكن سرعان ما وجدتُني أعاود من جديد نشاطي هذا كعضو في فرعية الحزب للمهندسين في دمشق – أولئك الذين كان بعض مَن كنت مسؤولاً عنه عسكريًّا مثلي.

ونشاطنا في تلك الأيام كان يتركز، في معظمه، بشكل مباشر، على العمل التكتلي (المحظور حزبيًّا، من حيث المبدأ) الذي كنت أقوم به، بالتعاون مع أبو راشد، وبالتنسيق مع مَن يمثلنا في القيادة، لصالح ذلك الاتجاه الذي افترضناه "الاتجاه الأممي والأكثر مبدئية"، الذي كان على رأسه رفيقانا "الكبيران" خالد ويوسف – نشاط كان من أهمِّ نتائجه حينئذٍ، حين وَقَعَ الانشقاقُ الذي شطر الحزب إلى نصفين، أن كنَّا شبه مسيطرين على فرعية المهندسين، التي كانت قيادتها فعليًّا هي أنا وأبو راشد.

وأتذكر أن الانشقاق (الذي كان حينئذٍ أمرًا واقعًا) قد كُرِّس رسميًّا إثر "بيان الثالث من نيسان 1972" الذي أصدره رفاقُ القيادة من جماعتنا، الذين كانوا يمثلون حينئذٍ ما ينوف على نصف اللجنة المركزية (نصف ناقص واحد، على ما أذكر) ونصف المكتب السياسي – وكانوا، كالطرف الآخر، يدَّعون تمثيل أغلبية "قواعد" الحزب!

في ذلك اليوم، كان شعورنا أننا حققنا انتصارًا كبيرًا في معركة مصيرية. لكن ما من أحد منَّا كان يعي آنذاك عمق وأبعاد هذه الأزمة، التي لم تكن قطعًا أزمة خالد بكداش ولا حزبه الشيوعي المتهدِّل فحسب، إنما كانت، في الواقع، أزمة حركة وأزمة فكر بالكامل – فكر أُدرِك اليوم أنه اختُزِلَ إلى حدٍّ أصبح معه مجرد "شعارات" سخيفة، في الوقت الذي، انطلاقًا من جدليَّته، كان بإمكانه (ربما) أن يكون فكرًا علميًّا فعلاً، كما كان يُفترَض.

- كان في وسعنا حينئذٍ، ربما، أن نتوصل مع خالد بكداش إلى تسوية، لو لم يتدخل الرفاق السوفييت الذين شجعوا على الانشقاق، ودفعوا الحزب باتجاهه. [هذا ما أسرَّ به بحزن ذات يوم رياض الترك، الذي التقيت به بعد بثلاثين عامًا على تلك الأحداث، إثر خروجه من السجن في منزل أحد الرفاق القدامى.]

أصبح الانشقاق في الحزب واقعًا إذن؛ وعلى أساسه، شارك حزبُنا، ضمن "قائمة الجبهة الوطنية التقدمية"، في أولى تلك الانتخابات الصورية لمجلس الشعب في عهد الرئيس حافظ الأسد – تلك الانتخابات المضمونة النتائج، التي أضحت من بعدُ تقليدًا؛ تلك التي "رشَّح" نفسه فيها عن دمشق الرفيقُ خالد بكداش الذي حضرتُ حينئذٍ مهرجانه الانتخابي في النادي العائلي في القصاع، حيث ألقى كلمة أثارت حماسةَ الرفاق، لكنها كانت، من منظوري، أقل مستوى مما توقعت. كذلك، من شرفة منزل صديقي الحبيب توفيق البطل، الواقع في ساحة جورج خوري في القصاع، حضرت المهرجان الانتخابي للطرف الآخر، حيث ألقى كلٌّ من دانيال نعمة ورياض الترك كلمات تميَّزتْ حينئذٍ بطابعها القومي المؤيِّد بشدة للعمل الفدائي.

كان الانشقاق قد وقع، إذن، في ذلك الحزب الذي كان يفاخر، حتى الساعة، بأنه لم يعرف الانشقاق بفضل "القيادة الحكيمة" لزعيمه الأوحد منذ 1936، الرفيق خالد بكداش. وقد استطعنا آنذاك، كما سبق وأسلفت، أن نستميل إلى جانبنا أغلبية المهندسين الشيوعيين؛ كما فعل أيضًا رفاقُنا في الجامعة، الذين نجحوا – مثلنا – في استمالة أغلبية منظمة جامعة دمشق لصالح الاتجاه نفسه. ولكن، لم يكن هذا فقط مجمل نشاطي السياسي...

حيث، كالعادة، كنت أتابع أخبار ما يحدث في المنطقة وفي العالم، كتلك العملية "الحمقاء" التي قامت بها، إبان ألعاب ميونيخ الأولمبية في أيلول 1972، منظمة أطلقتْ على نفسها اسم "أيلول الأسود"، فاختطفت رياضيين إسرائيليين، وأدَّت إلى مقتل ما يقارب الـ13 رياضيًّا – عملية إجرامية لم يستنكرها أحدٌ منَّا يومئذٍ، وأساءت كثيرًا إلينا وإلى قضيتنا.

كما كنت أعمل، من خلال نقابة المهندسين، على تهيئة الانتخابات النقابية القادمة – في تلك النقابة التي كان يسيطر عليها سيطرة كاملة في دمشق، منذ أواخر أيام الوحدة، مهندس شامي في منتهى الذكاء العملي، ألا وهو صديق والدي، المهندس هشام الساطي، الذي كان يمثل في نظرنا حينئذٍ ذلك "اليمين العفن" الذي تجب علينا إزاحتُه لصالح يسار، اكتشفنا لاحقًا، بعد فوات الأوان، أنه لم يكن أقل منه "عفونة"! وأتذكر أنه...

أيامئذٍ، كان قد تشكَّل، بقيادة مهندس فلسطيني شاب كان يؤدي، مثلي، خدمة العلم، تجمُّع أُسْمِيَ بـ"المهندسين الشباب". وكان هذا المهندس، الذي تعرفت إليه في مكتب أبو راشد، هو عاصم خليفة، صديقي الحميم إلى اليوم. فبدأت أحضر اجتماعات هذه المجموعة التي بدأت تتسع. وعن طريق عاصم

أتذكر أني تعرفت حينئذٍ أيضًا إلى صديقي الآخر، المهندس الموهوب من وزارة المواصلات، فايز فوق العادة...

تجمُّع كان بدأ يصبح مركز استقطاب لجميع معارضي هشام الساطي وتكتُّله اليميني: لأن هشام كان يجمع من حوله، من منطلق مصلحي بحت، معظم المكاتب الهندسية ومعظم مهندسي القطاع الخاص وبعض كبار الموظفين (وكان يؤيِّده أيضًا الإخوان المسلمون). أما تكتُّلنا، بقيادة عاصم، فقد بدأ يستقطب، بشكل أساسي، مهندسي الدولة والقطاع العام.

وتشكلتْ قيادةُ عمليات لـ"مهندسين الشباب"، كانت تضم حينئذٍ عاصم (يساري مستقل)، وفايز (أيضًا يساري مستقل)، وأنا (شيوعي من جناح خالد بكداش)، وهشام المرادي (ناصري الميول)، وسعد الله جبري (بعثي، مهندس معماري وعسكري متطوع من "الأشغال العسكرية")، والمقدم محمود الكردي (بعثي، مهندس مدني وضابط أمن أيضًا في "الأشغال العسكرية")، والدكتور أحمد عمر يوسف (بعثي)، ومهندس فلسطيني من بيت عطا الله (منظمة التحرير الفلسطينية – فتح)، ورحمه الله، صديقنا الحبيب محمود يونس من وزارة الإسكان (بعثي).

وكان أول ما فعلناه أن وضعنا برنامجًا يحدِّد توجهات مجموعتنا (وقد صاغه عاصم)، وبدأنا العمل على أساسه، بعد أن اتفقنا على أن نخوض المعركة الانتخابية تحت لواء المهندس سميح فاخوري ("التقدمي" الميول)، الذي اخترنا ترشيحه ليترأس قائمتنا كنقيب للمهندسين.

وبدأنا العمل على هذا الأساس، من خلال الاتصال بكلِّ مَن نعرف أو نتمكن من الوصول إليه من المهندسين، في مختلف أماكن عملهم. وقد استفدنا حينئذٍ، خاصة، من "الجمعية التعاونية لسكن المهندسين"، التي تمكنَّا من السيطرة عليها، والتي تشكَّلتْ لجنةٌ لقيادتها، كانت تضم كلاً من سعد الله جبري، رئيسًا، عاصم، نائبًا للرئيس، أنا وفايز وهشام المرادي، أعضاء. وهنا، تحديدًا، بدأتْ تبرز الشخصية الطموحة جدًّا لسعد الله، الذي بدأ يسعى، من خلال الجمعية، إلى بناء مواقع خاصة به، تحقِّق له طموحاته المادية والسلطوية.

وأتذكر أننا كنَّا نجتمع مساءً بشكل دوري، تقريبًا مرتين في الأسبوع، لنقوِّم نتائج عملنا ونقرِّر ما نقرِّره من "صميدعيات" تساعدنا على كسب هذه "المعركة المصيرية"! وأتذكر أننا غالبًا ما كنَّا ننهي السهرة حول مائدة عشاء عند مطعم "بريمو" (الشعبي) وسط دمشق، حيث نتناول العشاء ونشرب البيرة ونتناقش في السياسة.

وأجدني، وقد تجاوزتْ الساعة منتصف الليل، أنظر إلى ساعتي بقلق، مفكرًا بزوجتي المسكينة التي تركتُها وحيدة في منزلنا في المزة، وبأنه بات عليَّ استئجار تكسي للعودة إلى هناك. وأتذكر كيف كان عاصم يربت على كتفي ضاحكًا وهو يقول:

- ولا يهمك يا أكرم! لقد نامتا [يقصد زوجتي وزوجته]، وهما الآن تحلمان بنا!

وأتذكر، أيضًا وخاصةً، صراعاتنا في الحزب إبان تلك الانتخابات، حيث كان أفضل "وجه" في وسعنا ترشيحه لمجلس النقابة عن الشيوعيين يومذاك (من جماعة رياض) هو رفيقنا السابق بسام ع. الذي يمكن أن ينجح، بينما كان مَن في وسعنا ترشيحه من طرفنا – رفيقنا مروان قولي – غير مقبول ولا محبوبًا في صفوف المهندسين؛ أي أن خسارته كانت مضمونة! وأتذكر أن رأيي كان، لهذا السبب، ألا نرشح أحدًا، فنكتفي بدعم عاصم الذي يمكن اعتباره صديقًا لنا.

وكالمنام المزعج لتقرير مَن نرشِّح يمر أمامي شريطُ اجتماعنا مع قيادة الحزب آنذاك. فقد حَضَرَ ذلك الاجتماع من القيادة الرفيق يوسف فيصل (أبو خلدون)، الأمين العام المساعد، والرفيق عمر السباعي (أبو محمد)، عضو المكتب السياسي ووزير المواصلات، والرفيق مراد يوسف (أبو سامي)، عضو المكتب السياسي وسكرتير منطقية دمشق، والرفيق عبد الوهاب رشواني (أبو سعيد)، عضو اللجنة المركزية وعضو منطقية دمشق. ومن طرف فرعية المهندسين: مراد قوتلي (أبو راشد)، عضو لجنة المراقبة الحزبية، وأنا، إضافة إلى كلٍّ من الرفاق: مروان قولي، الذي كان البعض يرى ترشيحه، وصديقي (رحمه الله) سمير شاليش، من فرعية الجامعة، الذي كان على وشك أن يتخرج كمهندس. وأتذكر كم كان موقفي في ذلك الاجتماع حرجًا تجاه مروان (الذي كنت أحبه كثيرًا)، حين رفضت ترشيحه، ودافعت أمام قيادة الحزب عن رأيي باستبعاده والاكتفاء بدعم عاصم؛ وقد أيَّدني في هذا أبو راشد؛ بينما كان رأي سمير أن ندعم رفيقنا مروان. وكاد بعض رفاق القيادة أن يدعموا ذلك التوجه، لو لم يحسم الأمر حينئذٍ رفيقُنا يوسف فيصل، فيقترح أن "نعتمد ما يرتئيه رفاقُنا في فرعية المهندسين، لأنه يبدو لي الأصْوَب." وكان هذا ما حصل.

وأتذكر هنا، للمناسبة، نقاشاتي الحادة مع عاصم، الذي كان يرتئي أن ندعم ترشيح بسام ع. من جماعة رياض، لأنه الأفضل، ولأنه ورفاقه يبقون رفاقنا في النهاية. وأتذكر كيف كنت أرفض بحدة ذلك التوجه، لأن هؤلاء – كما هو منطق كلِّ انشقاق عقائدي – كانوا قد أضحوا في نظرنا "أعداء"! وأنا أعتقد اليوم أن عاصم كان على حقٍّ في طرحه.

وتأتي الانتخابات النقابية التي لم تكن نتائجُها بالنسبة لنا نصرًا كاسحًا على هشام الساطي وتوجُّهه. فلئن صحَّ أننا استطعنا إسقاط معظم قائمته، ومرَّرنا سميح فاخوري كنقيب للمهندسين، لكننا لم نستطع إسقاط كلِّ تلك القائمة، ولا إنجاح كلِّ قائمتنا. فقد نجح هشام رغمًا عنَّا، وبقي، رغم أنوفنا، رئيسًا لمؤسَّسة "صندوق تقاعُد المهندسين" (القوية والنافذة)؛ بينما فشل عاصم، الذي حارَبَه اليمين ولم يدعمه كلُّ اليسار، وخاصة العديد من مهندسي البعث الحاكم.

وأتذكر بعدئذٍ كيف تفجَّر خلافُنا مع سعد الله جبري في "الجمعية التعاونية السكنية للمهندسين"، وكيف حاولنا عَزْلَه – وكنَّا الأغلبية في لجنتها القيادية – ففشلنا بسبب تدخلات تجاوزتْنا، ولأن سعد الله كان

يتمتَّع بدعم وبتأييد الكثير من أعضاء الجمعية؛ وكيف استقلنا لهذا السبب، أربعة من أصل خمسة، بينما بقي سعد الله الذي حلَّ محلَّنا نحن الأربعة، بكلِّ بساطة، وتابع عمله كما يريد.

صراعات ومعارك وهمية، ربما؛ دون كيشوتية مع طواحين الهواء، ربما أيضًا. لكننا كنَّا نخوضها، على الرغم من هذا، بكلِّ حماس واندفاع، وكأن على نتائجها يتوقف مصير بلادنا وشعبنا! وقد أخطأنا كثيرًا حينئذٍ؛ ونحن نتحمل، إلى اليوم، مسؤولية أخطائنا. أخطأنا لغلوّنا، حين لم ندرك إلا لاحقًا جدًّا أن مَن استبعدناهم لخلاف عقائدي من رفاقنا السابقين في الحزب إنما كانوا الأطيب والأصفى، وأن مَن أنجحناهم على رأس نقابة المهندسين لم يكونوا الأفضل، إنما – لنقلها صراحة – كانوا أسوأ ممَّن سبقهم! لأن الأولين كانوا "شبعوا"، ربما، وامتلأت جيوبُهم، بينما كان على مَن جاء بعدهم أن ينتظر امتلاء جيوبه كي يشبع (إن شبع!). وهذه كانت صورة مصغرة لما جرى – وكان يجري حينئذٍ – في البلاد...

حيث كانت كلُّ الأمور تبدو وكأنها على ما يرام. وكنت غارقًا في عملي الهندسي في العسكرية، ومع مروان وفي مكتب أبي راشد. وفي عملي الحزبي، لم أكن أفكر كثيرًا فيما يجري من حولي في البلاد من تحركات. وأتذكر أنه...

جاءني ذات يوم إلى الورشة ابن عمي رزق الله رشدي، رحمه الله – وكان ما يزال طالبًا في كلِّية الهندسة – ليخبرني بنبأ صاعق: "عليك بالتوجُّه بسرعة إلى منزل أهلك، يا أكرم، لأن عمو جورج أصيب بوعكة. وقد نقلوه إلى المشفى الإيطالي!" فغادرت مباشرة، وتوجهت إلى منزل الأهل، الذي لم أجد فيه إلا شقيقتي ريما التي كانت تبكي، وشقيقي سمير – ريما التي قالت لي إن عمو جورج مات، وإن بابا وماما هما الآن في المشفى الإيطالي، إلى حيث نقلوه فور إصابته بالجلطة. وأسارع كالمجنون إلى هناك وأنا أبكي، مرددًا بيني وبين نفسي: "لماذا، لماذا غادرنا الآن، هذا التعس الذي أحببته، وفدانا بحياته، دون أن يعيش يومًا واحدًا لنفسه!"

وأجدني، وأنا أقتحم غرفة الانتظار الملاصقة لغرفته، أمام أمي وأبي ونساء عمومتي: ماري، زوجة المرحوم رزق الله، وعمي فلاديمير وزوجته ليندا، وأوديت مسابكي وزوجها، الذين لا يفوِّتون على أنفسهم أيًّا من هذه المناسبات "العظيمة"! وكان نقاش تافه يجري بين النسوة حول ما يمكن أن يكون تَرَكَه عمِّي جورج من مال وأين خبَّأه، وهل أمي وأبي يعرفان أو لا يعرفان به! وأُصعَق لقلة إحساس كهذه في طرح موضوع كهذا – وجثة المتوفى لم تبرد بعد! وأكاد أتدخل لأصرخ فيهن في غضب، لو لم يمسكني أبي من يدي ويُخرِجني من الغرفة ويجرني وراءه إلى حديقة المشفى، حيث أجلسني قربه على المقعد، وضمَّني إليه قبل أن يجهش بالبكاء وهو يقول:

- لقد مات جورج، يا أكرم... لقد مات جورج... لا أحد منهم يعرف ماذا كان جورج بالنسبة لي!

وأضمه إليَّ، ونبكي معًا.

مات عمي جورج، الذي شيَّعناه في اليوم نفسه، ولم يترك وراءه إلا بعض الكتب وحوالي العشرين ألف ليرة، استُعمِلَ معظمُها كنفقات على جنازته ودفنه. مات، ومازلت أذكره – هذا الذي درَّسني ودرَّس إكرام وسمير وريما. مات بين أحضاننا، نحن الذين أحببناه وشاركناه خبزنا. فلترحمه الألوهة وليبقَ ذكرُه مؤبدًا!

في البلاد، كان يبدو جليًّا من تحركات الجيش أننا كنَّا نتهيَّأ لشيء كبير قادم: لمعركة كان يبدو أنها ستكون مصيرية. من ناحيتي، كان هذا واضحًا جدًّا، ولو من خلال ذلك الإلحاح المتصاعد الذي كان يصرُّ على إنهاء المبنى الذي أصبحت مسؤولاً عنه، بعد أن أنهى مسعف، في مطلع العام 1973، خدمته العسكرية، وكذلك موقعه في الخدمة، وخاصة قبل أسبوع من بدء تلك الحرب التي أصبحنا نسمِّيها بـ"حرب تشرين التحريرية".

في 11 أيلول 1973، جرى في التشيلي انقلابٌ عسكري، يقوده قائد الجيش بدعم من الولايات المتحدة، فأطاح بحُكم رئيسها المنتخَب الاشتراكي سلفادور ألندي.

أما في منطقتنا، فكان اندلاع الحرب.

وأتذكر أنه يوم الخميس 4 تشرين الأول، أي قبل يومين من نشوب الحرب، كنت هيأتُ البناء الذي كنت مسؤولاً عنه، وخاصة منه القبو، ليستقبل مَن كان يُفترَض أن يستقبلهم يوم السبت، كما أخبروني.

أما يوم السبت صباحًا – ولم يكن قد حدث شيء بعد – فقد انتقل فعلاً إلى المبنى عددٌ من مكاتب الأركان العامة والأشغال العسكرية. وأتذكر أن دويَّ المدافع وأزيز الطائرات بدأ فعلاً في حدود الواحدة ظهرًا، الموعد الذي بدأنا فيه الهجوم على القوات الإسرائيلية المحتلة لأرضنا منذ "نكسة" حزيران 1967. عدت إلى المنزل يومئذٍ، وأصوات المدافع المسموعة في جميع أنحاء دمشق ترافقني، لأجد زوجتي تنتظرني بقلق، فتسألني:

- ماذا يا أكرم؟! يبدو أن الحرب قد اندلعت!
- نعم، يا منى... لكن هل اتصلت بالرفاق لتعرفي ما يجب عليك فعله؟
- لقد اتصلت بي أم سعيد، وحدَّدتْ لي موعدًا الساعة الخامسة، حيث يبدو أننا سنتطوع للخدمة في أحد المشافي.
- أما أنا، وعلى الرغم من أنهم لم يطلبوا مني شيئًا، فسأعود لأنام في موقع العمل. لأنه من غير اللائق أن أنام في المنزل، بينما أنت متطوِّعة وتنامين في المشفى.

وكان هذا ما حصل: قضيت تلك الليلة الأولى من الحرب ألعب الورق مع جورج وزملاء آخرين، كان موقع عملهم في متاع "مؤسَّسة تنفيذ الإنشاءات العسكرية"، قريبًا من ورشتي، ونستمع معًا إلى أخبار الحرب من المذياع – هذه الحرب التي يبدو أن حقَّقنا في بدايتها بعض النجاح: تمكَّنتْ القوات

المصرية، على ما يبدو، من عبور القنال واختراق خط بارليف؛ كما تمكَّنت قواتنا من اكتساح القوات الإسرائيلية المتموقعة على هضبة الجولان والتقدُّم إلى الأمام باتجاه طبريا.

بعض الملاحظات والانطباعات من اليومين الثاني والثالث من الحرب:

اليوم الثاني صباحًا: يقترب مني عسكري، كنت سابقًا قد عرَّفت به على أنه مرافق اللواء ساطع برمدا، ويقول لي: "ملازم أكرم، اللواء ساطع يطلبك." أسارع إلى اللحاق به، لأجد في إحدى غرف قبو البناء اللواء ساطع، وهو جالس القرفصاء أمام المدفأة. أحييه، فيرد التحية، ويسألني بكلِّ جدية:

- أكرم، يا بني، هل يمكن لك أن تؤمِّن لي فنجان قهوة يُشرَب؟

فأجيبه، وقد لحظته تعبًا ومتوعكًا بعض الشيء:

- طبعًا، سيدي. وهل تحتاج إلى أيِّ شيء آخر؟
- لا، يا بني... فقط ربما كتاب للقراءة، إن كان تحت يدك واحد.
- أمرك، سيدي... لكن الكتاب الذي معي بالفرنسية.
- هذا أفضل. شكرًا، يا أكرم، وانتبه لنفسك.

وأغادره لأؤمِّن له ما طلب، وأنا أفكر أنه إنسان مثلنا – ذلك المهندس من حارم وابن إحدى أعرق عائلاتها، الذي امتهن العسكرية، وهو الآن يشارف على نهاية خدمته – إنسان لا تشعر، حين تحتك به، إلا بكلِّ اللطف والمحبة، كما يُفترَض أن يكون البشر!

اليوم الثاني مساءً: عدت إلى المنزل لبعض الوقت لجلب بعض الحوائج وللالتقاء بزوجتي التي سألتها:

- كيف الأحوال عندك؟ فتجيبني...
- جيدة... لكن ما يخيفني، يا أكرم، أن عدد جرحانا كبير. ثم... هل تعرف أن إكرام وصلت من فرنسا، عن طريق بيروت، لتشارك في هذه الحرب!

إكرام التي ذهبتُ للقائها على الفور في بيت الأهل. أقضي معها حوالي الساعة، قبل أن أودِّعها عائدًا إلى ورشتي.

اليوم الثالث صباحًا: كنَّا جالسين في مكتبي، أنا وجورج وأنس زركلي وزميل لنا آخر لم أعد أذكر اسمه، نلعب الورق، ونحن نستمع إلى الأخبار في المذياع، وإلى دويِّ المدافع وهتاف الجنود في الخارج، وهم يتابعون – كالأطفال – معارك طيران كانت تدور، على ما يبدو، فوق دمشق، فوق رؤوسهم. وفجأة، دوَّتْ أصوات أربعة أو خمسة انفجارات هائلة، خلعتْ باب مكتبي وحطَّمتْ زجاج نافذة المكتب الذي تناثر من حولنا، ولكن من دون أن يُصاب أحدٌ منا بأذى. ويصرخ أنس: "القضية جد هذه المرة يا شباب!" ونخرج جميعًا من المكتب، لنتابع عن كثب ماذا يحدث. يومئذٍ، كانت الطائرات الإسرائيلية تقصف مواقع في قلب دمشق، فتصيب مبنى الأركان العامة وآمرية الطيران وبعض الأبنية المجاورة،

التي دُمِّرتْ بالكامل، في أحياء أبو رمانة والمالكي، وكذلك المبنى الذي كان يومئذٍ "المركز الثقافي السوفييتي"، الذي دُمِّرَ (وقد قُتِلَ نتيجة قصفه يومئذٍ رفيقُنا ومديره محمد أمين).

اليوم الثالث بعد الظهر: لم يبقَ أحدٌ في الورشة (والمبنى) إلا أنا وحارسان ومساعد من "الأشغال العسكرية". أما كل مَن كان من مختلف الإدارات، فقد نُقِلوا من هذا المكان المهدَّد بالقصف إلى أماكن انتشار أخرى.

أغادر الورشة قليلاً، لأجتمع بزوجتي وبشقيقتي إكرام اللتين كانتا في حال إحباط شديد: زوجتي لما كانت تراه في موقعها من مشاهد الجرحى والقتلى، وإكرام لأنه لم يأبه لها أحد، فيحاول مجرد الاستفادة من خدماتها.

اليوم الرابع قبيل الظهر: يأتيني مساعد من الأشغال العسكرية، ومعه شيء يريد تسليمي إياه: كمامة واقية من الغازات، في حال أن حصل وألقى العدو علينا قنابل غازية. فأسأله:

- لِمَ هذا؟ فيجيبني:
- هذه كمامة للوقاية من الغاز، يا سيدي. فهل تستلمونها منّي؟ لست أدري ما خطر لي آنذاك، فأجبته:
- لكن هناك أمي وأبي وأختي وأخي وزوجتي! ألا توجد أيضًا كمامات لهم؟ فيجيبني المساعد مستغربًا:
- لا، يا سيدي... نحن نوزِّع فقط على العسكر الذين نحن مسؤولون عنهم. وأجيبه:
- هل يُعقَل، إذن، إن شُنَّتْ حربٌ بالغازات، أن تموت عائلتي وأنجو أنا؟! فيقول لي، وقد ارتبك بالفعل:
- لكن، سيدي، أنا آسف... هذا ما أعطوني إياه.
- إذن... ما لم يكن استلامُ هذه الكمامة إجباريًّا، فلن أستلمها!

وكان هذا ما حصل.

اليوم الرابع بعد الظهر: أقابل منى في المنزل، فتطمئنني بأنها جيدة، لكنها تخبرني أن خسائرنا كبيرة، وأن شعورها، نتيجة ما تراه من ارتفاع عدد القتلى والجرحى، هو أننا بدأنا نخسر الحرب. فأطمئنها أنْ لا، لأنه ليس هذا ما تقوله إذاعاتنا التي تعمَّدتْ الصدق هذه المرة! ولكن، في قلبي كان ينتابني شعور أنها، ربما، كانت على حق.

اليوم الرابع مساءً: كنت مستلقيًا على ظهري وحيدًا، أستمع إلى خطاب الرئيس الأسد يتحدث عن الحرب ونتائجها الآنية المباشرة، عندما بدأ إطلاقٌ جنوني لنيران مختلف أنواع السلاح الخفيف، غطّى حينئذٍ سماء دمشق، وبثَّ الرعب في قلوب سكانها، غير المعتادين على حال كهذه، الذين اعتقد الكثيرون منهم أن إنزالاً إسرائيليًّا قد حصل! – قبل أن يعلموا – ونعلم معهم – أن هذا كان مجرد إطلاق نار من

جنودنا وقطعاتنا في داخل دمشق وحولها، حين سمعوا الرئيس يؤكد أن قواتنا وصلت في اليومين الأول والثاني من الحرب إلى مشارف طبريا.

وأسير في الورشة متفقدًا ما جرى، لأجد أحد حراسنا المساكين في موقعه، وقد أغمي عليه من فرط الخوف! – فأواسيه وأطمئنه. وفجأة، أرى جورج، الذي كان موقع عمله قرب ورشتي، يتجه إليَّ آتيًا من هناك، وهو يضحك.

- اسمع ما حدث معي، يا أكرم... كنت غارقًا في نوم عميق، عندما استيقظت مذعورًا على صوت إطلاق نار كثيف، فأمسكت بلا وعي بالهاتف الذي إلى جانبي، واتصلت بمركز قيادة متاع الضابط المناوب، وسألته: "هل هناك إنزال؟" فأجابني: كول خـ... وْلَكْ، هذا مجرد احتفال!"

وشعرت برغبة في البكاء...

كما شعرت في رغبة في البكاء أيضًا حين جاءني المساعد الذي معي في الورشة، ليخبرني مذعورًا أن الإسرائيليين، الذين كانوا قد ردُّوا، على ما يبدو، قواتنا المتقدمة على أعقابها وحققوا خرقًا في صفوفنا، وصلوا إلى سَعْسَعْ التي تقع على بعد 20 كم من دمشق! فصرخت به أن "كفى... كفى... ليصلوا إلى حيث يصلون... لكني سأبقى هنا!" لأنني اكتشفت، فجأة، أن هذا هو الأساس: أن نبقى! نعم، أن نبقى حيث نحن، على هذه الأرض التي نحن أبناؤها، وألا نتركها، مهما حصل... أن لا نفعل كما سبق وفعلنا عام 1948... ولا عام 1967... أن نبقى، أن نبقى – وبعده تخلق الآلهة ما لا نعلم!

انتهت الحرب بوقف لإطلاق النار على الجبهتين: على الجبهة المصرية، حيث يبدو أن الإسرائيليين حققوا خَرْقًا في الصفوف المصرية، وحاصروا قسمًا من قواتها في الإسماعيلية والديفرسوار، جنوب قنال السويس؛ وعلى جبهتنا، حيث تمَّ سد الثغرة واحتواؤهم، بانتظار هجوم مضاد لم يُتَحْ لنا القيامُ به.

وغادرتْ إكرام البلد خائبة عائدة إلى فرنسا – وكنت ألتقي بها كلَّ يوم قبل أن تذهب، فنتحدث ونتحدث، عن كلِّ شيء وعن لاشيء. فأخبرتني حينئذٍ أنها كانت عاشقة، وتعيش علاقة حبٍّ مع كاتب وشاعر سوري تعرَّفتْ إليه منذ فترة. لم أعلِّق على الموضوع يومذاك، وتمنيتُ لها التوفيق. لكنني لست أخفي أنني شعرت، حين أخبرتْني بهذا، بغُصَّة، لأن شعوري كان بأن هذه العلاقة ستنتهي إلى فشل، بسبب ما بين الاثنين من تفاوُت حضاري.

انتهت الحرب في الخامس والعشرين من تشرين الأول، إذن. ولست أدري، إلى الآن، هل كانت نتيجتُها، بالنسبة لنا كعرب، خسارة جديدة أم انتصارًا! انتهت، وفي حلق كلٍّ منا شعورٌ بالمرارة يذكِّرني، حين أتفكَّر فيه، بما قاله ذات يوم أنطوان دُهْ سانت إكزوبيري في كتابه الرائع طيران الليل:

عضلية الحرب لا تُرى. لأن الضربة التي تسدِّدها، هو الطفل الذي يتلقَّاها أولاً. لأنك، عند موعدها، سرعان ما تتعثر في طريقك بنساء يلدن. حيث لا جدوى من ادِّعاء تبادل معلومة، أو من تلقِّي أمر، كمباشرة مناقشة مع الشِّعرى اليمانية. لأنه ليس هناك جيش في النهاية، إنما، مجرد بشر...

لأن هذا كان ما فكرت فيه، وأنا أرى صور الجرحى والقتلى والأسرى على شاشة التلفزيون، أو كما حدَّثتني عنهم زوجتي وأصدقائي. لأنه، مهما قيل أو يقال، لا يوجد منتصر في أية حرب! لكن هذا كلَّه لم أكتشفه إلا لاحقًا جدًّا.

سُرِّحْتُ من الجيش في أواخر كانون الأول 1973. ووجدتُني بعدئذٍ مباشرة بين اختيارين، لم أتردد كثيرًا في اختيار ثانيهما؛ وهذان الخياران كانا: إما عودتي إلى أمانة العاصمة، كما طلب مني أبو سعيد (الرفيق عبد الوهاب رشواني)، حين قال لي، بكلِّ جدية: "يجب أن تعود إلى هناك، يا أكرم، لأن الحزب يحتاج هناك إلى رفيق يحتل موقعًا مسؤولاً." وإما ذلك الخيار الآخر، الذي وضعه أمامي فجأة ذات يوم، في أوائل العام، بعيد رأس السنة الجديدة 1974، رفيقُنا أبو محمد (عمر السباعي، وزير المواصلات)، الذي التقيت به مصادفة في مكتب أبو راشد، حين قال:

- هل تعلم، يا أكرم، أن هاشم قد ربح مناقصة لدراسة وتنفيذ جسرين على نهر الفرات في الميادين وقره قوزاك، وأنه في حاجة إلى مهندسَيْن "جدعين"، ليعهد إليهما بتنفيذ الجسرين وإرسالهما إلى موسكو في مهمة تدريبية؟ فما رأيك؟

وأجدني في اليوم التالي مباشرة – ولم أستشر في هذا ولا حتى زوجتي – قارعًا باب مكتب أبو الخير (المهندس هاشم العبيسي)، لأسأله عما أخبرني به أبو محمد. فيجيبني:

- نعم، هذا صحيح. لكن أمر المباشرة بهذا المشروع، والاتفاق مع الروس حوله، قد يستغرق حوالي شهرين أو ثلاثة. في أثناء ذلك، عليك أن تعمل في مشروع سكة حديد دير الزور – الحسكة – القامشلي الذي ننفِّذه الآن. فما رأيك؟

فاستفسره عن الراتب (الذي كان في حدود الـ1200 ل س، أي ضعفي ما يتقاضاه المهندس الموظف في دمشق)، وعن ظروف المعيشة، التي كانت في كامب في برَّاكات متنقِّلة. ومن دون الإمعان في التفكير، أخبره بأني موافق، ثم أعود إلى المنزل لأخبر منى بالأمر – منى التي وافقتْني مباشرة على قراري، وإن لاحظتُ أن عينيها دمعتا لأن هذا سيعني هَدْمَ ما بنيناه في دمشق خلال هاتين السنتين، والعودة من جديد إلى حياة المغامرة!

الفصل العاشر

ذكريات وتأمُّلات "جزراوية"

ذكريات وتأمُّلات "جزراوية"

كل شيء على ما يرام

يا سيدتي المركيزة

كل شيء على ما يرام

كل شيء على ما يرام...

(أغنية فرنسية ساخرة)

1

على هامش الاضطرابات الأخيرة... *

ما جرى مؤخرًا في البلاد، بدءًا من القامشلي والحسكة، وصولاً إلى دمشق وحلب وضواحيها، يُعيدني إلى أيام يرجع بعضُها، ربما، إلى ما يقارب الثلاثين سنة من الآن. وبالتالي، فإن ما أتفكَّر فيه ههنا هو مجرَّد انطباعات وأحداث متقطِّعة، سُجِّلَتْ في معظمها آنذاك، حين جعلتْني الحياة أتعرَّف إلى تلك المناطق الفقيرة والمهملة من بلادنا. وهي انطباعات خاصة وأحداث متفرقة قد لا يكون لبعضها علاقة مباشرة بالموضوع.

2

Доброе утро!

كان ذلك في أوائل العام 1974، بعدما انتهيت من أداء خدمة العلم، وبدأت عملاً جديدًا كمهندس لدى "شركة الأعمال الإنشائية" في مشروع سكة حديد دير الزور – الحسكة – القامشلي – عملاً التحقت به، على ما أذكر، في 1974/02/06.

وصلت إلى المخيِّم المُعَدِّ للورشة، حيث مركز عملنا، والواقع في منطقة جرداء وسط البادية، على بعد 10 كم من مدينة الحسكة. اسم المكان – ولست أعرف السبب في ذلك – كان "صباح الخير" أو Доброе утро ["دوبرايْ أوترا"]، كما كان يدعوه الخبراء الروس العاملون معنا في المشروع.

وكان أول مَن التقيت به صديقي من الكلِّية (معاون مدير الموقع) عزيز داود الذي انقطعت عنه منذ تخرُّجنا. كان جالسًا على سريره يخطُّ رسالة؛ وحين سألته عمَّا يكتب، ضحك وأجابني:

---

* يُقصد بها أحداث القامشلي 2004 التي حدثت إثر مباراة كرة قدم بين فريقي الجهاد والفتوة ونتج عنها مواجهات بين الأكراد والعشائر العربية. انظر ويكيبيديا.

- أكتب رسالة لصديقي وزميلنا المهندس ... [لم أعد أذكر اسمه]، لأن هذا الأحمق (مثلك تمامًا يا أكرم) أخبرني أنه يفكر في المجيء إلى هنا لكي يعمل معنا...
- وبِمَ أجبته؟
- أنا أصف له الطبيعة الخضراء الجميلة المحيطة بنا لأقنعه بالإسراع في المجيء...
- لكن... أين ترى هذه الخضرة، وكلُّ ما حولنا هو تلك البادية الجرداء وغبارها؟!
- انظر إلى حوض الخبّيزة الذي إلى جانبي، وتأمَّل الخضرة ههنا!

كان هذا هو انطباعي المؤثر الأول عن هذه المنطقة، حيث مركز عملنا. أما انطباعي الثاني فكان حين تعرفت إلى طبَّاخ الورشة الملقَّب بـ"أبو جوزيف".

- استمع فقط، يا أكرم، ودعه يتكلَّم.

كان هذا ما وشوشني به بركات ظاظا (رحمه الله) حين جلسنا معًا إلى مائدة المطعم. ثم استدار، موجِّهًا كلامه إلى ذلك العجوز ذي التقاطيع الحادة الواقف أمامنا ليسأله:

- اجلس وحدِّثنا، يا أبو جوزيف... حدِّثنا كيف أصبحت ذات يوم شيوعيًّا...

وابتسم أبو جوزيف ابتسامة عريضة، ثم تربَّع أمامنا بكلِّ أبهة، ليكرِّر، للمرة الـ...، تلك القصة التي كان يعيدها على مسامع كلِّ قادم جديد يتعرف إليه...

- ... أنا من "مشتى الحلو"، كما تعلمون... كان هذا في أواسط الخمسينات... في حينه كنت ما أزال شابًّا عندما أقنعني أحد الأصدقاء بحضور حفل للشيوعيين – حفل سيلقي فيه "ابن ضيعتنا"، الأستاذ دانيال نعمي، خطابًا هامًا. فحضرت الحفل، وأعجبت بالخطاب الذي صفَّقت له كثيرًا (رغم أني لم أفهم منه شيئًا)... وقررت، بعد ذلك بفترة وجيزة، الانتساب إلى الحزب الشيوعي، علَّني أجني من هذا نفعًا ماديًّا لي ولعائلتي... فالشيوعيون في بلدتنا كانوا أقوياء في حينه، كما تعلمون...
- ثم ماذا يا أبو جوزيف؟
- ثم ماذا! ثم ماذا! انتسبت إلى الحزب، فرحبوا بي لأني كنت فقيرًا معدمًا، ولأن الحزب، كما قالوا لي يومئذٍ، هو حزب للفقراء من أمثالي... ودعوني يومها للذهاب معهم إلى قرية مجاورة في المنطقة... إلى "حب نمرة"، حيث كان يقام مهرجان، وحيث رحَّب بنا الرفاق، وغدُّونا صفيحة ولبن... وحيث ألقى الرفيق دانيال وآخرون خطبًا لم أفهم منها شيئًا، وصفَّقتُ لها كثيرًا... فقد كنت يومها مسرورًا جدًّا... لأنه ليس كلَّ يوم آكل صفيحة...
- ثم ماذا يا أبو جوزيف؟ لماذا انسحبت بعدها من الحزب؟
- لأنه، بعد هذا بأيام، أخبرونا أن وفدًا من "حب نمرة" ومن "المشتايي" ومن ضيع مجاورة أخرى سيأتي إلى عندنا ليردَّ الزيارة، ولأنه، كما تقضي التقاليد، من الواجب أن نستقبلهم استقبالاً لائقًا

وأن نغذِّيهم... فكُلِّفَ كلُّ رفيق بإحضار شيء من أجل هذا... وكُلِّفْتُ أنا بإحضار خمسة كيلوات من الخبز وثلاثة كيلوات من اللبن!!! ورجعت إلى بيتي مطأطئ الرأس حزينًا، أفكِّر في تلك الورطة التي علقت بها... لم أستطع النوم في تلك الليلة... من أين سأحضر لهم خمسة كيلوات خبز وثلاثة كيلوات لبن؟! وكيف ومن أين سأدفع ثمنها؟! ثم... ألله يستر! ماذا يمكن أن يطلبوا منِّي بعد هذا؟! ونظرت إلى أم جوزيف وإلى الأولاد وإلى وجوههم الشاحبة وثيابهم المهترئة... واتخذت قراري...

- وماذا كان قرارك يا أبو جوزيف؟
- ذهبت إلى مسؤولي الحزبي، وأخبرته أني قررت الانسحاب من الحزب الشيوعي!

أما انطباعي الثالث، الأهم والأعمق، الذي تكوَّن خلال الأشهر الخمسة التي قضيتها في تلك المنطقة التي لم أكن أعرفها من قبل، فكان من خلال التعرُّف إلى طبيعتها وإلى أهلها. فهذه كانت المرة الأولى التي أرى فيها الحسكة والقامشلي وما حولهما.

كان معظم عمال الورشة، حيث كنَّا نعمل، من أبناء المنطقة: خليط عجيب من الأكراد والأرمن و... "الشوايا"...

لأنه هكذا كانوا يسمُّون تلك الفئة الأفقر والأكثر تخلفًا من البدو الذين لم يتحضَّروا إلى الآن. فالأكراد في ورشتنا كانوا عمالاً من أصول فلاحية، لا يتقنون العربية ولا يحملون، في معظمهم، الهوية السورية. أما المسيحيون الأرمن من أبناء المنطقة، الذين كانوا أرقى منهم قليلاً، فكانوا نجَّارين و/أو حدادين...

وأقرأ ذات يوم، مكتوبًا بالطبشور الأحمر داخل إحدى العبَّارات، أنْ ههنا "... في هذه العبَّارة نـ... كوكو ويرونت وضحة"! أتذكر هذا جيدًا، لأني تعرفت إلى كوكو ويرونت، اللذين كانا من أفضل نجَّاري البيتون في ورشتنا؛ كما عرفت أيضًا وضحة، التي كانت ابنة أحد حراسنا الشوايا والتي كانت تبيع "مفاتنها" لمن يعجبها و/أو يُعجَب بها من عمال الورشة ومهندسيها!

نعم، مازلت أتذكر جيدًا تلك المنطقة البائسة المسكينة وسكانها، وما قيل لي من أن غالبية سكان مدينة القامشلي، آنذاك، كانوا من المسيحيين (السريان والكلدان والآشوريين وبعض الأرمن)، الذين كانت تسكن إلى جوارهم أقلِّيات كبيرة نسبيًّا من الأكراد ومن البدو... ومن أن بوسعي، إن شئت، التوجُّه من هنا مباشرة إلى تركيا عن "طريق القشق" لشراء بعض الأغراض. فمنطقة الحدود مفتوحة هناك؛ والأتراك غالبًا ما يأتون إلى عندنا للتبضُّع و/أو لأسباب أمنية أخرى، كما نذهب نحن إلى عندهم للتبضُّع...

أما مدينة الحسكة فكانت ذات تركيبة مشابهة لتركيبة القامشلي؛ لكن نسبة العرب البدو فيها كانت أكبر. والمَعْلَم السياحي الوحيد فيها آنذاك كان "الفندق الزراعي" الذي كنَّا نذهب إليه مرتين في الأسبوع للعشاء و/أو لاحتساء البيرة.

وأنا أعلم اليوم، كما يعلم الجميع، أن الأحوال تغيرت: فمسيحيو المنطقة هاجروا، في معظمهم، إلى أمريكا أو السويد أو إلى المدن الداخلية في البلد، وأضحى الباقون منهم، بالتالي، مجرَّد أقلِّية صغيرة، بينما أصبح الأكراد هم الأكثرية الساحقة.

وكانت المشكلة المستعصية التي خبرتها مباشرة آنذاك، والتي لم تجد حلاً إلى الآن، هي مشكلة الأكراد غير المجنَّسين...

- لأنهم، في معظمهم، ليسوا من سورية؛ إنما هربوا إلى هنا من تركيا أو من العراق...

هذا ما قاله لي، في حينه، مدير إحدى النواحي الذي كان من دير الزور، والذي التقيت به مصادفة في النادي الزراعي في الحسكة.

- لأنهم، في معظمهم، من أبناء هذه المنطقة غير الواضحة الحدود والمعالم، حيث يتم الانتقال بسهولة فائقة من هذا الطرف إلى ذاك.

هذا ما أجابني به أحد "الرفاق" حين سألته عن الموضوع.

يومذاك، كان الحزب الشيوعي السوري، القوي نسبيًّا بين الأكراد والمسيحيين، يطالب بتجنيس أكراد المنطقة ومنحهم الهوية السورية. وكانت الدولة (و"حزبها القائد") ترفض هذا الحلَّ الذي نسيه (أو تناساه) الشيوعيون بعدئذٍ! والحديث كان يجري عن "حزام عربي" يُحاط به أكراد المنطقة، يضمن لها، من منظور السلطة، أكثريةً عربيةً، من جهة، ويشكِّل فاصلاً بينهم وبين أكراد تركيا والعراق، من جهة ثانية... مشروع فاشل من جملة تلك المشاريع "الصميدعية" غير المعقولة، التي لم تستطع دولتنا طبعًا تنفيذها... وأيضًا...

تقع الحسكة والقامشلي، وكذلك معظم القرى والمناطق السكنية المأهولة هناك، على نهر الخابور الذي ينبع من داخل الأراضي التركية على مقربة من الحدود – هذا النهر الذي كان يسير متدفقًا داخل الأراضي السورية ليروي سهولها الغنية (افتراضيًّا)، حيث يُزرَع القمح والشعير والقطن، قبل أن يصبَّ في نهر الفرات قرب دير الزور، عند منطقة البصيرة، حيث كانت شركتنا تبني جسرًا صغيرًا...

وكان جسر البصيرة، الذي تعهَّدتْه شركتنا، يعاني من مشكلة فنية هامة ومستعصية الحلِّ، تعود إلى خطأ تصميمي في فتحته المائية، التي كانت أصغر من أن تستوعب كامل تدفق المياه أيام الفيضان، الأمر الذي كان يعرِّض مساند الجسر للحتِّ الشديد... مشكلة حاولتْ شركتنا جاهدة حلَّها، بمعونة الخبراء الروس، عن طريق رصف جوانب النهر وقاعه في الموقع بالغابيونات والحجارة... مشكلة حلَّت نفسها بنفسها مع الأيام، حين توقف نهر الخابور عن التدفق، بعد أن شُفِطَتْ مياهُه من ينابيعها، من قِبَلِنا ومن قِبَل الأتراك القاطنين قرب هذه الينابيع في المناطق الحدودية.

3

الميادين 1975: الانطباعات الأولى

في أواسط العام 1974، كلَّفني مدير الشركة، المهندس هاشم العبيسي (رحمه الله)، بمهمة الإشراف على جسر البصيرة، من جهة، إضافة إلى التنسيق المحلِّي بين الشركة وبين تلك المجموعة من الخبراء الروس الذين كنَّا تَعَاقَدْنا معهم على الدراسة والإشراف على تنفيذ جسرين على نهر الفرات: في الميادين (جنوب شرق دير الزور) وفي قره قوزاك (شمال شرق حلب ومنبج)، من جهة أخرى.

وأجد نفسي لأول مرة هناك، راكبًا سيارة جيب "واز" تسير ببطء على ذلك الطريق السيئ التعبيد والواصل بين دير الزور والميادين. كنت أقاوم النعاس وأنا أتابع الأسماء الغريبة لتلك القرى الفقيرة وهي تتكرَّر أمامي، والتي كان آخرها بقرص فوقاني ثم بقرص تحتاني، قبل أن أطلب من السائق، الذي كان اسمه قدري ... – وكان من أكراد عفرين – أن يتوقف قليلاً، لأني قررت معاينة منظر غريب لم أكن رأيت مثله من قبل.

هناك، كانت مدرسة ابتدائية تتألف من غرفتين؛ وأمامها أستاذ يلقِّن تلاميذه درسًا في الهواء الطلق. وأكتشف أن إحدى هاتين الغرفتين كانت تُستعمَل لمعيشة الأستاذ، بينما كانت الثانية تُستعمَل، من حيث المبدأ، للتدريس. وأكتشف أن الدرس الذي كان يلقِّنه الأستاذ لتلاميذه إنما هو في الحقيقة لثلاثة صفوف في آنٍ واحد: الصف الأول، وكان طلابه حوالي العشرة نيامًا (أي درس قيلولة)؛ بينما كان طلاب الصف الثاني يكتبون (أي درس نسخ أو كتابة)؛ أما الأستاذ فكان يشرح درسًا في الحساب لطلاب الصف الثالث الذين كانوا يستمعون إليه متثائبين! توقفت قليلاً، ثم سرعان ما انسحبت لأن الطلاب بدؤوا يتلهَّوْن في النظر إلينا، مما أغضب الأستاذ الذي بدأ يرمقنا بنظرات شزرة.

وبعد "بقرص تحتاني"، كانت هناك قرية أخرى؛ ثم الميادين "ترحِّب بنا"... وأنظر إلى ما حولي متعجبًا: فها أنا ذا الآن في تلك البلدة، حيث عمل خالي إميل أستاذًا في الأربعينات؛ تلك البلدة البائسة والكئيبة المؤلَّفة من شارعين أساسيين متقاطعين عموديًّا. وعند التقاطع، في الجهة اليمنى، كان يوجد مقهى. وأيضًا، كانت توجد في البلدة آنذاك، إضافة إلى بيوتها الريفية المبنية من البيتون القميء والبلوك أو اللِّبن، بعض الأبنية الحكومية، كبناء البلدية ومدرسة ومستوصف وبعض الأبنية السكنية الخاصة الأرقى، العائدة، ربما، لبعض أغنياء المنطقة.

ونسأل عن منزل الدكتور محمود الشعيبي، الذي حصلنا على عنوانه من صديق لنا في دير الزور، لنتدبَّر عن طريقه استئجار منزلين للخبراء وللعمل...

لأني فضَّلتُ، في حينه، الإقامة في "كرفانة" الورشة، التي اتخذت من إحدى غرفها مكانًا لمنامتي، بينما جعلت من الأخرى مكتبًا للعمل – والعمل كان تلك التحريات الجيولوجية والأعمال المَساحية التي باشرنا

بها فور وصول الخبراء الروس، عندما أرسل لنا هاشم الحفَّارة والرافعة الصغيرة والزورق والعوامات وكلَّ ما يستلزمه الأمر من معدات تمكِّننا من الحفر في مجرى النهر... وفيما يلي بعض انطباعاتي عن تلك المنطقة وعن عملنا فيها آنذاك:

لست نادمًا لاختياري النوم في البرَّاكة. فهنا، على الأقل، بوسعي القراءة قبل النوم وأنا أستمع إلى أصوات نقيق الضفادع. أما السائق كدري (بالكردية) فكان ينام على الأرض في غرفة المكتب، بينما ينام حارس الموقع (الشاوي) أبو أحمد في خيمته...

العمال الذين تعاقدنا معهم آنذاك من أبناء المنطقة: ستة شباب في مقتبل العمر، لطفاء جدًّا – وخاصة منهم ذلك المدعو محمود العليوي، الذي بدا أكثرهم جدية وذكاء. وكانوا جميعًا من الشوايا...

أصبحت هنا مولعًا بزيارة المواقع الأثرية الكثيرة جدًّا في المنطقة... في أعلى الهضبة المشرفة على الميادين، توجد قلعة أيوبية متداعية... وفي بقرص، قبل الميادين، هناك موقع آخر هو عبارة عن آثار قرية تعود، كما قيل لنا، إلى العصر الحجري، أي إلى الألفية الخامسة ق م؛ وكانت تنقِّب فيها آنذاك بعثة هولندية (لم يرحِّبوا بنا)... وفي العشارة، الواقعة على نهر الفرات بعد 10 كم جنوب شرق الميادين، هناك موقع ثالث سومري، كانت تنقِّب فيه بعثة أمريكية (أيضًا لم يرحِّبوا بنا). أما أجمل وأهم ما رأيت فكانت آثار الصالحية، تلك المدينة الرومانية على ضفاف الفرات، التي عُرِفَتْ ذات يوم بـ"دورا أوروبوس"، حيث تم اكتشاف كنيس يهودي قديم [موجود الآن في متحف دمشق الوطني]، و... آثار ماري، الأبعد منها قليلاً في اتجاه البوكمال، التي اكتشفها الفرنسيون أيام الانتداب. وألاحظ أن السكان المحليين بدؤوا يهتمون بآثار منطقتهم.

وهنالك على الطريق، بين الميادين والبوكمال، إلى جانب الفرات مباشرة، قرية اسمها العطشانة! وأتساءل حول كيف ولماذا هي "عطشانة"، وهي على بعد خمسين مترًا فقط من النهر؟!

سمعت اليوم شائعة قوية تتحدث عن وجود بترول في البادية جنوب الميادين...

يبدو لي وكأن لا علاقة لسكان المنطقة بالدولة السورية. فمشاعرهم ضعيفة جدًّا تجاهها، سواء من حيث الانتماء و/أو من حيث الولاء... ربما لأنهم، بحكم أصولهم وارتباطاتهم البدوية، يشعرون أنهم أكثر قربًا إلى عشائرهم التي في العراق... هنا أشعر بنفسي وكأني في العراق...

الدكتور محمود شخص جدير بالاهتمام. هو يعرف الفرنسية جيدًا. وكان درس الطب، كما أخبرني، في سويسرا في الخمسينات، ثم عاد بعدئذٍ من جنيف إلى الميادين (يا إلهي، ما الذي أعاده إلى هنا؟!). وكان، كما أخبرني وهو يضحك، من البعثيين الأوائل... من أصدقاء ميشيل عفلق وصلاح البيطار وجلال السيد...

تعرفت اليوم إلى أستاذَيْ مدرسة حكومية ابتدائية (كتلك التي توقفت عندها لدى قدومي إلى البلدة للمرة الأولى). طلبا منِّي الإذن بأن أعبر بهما النهر معنا في الزورق كلَّ صباح كي يلتحقا بمدرستهما الواقعة على الطرف الآخر من النهر (أي في الجزيرة)، ثم بأن نعيدهما في المساء إلى الميادين (أي إلى الشامية). وقد عرضا عليَّ بعض المال مقابل هذا، لكنِّي رفضت بحزم ووافقت على نقلهم مجانًا... لكن ما لفت انتباهي هو أنهما من منطقة حماه وأنهما، أيضًا وخاصةً، من "الإخوان المسلمين"...
أنهينا أعمال التحريات في موقع الميادين في 15 آب 1974، وباشرنا بعد أسبوع تحرياتنا في موقع...

4

قره قوزاك: انطباعات أولية

فيما يلي بعض من انطباعاتي الأولية المتعلِّقة بتلك المنطقة الممتدة ما بين حلب ومنبج وقره قوزاك على نهر الفرات، حيث عملت ما بين أواخر آب وأواسط كانون الأول 1974:
أول ما يلحظه المرء في قره قوزاك، في أعلى المسار من موقع الجسر، هو جزيرة صغيرة تقع وسط النهر ويرفرف عليها العلم التركي... لأنه، كما علمت، تعود ملكية هذا الموقع إلى تركيا التي وضعت فيه مفرزة من عشرة عساكر وضابط من أجل حراسة مزار أحد الأولياء الأتراك... وعلمت أيضًا أنه يتم استبدال عناصر هذه المفرزة مرة كلَّ شهرين...
عمَّالنا للتحريات الجيولوجية والمساحة كانوا خمسة في بادئ الأمر. وقد جئنا بهم جميعًا من الميادين: أقصد محمود العليوي ورفاقه الذين تعاقدوا معنا بأجر زهيد، لأنه لم يكن يوجد عمل لهم في منطقتهم. [كانوا في الأصل ستة، لكني استثنيت من هذه الشلة آنذاك محمودًا (الآخر) لأنه كان أقلَّهم ذكاءً، من وجهة نظري.] وقد أقمنا "الكمب" – الكرفانات والخيام والسيارات – قرب "كازية" [محطة وقود] تقع خارج منبج، على الطريق العام المتجه إلى جرابلس (موقع عملنا). أما أنا فكنت أنام في حلب، حيث استأجرت منزلاً لي ولزوجتي. هنا صار بوسعي العودة إلى منزلي كلَّ مساء؛ فقره قوزاك تبعد فقط حوالى الـ35 كم عن حلب...
وصلت اليوم إلى الورشة، ولاحظت أن العمال مرتبكون، وينظرون إليَّ متبسمين، لكنْ بقلق... تقدم منِّي محمود العليوي وأخبرني أن زميله محمود (الآخر) من الميادين [ذلك الذي استثنيته من العمل معنا في قره قوزاك] ينتظرني في المكتب. ودخلت إلى المكتب... حيث وجدت محمودًا جالسًا على أحد الكراسي، وقد وضع صرة الثياب التي معه على مكتبي. ومعه كانت تجلس أيضًا على الأرض زوجته، التي كانت تحتضن ابنها الرضيع، ووالدته... ونظر إليَّ محمود عابسًا، وقال لي بلا مقدمات: "أريد أن أعمل!"

وشعرت بالخجل الشديد من نفسي، وبرغبة في البكاء... "يا إلهي، ما الذي فعلت؟! وكيف استثنيته وحيدًا من العمل واصطحبت رفاقه؟!" كان موقفي مخجلاً فعلاً، ولا أُحْسَدُ عليه. وأفكر بسرعة أنه، سواء كانت هناك ضرورةٍ لوجوده أم لم تكن، فإنه لم يكن أمامي إلا حلٌّ وحيد... قلت له:

- أهلاً بك يا محمود! التحق مباشرة برفاقك...

تبدو المنطقة هنا أغنى من منطقة الميادين. ربما كان هذا بسبب وقوعها قرب حلب؛ فهي أيضًا منطقة زراعية. لكن يبدو أن النشاط الرئيسي لسكانها لا علاقة له كثيرًا بالزراعة، حيث غالبًا ما كنت ألحظ على الطريق سيارات عناصر المكافحة الذين كانوا يوقفونا أحيانًا للتأكد من أننا لا نحمل مهرَّبات.

وصلت ذات صباح إلى موقع الورشة (قرب الكازية)، فرأيت العمال (أيضًا) مضطربين، فسألتهم عن السبب: "ما الأمر يا شباب؟ ولماذا أنتم على هذه الحال؟!" وبدأ محمود العليوي الكلام ليقصَّ عليَّ ما حدث معهم في الليلة الفائتة، عندما قاطعه رفاقه وأصبحوا يكلِّمونني جميعًا، في آنٍ واحد وبانفعال شديد. وما أخبروني هو أنه وصلت إلى هنا، بعد منتصف الليل، حوالي العشرين حافلة كبيرة محمَّلة ومغطاة بالشوادر. ونزل منها سائقوها ومعهم أناس ملثَّمون ومسلَّحون يحملون جميعًا الرشاشات، وطوَّقوا المكان... ثم قاموا بتعبئة سياراتهم بالوقود... وبعد هذا غادروا وهم يضحكون...

- دخيلك، يا أستاذ، لقد صرنا نخاف... انقلنا من هنا...

وأفكر في الموضوع الذي كان من الواضح أنه عبارة عن "تهريبة" هامة... وأقرِّر نقلهم إلى موقع العمل نفسه، إلى قره قوزاك على ضفة النهر، بعد أن أحضرت من حلب إلى هناك، بالاتفاق مع هاشم، مولِّدة كهربائية صغيرة وصهريج ماء.

طريفٌ هو التهريب في هذه المنطقة القريبة من الحدود التركية، وطريفة فعالية دولتنا وجماركنا في مكافحته! لأنه، كما سبق وأشرت، غالبًا ما كنَّا نصادف على الطريق سيارات المكافحة وهي تتحرَّى؛ ولكن، أحيانًا أيضًا، كنَّا نلحظ الاختفاء التام لسيارات المكافحة مدة يوم كامل أو بضع ساعات، نلحظ خلالها ازدياد نشاط السيارات المحمَّلة بالمهرَّبات، تعود الأمور بعدها إلى حالها من جديد... وقد كان هذا الأمر، المعروف جدًّا في تلك المنطقة – كما في منطقة البقيعة عند الحدود اللبنانية – يدعى بـ"شراء الطريق"!

غالبية سكان المنطقة هنا من البدو "المتحضِّر". لكن في المنطقة أيضًا، وخاصةً في منطقة منبج وبالقرب منها، يوجد الكثير من الأكراد والشركس وبعض المسيحيين؛ وجميعهم كانوا مزارعين و/أو تجار. كذلك الأمر في جرابلس، التي زرتها ذات يوم وتركت فيَّ انطباعًا بأنها كانت، حتى ماضٍ ليس ببعيد، بلدة جميلة ومزدهرة... أيام فرنسا...

زرت جرابلس آنذاك لأنه كان يجب علينا القيام بقياسات مائية على النهر قرب الحدود التركية. ويُعيدني موضوع تلك القياسات المائية إلى المشكلة التي واجهتْنا في حينه، المتعلقة بالمنسوب المفترَض للجسر

الذي نزمع على إنشاءه. لأنه، وقد انتهى تقريبًا العمل في سدِّ الطبقة (أو لنقل ما كان يدعى بالمرحلة الأولى منه حتى المنسوب + 308، على ما أذكر)، كان إنشاء الجسر يتطلَّب التحوُّط لما سيأتي، أي أخذ بعين الاعتبار المرحلة الثانية (الممكنة) لتطور السدِّ (حتى المنسوب + 320)، وتوقُّع الحدِّ الأعظم لما يمكن أن يأتينا من مياه من تركيا. وأتذكر أنه، بعد مراسلات مكثَّفة بين شركتنا وبين الجهات المختصة عن طريق رئاسة مجلس الوزراء، اتُّخِذَ قرارٌ ببناء جسر قره قوزاك، مع أخذ بعين الاعتبار المرحلة الثانية من سدِّ الطبقة. كلُّ هذا كان جيدًا جدًّا ولكن... بعد أن انتهى بناء الجسر في قره قوزاك، يبدو أن قرارًا آخر اتُّخِذَ بالاستعاضة عن المرحلة الثانية من سدِّ الطبقة بسدٍّ آخر يقع في منطقة يوسف باشا؛ مما صار يعني، على أرض الواقع، أن مياه السدِّ الجديد ستغمر الجسر الذي بنيناه، وأنهم سيبنون مكانه جسرًا جديدًا... بسيطة، نحن أغنياء!

غادرتُ قره قوزاك في أواسط كانون الأول 1974بعد أن أنهينا أعمال التحريات. أما في الثاني من كانون الثاني 1975 فقد سافرت إلى موسكو للمشاركة في دراسة جسرَي الميادين وقره قوزاك، ومكثت هناك ستة أشهر...

5

جسر الميادين (1975–1978)

كنت أسير متمهلاً في حيِّ الصالحية في دمشق، متدرِّجًا إلى مكتبي، عندما استوقفني رجلٌ كهل أمسك بي بقوة وصاح بلهفة:

- يا أستاذ أكرم... يا أستاذ أكرم... كدت لا أعرفك!

وعرفته فجأة! لقد كان أحد هؤلاء العمال الستة الذين أضحوا من بعدُ من أعزِّ أصدقائي. ذلك المحمود (الآخر) من الميادين... كان هذا في العام 1999، أي بعد انقضاء 21 سنة على انتهاء الجسر هناك... وتعانقنا بحرارة، بينما كان محمود يردِّد باكيًا:

- يا أستاذ... يا أستاذ... لماذا تركتنا؟!

لأني، بعد انتهاء الجسر، كنت تركتهم فعلاً ولم أعد بعدئذٍ إلى المنطقة... لكني مازلت، حتى هذه اللحظة، أشعر بغصة حين أتذكر تلك الأيام، كما أشعر بالحنين – تلك الأيام التي أسجِّل حولها بعض الملاحظات:

بدأت تهيئة موقع العمل قبل وصول الخبراء، عندما صادفتْني أولى المشاكل، المتمثِّلة بالمتطلَّبات الخاصة جدًّا لمدير الناحية، الذي جاءني إلى الورشة، محاولاً وضع اليد على مقلع الحصى العائد لنا أو مشاركتنا فيه. ورفضت طلبه، وكادت الأمور أن تتطور بيننا بشكل لا تُحمَد عقباه بالنسبة لي. لكنْ، لست أدري كيف خطرت ببالي فكرة أن اقترح عليه الذهاب إلى السيد محافظ دير الزور للاحتكام. فقَبِل

الاقتراح مباشرة، مما جعلني أتشاءم مسبقًا من نتيجة ذلك التحكيم الذي كنت أتوقَّعه لصالحه. وذهبنا معًا لمقابلة المحافظ الذي استقبلنا مباشرة؛ ثم، بعد أن استمع إلينا يعرض كلٌّ منَّا وجهة نظره، سارع ليأمر مدير الناحية – بحزم وعلى الفور – أن يبتعد عن الورشة وعن المقلع المخصَّص للجسر حصرًا. لم يجرؤ مدير الناحية أن يناقشه، وخرج وهو يجرجر خيبته؛ بينما استوقفني المحافظ قليلاً، ليقول لي بصوت منخفض:

- ... إن أزعجك أو طلب منك أيٌّ من هؤلاء الـ... شيئًا حوِّله إليَّ...

فشكرته وخرجت حائرًا... لأن انطباعي قبل هذا اللقاء كان أن جميع المسؤولين في تلك المناطق فاسدون...

وما حصل بالفعل بعدئذٍ كان أن حاول بعض مسؤولي الدرجة الأدنى في شعبة الحزب في الميادين أو من المخابرات الاتصال بي لتأمين استعارة رافعة و/أو قلاب لخدماتهم الخاصة؛ فكنت أحوِّلهم مباشرة إلى المحافظ ليأتوني بأمر خطِّي منه، منهيًا الأمر عند هذا الحد... وأستفسر، من باب الفضول، عن شخصه، فأعرف أنه بعثي، حموي من عائلة البيطار... وأتذكر أني حدَّثت عنه هاشم، الذي كان أيضًا من حماه، فأجابني:

- أعرفه... أعتقد أن بإمكانك الوثوق به... لأن سمعته في البلد جيدة جدًّا...

أقول هذا حين أتذكَّر تلك الأيام – ليس فقط لأن هذا المسؤول حماني إبان تلك السنوات الثلاث التي قضيتها في الميادين، وليس أيضًا لأنه خلال هذه السنوات نشأ بيننا نوع من علاقة الثقة والاحترام المتبادل، إن لم أقل شكل من أشكال الصداقة – إنما لأن الأيام والسنون التي تَلَتْ بيَّنت لي أن هذا الإنسان كان شخصًا كبيرًا فعلاً ومحترمًا جدًّا...

- ... اجلس، يا أكرم، لأحدِّثك قليلاً عن صاحبك من بيت البيطار الذي تعرفت إليه في الميادين...

هكذا قال لي ذات مرة (أبو الخير) هاشم بعد ما يقارب العشر سنوات من ذلك التاريخ.

- ... لقد أبعدوه، كما تعلم، عن منصبه كمحافظ وكمسؤول حزبي لأنه لم يعجبهم. فعاد إلى حماه ليدير دكان والده المتوفى الذي كان بائع زجاج. وهو مازال إلى الآن في دكانه هناك... لكن ليس هذا هو المهم، لأن المهم هو ما سأحدِّثك عنه: حين اعتُقِلَ هناك مع أبناء حيِّه، في أثناء أحداث العام 1982، كاد أن يتعرَّض للإعدام التعسفي لو لم يتعرَّف إليه أحدُ رفاقه في الحزب، فينبِّه الضباط المسؤولين عن فِرَقِ الإعدام بأن هذا الشخص "رفيق" وأنه كان محافظًا ومسؤولاً حزبيًّا بعثيًّا مرموقًا؛ فأخرجوه من بين الجمع ليعفوا عنه... لكن، هل تتصور يا أكرم ماذا كان موقفه في تلك اللحظة؟ لقد رفض العفو إن لم يشمل جميع أبناء حيِّه! وهذا ما حصل... مازال في الدنيا خير يا أكرم، مازال في الدنيا خير...

هذا ما كان يردّده أمامي صديقي ومعلّمي هاشم قبل فترة وجيزة من وفاته... وهذا ما يخطر ببالي كلَّ مرة أتذكر فيها هاشمًا و/أو صديقنا المشترك محافظ دير الزور آنذاك... صديقنا الذي حدَّثنا ذات يوم بألم شديد – وكنت في زيارة له مع هاشم – عن معمل الورق الذي كان ينشأ في دير الزور:

- تصور، يا أبو الخير، تصور أن هذا المعمل الذي ينشئونه الآن هنا، ويكلِّف مئات ملايين الدولارات، لن يعمل لأنه ليست لدينا في بلد مواد أولية لتشغيله...

"مازال في الدنيا خير..." لأن هذا ما أفكِّر فيه أيضًا كلَّ مرة أتذكر فيها الدكتور محمود الشعيبي الذي جاءني ذات ليلة إلى مكان إقامتي طالبًا التحدث معي على انفراد... ونتدرَّج معًا في الشوارع الخاوية لتلك البلدة (الميادين) التي تنام مع مغيب الشمس...

- سمعت، يا أكرم، أنهم يعتقلون أفرادًا من جماعتك...
- لا يا دكتور... مَن يُعتقَل ليس من جماعتي؛ فأنا من ذلك الجناح من الحزب الشيوعي المشترِك في الحكومة، وهم يعتقلون من يعارض الحكومة من رفاقنا السابقين الآخرين، أقصد جماعة رياض...
- على كلٍّ، ليست عندي أية مشكلة، حيث يمكنني إخفاؤك سنوات حين تشاء. فلا تخف...

فشكرته على نبل موقفه وتركته معجبًا... لأني مازلت، إلى الآن، أحلم حين أتفكَّر في ذلك الإنسان الكبير الذي درس في جنيف، ثم عاد ليمارس مهنته وينهي حياته في بلدته الميادين... وأتذكَّر الحال عندما اجتاح وباء الكوليرا المنطقة، وكيف لم يمت أحد هناك بفضله... نعم، بفضله وبفضل جهوده، لأن المنطقة كان موبوءة مئة بالمئة... لم يمت أحد لأن الدكتور محمود كان يعلِّم الناس، بمحبة وصمت، كيف يمكنهم مجابهة هذا "المرض البسيط" بفعالية!

"مازالت الدنيا بخير..." هذا ما أتفكَّر فيه كلما تفكَّرت بمحمود العليوي وبرفاقه الذين تعلَّموا في أثناء بناء الجسر استعمال وقيادة بعض أعقد الآليات والمعدات الهندسية، والذين، لولا جهودهم، لما تمَّ العمل. فمحمود العليوي أصبح السائق الرئيسي للرافعة الجسرية (150 طن) الأكبر في البلد إلى الآن... ومحمود (الآخر) تعلَّم استعمال النيفو (جهاز مساحي)...

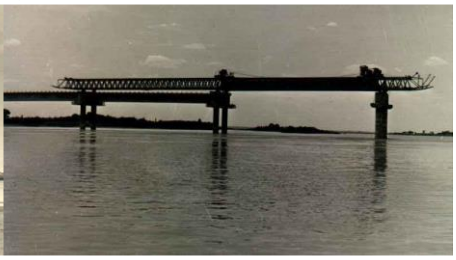

"مازال في الدنيا خير..." لكن الأمور لم تكن آنذاك بهذه السهولة، لا بالنسبة لي ولا بالنسبة للآخرين... ورغم هذا، أتذكَّر تلك الأيام بحنين. ففي تلك البلدة المنعزلة على ضفاف الفرات، ومن خلال احتكاكي بهؤلاء البشر، على اختلاف مستوياتهم وانتماءاتهم، تطوَّر وعيي الإنساني بصمت وبهدوء...

وأتذكَّر كيف تمردتُ للمرة الأولى على قرار حزبي، حيث انسحبت من الفرعية التي شُكِّلَتْ لقيادة الرفاق في موقع الجسر، المؤلَّفة من رفيقين من العمال الأكراد (من القامشلي) – أحدهما كان يدعى أبو ماجد – ومنِّي، وكان يقودها رفيق مسؤول من منطقية دير الزور. فحين عرَّف الرفيق المسؤول مهام الفرعية بأنه "قيادة العمل في موقع الجسر"، اعترضت مباشرة وبحدَّة قائلاً:

- كلا، يا رفاق، كلا. إن مهمة الفرعية هي قيادة الرفاق وتوعيتهم سياسيًّا. أما قيادة العمل فهذه مهمتي، وأنا المسؤول عنها شخصيًّا تجاه إدارة الشركة...

وأعتذر لهذا السبب عن أن أكون عضوًا في الفرعية، و/أو أن تكون لي أية صلة حزبية مباشرة معها. فصلتي، كما زعمت في حينه – وهذا لم يكن صحيحًا تمامًا – إنما هي مع قيادة الحزب في دمشق مباشرة... وقد فاجأ موقفي هذا الرفاق في الموقع. لكن بالنسبة لي، تبيَّن أنه كان موقفًا صحيحًا.

العدد الإجمالي لعمال الورشة حوالي الـ125، نصفهم من الشوايا من أبناء المنطقة. بعضهم كان شيوعيًّا، إن لم يكن صديقًا للحزب؛ ونصفهم الآخر من أكراد الجزيرة الذين كانوا، في معظمهم، كما قيل لي، رفاقًا أو أصدقاءً لحزبنا "العظيم"! وكانت هذه التركيبة غير المتجانسة هي المشكلة الأساسية التي واجهتها في أثناء عملي هناك، لأن الأكراد، رفاقًا أم غير رفاق، كانوا منغلقين على أنفسهم، ولا يحتكون بالشوايا، ولا يتحدثون فيما بينهم إلا بالكردية. كذلك، في المقابل، كان إخوانهم العرب يبادلونهم السلوك بمثله. وهذا ما أخافني، وأثبتت الأيام أن تخوُّفي كان في محلِّه...

ذات يوم، وبشكل مفاجئ، رأيتهم يهجمون بعضهم على بعض، والكلُّ شاهر عصاه أو سكينه! ولست أدري ما الذي حلَّ بي، فجعلني أسارع إلى الحيلولة بينهم، مستدعيًا الشرطة التي اعتقلت مؤقتًا ثلاثة أو أربعة من الجانبين... بعد هذا الحادث، اتخذتُ قرارًا، نفَّذته بحزم حتى آخر يوم لي في الورشة؛ قرارًا يقضي بأن يسلِّم كلُّ عامل يدخل الورشة سلاحه للحارس عند الدخول ويسترجعه عند الخروج. وامتثل الجميع لهذا القرار، وإنْ مع بعض الامتعاض من جانب قسم منهم... كانوا جميعًا مسلَّحين إما بمسدس و/أو بخنجر... وأستعيد اليوم هذه الأمور بحزن، لأني، إن كنت نجحت آنذاك في فرض التعايش ومنع الاقتتال ضمن نطاق العمل، إلا أني لم أنجح كما يجب في التقريب بينهم...

وأستعيد، بهذه المناسبة، حديثًا لي مع أبو ماجد، المسؤول الحزبي عن الشيوعيين في الورشة:

- يا أبو ماجد، لماذا لا تحتكُّون مع الشوايا؟! لماذا لا تحاولون مصادقتهم؟ بعضهم، إن لم أقل معظمهم، جيد جدًّا، يا أبو ماجد...

فينظر أبو ماجد إليَّ شزرًا ويجيبني:

- هؤلاء قوميون وشوفينيون يا رفيق...

وأجيبه بحدة، منهيًا الحديث معه:

- إنهم مثلكم تمامًا، يا أبو ماجد... مثلكم تمامًا...

وأكتشف أن العصبية القومية و/أو العشائرية هي المصيبة الأولى لهذه المناطق، الغنية بمواردها والفقيرة بوعي ناسها، الطيبين والبؤساء في معظمهم. وهذه العصبية – أو لنقل هذا اللاوعي – لم يحاول أحد التطرُّق إليه ولا معالجته بمحبة وإنسانية كما يجب، وخاصة مسؤولو دولتنا الكريمة الذين كان معظمهم مشغولاً بالاغتناء.

لم يحاول أحد، بكلِّ أسف، أن يتخذ من الدكتور محمود ولا من ذلك الشيخ المتصوِّف الورع، أستاذ اللغة العربية في ثانوية الميادين آنذاك، مثلاً له. فهؤلاء لم يكونوا المثل، إنما المثل، حتى تاريخه، كان الرفيق خالد بكداش في نظر العمال الرفاق الأكراد، والملاَّ مصطفى البرزاني، في نظر غير الرفاق. أما في نظر الشوايا، فكان المثل قد أصبح شخصًا يدعى صدام حسين!

أولئك "الشوايا"، الذين كانوا يشكِّلون الغالبية العظمى من سكان تلك المنطقة، بدءًا من جنوب الحسكة، مرورًا بدير الزور وحتى البوكمال، والذين لم يكونوا مدركين لما كان يجري من أحداث آنذاك – حين زار السادات إسرائيل وأصبح خائنًا من منظورنا، و/أو حين هاجم "بطلهم" صدام حسين إيران، مشعلاً بذلك حرب السنوات الثماني...

زارني اليوم للتعارف الضابط المسؤول عن قوات الهجَّانة في المنطقة... وعلمت أنه يستخدم جنوده لبناء فيلَّته الخاصة في بلدته البوكمال... لم يحصل بيننا أيُّ تواصُل. فنحن، على ما يبدو، ننتمي إلى عالمين مختلفين...

جاءني اليوم السائق قدري وهو يضحك، لأن "وضحة"، الصبية البدوية التي كانت تسكن قرب بيت الخبراء، أرسلت إليَّ معه قصيدةً غزلية!

تعرَّفتُ اليوم إلى هذا الشيخ الدجَّال، الذي كان يضرب نفسه بالشيش ويسيطر ببهلوانيَّاته على عقول المئات من أبناء المنطقة البسطاء. كان يضرب نفسه يومئذٍ وهو ينظر إليَّ تحديدًا... لأنه، بعد انتهاء "عرضه"، استدار نحوي ليطلب منِّي إعطاءه طنًّا من الإسمنت – ما جعلني أدير له ظهري وأغادر المكان...

في أوائل العام 1978، كادت الحرب أن تندلع بيننا وبين العراق "الشقيق"، الذي كان يحكمه جناح آخر من حزب البعث. وتوجَّهتْ قوات هامة من جيشنا إلى المنطقة لتواجه (احتمالاً) قوات "الخائن" صدام حسين الذي أوشك على مهاجمتنا. وصارت المنطقة، من كثرة العسكر المنتشر فيها، وكأنها على وشك التحول إلى ساحة قتال. وأقام يومها الدكتور محمود في منزله مأدبة عشاء للترحيب بقادة قواتنا الباسلة المتوجِّهين إلى "الجبهة العراقية"، ولبَّى الجميع الدعوة. ويعود إلى مخيِّلتي من تلك المأدبة مشهد مؤلم، حين سأل الدكتور محمود قائد تلك القوات (كان على ما أذكر من بيت زيُّود):

- قل لي، بربِّك، يا سيدي: لماذا يدعس البسطار دائمًا على القلم؟!

فيضحك هذا الأخير بعنجهية ويجيبه:

- لأنه لا يوجد قلم، يا دكتور... لأنه لا يوجد قلم...

وينظر إليَّ الدكتور وعيناه مغرورقتان بالدموع، ثم يشيح بوجهه عنِّي، ويغيِّر موضوع الحديث.

مازلت، إلى اليوم، أتذكَّر الميادين وناسها، وخاصة منهم أصدقائي محمود العليوي ومحمود (الآخر) الذين لم أرهم منذ ذلك الحين...

6

القنطري – تل تمر: 1980–1982

كانت هذه آخر مرة عملت فيها في المنطقة بعد أن غيرت مواقعي، فانقطعت عن التنظيم الحزبي – وإن كنت مازلت صديقًا. كما غادرت "شركة الأعمال الإنشائية"، وأصبحت أعمل لدى شركة لبنانية خاصة تدعى "دار الهندسة – نزيه طالب"، كمهندس مقيم مشرف على تنفيذ الطريق الموازي للحدود التركية والممتد ما بين مخفر القنطري شمال الرقة وقرية تل تمر جنوب الحسكة، على نهر الخابور. عن تلك الفترة وتلك المنطقة سجَّلتُ التأملات والملاحظات التالية:

لا توجد ههنا حدود فعلية بيننا وبين الأتراك سوى خط سكة الحديد الذي يقع، في معظمه، على الجانب التركي. أما معظم السكان فهم من الأكراد ومن البدو (الشوايا).

توقَّفنا اليوم في إحدى القرى لنأخذ بعض الماء للسيارة. لم يكن فيها إلا بعض المنازل من اللِّبن، وبئر ماء، وبعض الشجيرات... كانت قرية كردية بائسة، ومعظم سكانها لا يعرف العربية على الإطلاق...

لفت انتباهي ذلك البدوي الوحيد الذي كنَّا نصادفه على طريقنا جالسًا قرب خيمته الواقعة على رأس إحدى التلال... ثم أصبحنا نلوِّح له بالسلام، فيرده علينا ويلوِّح لنا بالمجيء إليه لـ"نسولف ونشرب الشاي"... وقررتُ ذات يوم زيارته في مضربه. وأسأله – وكنت والسائق الذي معي نشرب الشاي معه – عمَّا يفعل هنا؟ فيجيبني مبتسمًا:

- آني من ربع لورنس الشعلان...

[أي، لمن يعرف المنطقة ويفهم ماذا تعنيه هذه الكلمات: "آني أيضًا مهرِّب".]

لفت انتباهي اليوم مضرب صغير للبدو: فقط ثلاث خيام، وفيه فقط بعض النساء يعملن، وبعض الماعز ترعى و/أو تُحلَب. فتوجَّهنا إلى هناك، حيث استقبلتنا بدوية عجوز وقدَّمتْ لنا الشاي. كانت إحدى بناتها – وهي شابة ضخمة الجثة – تعمل في كنس الأرض قرب الخيمة. ويسألها عامل المساحة الذي كان معي (أنطوان أبراهمشه من حلب على ما أذكر):

- هذه ابنتك يا حجة؟ فتجيبه:

- نعم، هل أعجبتك؟ فقال لها:
- نعم، يا حجة، هل تزوجينني إياها؟ فضحكت وقالت:
- ادفع صياغها وخذها...
- لكنِّي مسيحي يا حجة...

فترد عليه قائلةً:

- قلت لك ادفع صياغها وخذها...

الآن فهمت لماذا يقولون إن البدو "غير متديِّنين"...

ما يلفت الانتباه في هذه المنطقة، وخاصةً في أيام مواسم الحصاد، هو مضارب "النَّوَر"، أو لنقل مضارب "الحجِّيات"، كما يسمونهنَّ هناك – "بيوت الدعارة" تلك، البائسة والمتنقِّلة بين مدن وقرى تلك المناطق، وحتى ما بين الحدود. لكن، ما لفت انتباهي أكثر كانت سيارات المرسيدس الحكومية، التي غالبًا ما كنت أراها واقفة أمام هذه المضارب.

- يا أستاذ، كلَّ مسؤولي الحزب، وحتى السيد المحافظ، يأتون إلى هنا يوميًّا لـ"يتفرَّجوا" على الحجِّيات...

قريبًا من تل تمر، في منطقة جبل سنجار، تعرَّفتُ إلى أكراد من طائفة دينية طريفة؛ كانوا يسمونهم بـ"اليزيديين"...

- هؤلاء يعبدون الشيطان يا أستاذ...

هذا ما قاله لي بصوت منخفض أحد عمالنا الشوايا. واليزيديون، كما لاحظت، كانوا لطفاء ودمثين جدًّا – ربما لأن "الشيطان" الذي يعبدون لم يكن شريرًا إلى هذا الحد! هذا ما أفكِّر فيه اليوم حين أتذكَّرهم...
أنهيت عملي في مشروع القنطري – تل تمر في أواخر العام 1982، وعدت إلى دمشق، حيث تعاقدت مع "الشركة العامة للدراسات" ومديرها الدكتور المهندس فؤاد بشور رحمه الله.

7
خاتمة

أصبح عمري اليوم حوالي الستين عامًا. لم يبقَ في منزلنا في دمَّر، حيث نعيش منذ العام 1983، إلا أنا وزوجتي وابننا طارق (26 سنة) الذي لم يتزوَّج بعد. أما ابنتاي، لنا (28 سنة) ونورا (توأم طارق)، فقد تزوجتا: لنا تزوَّجت في دمشق من شاب يدعى بولس، ورُزِقَتْ ابنتين هما شام وغزل؛ ونورا تزوَّجت في أمريكا من شاب آشوري، وولد لها ابن سمَّتْه ألكس... كلُّ شيء يبدو على ما يرام بالنسبة لي. ولكن...

لست أدري لماذا شعرت ذات يوم برغبة في البكاء حين سألتني ابنتي لنا – وكانت قبلئذٍ في رحلة مع زوجها وبعد الأصدقاء إلى منطقة دير الزور والميادين:

- بابا... لقد مررنا البارحة فوق جسرك في الميادين. إنه جسر جميل فعلاً! لكن، هل تستطيع أن تشرح لي سبب الارتجاج الذي نشعر به حين نمرُّ فوق كلِّ مسند من مساند الجسر؟!

وأجيبها بنزق:

- لأن مساند الجسر، يا بابا، هي من مادة النيوبرين؛ وهذه مصنوعة من الكاوتشوك المضغوط ومن الصفيح. وهي تجف مع الوقت؛ أو لنقل إن عمرها الفنِّي هو خمس سنوات... بعدها يجب أن تُغيَّر. لكنهم، على ما يبدو، لم يستبدلوا بها أخرى منذ انتهى الجسر في العام 1978؛ وبالتالي، صارت اليوم قاسية كالحجر، عوضًا عن أن تكون لدنة... لأن "كلَّ شيء على ما يرام" في بلدنا، يا بابا... "كلَّ شيء على ما يرام"...

دمشق، 2004/03/24

الفصل الحادي عشر

هاشم وسلافا – الجزء الأول[1]

(1976-1974)

هاشم وسلافا – الجزء الأول[5]

(1976-1974)

... ها هو ذا المشهد الحجري الأصم حيث نُقِشَتْ أسماؤكم

ها قد أصبحتم مجرد كلمات مذهَّبة وسط ساحاتنا

ها قد بدأت تندثر ذكريات حبِّكم...

أراغون، من "القصيدة غير المنتهية"

طائر الليل: ماذا أرى؟! ماذا أرى؟! أنت تبكي يا صديقي...

1

وتمر الأيام وتمر السنون، بما يبدو لي اليوم وكأنه لمح بصر...

وتلك الأيام وتلك السنون هي التي صنعتْني. حينذاك، كنت أعيشها في نَهَم، ولا أفكِّر كثيرًا ربما. أما الآن فإنّي، حين أتفكَّر فيها، أجدها ثمرة حياة وذكريات حلوة ومرَّة، ترافقها غُصَّة عميقة في القلب. وقد تركزت تلك الأيام، في نظري، وخارج نطاق العائلة، حول شخصين اثنين: كان أولهما هو المهندس هاشم عبيسي، المدير العام لشركة الأعمال الإنشائية آنذاك؛ أما الثاني فكان مهندس جسور روسي يدعى سلافا كوزنتسوف.

وأتذكر هاشم العزيز، رحمتْه الآلهة، وأتذكر أول حديث مطوَّل في العمق معه، وقد كان حول العمل.

- لقد أخبرني أبو محمد[6]، يا أبو الخير[7]، عن مشروع الجسرين على نهر الفرات... وقد قال لي إنك تبحث عن مهندسين من أجلهما، وإن هناك بعثة إلى موسكو لمرافقة تصميمهما.
- هذا صحيح، يا أكرم. لكن، اجلس لأحدثك قليلاً... لقد ربحنا عقد هذين الجسرين كمفتاح في اليد بعد منافسة شديدة مع يعقوبيان[8]. وهذا يعني أن علينا أن نثبت للجميع أننا، كدراسة وكتنفيذ، وخاصة ككلفة، لا نقل عنهم. ما يعني أن عملنا لن يكون سهلاً... وقد وقَّعتُ الآن عقدًا أوليًّا مع الروس لدراسة الجسرين ومساعدتنا على تنفيذهما. وهذا يعني أنه قد يلزم بعض الوقت كي نباشر معهم التحريات والدراسات... ما بين الشهرين إلى ثلاثة أشهر... ثم إن

---

[5] نظرًا لوجود تداخُل في الأحداث، أنصح للقارئ أن يقرأ بعض مقاطع هذا الفصل مع الفصل الذي سبقه، وأقصد "ذكريات جزراوية".

[6] أبو محمد هو المهندس عمر السباعي، وزير المواصلات حينذاك.

[7] أبو الخير هو المهندس هاشم العبيسي، المدير العام شركة الأعمال الإنشائية آنذاك ومؤسِّسها.

[8] من أشهر المتعهدين السوريين في القطاع الخاص وأفضلهم.

التحريات قد تستغرق من أربعة إلى ستة أشهر... بعد هذا، ستكون البعثة لمرافقة الدراسة الأولية للجسرين في موسكو. وهذا يعني أيضًا أن ارتباطك معنا – إن ارتبطتَ بهذا المشروع – سيكون لفترة طويلة. فما رأيك؟

- لقد جئت إليك من أجل هذا العمل تحديدًا، يا أبو الخير. لأني، وقد أنهيت خدمة العلم منذ أيام، لا تغريني العودةُ إلى أمانة العاصمة، وأفكر باكتساب بعض الخبرة في عمل كهذا، وحتى، إن أمكن، أن أختص في الجسور.
- إن أردتَ أن تباشر معنا الآن، فبوسعك العمل حاليًّا، لبعض الوقت، في مشروع خط سكة حديد دير الزور–الحسكة–القامشلي. هناك يعمل عزيز داوود ونجيب خبازة. أعتقد أنك تعرفهما.
- نعم أعرفهما من الكلِّية. أي متى تريدني أن أباشر؟

فيضحك ويقول:

- نوقِّع العقد الآن، إن شئت، وتباشر عملك غدًا في مشروع سكة حديد دير الزور– الحسكة. كم سنة ممارسة لديك؟
- أربع سنوات، مع الجندية...
- راتبك مع التعويضات سيكون، إذن، 1800 ل س[9] شهريًّا... فما رأيك؟

وأشعر بغُصَّة في قلبي. ربما لأن الأمور جَرَتْ بهذه السرعة، و/أو لأني لم أخبر منى بقراري، و/أو لأن راتب الـ1800 ل س شهريًّا كان قليلاً نسبيًّا، حيث كان في وسعي تحصيل أكثر من هذا في دمشق، ما بين العمل العام والعمل الخاص، كما كنت أفعل في الجيش. وأجيبه:

- نوقِّع العقد الآن، نعم. لكني سأباشر في الأول من شباط [1974] لأن عليَّ توديع زوجتي وإتمام بعض الواجبات المنزلية والعائلية.
- كما تشاء، يا أكرم. فلنوقِّع العقد إذن...

وأوقِّع معه مباشرة ذلك العقد الذي سيغيِّر مجرى حياتي...

2

لم يكن قد مضى أسبوع واحد على مباشرتي العمل في مشروع دير الزور–الحسكة–القامشلي[10] حتى وَرَدَنا إلى الورشة خبرٌ عاجل مفاده أن سيأتي "الأستاذ هاشم" صباح غد إلى موقع "صباح الخير"[11] في زيارة تفقُّدية للمشروع. وفعلاً، وصل هاشم إلى هناك في تمام الساعة السابعة صباحًا مع بداية الدوام،

[9] 1800 ل س كانت تعادل حينذاك 600 دولار تقريبًا. أما اليوم فهي تعادل 35 دولارًا فقط!

[10] راجع: "ذكريات جزراوية".

[11] موقع عمل مشروع سكة حديد دير الزور–الحسكة–القامشلي حينذاك، ومحطة قطار في الموقع نفسه حاليًّا.

حيث كنَّا قد انتهينا لتوِّنا من الفطور! ومباشرة، فور ترجُّله من سيارته، استقلَّ برفقة المهندس نجيب، الذي كان ينتظره مع كبير الخبراء الروس، تلك السيارة الـ"جيب واز" المخصَّصة له وباشر جولته التفقُّدية للخطِّ، حيث كانت تتوزع ورشاتُنا. وقد توقف قليلاً في أثناء جولته الطويلة تلك، التي استمرت حوالي الأربع ساعات، في المكان الذي كنت أقف فيه، متفقِّدًا إحدى العبَّارات الكبيرة، ليقول لي، بلا مقدمات، إنه لاحظ "هَدْرًا في الخشب والحديد المبعثَرين في كلِّ مكان على طول الخط"، وأنه "لن يرسل خشبًا جديدًا ما لم يتم حَصْر الموجود، وتبيان مدى الحاجة الفعلية إليه، وأين سيُستعمَل تحديدًا وحصرًا" – ما يعني، بحسب طريقته في العمل، أن عليَّ متابعة الأمر فورًا وضَبْضَبَة الورشة وإخباره بالنتيجة. ومساءً، مع أنه وصل متأخرًا، تعشَّى معنا في مطبخ الورشة (عند أبو جوزيف). ثم بدأ مع كلٍّ منَّا سلسلة اجتماعات، كلٍّ بحسب اختصاصه، دامت حتى ما يقرب من منتصف الليل. وفي صباح اليوم التالي، أي قبل أن يغادر، راجع بالتفصيل مع بركات ظاظا وضْع آليات المشروع وما تحتاج إليه من قطع تبديل ومواد...

وألاحظ أنه لم يكن يتدخل فقط في كلِّ صغيرة وكبيرة، إنما كان أيضًا ملمًّا بدقة بكلِّ تفاصيل المشروع واحتياجاته، وأنه، في متابعته الدقيقة والصارمة للعمل، لم يكن يراعي أحدًا – وهو واقعٌ سوف أتأكد منه أكثر فأكثر إبان عملنا المشترك.

أقول هذا اليوم، ليس فقط للذكرى، وإنما أيضًا للمقارنة. لأنه...

بعد أسبوعين من زيارته هذه، جاءنا نائبُه، الذي كان حينذاك "رفيقنا" الذي لم أتعرف إليه جيدًا في "الطبقة"[12]، المهندس رضوان مارتيني. وبسرعة، تبيَّن لي الفارقُ الكبير بين الرجلين وبين أسلوبهما في متابعة العمل. فقد كان تفقُّد هذا الأخير (أقصد رضوان) لمواقع العمل يتم بسرعة البرق، ونقاشُه لاحتياجات الورشة مجرَّد تسجيل لما يطلبه "الخبراء السوفييت" في جلسة كان يسودها المرحُ وتتخلَّلها النكاتُ البذيئة. أما في المساء، فقد دعانا، بركات ظاظا وأنا (كرفيقين مسؤولين)، إلى عشاء في النادي الزراعي في الحسكة، ليحدِّثنا عن موضوع واحد فقط هو "هاشم" وما يذيقه إياه من عذاب يعرقل عمل الشركة وتقدُّمها. وقد بقيت أنا صامتًا في أثناء هذه السهرة؛ أما بركات، فقد تجاوَب معه نسبيًّا...

لأني كنت حينذاك، وبحكم ما كنت قد اكتسبتُه من خبرة حزبية خلال المرحلة الماضية، وخاصة فيما يتعلق بالعمل التكتلي وأجوائه وطرائقه، قد بدأت أتلمس أن هناك "عفونة مازالت موجودة تحت السطح في مملكة الدنمرك"[13]. فالأجواء لم تكن سليمة في "حزب الطبقة العاملة السورية" بعد "التخلص" من رياض وجماعته وعودة "الأغلبية الافتراضية" إلى الحظيرة الحزبية؛ وهو واقع سوف أتأكد منه تأكدًا مباشرًا لدى أول زيارة لي إلى دمشق لأرى زوجتي وأنسِّق معها موضوع انتقالها إلى حلب، حيث كان

---

[12] مركز سد الفرات.

[13] التعبير مأخوذ من مسرحية *هاملت* لشكسبير.

أهلوها يبحثون لنا عن منزل. وأتذكر كيف استقبلني بالترحاب "المبالَغ فيه" حينذاك، في مقرِّ منطقية دمشق عند "السبع بحرات"، كلٌّ من الرفاق أبو فياض[14] وزوجته[15]، عضوي المنطقية، ومراد يوسف[16]، عضو المكتب السياسي، ليزفَّا إليَّ نبأ هامًّا حول كيف تصدَّى الرفيق أبو جنكو، عضو المكتب السياسي، بـ"بطولة"، للرفيق يوسف، ورَفَضَ شرب نخبه في حفل جرى في سفارة ألمانيا الديموقراطية، لأن صاحب الكأس (أي السفير "الألماني الديموقراطي") كان يدعو لشرب نخب "الأمين العام" القادم للحزب؛ وهذا كان يُعتبَر كفرًا، لأنه يعني أن هناك من بدأ يفكر بإبعاد و/أو بخلافة الرفيق خالد. وأفهم أن هناك بدايات لتكتلات وصراعات جديدة بين الرفيق خالد والرفيق أبو سام و"الرفاق المبدئيين"، من جهة، والرفيق يوسف، وإلى جانبه الثلاثي دانيال وظهير وإبراهيم ومن لفَّ لفَّهم من "رفاق انتهازيين"، من جهة أخرى. وأجد نفسي، بشكل طبيعي وبلا عمق تفكير، إلى جانب ذلك الاتجاه "المبدئي المفترَض"، الذي كان يضم أيضًا أبو محمد وهاشم (الذي لم يكن منظَّمًا في ذلك الحين). أما رضوان فقد كان طبعًا مع يوسف.

3

لم أبقَ طويلاً في "صباح الخير". فقد عملت هناك حوالي الشهرين. ثم وصلتني برقيةٌ مهتوفة من هاشم للتوجُّه مباشرة إلى حلب للقائه. وهناك، في مقرِّ الشركة، عرَّفني إلى اثنين من الروس كانا في مكتبه.

- أقدِّم لكما المهندس أكرم أنطاكي، الذي سيرافقكما خلال هذا المشروع. وهو سيكون، بالتنسيق معي، مسؤولاً عن العمل وعن تأمين كلِّ احتياجاته... أكرم، أقدِّم لك الرفيقين نيكولاي كوفاليفسكي، رئيس مجموعة التحريات، وهو مهندس جيولوجي، وياروسلاف (سلافا) كوزنتسوف، كبير المهندسين والمسؤول الفنِّي عن المشروع.

وهكذا تعارفنا، وكان أول لقاء لي مع سلافا الذي ستجعله الأيام من أعزِّ أصدقائي، إن لم أقل أعزَّهم على الإطلاق.

وهذه الصداقة ترسخت بالتدريج من خلال العمل – هذا العمل الذي جعلني، لحسن الحظ، خلال تلك السنوات الأغنى في حياتي، أعمل إلى جانب اثنين من كبار "معلِّمي الكار". فمباشرة، وفور البدء بأعمال التحريات في الميادين، بدأتُ اكتشف طبيعة مَن كنت أعمل معهم؛ وما رأيته وعشتُه كان يذهلني كلَّ يوم أكثر. فهذا الروسي الأصيل، ذو الابتسامة الخجولة، والمنطوي على نفسه من حيث الظاهر، والذي كان، ومازال، يذكِّرني إلى الآن، حين أتفكر به، بشخصية الكونت بيوتر بيزوغوف، بطل رواية

---

[14] عبد الجليل بحبوح.

[15] زينب نبوة أو "أم فياض".

[16] أبو سام.

تولستوي الشهيرة حرب وسلم، سرعان ما تبدَّى لي، منذ الأسابيع الأولى لعملنا المشترك، معلمًا ومهندسًا كبيرًا جدًّا.

كان سلافا محور العمل في المطلق. عنده كانت تتجمَّع الخيوط كلُّها؛ ومنه كانت تصدر كلُّ التوجيهات والقرارات. وكان الجميع يرجع إليه في كلِّ شيء، بمن فيهم رئيس المجموعة الذي تبيَّن لي، في النهاية، أنه مجرَّد "مسؤول حزبي وإداري صغير". أما سلافا، فقد كان شيئًا آخر تمامًا؛ كان أشبه بحيرام، كبير البنَّائين.

وفي سرعة ودقة لامتناهيتين، وضع مخطَّط التحريات وتوجهاتها للتمكن من وضع التصميم الأولي لجسر الميادين. فـ...

- العيِّنات الجيولوجية حتى عمق 50 مترًا تبيِّن وجود طبقات متتالية من البنتونيت، مما يعني [بحسب ما قرَّره سلافا، بالاتفاق مع هاشم] أن أساساتنا ستكون أوتادًا عميقة وعريضة، محمية من تأثير البنتونيت، ومصبوبة في المكان، وأن عمقها قد يتجاوز، وفق حسابي الأولي، ثلاثين مترًا، وقطرها قد يكون في حدود المتر ونصف...
- لكن كيف، يا سلافا؟ وهل توجد في سورية آلية في وسعها تنفيذ أوتاد كهذه وغرسها؟
- سأرسل مباشرة تقريرًا حول هذا الموضوع إلى الأستاذ هاشم، وسوف أنصح له بنوعين من هذه الآليات المتوفِّرة في الغرب. لأنه ليس لدينا مثلها، وخاصة في جودتها، في روسيا. وإحداها، التي أفضِّلها، هي حفارة أوتاد ضخمة فرنسية الصنع من نوع "بينوتو"؛ وقد اشترينا مثلها لروسيا...

وكان هذا ما حصل. فقد أرسل سلافا تقريره الأولي إلى هاشم، الذي سرعان ما أخبرنا أنه اتصل بالشركة المذكورة.

- لكن كيف سننفذ هذه الأوتاد في وسط النهر، يا سلافا؟ أبواسطة عوامات كالتي نستعملها الآن في التحريات الجيولوجية؟
- هذا ممكن، يا أكرم. وإن كنت أفضل، في حالتنا، طريقة أخرى أبسط وأكثر بدائية، لكنها، في حالتنا، أسرع وأكثر فعالية.
- وما هي؟
- أن نحصر مجرى النهر من طرف حتى منتصفه بواسطة ردمية، ننفذ من عليها مساند هذا الطرف. ثم نزيل هذه الردمية ونفعل الشيء نفسه من الطرف الآخر...

ومن مؤسَّسة سدِّ الفرات حصلنا على ما لديهم مما يهمُّنا من قياسات مائية. وبأنفسنا أجرينا قياساتنا المائية الخاصة الأخرى. فهذه القياسات أساسية لتحديد مدى الفتحة المائية للجسر. ومن تلك الدراسات كلِّها، مقرونة برفعنا المساحي الدقيق لطبوغرافية المنطقة، حدَّدنا محور جسرنا وفتحته.

- أنظر إلى جسر البصيرة، يا أكرم، وتفكَّر فيه جيدًا. إنه مثال مدرسي نموذجي على دراسة هندسية متسرِّعة، تمَّتْ دون الأخذ بعين الاعتبار ما تعطيه حتمًا القياسات المائية لنهر الخابور.
- وكم ستكون، في اعتقادك، عرض الفتحة المائية لجسر الميادين؟ وكم سيكون طول الجسر برأيك، يا سلافا؟

فيبتسم سلافا، ويجيبني في بساطة:

- ما لم تثبت القياسات عكس ذلك، أنا أقدِّره، من الآن، في حدود الـ500 مترًا.
- وهل سيكون الجسر بسيط الاستناد؟
- نعم.
- لماذا؟ وكم سيكون طول كلِّ مجاز؟
- هذا قرار اقتصادي. ألم تقرأ ما كتبه لنا الأستاذ هاشم منذ فترة حول أنه يسعى إلى شراء المعدات التي نفَّذ بها البلغار جسر الرستن. وجسر الرستن بسيط الاستناد، كما تعلم، وطول الجائز فيه، على حدِّ علمي، 42 مترًا.

وسرعان ما يدعونا هاشم، الذي كان يتابع الأمور عن كثب، إلى لقائه هناك (في الرستن) من أجل معاينة معدات البلغار التي قرَّر شراءها. وهكذا، في بساطة لامتناهية، يتقرر مجاز جوائز الجسر بـ42.3 مترًا، وتتقرر كيفية تحميل جوائزه وبنائه بواسطة تلك الرافعة الجسرية، ذات حمولة الـ150 طن، من نوع آسبم التي اشتريناها من البلغار.

وهكذا، بنفس الطريقة، قمنا بالتحريات في قره قوزاك فور الانتهاء من تحريات الميادين. ومن خلال العمل والاحتكاك اليومي كانت علاقتُنا تترسخ.

فعن طريق سلافا تعرفتُ إلى زوجته فالنتينا التي كانت ترافقه مع طفليهما الصغيرين[17]. كانوا جميعًا، ودون أيِّ تذمر، يشتركون في نفس الغرفة من هذا المنزل المشترك في الميادين، ثم في حلب، الذي كنا ندعوه "بيت الخبراء".

- كيف الحياة عندكم في روسيا، يا سلافا؟
- لا بأس بها، يا أكرم. لكننا عانينا الكثير، ودفعنا من أجلها ثمنًا غاليًا جدًّا. خلال الحرب و... قبل الحرب.
- هل تقصد بـ"قبل الحرب" مرحلة الثورة والحرب الأهلية؟

فيضحك، ويجيبني في بساطة:

---

[17] ماشا وإيليا.

- بل أقصد أني قبيل الحرب فقدت الكثير من أهلي وأقاربي الذين كانوا من "الغولاك"[18]... لأني من أصول فلاحية، يا أكرم، لأني "موجيك"[19]...

وأتذكر كيف أصبحت منذ ذلك الحين أداعبه فأدعوه بالـ"موجيك"، فيبتسم و/أو يضحك ويجيبني:

- أنت أيضًا "موجيك"، يا أكرم، أنت أيضًا "موجيك"، على الرغم من ادِّعاءاتك الأرستقراطية. أنظر كيف تأكل... أنت تأكل بنهم مثلنا... كالـ"موجيك" تمامًا!

وأتفكَّر اليوم في حنان كم كانت جميلةً ابتسامتُه، وكم من الحنان كان يتبدَّى على وجهه الصبوح، وخاصة حين كان ينظر إلى فاليا[20]، التي كانت تبادله نفس النظرات المليئة بالمحبة.

ونفترق في هدوء عند انتهاء التحريات، حين ودَّعني وهو يقول:

- إلى اللقاء قريبًا في موسكو...
- إن شاء الله، يا سلافا، إن شاء الله.

إن شاء الله! – وقد قلتها فعلاً بحسرة يومذاك، لأني نادرًا ما كنت أقولها...

لأني كنت متشككًا جدًّا حينذاك في ذهابي إلى موسكو، خاصة وأنه وَرَدَنا من دمشق نبأٌ صاعق يقول إن هاشم أصيب بجلطة قلبية حادة، وإنه الآن في غرفة العناية المشددة.

كان هذا في أواخر تشرين الثاني 1974، حيث كنت أقود آخر أعمال التحريات وأصفِّي ورشتَها في قره قوزاك.

وأعود إلى المنزل مساء ذلك اليوم متعبًا ومعكَّر المزاج، لأجد زوجتي وحماتي في حال فرح عارم...

- مبروك، يا أكرم، مبروك...
- مبروك على ماذا؟ لقد تزوجنا منذ خمس سنوات، على حدِّ علمي.
- لأني حامل يا أكرم!

ونغرق جميعًا في الضحك، وبفرح كبير.

وبعد فترة وجيزة، جاءني من مركز الشركة في حلب خبرٌ مفاده أن هاشم، الذي خرج لتوِّه من المستشفى إلى منزله، يستدعيني بالسرعة الكلِّية إلى عنده، إلى دمشق...

4

---

[18] يقصد الفترة التي شنَّ فيها ستالين حربَه على الفلاحين الأغنياء والمتوسطين، التي كلَّفتْ روسيا ملايين الضحايا، فأقام المزارع الجماعية أو السوفخوزات.

[19] "موجيك" تعني بالروسية "فلاح".

[20] تصغير فالنتينا.

وأجده في منزله متعبًا، منهكًا، وقد فقد الكثير من وزنه، لكنه في كامل نشاطه الذهني وتركيزه. ودون أن يترك لي مجالاً للحديث، بادرني قائلاً:

- اذهب بسرعة إلى وزارة المواصلات، وتابع هناك أمر مهمَّتك وجواز سفرك [وهو "جواز مهمة"] اللذين سيصدرهما لك "أبو محمد"، وهيِّئ نفسك، لأنك ستسافر إلى موسكو في أوائل العام، في الـ5 من كانون الثاني. سيكون معك مهندس آخر من اللاذقية يدعى أنور الجانودي. إنه الآن هنا في دمشق. تعرَّف إليه... انطباعي أنه شخص جيد... وأخبرني مباشرة بما يجري معك.
- فورًا، يا أبو الخير، فورًا... لكنك تفاجئني بهذا... فلا رضوان ولا أحد في الشركة أخبرني عن موضوع سفري!

فضحك وأجابني:

- وهل كنت تتوقع من رضوان أن يخبرك؟!

وأذهب إلى الوزارة، حيث أقابل "أبو محمد" الذي أعطاني أمر المهمة، وأرسلني إلى فرع وزارة الخارجية في المهاجرين لاستصدار جواز سفر لي كمهمة إلى موسكو. فأعطيتهم صوري وهويتي الشخصية، واستلمت الجواز مباشرة في اليوم التالي. وكان هذا أول جواز سفر لي.

في ذلك اليوم أيضًا تعرَّفتُ إلى أنور الجانودي، الذي كان مهندسًا طويل القامة، خجول الملامح، متخرجًا من تشيكوسلوفاكيا. وقد كان انطباعنا الأول عن واحدنا الآخر إيجابيًّا جدًّا.

لن أطيل الحديث هنا، لكني سأنوِّه فقط إلى محطتين صغيرتين سبقتا سفري.

الأولى كانت اجتماعي الأخير (قبيل السفر) مع هاشم، الذي أوصاني بضرورة الاستفادة، قدر الإمكان، مما يمكن أن يتوفَّر لي من خبرة هناك، وأخبرني أن مدة المهمة ستكون ثلاثة أشهر، كما هو واضح في الأمر الإداري. لكنْ عليَّ أن أتوقع أن مهمتي يمكن لها أن تمدَّد ثلاثة أشهر أخرى، لأنه سيأتي حتمًا إلى موسكو خلال تلك الفترة لإجراء عملية جراحية وللتفاوض مع الروس حول عقد تنفيذ الجسرين، ولأنه يريدني أن أكون معه خلال تلك الفترة، لأشارك في المفاوضات.

وودَّعتُه لأنه كان عليَّ العودة إلى حلب لتوديع زوجتي. فغدًا كانت ليلة رأس السنة، وكان عليَّ الاحتفال معها ومع بعض الأصدقاء هناك. وسفري إلى موسكو كان قد حُدِّدَ فعلاً في الـ5 من كانون الثاني. لقد أصبحتُ الآن جاهزًا للسفر.

أما المحطة الثانية، فكانت لقائي بخالد بكداش... حيث فوجئت، لدى عودتي بعيد ظهر ذلك اليوم إلى منزل أهلي، قبيل أن أغادر إلى حلب، بوالدتي تقول لي في لهفة:

- لم يتوقف شخص يدعى أبو سعيد عن الاتصال بك منذ الصباح. من هذا الـ"أبو سعيد"، يا أكرم؟

ولم تكد تكمل كلامها حتى رنَّ جرس الهاتف من جديد. وكان على الطرف الآخر من الخطِّ أبو سعيد (عبد الوهاب رشواني)، عضو منطقية الحزب آنذاك، الذي سرعان ما بادرني قائلاً:

- أبو عمار[21] يريد أن يراك مباشرة، يا رفيق. هل بوسعك القدوم فورًا إلى منزله في حيّ الأكراد.
- طيب، سآتي حالاً.

وأسارع في الذهاب إلى هناك، لأنه لم يكن عندي الكثير من الوقت. فموعد عودتي إلى حلب كنت حدَّدتُه في السادسة مساء. وأجد أبو سعيد الذي كان ينتظرني عند باب منزل أبو عمار، فيُدخِلني إليه. وهناك، جالسًا وراء مكتبه في غرفة الاستقبال، كان ينتظرنا أبو عمار الذي شكر أبو سعيد وطلب منه أن يدعنا وحدنا، هو وأنا. ثم دعاني إلى الجلوس بقربه.

- أبو محمد يمتدحك كثيرًا، يا أكرم. أبو الخير وأنت، في نظره، من أفضل مهندسي الحزب.

فأشكره، وأسأله عن صحته.

- صحتي جيدة الآن، يا رفيق. لكن دعنا من هذا... فقد استدعيتك لأمر آخر... لأمر خاص.
- خير، يا رفيق.
- لقد أخبرني أبو محمد أنك موفَد إلى موسكو، وأنك ستسافر قريبًا.
- نعم، يا رفيق، سأسافر في 5 كانون الثاني.
- هو طلب خاص، يا أكرم. سترى حتمًا في موسكو ابني عمار الذي يدرس هناك. وهو معجب جدًّا بك، ويحبك ويقدِّرك. فقط أريدك أن تحاول جهدك إقناعه بألا يترك دراسة الهندسة، لأني أفضِّله مهندسًا... مثلك ومثل أبو الخير... لأني لا أريده اقتصاديًّا ولا متفرغًا حزبيًّا، كما يفكر هو الآن. قال "متفرِّغ حزبي"، قال...
- سأحاول، يا رفيق أبو عمار... ثِقْ أني سأحاول.
- شكرًا، يا رفيق... هذا كلُّ شيء. لنشرب الآن فنجان قهوة، ولنتحدث قليلاً عن أوضاع الشركة وأوضاع منظَّمتكم.

وكان هذا ما حدث. فقد غادرتُه، وأنا مفعم بمشاعر جياشة. وأهمُّها حينذاك كان ازدياد إعجابي بهذا الرجل، الذي كنت حينذاك معجبًا به أصلاً، والذي اكتشفت فجأة أنه ليس مجرَّد سياسي قدير، بل أيضًا وخاصةً (وكما يفترض)، مجرَّد أب، مثلنا جميعًا... أبٍ قَلِقٍ على مستقبل ابنه وتوجُّهاته.

5

كانت هذه هي المرة الأولى التي أركب فيها الطائرة، والمرة الأولى حكمًا التي أخرج فيها خارج نطاق سورية ولبنان في أول سفرة لي إلى الاتحاد السوفييتي "العظيم". وأتذكر أن الطائرة السورية (من نوع

---

[21] خالد بكداش، الأمين العام للحزب الشيوعي السوري.

كارافيل) المتجهة ليلاً إلى موسكو كانت شبه فارغة يومذاك. لذلك جلسنا (أنور وأنا) كلٌّ في المكان الذي اختاره لنفسه. وقد كنت منفعلاً وخائفًا بعض الشيء. لذلك سرعان ما أغمضت عينيَّ، متظاهرًا بالنوم لأخفي خوفي وانفعالي. لكن عقلي كان يعمل في سرعة مرعبة. ففي المطار، الذي أوصلني إليه أبي، واجهتْني "مشكلة صغيرة" مع الأمن العام.

- أكرم أنطاكي... لكنك ممنوع من السفر...

هذا ما صرَّح به، بكلِ بلادة، ضابط الأمن العام الذي كان يدقِّق جواز سفري، وهو يقرأ في الدفتر الذي أمامه.

ولحسن الحظ، وعن طريق المصادفة، وقع نظري، ولو بالمقلوب، على السطر الذي كان يقرأ. فوجدت اسمَ شقيقتي إكرام التي كانت حينذاك في فرنسا. وأجيبه:

- لا، أنا لست ممنوعًا... فالاسم الذي أنت تقرأ ليس أنا.
- كيف... ليس أنت؟
- اقرأ جيدًا أمامك. هي اسمها إكرام، مع ألف في الوسط، وأنا اسمي أكرم. هي أنثى، وأنا ذكر. هي من مواليد 1947، وأنا من مواليد 1945.

فيضحك الضابط بعد التمعُّن، ويجيبني:

- هذا صحيح... لكن، ما قرابتك بهذه الإكرام؟

فأجيبه:

- شقيقتي...

فيتفكَّر قليلاً، ويبتسم. ثم يختم جواز سفري (الذي كان جواز مهمة من الخارجية) بعد التمعن فيه، ويقول لي أن أتفضل. وأتفكَّر أن عليَّ إخبار إكرام بأن اسمها على الحدود، كي تأخذ حذرها... ثم يأتي أنور الذي ترك مكانه في الطائرة ليجلس قربي، فنتحدث قليلاً عن الجسر وعن أنفسنا، ونحن نحتسي كأسًا من البيرة... وأحاول النوم مجددًا، لكن دونما جدوى. أما في نهاية الرحلة. قد كانت مفاجأتي الكبرى ما أعلَنَه لنا (أقصد لركاب الطائرة الذين كان عددهم حوالى العشرة، أغلبهم من الطلاب) أحد المضيفين، حين خاطبنا بصوت مرتفع قائلاً:

- يا شباب، لا توجعوا راسنا... من يريد منكم أن يصرِّف دولارات في موسكو فليذهب إلى السفارة السورية إلى عند المساعد طلاس، وهو يصرِّفها لكم. سعر الصرف في السفارة الآن هو 4 روبلات للدولار.[22]

وأفكر بالثلاثمئة دولار التي كنت أحملها معي حينذاك. أتفكر أنْ ربما كان صرفها في السفارة أفضل من صرفها عن طريق "الرفاق" الذين كنت قرَّرت تجنبهم في الفترة الأولى. ونصل إلى مطار موسكو التي

[22] السعر الرسمي للروبل كان آنذاك 0.7 دولار.

كان يغطيها غبار الثلج الأبيض – حيث كانت درجة الحرارة في تلك الليلة 10 درجات مئوية تحت الصفر – في الساعة الواحدة بعيد منتصف الليل. وجدنا في انتظارنا هناك أحد الأشخاص من "سيوزتوربرويكت"[23]، أوصلنا مباشرة إلى فندق شعبي مؤقت قضينا فيه ليلتنا الأولى.

6

وأستعيد تلك الفترة التي قضيتها في موسكو آنذاك. وأتذكر أنه في اليوم التالي جاءنا سلافا الذي أمَّن نقلنا إلى فندق آخر أفخم في قلب المدينة، كان تقرر مكانًا لإقامتنا – "فندق أوكراينا" – ثم أعطانا ما كان متفقًا أن يدفع لنا من مصاريف جيب تغطِّي مصاريفنا اليومية وأكلاف تنقلاتنا بالمترو ووجبة غداء (في حدود الـ250 روبل شهريًّا). بعد ذلك، اصطحبنا إلى مقرِّ الشركة – عن طريق المترو، كي يعلِّمنا كيفية استعماله – الذي كان يقع مقابل الكرملين، على الطرف الآخر من نهر موسكفا.

وكانت هذه المرحلة بالنسبة لي ولأنور (أقصد الأشهر الثلاث الأولى) مرحلة جميلة وغنية جدًّا. وقد كنَّا نقضيها وفقًا لما أضحى روتيننا اليومي. فخلال النهار كنَّا نداوم في مقرِّ الشركة، حيث كنا نطَّلع على سير الدراسات. وهناك غالبًا ما كان سلافا يؤمِّن لنا زيارات لمواقع جسور قيد الإنشاء في موسكو، ولبعض المعامل، حيث كانت تُصنَّع موادٌ إنشائية روسية أو بعض آليات البناء. وفي الليل، كنَّا نقضي سهراتنا في مطعم الفندق أو في مطاعم أخرى، حيث طابت لنا مرافقةُ الفتيات الروسيات الجميلات، أو، بين الحين والحين، عندما كنَّا نتمكَّن من تأمين بطاقات، كنَّا نذهب إلى مسرح البولشوي أو إلى السينما أو إلى السيرك – مما أدى إلى صرف ما كنَّا نتقاضاه من راتب بسرعة كبيرة قبل نهاية الشهر، مما كان يضطرنا إلى الاستعانة بما كنَّا نحمل من دولارات صرفناها في "بنك" سفارتنا هناك! وأيضًا...

كان سلافا في هذه الفترة هو المسؤول عنَّا ومرافقنا الأساسي خلال معظم العطل الأسبوعية (السبت والأحد) في موسكو وضواحيها. فها هو ذات مرة يأخذنا مع عائلته وأقاربه للتزلج على الثلج في الغابات المحيطة بالمدينة؛ أو إلى معرض للمنتجات الزراعية والصناعية في ضواحيها لنشاهد ما حققه "العهد السوفييتي" من تقدُّم لهذا البلد؛ أو يدعونا إلى منزل أهل زوجته في ريف موسكو لنقضي النهار معهم ونأكل "الشيشليك"[24]؛ أو إلى زيارة معالم هذه المدينة الجميلة التي بدأنا نكتشفها أيضًا بمفردنا، ونكتشف مشكلاتها...

ومشكلات موسكو، المخفية تحت السطح، وراء اللغة الخشبية للخطاب الدعائي الرسمي، التي لم يكن أحدٌ يتحدث عنها حينذاك، لم تكن مجرد مشكلات صغيرة. فسرعان ما اكتشفنا، لدى احتكاكنا بالناس،

---

[23] الشركة الاستشارية السوفييتية التي كنَّا متعاقدين معها من أجل الجسرين.

[24] اللحم المشوي.

ملل الكثيرين من نظام الحكم عندهم عمومًا، ورغبة الكثيرين من خيرة أبناء هذا البلد العظيم في الهجرة والمغادرة، وخاصة منهم اليهود الذين كانت غالبيتُهم تحلم بالهجرة إلى إسرائيل أو إلى الولايات المتحدة. وأتوقف قليلاً هنا لتوضيح كيف تعرَّفت إلى تلك المشكلة اليهودية الروسية، التي لم تكن كلُّها (كما سبق وقيل لنا) من صنع الخارج.

ففي مكان عملنا، حيث كان يوجد بعضهم (الذين كانوا، للمناسبة، من أفضل العناصر الفنية في الشركة) سرعان ما لاحظنا (أنور وأنا) تمايُز هؤلاء عن غيرهم من الروس وانزواءهم. وفي مطعم الفندق، حيث كنَّا نقضي سهراتنا غالبًا، سرعان ما وجدنا أنفسنا على احتكاك ببعضهم ممَّن كان يرتاد المطعم أحيانًا.

فذات مرة، وجدتُنا نجلس على نفس الطاولة مع اثنين لا نعرفهما. وحين استمعا إلينا نتحدث بالعربية، سرعان ما بادرانا الحديث باللغة الإنكليزية.

- من أيِّ بلد أنتما، شباب؟ وبأية لغة تتحدثان؟

فأجبت صاحب السؤال منهم:

- نحن من سورية، ونتحدث فيما بيننا بالعربية.

فضحك وأجابني:

- إذن، نحن أبناء عم.

فاجأني جوابه. لأني، وإنْ كنت فهمت ما يعني، إلاَّ أني تظاهرت بعدمه، وسألته:

- عفوًا، أيها السيد، فأنا لم أفهم ما الذي تعنيه بكلامك.

فقال لي في بساطة لامتناهية:

- أعني أننا يهود، أي أبناء عمومتكم[25].

ووجدتُنا، بالسرعة الكلِّية، نقضي تلك السهرة في نقاش حادٍّ مع "رفيقينا" الجديدين... نقاش دار حول كلِّ الأمور وكلِّ الأشياء... بدءًا من الأوضاع الروسية التي كانا ينتقدانها في حدَّة، بينما كنت أدافع عنها في حماس، مرورًا بالموقف من القضية الفلسطينية التي كنت أدافع عنها، وصولاً إلى الحركة الصهيونية التي صرَّحا لي علنًا بانتمائهما إليها. وقد انتهت هذه السهرة اللطيفة بكلِّ مودة من خلال مشهد بدا لي وكأنه سوريالي! – مشهد كنَّا نشرب فيه، أنا وأنور، نخب "ياسر عرفات"، بينما كانوا هم، من جهتهم، يشربون نخب "دافيد بن غوريون"!

وفي اليوم التالي، حدثتُ سلافا بكلِّ بساطة عما حدث معنا في تلك السهرة، فأنصت إليَّ بانتباه، قبل أن يجيبني بكلِّ جدية:

[25] بمعنى أننا، كعرب، أبناء لإسماعيل، وهم، كيهود، أبناء لإسحاق، اللذين كانا أخوين غير شقيقين.

- نعم، يا أكرم، ها أنت تكتشف بنفسك أن عندنا مشكلات في روسيا... والمشكلة اليهودية هي إحدى هذه المشكلات.
- وهل هناك مشكلات أخرى، يا سلافا، وما هي؟
- قطعًا هناك مشكلات أخرى، يا أكرم، وسوف تكتشفها بنفسك.

وفي يوم السبت التالي، اصطحبَنا سلافا وزوجته، بناءً على طلبي، لزيارة الكنيس اليهودي الرئيسي في موسكو، الواقع قرب "بلوتشت ناجينا"[26]. وأتذكر أيضًا تلك الزيارة الطريفة، حيث...

وصلنا إلى هناك بعيد الظهر، قبل بدء الصلاة. وكان يقف عند باب الكنيس يومذاك بعض العجائز من اليهود، الذين بادر سلافا إلى تحيَّتهم. ثم، بعد أن بيَّن لهم أننا – أنور وأنا – من سورية، استأذنهم في زيارة المكان، فرحَّبوا بنا بكلِّ لطف، ومازحونا قليلاً... فقط طلبوا منَّا بأن نضع قبعاتنا على رؤوسنا حين ندخل إلى الكنيس لأن هذا ما تفرضه أعرافُهم وتقاليدهم. وكان هذا ما حصل. لكن...

ما كدنا أن ندخل، وما كدت أن أتأمل من الداخل ذلك المكان ذا الجدران الحمراء التي كانت تغطيها نقوشٌ توراتية مذهَّبة باللغة العبرية، سارع سلافا وزوجته إلى جرِّنا من يدنا نحو الخارج. وقد وَقَعَ في مسمعي، ونحن نخرج، صوتٌ عالٍ يقول: "إيتا بروفوكاتسي، إيتا بروفوكاتسي..."[27] وقد شرح لنا سلافا بعدئذٍ، معتذرًا، أن بعض الشباب اليهود الذين لم تَرُقْ لهم زيارتُنا إنما اعتبروها "استفزازًا"؛ مما اضطر سلافا وزوجته لأن يخرجانا بسرعة من المكان، تجنبًا للمشاكل. وأتابع اكتشافاتي الموسكوفية...

فألاحظ، مثلاً، كلما كنَّا نعود من سهراتنا إلى الفندق، وجود دوريات من المدنيين الذين يجوبون الشوارع مثنى مثنى. فأسأل سلافا عن الموضوع، ويجيبني بأنهم ميليشيا حزبية تجوب الشوارع ليلاً لتساعد في الحفاظ على الأمن. وأسأله:

- لكن هل هناك من يهدِّد الأمن في موسكو، يا سلافا؟
- نعم، هناك "الخوليغانز"[28]... لأن مازال عندنا الكثير من المشكلات الاجتماعية، يا أكرم.

وبسرعة، أكتشف بعض هذا المشكلات، التي كان من أهم انعكاساتها الخارجية السُّكْر الواسع الانتشار، والدعارة، والعصبيات القومية المستشرية، وخاصة بين الأقليات. وألاحظ أن الفقر كان عامًّا، حيث، حتى تاريخه، أي بعد مرور 57 عامًا على الثورة، لم تكن السلطة السوفييتية قد تمكَّنتْ من حلِّ جميع تلك المشكلات وتأمين مستوى معاشي وسكني لائق للجميع. فحتى تاريخه، مثلاً، لم يكن لدى سلافا (البالغ من العمر حينذاك 40 عامًا) وزوجته وطفليه – وهو مهندس رئيسي ومن سكان موسكو – مسكنٌ خاص بعد؛ فقط كانت له ولأسرته غرفة في منزل جماعي، وكان مسجِّلاً على مسكن لدى

[26] ساحة ناجينا.

[27] أي بالروسية: "هذا استفزاز، هذا استفزاز...".

[28] أي "الزعران"!

الجمعية السكنية في مكان عمله، وينتظر دوره للحصول على مسكنه الخاص منذ ما يزيد عن ستِّ سنوات. أما مترجم مجموعة التحريات، الذي كان شابًّا لا يتجاوز عمره الـ25 سنة، فلأنه كان، ربما، عنصرًا أمنيًّا، فقد أمَّن منزلاً خاصًّا له خلال أقل من سنة. لهذا السبب، فهمنا لماذا لم يدعُنا سلافا خلال فترة إقامتنا في موسكو إلى منزله الخاص... لأنه لم يكن لديه منزلٌ خاص. إنما دعانا إلى المنزل الريفي لأهل زوجته... لهذا السبب أيضًا، لم يكن لدى إحدى زميلاتنا في العمل، تامارا كلاشيناكوفا، التي كانت، كما تبيَّن لي من أصول أرستقراطية، إلا غرفة صغيرة في منزل أهلها وجدَّيها الذي كانت تشاركها في سكناه أربعُ أُسَر أخرى. وأيضًا...

بسرعة تبيَّن لي أن المظهر الإلحادي للدولة السوفييتية لم يكن إلا قشرة رقيقة تغطِّي واقعًا أعقد بكثير ما كنت أتصور. لأنه صحيح أننا، حين زرنا بعض الكنائس هناك، في الفترات العادية، لم نشاهد فيها إلا بعض العجائز، لكن ما فاجأني وجعلني أتفكر جيدًا في الأمر كانت محاولةُ حضوري صلاة الفصح عند منتصف الليل في كاتدرائية موسكو. يومذاك لم أتمكَّن حتى من ولوج باب الكنيسة نظرًا لضخامة الحشد ولكثرة رجال الشرطة والأمن المحيطين بالمكان. وأتفكَّر – وكنت حينذاك في ذروة حماسي وقناعتي الشيوعيين – أن الشعب الروسي، كما وصفه دوستويفسكي وتولستوي، مازال، ربما، مؤمنًا في أعماقه، وأن هذا الواقع، غير المنظور للوهلة الأولى، كان أيضًا من المشكلات التي لمَّح إليها سلافا لي.

وتنتهي الأشهر الثلاثة... ويعود أنور إلى الوطن، وأبقى أنا بانتظار مجيء هاشم الذي كان قد مدَّد مهمَّتي.

7

وأتذكر أنه قبيل ذهاب أنور، في مطلع الشهر الثالث لوجودي في موسكو، بادر الرفاق هناك إلى الاتصال بي. وأجد ذات ليلة كلاً من مروان صقَّال[29] وعمار بكداش وقدري جميل ينتظرونني في البهو الرئيسي للفندق، حيث بادرني مروان مباشرة قائلاً:

- أين أنت، يا عَوَنْطَجي؟ أنت في موسكو منذ شهرين، ولم تتصل بنا بعد؟!

ومنذ ذلك التاريخ أصبحتُ أراهم مرتين في الأسبوع على الأقل... لقاءات كنَّا نقضيها في المطاعم وفي زيارة معالم موسكو التي ازدادت جمالاً مع قدوم الربيع عامةً، وفي نقاشات لا تنتهي حول الأوضاع السياسة عامة، وفي المنطقة خاصة، حيث في الـ13 من نيسان تفجَّرت الحرب الأهلية اللبنانية. كما كنَّا نتناقش خاصةً حول أوضاع الحزب وتكتلاته وما يجب علينا أن نفعل لإضعاف مواقع يوسف وتقوية مواقع أبو عمار. وأتذكر حديثي الخاص حينذاك مع عمار، وكيف لم أستطع إقناعه بأن لا يترك الهندسة!

---

[29] صديقي ورفيقنا من الجامعة. راجع *ذاكرة الباطن*، الجزء الأول.

وأيضًا، أتذكَّر كيف تغيرتْ ظروفي ومكان إقامتي بعيد ذهاب أنور. حيث نُقِلْتُ أولاً إلى فندق شعبي يقع في ضاحية موسكو قرب "المعرض الزراعي"، في وضع جديد كان يتناقض بعض الشيء مع ذلك المظهر الباذخ الذي كنت أعيشه في "فندق أوكراينا". كانت ميزته الوحيدة (أقصد الفندق) أنه يقع مباشرة على خطِّ المترو الموصل إلى مكان عملي. وقد قضيت في هذا المكان ما يقارب العشرين يومًا، انتقلت بعدها، فور مجيء هاشم، إلى فندق فخم آخر يقع في وسط موسكو، قرب ساحة ماياكوفسكي، ويدعى بـ"فندق بكين" (الذي يبدو وكأنه بُنِيَ أيام شهر العسل الصيني–السوفييتي).

هناك، أصبحت أشارك هاشم غرفته، بناءً على طلبه، مما غيَّر روتين حياتي الذي أصبح مرتبطًا بروتين "المعلِّم" ومواعيده. وهذا كان يحكمه وضعُه الصحي وضرورة أن يحضِّر نفسه للعملية الجراحية التي كان سيخضع لها، من جهة، وروتين عمله اليومي، وضرورة مرافقته أينما يذهب، وخصوصًا إلى اجتماعاته مع الجانب الروسي الذي كان يفاوضه من أجل الجسرين، من جهة، ومن أجل تدعيم الشركة في شكل عام، من جهة أخرى. وقد ساهمتْ هذه المرحلة (من العِشْرة اليومية الخاصة) في تمتين الصداقة الناشئة بيننا والقائمة على الاحترام والمحبة.

وأتذكر أنه، خلال تلك الفترة، كان هاشم، كما تعرَّفتُ إليه، مزيجًا من ذلك الإنسان الجبَّار والهشِّ معًا... الجبار في طاقاته الذهنية ومقدار تركيزه وقدرته على العمل، من جهة، والهش بفعل إنسانيته ووضعه الصحي الذي أتى إلى موسكو لعلاجه.

وأتذكر كيف كنت أساعده كلَّ يوم على القيام بتمارينه الرياضية، وكيف كنت أذكِّره بمواعيد تناول أدويته. أتذكر، خاصةً، مفاوضاته الطويلة الحادة مع الروس الذين كانوا يرضخون له في النهاية، وكيف كان يحصل دائمًا على ما كان يريد منهم، بأرخص الأسعار... لأنه، كما قال لي سلافا مرة:

- الأستاذ هاشم مفاوض جيد جدًّا، يا أكرم. إنه أفضل من جماعتي بكثير... ربما لأنه صاحب قضية، وهو مقتنع بها أكثر مما هم مقتنعون بها. وهذا ما يسرني ويؤلمني في الوقت نفسه...

وتنتهي إقامتي في موسكو مع انتهاء مفاوضات هاشم مع الروس. فأغادرها في أوائل حزيران 1975 عائدًا إلى دمشق كي أباشر في تهيئة ورشة جسر الميادين. أعود وأنا متزوِّد منه بعدد لا بأس به من الكتب والأوامر الإدارية التي تعطيني كامل الصلاحية والإمكانية للمباشرة بالعمل، دون أية إعاقة من أحد. الأمر الذي زاد من التباعُد وعدم الانسجام الذي كان قائمًا أصلاً بيني وبين نائبه آنذاك، أقصد رفيقنا وعضو منطقية حلب، المهندس رضوان مارتيني.

8

أعود إلى حلب، حيث أجد منى في انتظاري، وهي على وشك أن تضع طفلتنا الأولى، وحيث كنَّا نلاحق معاملتنا مع المصرف العقاري لشراء أول منزل لنا. وقد اشترينا هذا المنزل الصغير الجميل

الواقع في السليمانية في مواجه "رعاية الشباب"، وانتقلنا إليه في أوائل تموز 1975، أي قبل حوالي أسبوعين من ولادتها لابنتنا الأولى في الـ20 من تموز 1975.

إبان تلك الفترة التي كنت أقضيها متنقلاً بين الميادين وحلب، باشرتُ تهيئة موقع العمل، واستأجرت منزلين للخبراء في الميادين.

وأتذكر كيف جاء أهلي، بعد ولادة منى، إلى حلب مباشرة لتهنئتنا بطفلتنا الأولى التي كنَّا أسميناها "لنا". وأتذكر أن مَن جاء كان عمليًّا عائلة أريستيدي الصغيرة كلها... حيث، بالإضافة إلى أبي وأمي، كانت هناك أيضًا إكرام، التي أخبرتْني بأنها أنهتْ دراستها في فرنسا، كما كان أيضًا أخي سمير وأختي ريما. وأتذكر...

أني سألت إكرام حينذاك حول هل لاقت أية صعوبات في المطار، فأجابتني: "لا، فقط تأمَّلوني كثيرًا، وهم يدققون في جواز سفري." وأتذكر خاصةً...

أنها كانت تحتضن لنا في حنان، حين سألتْني بشكل مفاجئ، وبكلِّ جدية:

- أكرم، هل تعطيني طفلتك؟

وكيف أجبتُها بكلِّ جدية وأنا أضحك:

- لا يا إكرام، هذا غير وارد!
- إذن، ستجبرني على صنع طفلي بنفسي!

وأتذكر خاصةً في ذلك اليوم كيف غضب منَّا سمير، الذي كان يقضي وقته كلَّه جالسًا أمام لنا يتأملها... غضب منَّا لأننا أيقظناها بصوتنا العالي!

وأتذكَّر – يا إلهي! – كم مرَّتْ عليَّ من أحداث في تلك الأيام، ولم تكن كلها جميلة...

كيف استُدعيتُ ذات يوم إلى دمشق، لأجد إكرام العائدة من المستشفى، الخارجة لتوّها من محاولة انتحار بسبب قصة حبٍّ تَعِسة وفاشلة عاشتْها... كيف وجدت أهلي في انتظاري يومذاك: أبي منزوٍ وحده في زاوية الصالون يبكي... ريما الجالسة إلى جانب سمير في صمت... وأمي التي علَّقتْ بكلِّ قسوة حين رأتني قائلة:

- كل هذا كان بسببك...

وأتذكر كيف وجدت إكرام مستلقيةً على السرير في غرفتها، فأضمُّها إليَّ وأنا أسألها:

- لماذا، يا إكرام، لماذا؟ وهل هناك أحدٌ يستحق أن تنتحري من أجله؟!

فتجيبني، وهي تبكي:

- لقد كنت أحبه، يا أكرم! أما هو فقد كان يسخر منِّي...

وأستعيد، كيف طلبتْ منِّي آنذاك، بكلِّ جدية، أن أذهب "إليه" وأسترجع "منه" الرسائل التي سَبَقَ لها أن كتبتْها له، وكيف ذهبتُ، وكيف استرجعتُها...

لأن بعد هذه الحادثة بشهر... نعم، بعدها بشهر، سافرتْ إكرام إلى المكسيك. غادرتْنا إلى الطرف الآخر من الكرة الأرضية. وقد كان قرارُها حينذاك أنها لن تعود إلى هذا البلد مرة أخرى. وأيضًا...

أتذكر أنه كان ذلك مساء أحد أيام الجمعة التي كنت أقضيها مع زوجتي وابنتي الوليدة في حلب، حين اتصلت بي والدتي لتخبرني بأنها عائدة لتوِّها من بيروت مع أبي بعد أن أودعت سمير في "مشفى السيدة" في أنطلياس، حيث مازال إلى الآن.

وأستعيد كيف كنت أستمع إليها بكلِّ بلاهة، فاغر الفاه، وأنا أبكي، وكيف أني، على الرغم من أن الألم كان يعتصر قلبي، لم أجرؤ حتى على سؤالها:

- لماذا؟ لماذا، يا ماما؟ ألم يكن بالإمكان أن نبقيه معنا؟

لأنه، من منظورها، هذا لم يعد ممكنًا... لأنه، حينذاك، لم يكن أحدٌ منَّا حتى يتجرَّأ على مناقشة روزين. وأيضًا...

9

أتذكر كيف مرَّ هذا العام (1975) بسرعة مرعبة... كيف بوشر بالعمل في الميادين... كيف وصلت الـ"بينوتو"، وكيف رافقتُها من حلب إلي موقع العمل... وكيف أنجزنا الردمية من الجهة اليمنى من الجسر... وكيف أنجزنا أساسات المسند الأول فيه بحضور هاشم الذي جاء خصيصًا من دمشق ليكون معنا.

وأستعيد، خاصة، كيف جاء سلافا وفالنتينا وطفلاهما إلى منزلي في حلب لتهنئتي بميلاد ابنتي لنا، وكيف مازحني يومئذٍ قائلاً:

- أنت، الآن، كما تقولون عندكم يا أكرم، أصبحت تدعى "أبو لنا".
- نعم، أبو لنا، يا سلافا... أبو لنا.
- أما أنا، يا أكرم، فبوسعك، من الآن فصاعدًا، أن تدعوني "أبو ماشا" أو "أبو إيليا"...

ونضحك ملء قلوبنا. لأننا كنَّا سعداء في ذلك اليوم حقًّا... سعداء بتلك الصداقة العميقة التي كانت تترسخ كلَّ يوم بين أبو لنا وأبو ماشا! وأيضًا، وخاصةً، سعداء كنَّا، ونشرب معًا كأس مستقبل كنَّا نؤمن بأنه سيكون زاهرًا وسعيدًا لكلينا. ففي ذلك اليوم، أخبرني سلافا أيضًا أنه حصل على منزله في موسكو، وأنه استلمه مباشرة قبيل مجيئه إلى سورية.

وأتذكر، يا إلهي، كم مرَّ هذا العام بسرعة. حيث سرعان ما كان رأس سنة جديد (1976)... قضيناه جميعًا في دمشق. جميعًا، أقصد أنا ومنى ولنا، وأيضًا وخاصةً، سلافا وفاليا وطفليهما الذين جاؤوا معي إلى دمشق ليشهدا معمودية لنا وليكونا إشبينين لها... تلك المعمودية التي تمَّتْ في منزل الأهل، وبحضور هاشم وزوجته:

- لقد أصبح عندنا اليوم طفلة جديدة، يا فاليا.
- نعم، يا سلافا، لقد أصبح عندنا اليوم طفلة جديدة.

هذا ما كان يقوله أبو ماشا لزوجته في يوم معمودية ابنتي لنا، الذي وقع في الثاني من كانون الثاني 1976...

الفصل الثاني عشر

تحوُّلات
أو
هاشم وسلافا – 2

تحوُّلات أو
هاشم وسلافا – 2

"وأعِدِ الكرَّة إنِ استطعت، لكنْ بنزاهة لامتناهية..."
رومان رولان

طائر الليل: "... خدعتْني الحياة./ هذا ليس عدلاً/ في حقِ ضبٍّ مسكين/ يعيش مصادفةً في قلب المجتمع./ المجتمع، أنا لا أرغب في التدخُّل فيه،/ لأني شخص على حدة،/ بذرة فوضوية..." (من قصيدة وأغنية فرنسية لليو فيريه)

1
طارق ونورا
(1976 – 1978)

ويستمر بناء جسر الميادين، الذي سرعان ما أضحى العملُ فيه في نظري روتينيًّا. فها هي ذي الأوتاد تنفَّذ من الضفة اليمنى من النهر، تليها الأعمدة، فالمساند، فردمية جسم الطريق الواصل من الجهة نفسها، حيث ركَّبنا رافعة "الآسيم" وأقمنا ورشة تصنيع الجوائز مسبقة الصنع والإجهاد. بعيدئذٍ، وفور الانتهاء من أعمدة هذه الضفة ومساندها، كانت إزالة الردمية من مسار النهر في هذا الطرف والبدء بردمية الضفة اليسرى من أجل الشروع في وضع الأساسات والأعمدة والمساند من هناك – ما قد يبدو وكأنه شريط مسلسل سينمائي بطيء وممل في نظر المشاهد العادي. لكن الأمر، كما هو في طبيعة الحال، ما كان ليخلو من بعض الحوادث المؤثرة، التي هي، في نهاية المطاف، دراما أيِّ بناء هندسي وقصة كلِّ منشأة حقيقة... وذلك لأن لكلِّ منشأة في الواقع قصتَها، وسجلاتِها، وأحداثَها، وأخبارَها...

كهذا الخبر الذي وصلنا برقيًّا ذات صباح من الطبقة ومن إدارة الشركة بآنٍ واحد: سترتفع مياه النهر طوال الأيام الأربعة القادمة حوالي مترين، إذ ستصل الغزارة إلى 6500 م3/ثا. وعلى الفور، ولأننا كنَّا نتوقع شيئًا من هذا، بحُكْم مراقبتنا اليومية لتدفق المياه، استُنفِرنا للعمل على مدار الأربع وعشرين ساعة من أجل رفع منسوب ردمياتنا بما يتجاوز المترين، ولسحب آلياتنا من ضفتي النهر حتى المنسوب الآمن. هي ليالٍ بيضاء، لم نعرف إبانها النوم إلاَّ في صورة متقطعة ونحن في موقع العمل؛ هو سباق مع الزمن، وصراع مع عوامل الطبيعة، لا بدَّ من توقُّعه دائمًا في أعمال كهذه. وفي النهاية – وهذا أجمل ما في الأمر – يسود شعورٌ عميق بالراحة حين ينتهي كل شيء مع بدء انحسار منسوب المياه الذي كنَّا نقيسه كلَّ ساعة. وأتذكر ما قاله لي آنذاك صديقي الروسي الجديد إدفارد ليسنياك:

- "في وسعنا أن نذهب الآن إلى فراشنا لننام."

نعم، في وسعنا ذلك الآن، يا إدفارد، وقد اطمأنتْ قلوبُنا إلى أن الأوضاع عادت طبيعية. أحداث تمر ولن يذكرها أحد من بعد؛ لكنها بنظر البنَّاء كبيرة ومؤثرة...

كأنْ تتعطل آلية حفر الأوتاد، الـ"بينوتو"، إبان عملية صبِّ الوتد ما قبل الأخير الواقع على حافة الردمية وسط النهر. والتحدي الذي واجهناه في صعوبة آنذاك كان وجوب إعادتها إلى العمل خلال أقل من أربع ساعات، أي قبل تجمُّد البيتون، من أجل إنقاذ قميص الوتد الذي إنْ فقدناه توقفت جميع أعمالنا لفترة طويلة، أولاً، ومن أجل إنقاذ الوتد في حدِّ ذاته، ثانيًا. وكان هذا ما حصل، حيث تمَّ ذلك الإصلاح في غضون أقل من أربع ساعات، استمررنا بعدها، وبأمر من سلافا، بصبِّ ما تبقَّى من الوتد. وأتذكر أني سكرت مع الخبراء الروس في تلك الليلة! سكرت، نعم، وبكلِّ ما لهذه الكلمة من معنى حقير – لأول مرة منذ عودتي من موسكو. سكرت، وتقيأت حتى الاختناق، فرحًا بإنقاذ الوتد والقميص المعدني. إلهي، كم كنت مترنحًا وسعيدًا يومذاك! إلهي، كم كنت سعيدًا ومترنحًا! – على الرغم من "التوبيخ الشديد" الذي جاءنا من هاشم حين أخبرناه بما حصل (إذ لم يكن من المفروض البدء بالصبِّ قبل التأكد من الجاهزية الكاملة للآلية) ومن تأكيده على ضرورة وضع تعليمات صارمة حول هذا الموضوع. وأيضًا، تمر أمامي بعض الأحداث الصغيرة، المضحكة والمؤلمة، التي مازالت مطبوعة في ذاكرتي إلى اليوم...

كأن تتهور بي السيارة التي كانت تقلني وأنا في طريقي إلى تفقُّد المقالع على الضفة اليسرى من النهر قرب موقع الجسر، وكيف أنني، عندما خرجت والسائق (الكردي) "رمدان" كوسا من نافذة الجيب المقلوبة على ظهرها، كان أول ما فعلتُه، بعد سؤال رمضان عن حاله، هو التأكد من أن ضررًا لم يُصِبْ الآلة الحاسبة التي كنت أحملها معي! في ذلك اليوم، ولما ازدادت الآلام في صدري إلى حدٍّ لا يطاق، عدت إلى حلب بعد مراجعة الدكتور محمود الذي أعطاني مسكِّنًا وعاينني وتأكد من حالي بمعاينة صورة شعاعية للقفص الصدري. وأسترجع ضحكته الجميلة وهو يقول لي:

- "بسيطة، يا مهندسنا، بسيطة! هو مجرد "شِعْر" في ثلاث قصبات من القفص الصدري. لذلك آمرك أن تذهب الآن مباشرة إلى حلب لتستريح. إنه أمر من عندي أخبر به الأستاذ هاشم. لقد قررت لك استراحة مدتها ثلاث أسابيع.

وأتذكر كيف حاولت، بكلِّ سذاجة، حين عدت إلى حلب، ألا أدع منى تشعر بما حصل، لكنها شعرت به مباشرة! وأتذكر كيف ضحك الأستاذ هاشم وأنا أخبره بقرار الدكتور محمود قائلاً:

- "بسيطة! لكن، هل ستتحمل ثلاث أسابيع بلا عمل؟!"

هاشم، آه يا هاشم!

لأن أكثر ما أتذكره اليوم – ويتجاوز كلَّ ما سبق – كان زياراتك للموقع، التي كانت في نظرنا، في تلك الأيام الجافة وفي هذه المنطقة الجرداء، كالعاصفة المطرية في البادية، غامرةً ومنعشةً معًا. وأتذكر منها

خاصة تلك الأخيرة إلى موقع العمل في الميادين، عشية عيد الأضحى، حين اصطدمنا اصطدامًا عنيفًا، ثم تصالحنا في مودة – كالعادة! لأني حين وصلت إلى الورشة في ذلك الصباح، عرفت لتوي، من الحركة غير العادية للجميع، أن هاشمًا هنا، وأنه، كعادته، سبقنا جميعًا إلى موقع العمل. لم أبحث عنك يومذاك، يا هاشم، ولم ألحق بك، لمعرفتي بأنك ستستدعيني مباشرة حين تحتاج إليَّ. إنما، كما هي عادتي كلَّ يوم، توجهتُ إلى مكتبي لأسيِّر بعض الروتينيات، قبل أن أتوجَّه إلى مواقع العمل في الورشة. وسرعان ما جاءني محمود العليوي راكضًا لاهثًا ومضطربًا:

- "أستاذ أكرم! يا أستاذ أكرم! الأستاذ هاشم يريدك على الفور... إنه على الجسر في الضفة اليسرى..."

ويتملَّك قلبي انقباضٌ صغير، لأني كنت أعرف سبب استدعائه الفوري لي من هناك. فقد كان عليَّ أن أبرِّر أمامه لماذا خالفنا تعليماته، ولماذا قمنا بتركيب القوالب المستعمَلة للصبِّ ما بين الجوائز وفق ترتيب مخالف لما سبق واتفقنا حوله معًا.

- "لأننا اضطررنا إلى هذا كي نسرِع العمل ونتمكن من الصبِّ اليوم تحديدًا، قبل ذهاب العمال في إجازة عيد الفطر." كان هذا ما أجبته به حين واجهتُه وسألني عن الموضوع.
- "هذا لا يهمني! فأنت تعرف أن ما تفترضه تسريعًا للعمل اليوم سيؤخرنا غدًا. يجب إعادة فكِّ القوالب وإعادة تركيبها، كما سبق واتفقنا."
- "لم يعد الأمر ممكنًا الآن، يا أبو الخير..."

وأتذكر أنه استعمل كلمة نابية، ما جعلني أشعر بالإهانة. فأدرتُ له ظهري، وعدت غاضبًا وحزينًا إلى مكتبي، تاركًا له تدبُّر الأمر بنفسه.

ثم، بُعيد ساعة، بعد أن تأكد بنفسه أنه لم يعد ممكنًا فكُّ القوالب المركَّبة والجاهزة لتلقِّي البيتون، أمر ببدء الصب.

الساعة الآن الواحدة بعد الظهر، والصب قد انتهى. العمال متجمِّعون أمام مكتبي، ينتظرون أن نأذن لهم بالانصراف. ويطلب مني أبو ماجد (مراقب الورشة) راجيًا:

- يا أستاذ، خبِّر الأستاذ هاشم أن علينا أن نغادر، خبِّره... لقد انتهى عملنا اليوم، وغدًا عيد، والباصات التي ستأخذنا إلى القامشلي تنتظر.

وأتوجَّه مع "المحاسب" أبو حسين إلى هاشم (الذي كان مازال على الجسر) لاستئذانه في صرف العمال، فيعلِّق ساخرًا:

- "طبعًا، حين يتعلق الأمر بالانصراف قبل نهاية الدوام فإن الجميع جاهز ومستعد دومًا!" وأسأله مرة أخرى مؤكدًا:
- "هل نسمح لهم بالانصراف أم لا، يا أستاذ؟ الباصات التي ستقلهم إلى القامشلي في انتظارهم."

- "نعم، دعهم يذهبون... وكذلك الخبراء..."

أشكره، وأهم بالانصراف مع أبو حسين، حين يسألني هاشم مبتسمًا:

- "إلى أين أنت ذاهب؟"
- "إلى دير الزور، فحلب، لأن القطار ينتظرني أنا أيضًا. وأنا حاجز في القطار، كما تعلم."
- "لا، دَعْ أبو حسين يعيد بطاقتك ويخبر زوجتك هاتفيًّا أنك ستعود معي." وأجيبه بابتسامة:
- "على راسي، يا أبو الخير!"

وهكذا زال، بكلِّ بساطة، وكأنه لم يكن، سوءُ التفاهم الذي حصل بيننا هذا الصباح! ويأخذني من ذراعي بقوة، لنبدأ معًا جولةً ثنائيةً على الورشة التي انصرف منها الجميع، جولةً مررنا فيها معًا على كلِّ ما في الموقع، ودقَّقنا فيها معًا في كلِّ شيء. هي ملاحظة من هنا، هو تنبيه من هناك، وأحيانًا – نعم، أحيانًا – هي كلمة ثناء سريعة في صوت منخفض، كلمة هي، في نظره كما في نظري، ذروة المديح!

وأتذكر أننا غادرنا الورشة متجهَيْن إلى حلب حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر – حلب التي كان من المفترض أن نصلها في هذه الحال، وفي شكل طبيعي، في الساعة السابعة والنصف مساء، لكننا لم نصلها إلاَّ في الواحدة والنصف بعد منتصف الليل...

لأننا كنا نتوقف عند كلِّ موقع من مواقع العمل الممتدة على طول خطِّ سكة الحديد الواصل إليها من دير الزور – الذي كانت شركتنا متعهدة لبناء محطات ركابه – فنترجَّل من السيارة ونتفقَّد معًا الورشات الفارغة إلاَّ من حرَّاسها. وبمساعدة حراس الورشة وسائق سيارته، غالبًا ما كنَّا نُحضِر الشوادر الثقيلة بأيدينا لتغطية أكياس الإسمنت الملقاة في العراء.

- "انظر إلى هذا الإهمال، يا أكرم... لا أحد منهم يفكر بأن المال العام هو ماله في النهاية... لا أحد منهم يتصرف بمسؤولية... انظر كيف يتعاملون مع مواد البناء... بأيِّ استهتار!"

ونصل إلى حلب في نهاية المطاف – لكن، كما سبق وأشرت، في الواحدة والنصف بعد منتصف الليل – لنجد أن ورشة صبِّ القالب المنزلق كانت مازالت تعمل في موقع المطحنة عند مدخل المدينة. ويأمر هاشم سائقه بالتوجه إلى هناك وهو يسألني ضاحكًا:

- "ما رأيك أن نكمل السهرة معهم؟ أعتقد أنهم سينتهون من الصبِّ مع طلوع الفجر."

وأعتذر منه لأني كنت قلقًا فعلاً على وضع منى التي كانت في انتظاري. فيقول لي:

"كما تريد." ويأمر سائقه بإيصالي إلى منزلي والعودة إليه.

هاشم، آه يا هاشم! كم أفتقدك الآن أيها العزيز! وكم أفتقد ملاحقتك الدائمة ورعايتك التي أشعر أنها مازالت تلاحقني إلى الآن وقد تجاوزت الستين من عمري! – لأني، إلى الآن، مازلت أتذكر مكالماتنا الهاتفية كلَّ مساء لمتابعة أمور العمل، التي لم تكن لتخلو أحيانًا من بعض السياسة.

- "لقد كان وزير الدفاع [مصطفى طلاس آنذاك] عندنا في العشارة، وقد ألقى كلمة وَعَدَهم فيها مجددًا ببناء جسر هناك. هل سمعت بهذا، يا أبو الخير؟"
- "طبعًا سمعت... لذلك أسرع وأرسل مباشرة الـ"بينوتو" [آلة حفر الأوتاد] التي انتهيتم منها إلى أنور في قره قوزاك، قبل أن يُصدِر في حقِّها أمرًا عسكريًّا يقضي بمصادرتها، مما قد يعيق عملنا هناك..."
- "سأرسلها غدًا، وأرافقها بنفسي حتى الموقع..."
- "لكنْ لا تسرع على الطريق. لا أريد مشاكل!"

وأتفكر في السياسة في تلك الأيام... السياسة التي كنت أتابعها عبر إذاعة لندن، وخاصة عبر مجلتين كنت حينذاك أواظب على شرائهما كلَّ أسبوع من حلب، وكانتا مجلة المستقبل لنبيل خوري، و Le Nouvel Observateur لابن عمِّنا اليساري الفرنسي جان دانييل، حيث كنت ابتدأت منذ ذلك الحين بـ"تجاوُز" ما كان يصلني من الحزب من أخبار، بدأت ألاحظ مدى سطحيتها. ومن خلال هذه المصادر...

كنت أتابع أنباء وتطورات تلك الحرب الأهلية الدموية المجنونة المستعرة في لبنان، الذي دخله الجيش السوري، بناءً على طلب من رئيس جمهوريته سليمان فرنجية، في الأول من حزيران 1976 لمساعدة الطرف المسيحي المتقهقر، وكيف اصطدم الجيش السوري آنذاك بالتحالف "الفلسطيني الإسلامي–اليساري" بقيادة ياسر عرفات وكمال جنبلاط. وأتذكر أن عواطفي يومئذٍ كانت مع التحالف "التقدمي" طبعًا؛ ولكن، في أعماقي، كانت تتفاعل تساؤلات لم أكن أتجرأ على طرحها علنًا: تساؤلات تتعلق بما كانوا يسمونه "حق المقاومة الفلسطينية في البقاء والعمل من لبنان"، تساؤلات كانت تلتقي كلها عند نقطة واحدة تقول: لماذا في لبنان و/أو منه؟ لماذا ليس من سورية مثلاً و/أو من مصر، ليس حصرًا؟ حينذاك لم أكن قد فهمت بعد أن القضية الفلسطينية كانت أضحت مجرَّد "قميص عثمان"، يستعمله مَن يشاء من الحكام والسياسيين العرب لتحقيق مآربهم السلطوية غير المنزَّهة، وأن لبنان – هذا البلد الصغير، الديموقراطي والتعددي، وأرقى الدول العربية على الإطلاق! – كان أضحى مرتعًا لصراعاتهم الهمجية.

خاصةً أيضًا وأني، خلافًا لرفاقي في الحزب، كنت معجبًا (لم أكن أخفي ذلك) بشخصية كمال جنبلاط وبعمقه الروحي والفلسفي. لذلك كنت أتابعه باهتمام دائمًا؛ ما جعلني أتأثر جدًّا حين اغتيل (في آذار 1977، على ما أذكر)، كما تأثرت خاصة بتلك الشائعات الملحة التي كانت تقول إن السلطات السورية كانت من وراء اغتياله. لكن الأخبار المتلاحقة للحرب الأهلية اللبنانية وتطور الأحداث غطَّتْ على هذا الأمر الذي سرعان ما طُوِيَ. وأيضًا...

حينذاك، على الرغم من ابتعادي المباشر عن التنظيم، كنت ألتقي كلَّ أسبوع بالرفاق في حلب. وعلاقتي المباشرة كانت مع مروان صقال (الذي أضحى يعمل في الشركة) ومع عضو اللجنة المركزية وعضو منطقية حلب الرفيق خلوف قطان. وأيضًا في دمشق، كنت أجتمع مع "أبو محمد" (عمر السباعي،

عضو المكتب السياسي ووزير المواصلات)، وخاصة مع "أبو سعيد" (عبد الوهاب رشواني، عضو اللجنة المركزية وعضو منطقية دمشق) – لأني كنت حينذاك، عن قناعة كاملة، مع "الاتجاه المبدئي"، المتمثل بالرفيق خالد، الذي كان بدأ يتمايز عن ذلك الاتجاه "المبدئي حتى إشعار آخر" الذي بات يتحول إلى اتجاه "لا مبدئي"! – أقصد ذلك الذي كان يمثله مراد يوسف. فالرفيق خالد، الذي بدأ يضيق ذرعًا، على ما يبدو، بسماجة مراد وجماعته، صار يلتقي (تكتيكيًّا) مع "الاتجاه غير المبدئي"، المتمثل بالرفيق يوسف فيصل وجماعته والثلاثي دانيال وإبراهيم وظهير... أو هكذا كانت تقول ظواهر الأمور التي قد تبدو اليوم، لِمَن يقرؤها، كحديث حشاشين! خلاف جديد لم أكن أفهم آنذاك حيثياتِه كلَّها؛ لكنه كان يتطور بعمق وبسرعة، ليقود الحزب، برعاية "الرفاق الكبار"، إلى انشقاقه الثاني. وأيضًا...

أهم من هذا كلِّه، وإبان العام 1977، كانت منى قد حملت من جديد، وكان منتظرًا أن تضع مولودها مع نهاية العام...

ذاك العام الذي كان أهم ما تميَّز به، على الصعيد الدولي والعربي، زيارة الرئيس المصري أنور السادات إلى إسرائيل وإلقائه خطابًا من على منبر الكنيست. وأتذكر أني كنت في الميادين في ذلك المساء من أوائل تشرين الثاني 1977 أتابع إذاعة خطاب السادات في مجلس الأمَّة المصري، حين لفت انتباهي ما جاء في كلمته من أنه "... مستعد للذهاب إلى آخر العالم للبحث عن السلام، وحتى إلى الكنيست نفسها..."

وتتسارع الأحداث. فسرعان ما دعا مناحيم بيغن السادات لزيارة إسرائيل، وسرعان ما لبَّى الرئيس المصري الدعوة، وحصل ما حصل، وأدى في نهاية المطاف إلى اتفاقية كامپ ديفيد واستعادة كامل سيناء وإلى ذلك "الصلح المنفرد" بين مصر وإسرائيل.

كنت في حلب، في منزلي، عندما كان السادات يلقي كلمته أمام الكنيست في العشرين من تشرين الثاني 1977، تلك الكلمة التي تابعتها في اهتمام كبير، ذلك "الخطاب التاريخي" الذي كانت جميع وكالات الأنباء تنقله حيًّا. وأتذكر كيف بكت زوجتي تأثرًا وحزنًا حين سمعت الخطاب الذي رفضتْ متابعته حتى النهاية. أما أنا فقد تابعتُه في صمت حتى نهايته، خاصة وأن تساؤلاً مهمًّا وجوهريًّا كان بدأ يتفاعل في أعماقي، تساؤلاً مفاده: "ماذا لو كان على حقٍّ فيما فعل؟ وحتى متى، نعم، حتى متى يا ترى ستستمر هذه المأساة التي أضحت مبكية ومضحكة معًا؟!" حينذاك، سألني جمعة عبد القادر، الذي كان وزوجته يتابعان الخطاب من منزلي، وقد لاحظ صمتي ومدى تأثري:

- "ما رأيك بهذا، يا أكرم؟" وأتذكر أني أجبته في تأثر:
- "لا أعرف، يا جمعة، لا أعرف!"

ويشارف العام على الانتهاء. وأعود في تلك الليلة، ليلة الثامن والعشرين من كانون الأول 1977، إلى حلب من الميادين، لأكون إلى جانب منى في ولادتها ولنحتفل معًا بذلك الحدث السعيد وبأعياد رأس

السنة الجديدة، فأجد المنزل خاويًا، وأفهم أن الإرادة الإلهية سبقتْني وأن الولادة قد حصلت. وأسارع إلى تبديل ثيابي، قبل أن أتصل بأحد، حين يصلني اتصالٌ هاتفي من شذى، ابنة فيوليت شقيقة منى، التي قالت لي في تأثر:

- "مبروك، يا أكرم، مبروك! لقد ولدت منى وأصبح عندك الآن ثلاثة أطفال!"
- "ثلاثة؟! ما الذي تقولينه، يا شذى؟ هل وضعتْ منى توأمين؟"
- "نعم، لقد ولدت توأمين مساء البارحة، صبي وبنت. لنا الآن عندنا في المنزل. أما منى فمع تيتا [حماتي] في مستشفى الدكتور أسود. وهم ينتظرونك."

وأسارع في الذهاب إلى هناك، لأرى زوجتي التي كانت تنتظرني، ولأرى، للمرة الأولى، طفليَّ الجديدين، طارق ونورا. وتتملَّكني رغبةٌ في البكاء من شدة التأثر، لأني لم أجترأ حتى على ملامستهما نظرًا لصغر حجمهما. وأبقى وحماتي مع منى في المستشفى حوالي ساعتين، ثم أدعها لتنام. وأخرج من المستشفى مترنحًا عند منتصف الليل، لأطرق باب بيت مروان، الواقع قبالة المستشفى، فيفتح لي الباب وهو في ثياب النوم، متسائلاً في تعجب عما جاء بي، بلا موعد، في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل، فأقول له ضاحكًا:

- "لقد جئتك لنشرب معًا كأسًا من الفودكا، لأني غادرت منى لتوي، وهي الآن في مستشفى الدكتور أسود. لقد وضعت توأمين!" ونغرق معًا في الضحك!

وأتفكر في حزن هنا أن شقيقتي إكرام وضعت وحدها في المكسيك، قبل سنة تمامًا من ذلك تاريخ، كما أخبرتْنا، طفلها الوحيد مروان. وتمر الأيام بسرعة...

حيث سرعان ما جاء أهلي (أبي وأمي وريما) للتهنئة، وسرعان ما كانت معمودية طارق ونورا في منزلي في حلب في حضور الجميع، وخاصة في حضور طاقم الخبراء الروس في جسرَي الميادين وقره قوزاك – وقد كان اشبينهما هذه المرة أناتولي تولبيغين، رئيس الخبراء، وزوجته أولغا.

وتمر كذلك أحداث هذا العالم التي كانت تتفاعل من حولنا، كذلك الانقلاب المجنون الذي قام به شيوعيو أفغانستان في 17 تشرين الثاني 1977 على النظام الملكي المستنير هناك، "تلبيةً لنداء الواجب"، كما قالت آنذاك نضال الشعب، صحيفةُ حزبنا الشيوعي، وأنباء تلك الثورة السلفية التي كانت تتفاعل في إيران، كما كانت تتحدث وكالات الأنباء.

لكن... في الداخل السوري، وأهم من هذا كلِّه، كنتيجة لتراكمات واحتقانات داخلية، أهم أسبابها الديكتاتورية وما يرافقها دائمًا من فساد، كانت الأنباء تتحدث عن اغتيالات مروعة وغامضة لبعض الشخصيات الحزبية والسياسية المهمة في البلاد، من بينهم وأهمهم رئيس جامعة دمشق (وصديق عمِّي رزق الله) الدكتور محمد الفاضل، الذي اغتيل في شباط 1977، والدكتور إبراهيم نعامة، نقيب أطباء

الأسنان، الذي اغتيل في آب 1978. ولم تُذَعْ حينذاك هوية مَن كان يقف وراء هذه الحوادث التي لم يتبنَّاها أحد!

وينتهي العمل في الجسر في أواخر العام 1978. وقد غادرتُه في هدوء متوجهًا إلى حلب، فدمشق، لمقابلة هاشم وتحديد مكان عملي الجديد. غادرتُه في هدوء، نعم، حيث مازلت أتذكر بألم أنه لم يودعني أحدٌ من الرفاق في الورشة يومذاك، لأن علاقتي بهم هناك، كما سبق وبيَّنت، أضحت فاترة جدًّا، وخاصة في الفترة الأخيرة. لم يودِّعني أحدٌ منهم يومذاك، لكن – ولسخرية الأقدار – ودَّعتْني قيادةُ فرقة حزب البعث في الميادين، الذين دعوني إلى كأس من الشاي، كما ودَّعني محافظ دير الزور، الذي مررت لأخبره بذهابي، فضمَّني إليه وقبَّلني وهو يقول:

- "موفَّق، يا أكرم! لقد كنت أتمنى لو بقيت هنا إلى جانبي. لكن وفَّقك الله! سلِّم لي كثيرًا على هاشم."

وأتفكر بأني لم أعد إلى الميادين، ولا حتى مرة واحدة، منذ ذاك الحين...

2
البقيعة أو حمص–عكاري
(1979–1978)

لماذا لم أعد إلى الميادين؟ ربما لأن عُرْف المهنة يقضي بألا ينظر المهندس إلى الخلف فور انتهائه من أيِّ عمل ينجزه. وأتفكر في أنه أمرٌ طريف فعلاً ألا يفكر المرء بأيِّ شيء وهو يمر عادة أمام أيِّ بناء أو منشأة، سوى أنه كان دائمًا في هذا المكان، حيث يبدو وكأنه من الطبيعي أن يوجد كما هو عليه. نعم، من الطريف فعلاً ألا يفكر أحد بما قد تعنيه وتمثِّله عملية بنائه التي تمضي دائمًا وكأنها لم تكن ويطويها النسيان. وأتفكر أن هذا أمر طبيعي وبشري، حتى في نظر مَن ساهم في بنائه، إن لم أقل خاصةً في نظر هؤلاء. وكان هذا ما حصل معي بخصوص جسر الميادين، الذي لم أعاود زيارته منذ أن غادرت المنطقة، أو بخصوص طريق القنطري–تل تمر، أو خاصة بخصوص المستشفى التعليمي لجامعة دمشق. ولكني، على الرغم من كلِّ شيء...

لا أستطيع أن أمنع نفسي، في كلِّ مرة أمر فيها من المكان الواقع على الطريق الواصل بين حمص وطرطوس عند نهاية سهل البقيعة (وهي تلك المنطقة الواقعة ما بين سورية ولبنان، شمال سهل البقاع)، عندما تدنو واسطة النقل التي أستقلها من المفترق المؤدي من هناك إلى قلعة الحصن ومرمريتا أو إلى طرطوس – أقول: لا أستطيع أن أمنع نفسي، في كلِّ مرة، من التمعن في ذلك الجسر الصغير الأخير الواقع على خطِّ سكة الحديد ومن التبسُّم...

لأني أتذكر إلى الآن ظهيرة ذلك اليوم من صيف العام 1979، عندما كنَّا نحتفل بإنجاز العمل في أساسات هذا الجسر (وهذه كانت ثمانية أوتاد تم إنجازها بآليتنا الروسية العتيقة المهترئة في غضون أقل من ثلاث ساعات!) – أتذكر كيف رفعت يومذاك كأس الخمر وخاطبتُ فيتالي (رئيس المجموعة السوفييتية في المشروع هناك):

- "كأس الأوتاد الثمانية التي أُنجِزَت اليوم، يا فيتالي!"

فيحدِّق فيَّ بعينيه الزرقاوين الباردتين ويجيبني:

- "وهل تعني بهذا أننا من قبل كنَّا لا ننجز إلا وتدًا واحدًا في اليوم؟" فأجيبه بلؤم:
- "بالضبط، يا فيتالي، بالضبط... هذا ما كنت أعنيه!"

وأتذكر أنه حاول أن يقول شيئًا، لكن الحديث بيننا انقطع فجأة، وتوجَّه كلٌّ منَّا إلى مكان آخر. وكشريط سريع، تمر أمامي صور تلك الأيام التي قضيتها في ذلك المشروع الذي بدأت العمل فيه في أواخر العام 1978، فور انتهائي من جسر الميادين.

- "ستكون رسميًّا نائبًا لمدير المشروع، يا أكرم. لكنْ، فعليًّا، ستكون صلاحياتُك هناك صلاحياتِ مدير مشروع، لأن مديره الحالي، وهو صديقي في الدراسة [المهندس عزمي الكسم]، ناعم جدًّا، فلم يتمكن من إدارة هذا العمل كما يجب. وأنا لا أريد أن أجرح شعوره وأُبعِده عن المشروع..."
- "طيب، يا أبو الخير، سأبذل قصارى جهدي... لكني في حاجة إلى دعمك كلِّه للانطلاق بهذا المشروع الذي أفهم أنه في مأزق، حيث العمل، كما أخبرتَني، شبه متوقف..."
- "سأدعمك أكثر مما تتصور. فالمهم هو أن نخرج من هذا المأزق."

وأباشر عملي هناك، لأتعرف إلى ظروف تختلف تمامًا عن الظروف التي عملت فيها في الميادين. وكان أول صِدام لي هناك، على ما أذكر، مع رئيس طاقم الخبراء الروس، "الرفيق فيتالي"...

حيث لاحظت، منذ الأيام الأولى، أنهم لم يكونوا يباشرون عملهم قبل الحادية عشرة صباحًا. فأتجه إلى مكتب رئيسهم الذي أسأله عن أسباب هذا التأخير، فيجيبني بكلِّ عنجهية:

- "نحن نعرف عملنا... وفي كلِّ الأحوال، نحن نوجد دائمًا على رأس العمل قبل مهندسيكم!"

فأضبط أعصابي، وأقول له في برود، وأنا أنهي أول حديث (صِدامي) بيننا:

- "بدءًا من الغد، رفيق فيتالي، ستجدني وجميع العاملين السوريين في الموقع على رأس العمل في تمام الساعة السابعة صباحًا. وأرجو من كلِّ قلبي أن أجدك هناك في نفس الوقت، أنت وجماعتك!"

وكان هذا ما حصل، وحدَّد منذ البداية علاقة القوة بيننا... لأن الرفاق السوفييت هنا كانوا (في معظمهم) مختلفين جدًّا عن أولئك الذين عملت معهم في الفرات. فالفرق كان شاسعًا جدًّا بين فيتالي، الموظف الحزبي والمسؤول الأمني المتعجرف، وبين سلافا كوزنتسوف، المهندس والمعلِّم والإنسان. وأتذكر...

كيف توقفتُ أول ما توقفت، لدى أول زيارة لي للموقع، أمام دقاقة الأوتاد الروسية القديمة العاملة هناك، التي كان مسؤولاً عنها أحدُ الخبراء الروس وأحدُ رفاقنا من حمص، يعاونهما أربعة عمال، وكيف كان جميع العمال يومذاك نيامًا تحت إحدى الأشجار، وكيف كان رفيقنا المسؤول عن الآلية مستلقٍ هو أيضًا تحت شجرة أخرى يدخن الپايپ! – لأنه وحده كان يعمل يومذاك، وإنْ بحركة بطيئة slow motion، الخبيرُ الروسي الذي كان يغسل بالبنزين بعض القطع المعدنية. وأسأل عن أسباب توقف الآلية، فيجيبونني بأنها متعطلة لنقص في بعض القطع الضرورية لإصلاحها. وأسأل رفيقنا الحمصي المسؤول عن الآلية:

- "ولم لا تذهب إلى حلب بنفسك لإحضار هذه القطع من المستودع المركزي أو لتصنيعها هناك؟" فيجيبني في وقاحة:
- "هذه ليست شغلتي... ثم إني أتلقى تعليماتي من الخبير الروسي."
- "من الآن فصاعدًا ستتلقَّى تعليماتك منِّي مباشرة."

فيرد عليَّ في تحدٍّ، على الرغم من أنها كانت المرة الأولى التي نلتقي فيها:

- "أفضل عند ذاك أن أستقيل!"

وأجيبه، تحت أنظار العمال والخبير الروسي، الذين كانوا يتابعون "حوارنا الودّي" مذهولين:

- "على راسي! سأخبر الأستاذ هاشم الليلة باستقالتك."

وأخبر الخبير أني سأضع تحت تصرفه، بدءًا من الغد، أربعة عمال فنيين آخرين، وأطلب منه التوجُّه مباشرة إلى مركز الشركة في حلب لإحضار القطع المطلوبة.

- "لكن فيتالي قد لا يوافق على ذهابي، رفيق أكرم." فأجبيه:

- "أخبره أن هذا أمر مباشر من الأستاذ هاشم."

وكان هذا ما حصل: ذهب إلى حلب، وصُنِّعَتِ القطع، وأُصلِحَتْ الآلية، التي سرعان ما عادت إلى العمل، ولورديتين، كما قررت بالاتفاق مع هاشم. وكان أن أنجزنا في البدء وتدين في اليوم، ثم ثلاثة أوتاد، ثم أربعة، وأخيرًا... ثمانية أوتاد، خلال ثلاث ساعات!

ولكن الأمور لم تكن بهذه البساطة. فقد كلَّفتْني إعادة تسيير الورشة الكثير الكثير من العناء...

- "لأن بؤرة الفساد في ورشتنا، يا أستاذ، هو موقع السد الركامي، حيث تعمل معظم آلياتنا."

كان هذا ما أخبرني به يومئذٍ أحد مهندسي الورشة الجُدُد، الذي أبدى منذ البداية رغبةً صادقة في التعاون معي.

- "غدًا سأذهب إلى هناك لأستطلع الأمر. فهل ترافقني؟"

ويأتي الغد، ونتوجه معًا إلى ذلك الموقع الذي وصلتُه عند الساعة الحادية عشرة صباحًا، لأجده خاويًا! وأسأل الحارس:

- "ما القصة؟" فيجيبني:

- "لقد أنهى العمال والسائقون عملهم المقطوع وانصرفوا."

أكتم غيظي، وأقول للمهندس الذي كان يرافقني:

- "سنرى غدًا!"

وفي اليوم التالي، أتعمَّد الوصول إلى الورشة في التاسعة صباحًا، فأجد الجميع موجودًا في انتظاري. أدعو المهندس المسؤول عن الموقع والخبير الذي يساعده إلى اجتماع لمناقشة الأوضاع. لكنْ، ما أن جلسنا حول المنضدة حتى فتح باب المكتب بقوة ثلاثة عمال (سائقين) ملتحين (افهم: أصوليين!)، قال لي كبيرهم، بلا مقدمات وبكلِّ تحدٍّ:

- "يا أستاذ، نحن الذين نحدِّد هنا مواعيد العمل وساعات الدوام!" فأجبته:

- "على حدِّ علمي، الإدارة هي التي تحدد مواعيد العمل وساعات الدوام! اخرجوا الآن من هنا، ولاقوني غدًا في الكامپ لنتحدث في الأمر."

فينظر إليَّ أحدهم في تحدٍّ ويقول متهكمًا:

- "الكامپ؟ ماذا يعني "كامپ"؟! إنه لا يعرف عربي!" فأكتم غيظي وأجيبه:
- "قلت لكم إني سأقابلكم غدًا في الموقع، وسنرى."

ويخرجون ببطء وهم يتمتمون كلمات لم أفهمها. وكان ما يجب عليَّ أن أفعل قد توضح في ذهني. فأسأل الخبير ومهندس الورشة أن يعطياني مباشرة أسماء عشرة عمال وسائقين هم الأسوأ في الموقع، وعلى رأسهم هؤلاء الذين كانوا هنا الآن، فأحصل على ما أريد. وأتجه مباشرة إلى حمص لأتصل على الفور بهاشم الذي أخبره بما حصل، وأطلب منه أن يصدر أمرًا إداريًّا بتسريح هؤلاء من العمل مباشرة أو بنقلهم إلى دمشق إنْ لم يكن تسريحهم ممكنًا. فيجيبني، بعد أن أمليت عليه الأسماء، أن هذا الأمر سيصلني برقيًّا خلال ساعتين، ويطلب مني تأمين حراسة لنفسي، تحسبًا لما قد أتعرَّض له من مخاطر، معيّنًا لتلك المهمة السائق الذي كان معي والذي كان فيما مضى سائقه الخاص.

ويأتي الغد من جديد، وعلى باب مكتبي يقف "حارسي الشخصي" الذي اعتمدته – لأول وآخر مرة في حياتي! الجميع في الورشة كان مستنفَرًا في ذلك اليوم توقعًا لأيِّ حادث وللاتصال بالشرطة في حال حدوث أيِّ شغب. ويأتي "الفرسان" الملتحون الثلاثة، ليتبلَّغوا من لائحة الإعلانات قرار تسريحهم الفوري من العمل. وأتذكر أنهم تفوَّهوا بصوت عالٍ ببعض الكلمات النابية التي سمعتها من مكتبي، قبل أن ينصرفوا وقد لاحظوا الأجواء المعبأة ضدهم، وتلمَّسوا عمليًّا أننا كنَّا على وشك استدعاء الشرطة. وأعود مباشرة إلى موقع السد برفقة مهندسه لتفقُّد الوضع ومتابعة العمل من جديد – هذا العمل الذي سرعان ما بدأ شيئًا فشيئًا في التحسن وأصبح من بعدُ شبه طبيعي.

ولكن الأمور لم تمر، على الرغم من هذا، بهذه البساطة! فقد بقيت أتلقى رسائل وهواتف تهديد بالقتل طوال فترة بقائي هناك. كذلك، روَّجتْ بعضُ الأوساط في الحزب أنباءً تتهمني بالعداء للسوفييت؛ كما كُتِبَتْ ضدي حينذاك مقالةٌ في صحيفة نقابات العمال في حمص تتهمني بالتعسف لتسريحي أبناء الطبقة العاملة المساكين! ثم جاء وفدٌ من منطقية الحزب الشيوعي في حمص ليقابلني وليطلب مني التراجع عن قراري – وكان صديقي عطية مسوح من بين أعضاء هذا الوفد. لكن السيف كان قد سبق العذل. وأتساءل اليوم عن تلك الشجاعة التي تملَّكتني حينذاك، فجعلتْني أتصرف كما تصرفت؛ ولا أجد جوابًا سوى أني كنت مازلت شابًّا، وأن هذا كان ما فرضتْه الأوضاع، وخاصة أن هاشمًا، بكلِّ جبروته، كان إلى جانبي. وأيضًا...

وألتقي في الورشة بمعارف قديمة لي من القامشلي: النجارين الأرمنيين كوكو ويروانت، اللذين كانا يعملان هنا في قسم الجسور والعَبَّارات، فيرحبان بي ترحيبًا حارًّا. وألاحظ في ورشتهما وضعًا طريفًا، أحاول أن أفسِّره بنفسي فلا أستطيع: كانت مساند القوالب – وعددها ست جوائز معدنية – التي يُفترَض (كما كنَّا نفعل في القامشلي) أن تكفي لصبِّ فتحتين معًا، تُستعمَل استعمالاً منقوصًا، أي أربعة جوائز

للفتحة الواحدة، مما يترك مسندين بلا عمل، ولا يسمح، بالتالي، إلا بصبِّ فتحة واحدة في كلِّ مرة. وأسأل كوكو عن الأمر، فيجيبني:

- "هكذا قرَّر كبير الخبراء فيتالي، على الرغم من أن الأستاذ هاشم كان يرى عكس ذلك. فالأستاذ هاشم كان يرى رأيك، يا أستاذ."

وأطلب منه التريث إلى الغد للاتصال بهاشم، وأبلِّغه من بعدُ ماذا سيكون القرار. وفي المساء اتصلت بهاشم كالعادة وحدَّثته عن الموضوع، فأجابني:

- "افعل ما تراه مناسبًا، يا أكرم، وأنا معك. هذا رأيي منذ البداية. لكن، هذا الـ... فيتالي لا يتصرف إلا بما يعيق العمل."

في اليوم التالي، طلبت من كوكو أن يستعمل الجوائز المعدنية الست جميعًا لنصب الكوفراج لفتحتين عوضًا عن فتحة واحدة، فيضحك ويجيبني:

- "سأنفذ، يا أستاذ. فأنت والأستاذ هاشم على راسي. لكن فيتالي سيغضب جدًّا، وستحصل مشكلة."

وكان هذا ما حصل. وصل الخبر إلى فيتالي، الذي سرعان ما رأيته يقتحم عليَّ مكتبي غاضبًا وهو يقول:

- "أأنت الذي أعطى الأمر إلى كوكو باستعمال الجوائز الست لتركيب فتحتين؟" فأجيبه:
- "نعم، يا رفيق فيتالي، أنا أعطيت الأمر."
- "إذن، بدءًا من الآن، لن نكون نحن مسؤولين عن هذا العمل!" وأجيبه بكلِّ برود:
- "كما تريد!"

وتُجهَّز الفتحتان للصبِّ خلال يومين، ويتم الصب في اليوم الثالث. وأتذكر أني اتخذت يومذاك كلَّ الاحتياطات لقياس الهبوط، بحيث كان بوسعي، إنْ حصل أي طارئ فنِّي، إيقاف الصب مباشرة، لأن الجو كان متوترًا، ولأني كنت خائفًا فعلاً. ويتم الصب، الذي أشرفت عليه بنفسي، بشكل طبيعي وبكلِّ هدوء، ولكنْ – وهذا هو الأهم – في غياب كامل للخبراء الروس. وأتذكر أني أخبرت بذلك هاشمًا، الذي كان مسرور جدًّا من النتيجة، فطلب مني التوجه مباشرة لمقابلة فيتالي وإخباره بأن الأستاذ هاشم الذي حدَّثته منذ لحظات يفكر في الاستغناء عن خدمات بعض "خبرائكم" الذين يشرفون على الجسور. وكان هذا ما فعلت. وفي اليوم التالي، كان الجميع على رأس عمله في شكل طبيعي!

نعم، في شكل طبيعي... كما أصبح طبيعيًّا جدًّا أيضًا ألا يمر الخبراء الروس بعد الآن ذهابًا وإيابًا، عبر الأراضي اللبنانية، لشراء المهرَّبات، وذلك بعد أن هدَّدتُهم برفع الموضوع إلى هاشم وإلى سفارتهم.

وتنضبط الأمور في الورشة التي أصبح هاشم، الذي كنت أكلِّمه كلَّ مساء، يأتي بتواتر أكبر لزيارتها؛ لا بل أصبح صديقه المهندس عزمي الكسم، مدير المشروع، يستمتع بمرافقتي في أثناء جولاتي اليومية على مواقع العمل – عزمي، المهندس العجوز الطيب، الذي انتحى بي ذات يوم جانبًا ليخبرني بما يلي:

- "يا أكرم، أخبر الأستاذ هاشم بهذا مباشرة، أرجوك. فقد سمعت البارحة من صديق لي يعمل في رئاسة مجلس الوزراء أنهم قرروا الاستغناء عن خدمات هاشم واستبدال مهندس آخر به لم أسمع باسمه من قبل، ويدعى غسان ف."

وأُصعَق للخبر الذي صدَّقته على الفور. فعزمي الكسم كان قريبًا عائليًّا لرئيس وزرائنا الجديد، المهندس عبد الرؤوف الكسم. وأنا كنت أعرف جيدًا المهندس غسان ف. الذي كان رفيقًا لنا ويعمل في الإسكان العسكري. أعرفه، نعم، لأني كنت مسؤوله الحزبي إبان فترة الخدمة العسكرية. وأخبر هاشمًا عند المساء بما سمعت، فيجيبني بأنه لم يسمع شيئًا من طرفه، لكنه سيستفسر ويأتيني في الغد بالنبأ اليقين. وكان النبأ اليقين الذي أخبرني به أبو الخير في اليوم التالي حزينًا، لأن ما نقلتُه له على لسان عزمي الكسم كان صحيحًا!

وأتذكر أن النوم لم يداعب جفوني إبان تلك الليلة. وأتفكر، في حزن وغضب، بأنه كان عليهم فعلاً التخلص من هاشم الذي لم يعد، بحُكْم شخصيته المستقلة ونزاهته اللامتناهية، مناسبًا – لا لرفاقه في الحزب الشيوعي ولا للبعث الحاكم... لأن مَن بات يناسبهم جميعًا، في كلِّ مكان، وخاصة في مواقع العمل، كانوا شخصيات على شاكلتهم: أشباه انتهازيين و/أو أشباه لصوص! فالقطاع العام في تلك الأيام، وعلى رأسه تلك الشركة–الأخطبوط التي كان اسمها "الإسكان العسكري" – تلك التي أضحت "دولة ضمن الدولة" – بات يتحول إلى بقرة حلوب يجنون من خلالها المكاسب، ويعقدون من خلالها الصفقات، ويعيِّنون فيها الأزلام والندماء. وغسان ف. كان يعمل في الإسكان العسكري، وكان أحد المقرَّبين من خليل بهلول، مديرها العام، من جهة، وأحد معتمَدي رفيقنا يوسف فيصل، كما تأكدت لاحقًا، من جهة أخرى. وأتفكر بكلِّ برود بأن أيامي في الشركة أضحت معدودة، وبأنه بات عليَّ التفكير بالبحث عن عمل آخر في مكان آخر.

وأتذكر أني اجتمعت بهاشم في منزله عشية تَرْكِه الشركة. أوصاني بالتروِّي قدر المستطاع، لأن الشركة هي شركتنا في النهاية. ووعدته بأن أبذل قصارى جهدي. لكني كنت أعلم، في قرارة نفسي، كما كان هو يعلم، أن هذا بات مستحيلاً.

وسرعان ما جاء غسان ف. لزيارتي في موقع حمص–عكاري بعد أيام من تسلُّمه لإدارة الشركة. وأتذكر أنه كرَّر عدة مرات أمامي يومذاك أنه يعتمد عليَّ كثيرًا لمساعدته في مهمته الجديدة، وأنه لم يأتِ كبديل لهاشم، إنما كاستمرار له... قبل أن يسألني عن رأيي في الانتقال إلى ورشة حمص–دمشق (التي كان مركزها جيرود)، لأكون قريبًا منه، من جهة، ولأن مدير الموقع هناك، صديقي المهندس جورج جبور،

طلب منه أن ينتقل إلى حمص–عكاري ليكون قرب عائلته، من جهة أخرى. ويخبرني أيضًا أنه قرَّر الموافقة على استقالة عزمي الكسم، لأنه لم تعد هناك فائدة تُرجى من استمراره معنا في الشركة. وأفكر: "هي ذي النقلات قد بدأت، وبأسرع مما كنت أتوقع!" وأوافق على الفور على اقتراحه. وأتذكر أيضًا أني...

باشرت بعد أيام، في أواسط حزيران 1979، مسؤولياتي كمدير لمشروع إنشاء خطِّ سكة حديد حمص–دمشق الذي كان موقعه الرئيسي في بلدة جيرود الواقعة على بعد حوالي 40 كم من دمشق – ذلك المشروع الذي لم أستمر فيه طويلاً والذي غادرتُه كما غادرتُ الشركة في أواخر العام 1979 – ذلك العام الذي كان حافلاً بالأحداث، على ما أذكر.

ففي مطلعه، كان انتصار الثورة الإيرانية بقيادة الإمام الخميني... وفي 26 آذار 1979، كان السادات يوقِّع في واشنطن على اتفاقية كامپ ديفيد... وفي سورية، كان الأصوليون يقومون في حزيران 1979 بمجزرة مدرسة المدفعية ويدشِّنون دخول البلد في دوامة العنف المجنون والمنفلت من عقاله.

الفصل الثالث عشر

استمرار التحوُّلات وابتعادي التدريجي عن الحزب
(1979-1982)

استمرار التحوُّلات وابتعادي التدريجي عن الحزب
(1982-1979)

"... ابحثْ عن نفسك بنفسك. لا تسمح للآخرين أن يخطُّوا لك دربَك. إنه طريقك أنت – طريقك أنت وحدك. يجوز للآخرين أن يقطعوه معك، لكنْ ليس لأحد أن يقطعه عنك..."
من القانون الأخلاقي للأمريكيين الأصليين

طائر الليل: كريشة في مهبّ الريح كان. لكنْ لا تَلُمْه! فهذه كانت حالُنا جميعًا منذ البداية – ولم تزل...
كان يبتسم، يضحك، ويبدو قويًّا وهو يتحدث إلى الآخرين. لكن، لا تخدعنَّكم المظاهر! فقد كان واعيًا لهشاشته، وقلبُه الحزين كان يبكي...

1

في عمق واهتمام، كنت أتابع ما يجري حولي من أحداث. لكن شيئًا ما كان يتحول في داخلي، ألا وهي مشاعري وقناعاتي، التي بدأ يتغلب عليها طابعُ التشكيك. حيث، على سبيل المثال، كنت أتابع، من بين أمور أخرى، أنباءَ الثورة في إيران التي عاد إليها الإمام الخميني مع مطلع شباط 1979. كنت معجبًا حقًّا بعمقها الشعبي وباتساعها، لأنه فعلاً ليس في وسع أيِّ حكم الوقوف في وجه شعبه إذا ما تمرَّد هذا الشعب. لكن – وهذا ما كنت بدأت أتفكر فيه أيضًا – ليست الثورات كلها "إيجابية" من حيث العواقب، كما كنَّا نتصور و/أو كما كانوا يصورونها لنا. إنما من الممكن، – كما كنت أرى بأمِّ عيني وأنا أتابع الحالة الإيرانية، حيث انتصرتْ السلفية الشيعية، – بل من الممكن جدًّا أن تعيد "إرادة الجماهير" الأوضاعَ العامة إلى الخلف، أقصد إلى ماضٍ سحيق كنَّا نعتقد أنه ولَّى إلى غير ما رجعة. وأيضًا...

كنت أصبحت عمليًّا، من الناحية التنظيمية، بعيدًا عن الحزب – هذا الحزب الذي كانت منى قد تقدَّمت بعض الشيء آنذاك على سلَّم مسؤولياته. فوضعي من هذه الناحية كان عالقًا. كنت مازلت أتابع باهتمام أخبار الحزب، وأبدي رأيي، لا بل أتدخل مباشرة في صراعاته. ولكن هذا الاهتمام كان بدأ يشوبه اشمئزازٌ مقرون بتشكك عميق كنت أحتفظ به لنفسي، فلا أُظهِره لأحد، ولا حتى إلى أقرب المقربين إلي. و"حزبنا العظيم" كان حينئذٍ على أعتاب مؤتمره الخامس الذي بات واضحًا أنه سيثبِّت، كتحصيل حاصل، ثنائي بكداش/فيصل "المبدئي" الذي يدعمه السوفييت، من جهة، ويطرد "الجماعة اللامبدئية المتخلفة" لمراد يوسف، التي أصبحت منشقَّة عنه على أرض الواقع، من جهة أخرى.

وأيضًا – وهذا هو الأهم – كنت بدأت، للمرة الأولى في حياتي، أفكر في الابتعاد وفي ترك البلد لتحسين أوضاعي المادية، من جهة، وللاختلاء بنفسي والتفكر في هدوء فيما كان يجري حولي بعامة وفي أعماقي بخاصة.

على صعيد العمل، كنت ما أزال، في ذلك النصف الثاني من العام 1979، في "شركة الأعمال الإنشائية"، حيث استلمت موقعي الجديد مسؤولاً عن مشروع تنفيذ خط سكة حديد حمص–دمشق الذي كان يشارف على نهاياته. فأضحى مركز عملي في بلدة جيرود القريبة من دمشق، حيث كنت أنام في الورشة أحيانًا. ولكن غالبًا ما كنت أتوجَّه مساءً إلى منزل الأهل في دمشق، الذي كنت (ربما عن سذاجة) مازلت أعتبره منزلي، لأعود كلَّ عشرة أيام أو أسبوعين إلى حلب، حيث كانت زوجتي والأولاد، فأستريح يومين أو ثلاثة.

كانت أيام الاستراحة تلك هي أجمل الأيام على الإطلاق في نظري، لأني من خلالها كنت أتابع أطفالي عن كثب وهم في هذه السنِ الأجمل على الإطلاق: ابنتي لنا التي كانت في الرابعة من عمرها، وبدأت تذهب إلى الحضانة؛ وطارق ونورا اللذين لم يكونا بعدُ قد تجاوزا عامهما الأول. وأتذكر أيضًا أنه...

في تلك الأيام، تحسنت بعض الشيء أوضاعُ أهلي المادية. فقد أنجز وديع (شقيق منى) معاملة "حصر الإرث" المتعلقة بتلك الأرض التي ظل جدِّي لطف الله "يكافح" من أجلها طوال حياته ولم ينل منها شيئًا. فالحكم كان صدر قبل بضع سنوات من تاريخه، وقد مات جميع فرقاء هذه القضية المنسية، باستملاك الدولة لتلك الأرض وبتقسيم ما قدَّرته من ثمن بخس نسبيًّا بالتساوي بين فرقائها. وكانت حصة أهلي من تلك التركة 175000 ليرة سورية على ما أذكر (أي ما يعادل حوالى الـ62500 دولار أمريكي بأسعار تلك الأيام). وقد سارع والدي، الذي كانت أوضاعه الصحية قد بدأت تتدهور، فور استلامه لهذا المبلغ، إلى إعطائي 25000 ليرة كي أسدِّد بها قرض منزلي؛ كما أرسل مبلغًا مساويًا إلى إكرام في المكسيك، التي كانت تعاني من أوضاع مادية صعبة. فقمنا – منى وأنا – بتسديد قرض منزلنا، ثم ببيعه، ثم مباشرة بشراء منزل آخر أفضل قليلاً، يقع في المنطقة نفسها (حي السليمانية)، ميّزته الوحيدة أنه في الطابق الأرضي (لأن منى كانت تعاني جدًّا، وقد أصبح في عهدتها ثلاثة أطفال صغار، من علوِ منزلنا الذي كان يقع في الطابق الرابع).

وأتذكر من تلك الأيام، التي كانت أيامي الأخيرة في "شركة الأعمال الإنشائية"، أوضاعي في العمل. فأسترجع صِدامي مع ممثلي "الطبقة العاملة" من "الرفاق المبدئيين"، وكيف دخل ممثل النقابة في الورشة – سائق الـ"سكريبر"[30] – "الرفيق أبو شالو" إلى مكتبي، يرافقه رفيق آخر، وطلبا التحدث معي في أمر هام يتعلق بمشكلة عمالية عرضاها أمامي في منتهى البساطة، ألا وهي: إن مركز عملهم كورشة سكريبرات (لردم أعمال جسم الخط) قد أضحى قرب المطار الدولي، أي على مشارف دمشق؛ لكن، لما

---

[30] السكريبر آلية تُستخدَم لقشط التربة وردمها في الوقت نفسه؛ وهي غالبًا ما تُستعمَل في أعمال الطرق والسدود.

كانت عائلات بعضهم التي جلبوها معهم تقيم في جيرود، فإن ما يطالبون به هو أن يبقوا مقيمين هناك، وأن يجري نقلهم كلَّ صباح إلى موقع العمل (أي إضاعة أكثر من ساعة ذهابًا) وإعادتهم بالتالي كلَّ مساء (أي إضاعة أكثر من ساعة أخرى إيابًا). فأجبتهم بأن هذا خطأ جسيم سيسيء إلى العمل؛ حيث من المتعارف عليه أن ورشتهم تحديدًا هي ورشة متنقِّلة رافقت وترافق الطريق (أي طريق) من بدايته إلى نهايته، وأن هذه هي حال الورشات المشابهة كلِّها في مختلف المشاريع الطرقية، وأنه هكذا كانت الحال أيام هاشم. فأجاباني بأن أيام هاشم قد انتهت! فقلت لهم إني أرفض اقتراحهم من حيث المبدأ، وأرغب في مقابلة سائقي الآليات، كلٍّ على حدة، للتأكد من رغبتهم الحقيقية. فخرجا من مكتبي وهما غير مسرورين. وأتذكر جيدًا أني بدأت الاتصال على الفور بسائقي الآليات، كلٍّ على حدة، لمناقشتهم والتأكد من رغبتهم الحقيقية. فتبين لي أن معظمهم لم يجلب عائلاته إلى جيرود، وأنه، بالتالي، لا يمانع – لا بل يرحِّب – بنقل المخيم إلى قرب دمشق، حيث أصبح موقع العمل. وأسارع إلى الاتصال بالأستاذ غسان ف.، المدير العام الجديد، الذي أكد لي بكل ودٍّ، بعد أن شرحت له الموضوع، أنه يدعم موقفي وأن لا شيء سيتغير. ولكن...

سرعان ما أفاجأ، بعد يومين من إخباره، بالأستاذ غسان ف. يستدعيني كي أذهب معه إلى موقع الورشة لأنه يريد مناقشة العمال حول الموضوع. وأفهم بأن الرياح قد تحولت! وآتي إلى عنده لنذهب معًا لمقابلة العمال الذين كانوا في انتظارنا، وعلى رأسهم مسؤولهم النقابي (من جماعة أبو عمار) الرفيق أبو شالو الذي، حين سأله الأستاذ غسان ف. عن رأيه في الموضوع، أجاب بجملة واحدة مختصرة ومفيدة: "لا نريد أن ننام في موقع العمل... ولن ننام!" فاستدار الأستاذ غسان ف. نحوي وسألني عن رأيي، فأجبته بأن أبو شالو، على صفته النقابية، لا يمثل رأي أغلبية عمال ورشته الذين لا يمانعون في نقل موقعها، وأن نقلهم كلَّ يوم من جيرود وإليها سينعكس سلبًا على العمل وتكلفةً على المشروع، وأن مثل هذا الطرح لم يكن مقبولاً – ولا حتى واردًا أصلاً – أيام هاشم – تعليق شعرت بأنه أزعج الأستاذ غسان ف.، الذي سرعان ما حسم الموقف قائلاً إنه، وقد استمع إلى وجهتَي النظر، قرر أن يكون متسامحًا، وأن يوافق على نقل السائقين كلَّ يوم من جيرود وإليها... وأجدني، بكل بساطة، أغادر الاجتماع الذي لم يكن قد انتهى بعد!

فعلاً، لقد تغيرت الأيام، يا "أبو الخير"! وأيضًا...

أتذكر تلك الحادثة الأخرى التي كانت في نظري "الشعرة التي قصمت ظهر البعير": كان ذلك عشية ذكرى تلك المناسبة التي أصبحت تُعرَف عندنا بـ"الحركة التصحيحية" (التي لا يعرف أحدٌ منَّا، إلى اليوم، ما الذي "صحَّحتْه"!)، كيف، حين وصلت في ذلك الصباح إلى مخيم الشركة في جيرود، وجدت جميع العمال متوقفين عن العمل، يزيِّنون الآليات والبرَّاكات بقيادة أحد المراقبين (الذي كنت أعرفه متملقًا جدًّا). فاستفسرت عما كان يجري، ثم أمرتهم بالعودة فورًا إلى أعمالهم، على أن يتم التزيين بعيد انتهاء

الدوام. وبعد إنجاز بعض الروتينيات، غادرت الموقع لتفقُّد الورشات على الخط ومتابعة طريقي إلى حلب (فقد كان الغد يوم عطلة)... وأعود من حلب بعد ثلاثة أيام، لأخبَر فور وصولي بأن المخابرات تسأل عنّي، وبأني مطلوب إلى مركز "المخابرات العسكرية" في النبك. أتصل بالأستاذ غسان ف.، الذي أجده عالمًا بالموضوع والذي يحدد لي مباشرة موعدًا في الغد، طالبًا مني التوجه إلى النبك لمقابلتهم.

- ولا يهمك، يا أكرم! لقد تحدثت مع العقيد ......، مسؤول الأمن العسكري هناك. هي فقط بعض الأسئلة والأجوبة.

وأتجه في الموعد المحدد، صبيحة اليوم التالي، إلى مركز المخابرات العسكرية في النبك حيث، وبعد انتظار "تقليدي" لأكثر من ساعتين، أُدخَل لمقابلة المسؤول الأمني، الذي رحَّب بي في لطف وسألني عن مضمون تقرير وَرَدَه مرفوع في حقِّي يقول إني شتمت الدولة وأحرقت العلم! فأجيبه: "وهل تراني مجنونًا؟!" ولما سألني عن الحادثة، أجبته بما حدث بالفعل في ذلك اليوم. فضحك وقال لي: "بسيطة، نحن نصدقك." ثم أذن لي بالانصراف بعد تناوُل كأس من الشاي.

كان شعوري حين غادرت المركز، وأنا في طريق عودتي إلى دمشق، شعورَ مرارة وألم، شعورًا بأني بتُّ مكشوفًا جدًّا وبأنه لم يعد في وسعي قيادة العمل وفق قناعاتي. في إلحاح كانت تراودني تلك الفكرة: "عليك أن تغادر، يا أكرم... عليك أن تفكر في نفسك وفي عائلتك... عليك أن تترك الشركة وأن تغادر البلد حتى بعض الوقت..."

وكان هذا ما فعلت. حيث كنت منذ فترة قد هيأت جواز سفري، وحصلت على فيزا إلى فرنسا، ثم إلى الجزائر، حيث كان يعمل رفيقي سمير شاليش وزوجته دعد، اللذين كتبت إليهما مستفسرًا، فجاءني ردُّهما سلبيًّا وحزينًا بأنه ليس في وسعهما مساعدتي لأن سمير مصاب بمرض عضال (سرطان في الرأس)، وسيذهب خلال أيام إلى باريس للعلاج – مع التأكيد هنا بأن إيجاد العمل، كما قالوا لي، سهل في الجزائر: كل ما عليَّ أن أفعل هو أن أتابع ما يُنشَر في الصحف، كما يفعل الجميع. وبعد التشاور مع منى، قررت السفر والمغامرة.

وقد ساعدني في موضوع سفري صديقي الحبيب توفيق البطل الذي زوَّدني بإحداثيات صديق عزيز له هناك (نبيل م.، الذي كان آنذاك مسؤول تنظيم الحزب في فرنسا)، وأخبرني أن في وسعه أن يؤويني في غرفته الصغيرة (التي كانت سابقًا غرفة إكرام) خلال فترة وجودي في باريس.

وأسترجع أيضًا أني اجتمعت قبيل سفري بالرفيق أبو سام (مراد يوسف)، وأني أخبرته بسفري. فأبدى رغبته في أن يرسل معي بعض المطبوعات إلى الرفاق في فرنسا. وأتذكر خاصةً كيف كان خلال هذا اللقاء يهاجم الرفيق خالد بلا مناسبة، مؤكدًا على استحالة التعامل معه. فأجدني أسأله (بلؤم):

- "ولم لا تتصل بالرفيق يوسف، يا أبو سام؟" فيجيبني مباشرة، دون أيِّ تمعُّن:
- "لقد حاولت هذا، ولم أزل أحاول، يا رفيق. لكن إلى الآن لم يتجاوب أبو خلدون معي."

وأُصعَق للجواب! لأن المعركة السياسية التي كان بدأها أبو سام في الحزب آنذاك كانت، تحديدًا وحصرًا، للدفاع عن الرفيق خالد ضد يوسف الذي كان يسعى للحلول محلَّه، كما صُوِّر لنا. وهكذا، بيني وبين نفسي، قررت مباشرةً قطع علاقتي به، وقررت أيضًا ألا آخذ ما كان يريد إرساله من مطبوعات إلى باريس. لقد كان هذا اللقاء فعلاً لقائي الأخير مع مراد يوسف.

وهكذا، إذن، دون أن التفت إلى الوراء، ودون أن أنتظر حتى الموافقة على طلب استقالتي من الشركة (وكان هذا خطأ جسيمًا كلَّفني الكثير من العناء فيما بعد)، غادرت دمشق إلى فرنسا.

2

كان معي، حين غادرت دمشق إلى باريس، 500 دولار يُفترَض أن تكفيني حتى أتدبر أموري في الجزائر. باريس الجميلة التي وصلتها لأول مرة يومذاك. سعيت مباشرة، بعد تأمين منامتي لأول ليلة لي هناك في فندق "بلا درجة" يقع قرب الـPlace d’Italie، للاتصال بنبيل م.، الذي تمكنت من رؤيته في اليوم نفسه والذي دعاني مباشرة إلى الإقامة معه في غرفته الواقعة قرب المكان. وكان هذا ما فعلتُه في صباح اليوم التالي.

وأستعيد أحاديثنا الطويلة حينئذٍ. فقد كان نبيل م. يريد في شغف الاستفسار منِّي عن الأوضاع في الحزب وفي البلد. وقد أخبرته بكلِّ ما عندي، وخاصة بما حصل معي مع أبو سام قبيل سفري. وأجدني متفقًا معه حينئذٍ حول الأوضاع في الحزب، وخاصة حول ذلك التقويم القائل بأن الوقوف مع أبو عمار هو الموقف الأصح. ويخبرني نبيل بأن رفيقنا سمير موجود الآن في مستشفى الـHôtel Dieu في باريس وبأن زوجته دعد هناك أيضًا، فنسارع معًا لزيارتهما. وانطباعي الحزين الذي احتفظت به لنفسي كان، منذ تلك الزيارة الأولى، أن وضعه ميؤوس منه. وأيضًا، أسارع منذ اليوم الأول لي في باريس إلى البحث عن عمل في الجزائر من خلال الصحف الجزائرية المتوفرة هناك، فأجد إعلانًا يطلب "مهندسًا" طرقيًّا للعمل مع شركة صوناتراك في سكيكدة (وهي مرفأ قريب من مدينة قسطنطينة). فأسارع إلى الردِّ عليه والاتصال مباشرة بالشركة، حيث اتفقت معهم على أن آتي إلى عندهم في مطلع الأسبوع القادم بعد أن يصلني ردُّهم الخطي وأن يحجزوا لي في الطائرة. وكان هذا ما حصل. وقد قضيت ذلك الأسبوع الأول لي في "مدينة الأنوار"، محاولاً الاتصال بجميع الأصدقاء، وعلى رأسهم فاروق مردم وجان فرانسوا فوركاد. فتمكنت من رؤية فاروق، الذي قضيت في صحبته ساعةً جميلة جدًّا، تحدثنا فيها في كلِّ شيء، وكأننا لم نفترق منذ حوالي خمس عشرة سنة؛ فاروق الذي، حين حدثته عن موقفي من الصراعات الدائرة في الحزب ووقوفي إلى جانب الجهة التي كنت أعتقدها أكثر انسجامًا مع السوفييت، سألني إن كنت قرأتُ كتاب هيلين كاريير دانكوس الإمبراطورية المبعثرة؛ فلما أجبته بالنفي، طلب مني قراءته، على أن نتحدث في الموضوع لاحقًا.

وأتفكر اليوم، وأنا أكتب هذه السطور، أن فاروق، الذي انتسبت إلى الحزب عن طريقه، كان الأول بيننا الذي اكتشف "ضلال" ذلك الطريق الذي اخترناه حين كنَّا شبابًا، والأول بيننا الذي اكتشف قطعًا تلك العفونة المتغلغلة فعلاً في أعماق "مملكة الدانمرك"[31].

حين وصلت إلى الجزائر في ظهيرة ذلك اليوم الغائم، تملَّكني، للوهلة الأولى، شعورٌ بالتفاؤل. كان في انتظاري سائق وسيارة من تلك الشركة، حيث كان يُفترَض أن أعمل. وقد تمَّ نقلي مباشرة إلى سكيكدة، حيث حجزوا لي غرفة في الفندق الوحيد الفخم هناك، وحيث أُخبِرتُ بأن لقائي مع مدير الشركة سيكون صباح الغد. وفي الغد التقيت بالمدير الذي، بعد أن رحَّب بي وسألني عن خبرتي في أعمال الطرق، حدَّد لي راتبًا أقل من ذاك الذي كنت اتفقت عليه معه وجئت على أساسه. فرفضت اقتراحه الذي وجدته مجحفًا في حقِّي وقررت العودة. وكان هذا لقاؤنا الأول والأخير، حيث غادرت سكيكدة إلى مدينة الجزائر في مساء ذلك اليوم نفسه. رحلة ومغامرة طريفة عبر جبال جرجرة الجزائرية المكسوة بالغابات؛ إذ أتاح لي تعطُّل السيارة التي كانت تقلُّني التعرفَ السريع إلى طيبة أبناء البلد. وأصل إلى هناك في ساعة متأخرة من الليل، لأجد في انتظاري رفيقًا لنا من بيت البيطار كنت سارعت إلى الاتصال به قبيل مغادرتي سكيكدة، بعد عدم تمكني من الاتصال بأمين، شقيق دعد (زوجة سمير)، فقضيت الليل عنده. وفي اليوم التالي، اتصلت بأمين الذي سارع إلى استضافتي في منزل سمير ودعد، حيث بقيت ثلاثة أيام، حاولت خلالها من جديد البحث عن عمل، لكن دون جدوى. فقررت العودة إلى باريس، عساي ولعلي أوفَّق أكثر من هناك.

- "ما هو انطباعك عن الجزائر، يا أكرم؟" يسألني أمين. فأجيبه:
- "البلد جميل، لكن الشعب جلف. وانطباعي أيضًا أن المدينة مهترئة من حيث الأبنية ومن حيث الخدمات. يبدو لي وكأنهم لم يعرفوا كيف يصونونها بعد أن خرجت فرنسا. كما أن عدد العاطلين عن العمل كبير جدًّا، على ما يبدو." قلت هذا، وأنا أتفكر حينئذٍ في ذلك المشهد المخيف الذي رأيته في كلِّ مكان: مشهد المئات والمئات من الشبان المتسكعين في الشوارع والمستندين إلى الجدران! فضحك أمين وقال لي:
- "أنت على حق! لقد لمست المشكلة الحقيقية لهذا البلد. أما جلافة أبنائه فهي تعود إلى قسوة تجربة الحرب التي مرُّوا بها."

ويسألني جاري في الطائرة التي كانت تقلُّني عائدًا إلى باريس، مجرجرًا ذيول خيبتي:

- "من أي بلد أنت، يا صديقي؟" فأجيبه:
- "من سورية." وأسأله بدوري من باب المجاملة:
- "وأنت جزائري طبعًا؟" فيجيبني في حدة بالفرنسية:

---

[31] تعبير مستقى من مسرحية *هاملت* لشكسبير.

- "كلا، أنا "كابيل"!" أي من منطقة القبائل.

وأتفكر اليوم أني يومذاك لم أكن أعي تمامًا بأن سكان منطقة القبائل (التي عاصمتها تيزي وزّو) يشكلون جماعة متمايزة نسبيًّا عن إخوانهم الجزائريين. كما لم أكن أفكر حتى بأن هذه التمايزات هي خصوصية جميع البلدان، بما فيها بلدي سورية.

وأعود إلى باريس وإلى الحبيب نبيل، الذي استضافني مجددًا في غرفته الصغيرة، حيث كنَّا ننام جنبًا إلى جنب على فراش من الإسفنج ممدود على الأرض كان، مع طاولة قديمة وكرسي وبراد صغير، الرياش الوحيد "المترف" لهذه الغرفة الفقيرة! – تلك الغرفة التي كانت تشترك في خدماتها الصحية مع الآخرين من نزلاء الطابق نفسه. وأبقى في باريس هذه المرة مدة أسبوعين آخرين، أقضيهما في البحث الحثيث عن العمل وفي الاتصال بالأصدقاء.

وأتذكر أني طرقت كلَّ الأبواب الممكنة. أجل، طرقتها كلَّها! أجريت الكثير من المقابلات التي كان بعضها واعدًا. لكني لم أوفَّق في النهاية. إنما وفقت أكثر في استعادة معظم علاقاتي القديمة...

كعلاقتي مع جان فرانسوا فوركاد، الذي سرعان ما التقيت به. فاستضافني بضعة أيام في منزل مطلَّقته الواقع في أعلى الحي اللاتيني قرب حديقة اللوكسمبورغ. وقد قضيت هناك أيامًا جميلة. وخاصةً...

استعدت علاقتي بالحبيب سركيس، الذي التقيت به آخر مرة قبل أن أعود في مقهى "الفوكيه" في حي الشانزيليزيه والذي، بعد أن استفسر عن وضعي، أخذني جانبًا وأعطاني 2000 فرنك، حاولت أن أرفضها، لكني لم أستطع أمام إصراره، وهو يقول بكل حزم: "لا تزعجني، يا أكرم، خذها! فأنا أشعر أنك في حاجة إليها. وستعيدها إليَّ لاحقًا." وكان هذا ما حصل. وأعترف اليوم بأن هذا المبلغ ساعدني جدًّا يومذاك، حيث مكَّنني من شراء بعض الهدايا لمنى وللأولاد. وأيضًا...

إضافة إلى سمير ودعد، اللذين كنت أراهما باستمرار، التقيت هناك، عن طريق صديق نبيل عبد الله ح.، بمعرفة قديمة من الجامعة هي ج.ع.، التي كانت حينئذٍ صديقة للحزب ولعبد الله، وتعمل، في الوقت نفسه، في مجلة الإحياء العربي التي كانت لصلاح البيطار، رحمه الله.

- "ما رأيك في ج.، يا أكرم؟ لقد لاحظت من لقائكما أنك لا تستلطفها كثيرًا؟" هكذا سألني نبيل بعد لقائنا الأخير معها ومع عبد الله عشية مغادرتي باريس عائدًا إلى دمشق.
- "في الجامعة حين عرفتها، يا نبيل، كان يقال إنها "مخبرة" وإنها تتعامل مع الأمن. وأنا أعتقد أن هذا صحيح وأنها مازالت إلى اليوم عنصر أمن، وبالتالي، يجب الحذر منها."
- "لا أعتقد ذلك، يا أكرم. فهي امرأة تعيسة ومسكينة." هكذا أجابني نبيل الذي قال متابعًا: "... ثم إن عبد الله يحبها..."

كما حضرت مع الرفاق ذلك العيد الشيوعي التقليدي في فرنسا، الذي كان معروفًا بـ"عيد الـHumanité" ("الإنسانية")، فساهمت معهم في تقديم ما كانوا يعدونه من طعام (تبولة وكباب) ويبيعونه للفرنسيين

بأسعار جيدة. فهي مناسبة كان يستفيد منها الرفاق في فرنسا لتدعيم الوضع المالي لتنظيم الحزب هناك. وأيضًا...

أتذكر أيضًا بأني زرت مكتبة محفل "شرق فرنسا الكبير"، الواقع في 16 حي كاده، الذي كان فاروق أعطاني عنوانه بعد أن أخبرته ببدء اهتماماتي الماسونية؛ وأني حققت خاصةً توصية هاشم، فقمت منفردًا بجولة سياحية في مجاري باريس، وتمعنت جيدًا، كما طلب مني، في مساند جسور السين خلال تلك الرحلة الوحيدة التي قمت بها على متن إحدى السفن السياحية التي تريك مشهد باريس الخلاب من النهر؛ وأني زرت أيضًا حي مونمارتر، حيث التقيت هناك برفيقنا من الجامعة الرسام الموهوب عز الدين شموط.

نعم، لقد سحرتْني فعلاً هذه المدينة الرائعة! لكن كان عليَّ، وقد فشلت آنذاك من خلالها في إيجاد عمل مناسب لي خارج الوطن، أن أعود لأواجه مصيري في سورية.

3

كان حظي بعيد عودتي إلى دمشق أفضل بكثير مما كنت أتوقع. حيث اتصل بي مباشرة هناك، صبيحة وصولي، المهندس سهيل شباط، الذي كانت شقيقتي ربما قد أخبرته بأني عائد، والذي طلب مني أن أتوجَّه مباشرة إلى مكتب "دار الهندسة – نزيه طالب"، الواقع في حيِّ القصاع (بناية قلام)، لكي أقابل هناك أيًّا من المهندسَين ميشيل شامية (رحمه الله) وحبيب حزّي؛ فهما يبحثان عن مهندس مقيم لقيادة فريق الإشراف على مشروع لهم في شمال سورية، هو طريق القنطري–تل تمر. وقد أخبرهم عني. وكان هذا ما فعلته مباشرة. إذ ذهبت إلى هناك واتفقت مع "دار الهندسة"، ووقَّعت عقدًا مع ميشيل شامية كمهندس مقيم في هذا المشروع، الذي كان متعهده لصالح وزارة المواصلات شركة "أبو خاطر وأخرس وعطية".

وأعود في اليوم نفسه إلى حلب، حيث استقبلتْني منى والأولاد بالبكاء فرحًا. وأتفكر أن الألوهة فعلاً كانت ترعانا، وأن تركي لـ"شركة الأعمال الإنشائية"، وكذلك تجربتي الباريسية الأولى، لم تكن سلبية كلها.

وأتهيأ لمباشرة عملي الجديد، الذي استلمته بعد أسبوع من عودتي إلى حلب؛ ولكن أيضًا لمواجهة بعض الذيول السلبية الناجمة عن تركي العمل في "شركة الأعمال الإنشائية" قبل الحصول على الموافقة على استقالتي: دعوى قضائية كانت رُفِعَتْ في حقي لهذا السبب؛ وقد كلفتُ وديع (شقيق منى) ملاحقتها بالنيابة عني.

كان عملي هذا مع "دار الهندسة – نزيه طالب"[32]، كمهندس مقيم لمشروع طريق القنطري–تل تمر، الذي كان متعهده "أبو خاطر وأخرس وعطية"، هو أول تجربة لي مع القطاع الخاص. كانت في نظري

[32] لأنه توجد هناك أيضًا شركة استشارية لبنانية أخرى تدعى "دار الهندسة – شاعر"، هي الأهم والأكبر.

تجربة مهمة جدًّا وغنية جدًّا من الناحية المهنية والإنسانية، حيث تعلَّمت فيها أساليب عمل أرقى وأكثر تطورًا من تلك التي كانت متَّبَعة وسائدة في القطاع العام: تعلمت كيف يكون الإشراف الفعَّال والإيجابي على العمل، من خلال متابعة الأعمال المساحية والمخبرية والتقارير اليومية والمخططات التنفيذية التفصيلية التي أصبحت أهيِّئ قسمًا منها بنفسي. وكذلك، خاصةً، تعلَّمت إعداد التقارير الشهرية التي كنت أهيئها بعناية فائقة، بالتعاون مع المهندس حبيب حزّي، الذي كان يتابع المشروع من مكتب الشركة في دمشق. وأيضًا، وخاصةً، تعلمت أساليب العمل الفعَّالة التي كان يتَّبعها متعهد القطاع الخاص الذي كنَّا نتعامل معه من خلال ربط عمَّاله ومهندسيه بمصالح فعلية في العمل: فمعظم سائقي الآليات عند "أبو خاطر..." كانوا شركاء في ملكية آلياتهم، وبالتالي، كانوا يتقاضون عنها خلال العمل نسبةً هامة من الأرباح تجعلهم يسعون دائمًا إلى إنجاز المزيد. وهكذا، كان السكريبران القديمان لأبو خاطر ينجزان عملاً جبارًا، هو أضعاف ذلك الذي كانت تنجزه ورشة السكريپرات الحديثة لشركة الطرق "رودكو – قطاع عام"، التي كانت متعهدة للمشروع الواقع قريبًا من مشروعنا (مشروع طريق قره قوزاك–القنطري). وأيضًا، تعرفت هناك في المشروع إلى أحد مالكي الشركة المتعهدة، الذي كان مسؤولاً عن مشروعنا، المهندس عبد المسيح عطية، الذي كان ذات يوم "رفيقًا"، كما قيل لي. وأتفكر بأن شركتهم، أقصد "شركة أبو خاطر وأخرس وعطية"، التي تأسست في أواسط الستينات، استفادت جدًّا من استلام أول وزير شيوعي لوزارة المواصلات، المحامي سميح عطية (ابن عم عبد المسيح)، فشاركتْ في بعض المشاريع الهامة و"بَنَتْ نفسها" من خلال هذه المشاريع.

وأسجل هنا أن هذه الظاهرة كانت ظاهرة عامة في عهد البعث، وخاصة في عهد حافظ أسد، حيث أُنشئت عدةُ شركات تعهدات هامة في القطاع الخاص، كانت أهمها، إلى جانب شركة "أبو خاطر..."، شركة تقلا وغيرها، وذلك قبل أن يتطور الأمر، فتصبح هناك شركات تعهُّد خاصة أخرى احتكرت معظم الأعمال الهامة، ويملكها أقارب الرئيس وحاشيته.

وأسجل هنا أن وضعي في هذا المشروع، لأول مرة في حياتي، كان مريحًا جدًّا من الناحية المادية، حيث كنت أتقاضى في السنة الأولى حوالى 4500 ل س، أي أكثر من ضعفَي ما كنت أتقاضاه في القطاع العام؛ مما أتاح لي، لأول مرة منذ تخرجي، تأمين بعض الوفرة المادية[33]. ولكن أيضًا...

كانت هذه المرحلة، من الناحية الحزبية والسياسية، من أهم المراحل التي عشتها وعاشها البلد. وقد ساهمت في تكوين وعيي السياسي والإنساني على أسُس جديدة أنضج وأعمق. وأعود إلى الحزب، حيث...

---

[33] راجع الفصل العاشر من مذكراتي بعنوان "مذكرات جزراوية"، حيث تحدثت عن بعض الجوانب الإنسانية من تجربتي خلال تلك المرحلة.

"ما بين الـ29 والـ31 من أيار 1980، عقد في دمشق... المؤتمر الخامس للحزب الشيوعي السوري..."، الذي كانت فيه زوجتي منى إحدى الأعضاء مندوبةً نسائية عن منظمة حلب. هذا المؤتمر الذي ثبَّت سيطرة ثنائي خالد بكداش/يوسف فيصل على الحزب وطرد جماعة مراد يوسف منه – مع التأكيد طبعًا على الصداقة الخالدة مع "الاتحاد السوفييتي العظيم"، وعلى وحدة الجميع تحت شعار "وداعًا أيها الأنصار"!

لكن، وإن كان يبدو من حيث الظاهر أن كلَّ شيء بات "على ما يرام"، فإن الحقيقة على أرض الواقع كانت مختلفة: حيث احتفظ كلٌّ طرف بـ"أنصاره" وبات يسعى عمليًّا، من خلالهم، للسيطرة على التنظيم، بدعم أو مساعدة جانب أو آخر من "الرفاق الكبار" في الاتحاد السوفييتي، الذي كانت الأوضاع فيه تتفاعل في العمق...

كما كانت تتفاعل وتغلي الأوضاع الداخلية في بلدنا مع تصاعُد أعمال العنف والاغتيالات التي كانت تُنسَب عمومًا إلى "الإخوان المسلمين"، وفي شكل خاص إلى تلك المجموعات الأصولية المنبثقة عنهم، التي كانت تتلقى على ما يبدو الدعم المادي واللوجستي من العراق، حيث كان صدام حسين و"البعث الآخر"، كما ومن الأردن، وحتى من منظمة التحرير الفلسطينية بقيادة ياسر عرفات!

وأتذكر من تلك الأيام... أن حملة الإخوان المسلمين قد تصاعدت نحو شكل من "النشاط الجماهيري" الموجَّه، في عدد من المدن السورية، ضد ثكنات الجيش والشرطة ومكاتب حزب البعث، الذي تهاوى عددُ أعضائه في تلك الفترة تهاويًا ملفتًا للنظر. وقد طالت هذه الهجمة حتى بعضَ حلفائه في السلطة، وعلى رأسهم الشيوعيون. ففي حلب، اغتيل من بين قياديي وأعضاء الحزب الشيوعي كلٌّ من الرفاق عمر عوض وأنطون صرَّاف (الذي قُتِلَ في مكتبه الواقع قرب منزل أهل منى) وأحمد طلحة ومحمد صالحة؛ وفي دمشق اغتيل في مكتبه المحامي نزيه الجمالي. أحداث خطيرة، جعلت السلطة، بقيادة حافظ أسد، كما قال پاتريك سيل، تقرر "... أن تضاهي وحشية أعدائها، فعمدت إلى استخدام أكبر الوحدات العسكرية المزودة بالأسلحة الثقيلة لتجتثهم من جذورهم"[34].

بيد أن الشيء الجديد في نظري، الذي عشته فعلاً في تلك الأيام، كان تسليح حزب البعث وباقي أحزاب السلطة. وقد كان الحزب الشيوعي من أهم تلك الأحزاب التي وُزِّع عليها السلاح، حيث بات منظر الرفاق يحضرون الاجتماعات الحزبية وهم يحملون أسلحتهم الخفيفة (غالبًا مسدسات روسية أو "سميث أند ويسن") ويتباهون بها أمام بعضهم بعضًا مشهدًا مألوفًا!

وأسجل هنا هذه الحادثة الطريفة التالية التي حدثت معي، فأتذكر – ولم أكن منظمًا حينذاك، كما سبق أن أشرت – كيف أقنعني أحد مراقبي ورشتنا (الذي كان "رفيقًا") أن أشتري مسدسًا صغيرًا مهربًا: فأنا أعمل في البادية، على حدِّ قوله، وقد أكون عرضة لأيِّ اعتداء. فصدقته بلا تريث، واشتريت منه مسدسًا

---

[34] راجع كتاب پاتريك سيل *الأسد أو الصراع على الشرق الأوسط*.

صغيرًا "جميلاً"، حملته معي في ذلك اليوم لأريه لزوجتي منى، التي امتعضت حين رأته، وسألتني بكل انفعال:

- "وهل تستطيع أن تستعمله، يا أكرم؟! هل تستطيع أن تقتل إنسانًا؟" ما جعلني أدرك مقدار حماقتي، فأجبتها وأنا أضحك:
- "لا، يا منى، لا أستطيع استعماله فعلاً، لا أستطيع أن أقتل إنسانًا، ولا حتى دفاعًا عن نفسي!"

وفي اليوم التالي، أعدت المسدس إلى صاحبه مباشرة، واسترجعت ما دفعته له من ثمن. وأيضًا...

في تلك الأيام، في آذار 1980 على ما أذكر، كانت معارك بين الجيش وفلول الإخوان في جسر الشغور تسفر عن مئات من القتلى والجرحى. حيث دخلت قوات الجيش، من الفرقة الثالثة، مدينة حلب التي كانت تكاثرت فيها الحوادث، وحيث انهار تمامًا تنظيم حزب البعث في المدينة – حلب التي فُرِضَ عليها منع تجول ليلي حوالي أسبوع، وخاصة على بعض أحيائها، حيث وقعت حوادث عنف دامية. وقد جرى حينئذٍ تفتيش دقيق لمعظم أحياء المدينة بيتًا بيتًا بحثًا عن الأسلحة المخبأة وعن المتمردين. وأستعيد من تلك الأيام التي قضيتها في حلب...

كيف فتشوا منزلي خلال حملة تفتيش حيّ السليمانية، وكيف دهم الضابط – وكان برتبة ملازم أول – البيت شاهرًا سلاحه ويرافقه جنديان، فنظر إلى ما حوله بينما كان جنوده يتفقدون الغرف، وسألني:

- "هل أنت مسيحي؟" فأجبته:
- "نعم." فسألني من جديد:
- "ولم لا يوجد في بيتك صليب وصور قديسين كباقي المسيحيين؟!" فأجبته:
- "لأن هذا ليس إلزاميًّا في ديننا!" فلم يقتنع بجوابي، ما جعله يتفقد المكتبة ويكتشف من خلالها بأني ماركسي الميول، أي "حليف" محتمل لهم. فسألني مجددًا:
- "هل أنت من جماعة أبو عمار؟" فأجبته:
- "نعم." ما جعله يبتسم لأنه كشفني رغمًا عني! وأيضًا...

أتذكر خاصةً ذلك المنظر المروِّع، الذي ظلّ مطبوعًا لفترة طويلة في ذاكرتي، لجثة متمرد مربوطة إلى سيارة مدرعة تجره سَحْلاً عبر شوارع المدينة، لكي يكون عِبْرة لمن يعتبر! وكيف كانت السيارات التي تقلنا من حلب وإليها غالبًا ما توقفها على الطريق دورياتٌ أمنية طيارة، حيث ينزل منها جميع الركاب الذين يفتَّشون بطريقة مهينة. وكان كلُّ واحد منَّا يُسأل من أين هو ولماذا هو مسافر.

وأتذكر خاصةً تلك السلسلة من الخطب التي ألقاها في تلك الأيام الرئيس حافظ أسد والتي أكد فيها على استعمال "العنف الثوري" كجواب وردٍ على ذلك العنف الآخر، وخاصة منها ذلك الخطاب الذي ألقاه أمام اتحاد الفلاحين، وكيف قفزت واثبًا صارخًا: "يا إلهي!" وأنا أسمعه يقول ما معناه أنه "... ليس طالب سلطة، إنما مجرد فلاح حلمه أن يجلس في أرضه ويتأمل مزروعاته..."، وكيف سألتني منى

يومذاك: "لماذا صرخت هكذا؟!" فأجبتها: "لأني فهمت مما يقول إنه لن يتخلَّى عن السلطة، مهما كان الثمن!"

يومذاك، أجل، لم أكن قرأت بعد جورج أورويل ولا بالأخص روايته 1984. لكني، بحكم التجربة، كنت بدأت أفهم ماذا يعنيه الكلام المزدوج والتفكير المزدوج Double talk, double think. وأيضًا...

في تلك الأيام، طالت محاولاتُ الاغتيال أهم رموز السلطة، كالرئيس الأسد نفسه ووزير خارجيته عبد الحليم خدام. وأتذكر بأن أعمال القمع التي نجمت عنها كانت مريعة، حيث قيل بأن "سرايا الدفاع"، التي كانت حينئذٍ بقيادة رفعت أسد، هاجمت آنذاك سجن تدمر وجزرت المساجين من الإخوان المسلمين. ففي تلك الأيام، أصبح كلُّ شخص ينتمي إلى هذه الجماعة معرضًا لحكم الإعدام قانونًا – وهو قانون ما يزال ساري المفعول إلى الآن (على الأقل نظريًّا).

وأتذكر اليوم، وأنا أتفكر في تلك الأيام، ذلك العنف من الطرفين الذي ساد البلاد آنذاك، والذي مازال منطقُه سائدًا إلى اليوم، لا بل مازال يتصاعد في شكل عام من خلال التعصبات السائدة، وكيف كنت بدأت أتساءل حول الطريق الواجب اتباعه في هذه الحياة لحلِّ ما يواجهنا فيها من مشكلات، وكيف أني لم أكن أجد أمامي من طريق سوى ذلك الدرب الإنساني واللاعنفي، الذي دعا إليه السيد المسيح قبل ما يقارب الألفَي عام والذي طبَّقه على أرض الواقع في القرن العشرين، من أجل تحرير بلاده، المهاتما غاندي. فحينذاك، على ما يبدو، كانت تجربتي الحياتية قد بدأت تبيِّن لي ما أعتقد اليوم أنه حقيقة.

4

ومشروع طريق القنطري–تل تمر كان يتقدم في شكل طبيعي. ومن خلاله – وهذا الأهم – كنت أعيش تجارب جديدة وأتعرف إلى أشخاص جُدُد...

كذلك الجيوديزي الروسي الأبيض العجوز من حلب، سيرغِيْ ساخاروف، الذي سرعان ما صار صديقًا لي. فأصبحنا نتبادل الروايات الفرنسية، لأننا سرعان ما اكتشفنا أن عندنا الكثير من الأمور المشتركة.

- لماذا لم تعد إلى روسيا، يا ساشا؟
- لأني أريد أن أنساها، يا أكرم! لأني لا أريد أن أتذكر طفولتي التعسة!
- لكنها اليوم أفضل بكثير، يا ساشا. إنها بلد جميل، والشعب الروسي شعب جميل فعلاً.

فيبتسم ساشا في حزن ويجيبني:

- لا تحاول، يا أكرم، لا تحاول، أرجوك! لأني لا أتمنى لأحد من أبنائي أن يعيش ما عشته آنذاك، ولا أريد لأولادي أن يكرِّروه. لا أتمنى لأحد أن يعاني ما عانيته كلاجئ إنساني مشرَّد، يشحذ في المرافئ، حتى رفقت بي الأحوالُ واستقررت في مدينة حلب. لا، لا أتمنى لأحد أن يعيش تجربتي، يا أكرم. أريد أن أنساها! لكن هناك دائمًا مَن يأتي ليذكرني بها!

- أنا آسف، يا ساشا، آسف فعلاً!
- لا بأس، يا صديقي، لا بأس! خذ الآن هذه القصة البوليسية واقرأها. إنها طريفة فعلاً...

أو ذلك المساعد الفنّي الجيولوجي الكهل (وقد نسيت اسمه)، القادم من أفريقيا، حيث كان يعمل مع "دار الهندسة".

- آه ما أجمل أفريقيا، يا أكرم... ما أجملها!
- وما أجمل شيء فيها يا ترى؟
- نساؤها... طبعًا نساؤها... إنهن أجمل نساء في العالم!
- ألهذه الدرجة؟!
- بل أكثر مما تتصور!
- وأين عملت في أفريقيا؟
- لقد عملت مع "دار الهندسة" في الكونغو البلجيكي وقليلاً في السودان... آه من النساء الأفريقيات، يا أكرم! آه من السودانيات، خاصةً الحبشيات، حين يقلن لك آيييييي...
- يقلن لك ماذا؟

ويضحك من أعماقه – وأضحك معه من كلِّ قلبي! – وهو يجيبني مغمضًا عينيه:

- أيييييي... حين يقلن لك آيييييي... أي نعم...

وأيضًا، سرعان ما تعرفت هناك، من خلال هذا المشروع، إلى المهندس أنطون مصابني، صديق مروان جعفر الملقي (رحمتْه الآلهة)، الذي جاء ليعمل معنا في المشروع، وكيف تعرف عن طريقنا (أي عن طريقي وطريق منى) إلى دينا ابنة فيوليت، فخطبا ثم تزوجا...

فالأيام كانت تجري بسرعة فعلاً في هذا المشروع الذي أضحى اليوم في نظري من الماضي السحيق.

لأن كل شيء كان يركض من حولي، وفي البلد. لأني، وقد بدأت أتلمس نهاية هذا المشروع، أصبحت أفكر – عن جِدٍّ هذه المرة – في تصفية أموري في حلب وفي العودة نهائيًّا إلى دمشق. دمشق التي كان يؤرقني مقدار حبي لها، دمشق حيث الأهل وحيث الأصدقاء وحيث... "الرفاق"! وأتفكر مجددًا في الأوضاع في الحزب...

حيث سرعان ما عاد أنصار كلا الطرفين المتنازعين إلى الصراع من جديد. وقد تفجر الخلاف هذه المرة، أول ما تفجر مجددًا، في مدينة حلب. فهناك جرت، خلال العام 1981، وكتكريس لنتائج المؤتمر الخامس، انتخابات اللجنة المنطقية. وعادت الأزمة المستحكمة للظهور حين أسقط جماعة أبو عمار أحد أهم الرفاق المحسوبين على يوسف، المهندس رضوان مارتيني. مما أدى إلى رفض المكتب السياسي، حيث كان يوسف فيصل يملك أغلبية الأصوات، لنتائج هذه الانتخابات. ثم كانت هناك، على

ما أذكر، تسوية لهذا الخلاف، استغرق إقرارُها بعض الوقت، وتقضي بأن يضاف إلى اللجنة المنطقية في حلب رفيقان، كان أحدهما رضوان مارتيني. لكن الخلاف لم يسوَّى على الرغم من هذا.

فقد كان يوسف فيصل، من خلال المكتب السياسي، يقترح كسكرتير للمنطقية هناك الرفيق عبده بكور، عضو اللجنة المركزية، الذي كان من أنصاره؛ بينما كان مناصرو أبو عمار – وهم النصف الآخر – يفضلون رفيقًا آخر عضو لجنة مركزية من جماعتهم، الرفيق خلوف قطان. مما أدى إلى انشقاق المنطقية وانشقاق منظمة الحزب في المدينة بكاملها.

وأتوقف أمام هذه الأحداث، التي لم يعد أحد يتحدث بها اليوم، وقد مرت الكثير من المياه من تحت الجسور، وبعد أن لم تعد لي أية علاقة بالحزب، لأبدي رأيي المتواضع في الشخصين الذين دار حولهما ذلك الخلاف، خصوصًا أن كلاً من عبده وخلوف قد تركا أيضًا الحزب وجماعتهما، مثلي تمامًا، وإنْ لأسباب مختلفة: فعبده ترك الحزب وجماعته بعد أن تملَّكه القرف، إذ أساء إليه شخصيًّا بعضُ رفاقه الذين حرَّكوا ضده موضوع زوجته (التي كانت يهودية من البرازيل)، مما دفعه إلى الابتعاد والتواري. أما خلوف، الذي غضب عليه أبو عمار لأنه بدأ يتجاوز الحدود التي رُسِمَتْ له، فقد اتُّهم حينئذٍ بسرقة مالية الحزب!

أتوقف اليوم لأقول، من منطلق محايد، أن عبده كان أفضل من خلوف بما لا يقاس، سواء من حيث الإمكانات و/أو من حيث العمق الروحي و/أو خاصة من حيث النزاهة الشخصية. لكنه منطق التكتل والصراع العقائدي الذي لا يرحم، الذي أدى حينئذٍ، كما خلال تاريخ الحزب بكامله، إلى إبعاد و/أو ابتعاد الكثيرين.

وأسجل أنه، في تلك الأيام، كان التنظيم يتدهور، نوعًا وكمًّا، في تسارع منتظم. لكن الذي لم أكن أفهمه يومذاك هو أن هذا التدهور إنما كان نتيجة طبيعية لتدهور وتصدُّع آخر وأعمق كان يجري في "المعسكر الاشتراكي الجبار"، الذي كان يعيش على دقات الساعة البولونية، حيث اختارت الطبقةُ العاملة هناك (التي من المفترَض أن يحكم الحزب الشيوعي باسمها!) الانضواءَ تحت راية نقابة "التضامن" – المعادية للشيوعية – بقيادة عامل الكهرباء ليخ فاليسا.

نعم، كانت الأحداث تتسارع من حولي فعلاً. وجميع تلك الأحداث كان يدفعني إلى ترك عملي مع "دار الهندسة"، الذي بات لي على رأسه ما يقارب السنتين، وإلى أن أترك الحزب، وأن أترك حلب لأعود إلى دمشق.

وأسجل اليوم أنها كانت أحداث يبدو بعضها حتى وكأنه مؤشر شؤم. حيث احترق ذات يوم أحد عمال الورشة أمامي وأمام الجميع! نعم، احترق في برَّاكته وهو يستحم، ولم يتمكن أحد من إنقاذه. لأنه، خلال أقل من 5 دقائق – 5 دقائق لا أكثر! – التهمته النيران هو وبراكته التي كانت – كجميع براكاتنا المصنوعة من الخشب الخفيف (البلاكيه) السريع الاشتعال – مفتقدةً لأية وسيلة فعالة للحماية. وقد

أُخبِرتُ أنه فيما بعد – وكنت أصبحت في دمشق – احترقتْ أيضًا البراكة التي كنت أعيش فيها، لكن – شكرًا للألوهة – من دون ضحايا هذه المرة. وأيضًا...

من دمشق، وعن طريقها، من باريس، وصلني ذلك النبأ الحزين بأن صديقي ورفيقي سمير شاليش قد فارق الحياة. وقد أُحضِرَ جثمانه إلى دمشق ليُدفَن في مدفن عائلته في حمص. سمير الذي دفنه رفاقُه وأصدقاؤه من الحزب وهم يهتفون أنْ "مات ذلك الذي كان يناضل من أجل العامل والفلاح". سمير الذي دفنه رفاقُه، نعم، في مقبرة مسلمة لأنه، كما قيل لي، واجهت عائلتُه مشكلةً يمكن تلخيصها بأنه لما كان قد تخلَّى عن دينه (كمسيحي أرثوذُكسي) وأصبح "مسلمًا" ليتزوج دعد، فإنه لم يعد، من وجهة نظر كنسية، يحق له أن يُدفَن وفق الطقوس المسيحية إلى جانب عائلته!

وأتفكر اليوم بأن هذا واحد من الإشكالات الكبيرة التي يواجهها الشباب في بلدنا بسبب عدم وجود قوانين تسمح لهم بالزواج المدني: حيث ليس يمكن للمسيحي الزواج من مسلمة ما لم يصبح من دينها؛ وهي لن يكون في وسعها أن تصبح من دينه، وإلا اعتُبِرَتْ "مرتدة"! وقِسْ على ذلك ما يتفرع عن تلك الأمور من إشكالات بسبب قوانين متخلِّفة، لكنها في بلدنا مازالت قائمة، ويُدافَع عنها باسم الدين. وأيضًا...

حين أعود إلى السياسة متفكرًا، أتذكر أنه، خلال تلك الفترة من أواخر العام 1981، اغتالت مجموعةٌ أصولية إسلامية الرئيس المصري أنور السادات، متهمةً إياه بالتفريط بدماء الشهداء – أنور السادات الذي أتفكر اليوم بأنه كان مخلصًا فعلاً في سعيه نحو السلام. وكان الشخص الذي حلَّ محلَّه على رأس مصر هو نائبه محمد حسني مبارك. وأيضًا...

خلال تلك الفترة، كان عرس طوني مصابني ودينا – وفَّقتهما الألوهة – اللذين غادرا بعيد زواجهما مباشرة إلى تشيكوسلوفاكيا في رحلة شهر عسل. وقد استمرت رحلتهما، على ما أذكر، أكثر من شهر، أتذكر أني كنت خلاله – وقد سبق أن أخبرتُ فيه "دار الهندسة" برغبتي في الاستقالة – أقوم بما كان يقوم به أنطون من عمل، إضافة إلى عملي.

لأني، في تلك الأيام، كنت اتصلت بهاشم الذي أصبح مديرًا عامًّا لـ"مشروع ضاحية دمَّر" السكني، واتفقت معه على أن آتي إلى دمشق لأعمل معه في المشروع. و...

كآخر مشهد لي من القنطري، التي لم أكن قد غادرتُها بعد، أتذكر هذين الشرطيين اللذين جاءا إلى المخيم، في عزِّ شمس الظهيرة الحارقة، لإبلاغي بدعوى جديدة مرفوعة ضدي من قبل "شركة الرصافة" (وهي شركة قطاع عام مركزها مدينة القامشلي)، لأني، حسبما وَرَدَ في الدعوى، لم ألتحق بعملي هناك! فأستفسر عن الموضوع فور عودتي في ذلك اليوم إلى حلب، وأكتشف بأن المدير العام الجديد لـ"شركة الأعمال الإنشائية"، المهندس غسان ف.، الذي كان خسر دعواه الأولى ضدي لتركي العمل في شركته، فَرَزَني، دون علم من أحد، إلى "شركة الرصافة" في أقصى شمال سورية – تلك الشركة التي لاحقتْني

بدعوى لأني لم ألتحق بعملي لديها! ومن جديد، أسافر ووديع (شقيق منى) إلى القامشلي لتكليفه أن يتابع عني تلك الدعوى "الكيدية" الجديدة...

الفصل الرابع عشر

العودة إلى دمشق
(1983-1981)

العودة إلى دمشق

"... يا عربي، يا ابن المجرودة

بيع أمَّك واشري البارودة

والبارودة خير من أمَّك

يوم الكرب بتفرِّج همَّك..."

أهزوجة بدوية (القرن الماضي)

طائر الليل: وهل سنبقى طوال العمر "أبناء مجرودة"؟!

1

مع اقتراب تأريخي الشخصي من الحقبة الزمنية التي نعيشها اليوم، ألاحظ أني أصبحت أميل إلى "نسيان" أمور كثيرة، إن لم أقل إني أشعر بدافع قوي إلى الامتناع عن التفكير في أمور بعينها. لذا بتُّ أجد، ربما، صعوبةً أكبر في الاستمرار في كتابة هذه المذكرات؛ أو لأقل صراحةً: أشعر ببعض الخوف يتملكني، وقد بدأت ألامس، في العمق وعن كثب، أوضاعًا مازلنا نعيشها. نعم، أشعر بالخوف حقًّا لأنني أصبحت أتعرَّض مباشرةً وصراحةً لأمور قد يعرفها معظمنا، لكن لم يجرؤ أحد في بلدنا، إلى الآن، على التعرُّض لها أو الكتابة عنها لأنها مازالت تُعتبَر من "المحرمات".

وأحاول استعادة بعضٍ مما عشت في تلك الفترة حين غادرت حلب في أوائل الشهر التاسع من العام 1981 وجئت إلى دمشق لأواجه أمورًا عدة...

كان أولها رفض أهلي – وتحديدًا والدتي – إعارتي منزل المزَّة، الذي كان في الأصل منزلي والذي كان أهلي يستثمرونه. لقد رفضوا إعارتي إياه، ولا حتى للفترة القليلة المتبقية، حتى يتم المنزل الذي اشتريته في مشروع دُمَّر (والذي أسكنه ومنى وولدي طارق اليوم). وأتذكر أني – لأني لم أكن أملك آنذاك ما يكفي من سيولة لتسديد ثمن منزلي الجديد (إذ لم أكن قد استلمت بعد ثمن منزلي السابق في حلب بكامله) – فقد اضطررت إلى استدانة بعض المال منهم ومن أهل منى. لكن أهلي، الذين أقرضوني (بعد تردُّد) المبلغَ الذي طلبت، رفضوا إعارتي منزل المزة لأنهم، كما أفهموني بالحرف العريض يومئذٍ، خافوا أن أتشبث به، وهو، كما عبَّروا لي، بات أهم ما تبقَّى لهم. وقد أخبروني أيضًا أنهم سجَّلوا أثاث دارنا الفاخر الذي في دمشق، عن طريق كاتب العدل، لصالح شقيقتي ريما، خوفًا من أن نطالب، زوجتي وأنا، بشيء منه حين يُتوفى والدي الذي كانت صحته في تدهور مستمر ومتسارع. وأتذكر أني تألمت كثيرًا من هذا الموقف الذي لم أكن أتوقعه والذي أخفيت معظم حيثياته عن منى. لكن المشكلة سرعان

ما حُلَّتْ لصالح الجميع (ظاهريًّا على الأقل) حين وضع صديقي عاصم منزلَه الذي في مشروع دمَّر تحت تصرفي حتى انتهاء منزلي هناك، كما رفض أن يأخذ مني مقابل ذلك أيَّ إيجار.

وكان الأمر الثاني الذي واجهتُه في تلك الفترة، لدى عودتي إلى دمشق في أوائل الشهر التاسع من العام 1981، ما أخبرتنا إياه إكرام، التي كان وضعها في المكسيك قد تحسَّن تحسنًا ملحوظًا، إذ أصبحت مستشارة لدى رئيس جمهورية المكسيك السابق إيتشيفيريا، الذي كان يدير مركزًا لدراسات العالم الثالث – أخبرتنا أنها قادمة إلى بيروت بعد بضعة أيام لتقضي فيها أسبوعًا تجري خلاله مقابلة مع ياسر عرفات لصالح التلفزيون المكسيكي؛ كما أخبرتنا أيضًا أنها حجزت لنا (أي للأهل ولي)، عن طريق منظمة التحرير الفلسطينية طبعًا، غرفتين في فندق "فينرهاوس"، الواقع بين قريطم وشارع الحمرا، الذي كانت المنظمة تستعمله لاستضافة ضيوفها الأجانب. وقد أعربت إكرام عن رغبتها في لقيانا في بيروت لأنها كانت تخشى من العودة إلى دمشق حيث، كما أخبرت، وُضِعَ اسمُها على الحدود. وهكذا ذهبنا جميعًا إلى لبنان للقائها. وقد أخذتُ معي آنذاك، لتتعرف إليها، ابنتي لنا التي أصبح عمرها ست سنوات.

وأستعيد في ألم بعضًا يسيرًا من هذا اللقاء، فأتذكر مدى حماسها وانفعالها للقاء ياسر عرفات الذي أصبح، بالتحالف مع المسلمين السنَّة والدروز واليسار اللبناني، في معزل عن الشيعة و"حركة أمل"[35]، الذين كانوا بدؤوا يلعبون لعبتهم الخاصة لصالح إيران وسورية، الزعيمَ الفعلي لبيروت الغربية، وذلك في مواجهة بشير الجميّل الذي كان في تلك الأيام الزعيم الفعلي للمسيحيين ولبيروت الشرقية. وأتذكر أنه على رأس الدولة اللبنانية آنذاك كان السيد الياس سركيس، أحد آخر الوجوه المدنيَّة للمدرسة الشهابية.

وأسترجع، كأني أسمعه اليوم، بعضًا مما دار بيني وبين إكرام من حوار...

- لقد أصبحتُ شخصيةً مهمة هناك، يا أكرم! أنا حاليًّا مستشارة لإيتشيفيريا. لي مركزي في الجامعة، وأكتب في الصحف... وقد ساعدتُ منظمة التحرير على تأمين سفارة لهم في مكسيكو سيتي، وكذلك في ماناغوا، عاصمة نيكاراغوا... على فكرة، يا أكرم، انسَ منزلَ الأهل في المزَّة...
- إنه ليس "منزل الأهل"، كما تعلمين جيدًا يا إكرام... لكني، على الرغم من هذا، نسيته، فلا تخافي...
- هذا أفضل... واعتمد على نفسك، يا أكرم، كما أعتمد أنا على نفسي، وكفاك استدانةً منهم!
- نعم، يا إكرام، سأفعل... ثقي أني سأعيد إليهم دينهم لي كاملاً فور قبْضي ثمنَ منزلي الذي في حلب كاملاً.

لأن ذاك، في نظري، كان أهم ما قيل خلال هذا اللقاء القصير بيننا (24 ساعة)، الذي كان الأول منذ ذهابها إلى المكسيك قبل ما يقارب الخمس سنوات. وأتذكر بأني غادرت إكرام ظهيرةِ اليوم التالي، عائدًا

[35] حينذاك لم يكن هناك بعدُ "حزب الله"!

إلى دمشق مع أبي وابنتي لنا، تاركًا إياها في غرفتها في الفندق مع أمي وريما، اللتين أخبرتاني فيما بعد كيف أجرت لقاءها في الليلة نفسها، في مكان ما من بيروت الغربية، مع ياسر عرفات. وقد تألمت لأني لم أستطع البقاء معها أكثر من ذلك اليوم اليتيم. فدعوتي من قبلها كانت ليوم واحد فقط، ولم أكن أحمل في جيبي يومئذٍ ما يكفي من مال للبقاء ليلة ثانية. ولهذا السبب، ربما، وجدتني آنذاك غريبًا عن بيروت التي أحب والتي كانت مازالت تعاني من ويلات الحرب الأهلية. كما وجدتني – وهذا هو الأهم – غريبًا عن شقيقتي الأقرب إلى قلبي، شقيقتي التي لم أرَها منذ ستة سنوات والتي كان رأسها قد "دار" قليلاً لأنها أصبحت "شخصية هامة"!

وأيضًا وثالثًا – وهذا كان أهم ما في الأمر في نظري آنذاك – كان عليَّ، بالسرعة الكلية، إيجاد عمل في دمشق. إذ اعتذر هاشم مني عن إمكانية العمل معه في مشروع ضاحية دمر السكنية لأنهم، بكلِّ بساطة، "أبعدوه" عن المشروع! فسارعت إلى الاتصال بمعارفي، وعلى رأسهم أبو محمد (عمر السباعي، وزير المواصلات)، وصديقي في وزارة المواصلات المهندس سهيل شباط، وآخرون. أما أبو محمد، فقد عرَّفني يومئذٍ إلى العقيد خليل بهلول، المدير العام لـ"الإسكان العسكري"، تلك الشركة الأخطبوط – التي بحكم الصلاحيات شبه المطلقة لمديرها العام وما وُضِعَ تحت تصرُّفه من إمكانات – صارت الأقوى والأكثر نفوذًا في البلد. وقد وافق بهلول فورًا على توظيفي في شركته، وحدَّد لي ظهيرة اليوم التالي موعدًا لألتقي به وأوقِّع معه عقدًا. لكني، في آخر لحظة، قررت عدم التوجه إلى ذلك الموعد لأني، كما نصح لي المهندس سهيل شباط، ذهبت إلى مقر "الشركة العامة للدراسات" التي أُسِّستْ حديثًا والتي كان مديرها العام، الدكتور المهندس فؤاد بشور، يبحث عن مهندسين ذوي خبرة للتعاقد معهم. وبسرعة تذكَّرني الدكتور فؤاد من أيام خدمتي العسكرية، – إذ كان المهندس المصمِّم للبناء الذي نفَّذته خلال الخدمة – ووقَّع معي فورًا عقد عمل لدى شركته: عقدًا لم يكن مغريًّا جدًّا، لكنني وقَّعته بناءً على وعد منه بأنه سيعدِّله فور حصوله على مشروع كبير يفكر في تسليمي إياه، ألا وهو الإشراف على "مشفى جامعة دمشق التعليمي". وأستعيد بعضًا مما أتذكر وكان يجري في تلك الأيام.

ففي أواخر شهر أيلول 1981، عشية سفري إلى دمشق، قام بعض الشباب من خرِّيجي دورات القفز المظلِّي[36] الدارجة آنذاك، بإيعاز من "سرايا الدفاع" التابعة لرفعت الأسد والمشرفة على تدريبهم، بالنزول إلى شوارع المدن والتعدِّي على حرمات الناس بنزع أغطية النسوة المحجبات! فعل أرعن واستفزازي، سرعان ما اعتذر عنه شخصيًّا الرئيس حافظ الأسد في خطاب تلفزيوني، كما استنكره أيضًا الحزب الشيوعي.

[36] كان اتباع أحد الشباب من مرحلة الدراسة الثانوية لإحدى تلك الدورات يؤهله/يؤهلها للحصول على ما يكفي من "علامات إضافية" في البكالوريا تيسِّر له دراسة الطب والهندسة وسائر الفروع العلمية التي تتطلب مجاميع عالية!

وفي الخامس من تشرين الأول 1981، أي بعد أيام من التحاقي بعملي الجديد لدى "الشركة العامة للدراسات" التي كان مركزها في ساحة العباسيين، كانت محاولة أصولية لتفجير مجمَّع التجارة السكني الذي كان مستأجرًا من قبل الخبراء الروس، مما أسفر، كما قيل، عن حريق سطحي في المبنى وعن بعض الجرحى من السكان.

وأيضًا – وهذا هو الأهم – في أوائل شهر كانون الأول 1981، وفي ساعة ازدحام قصوى حوالي الظهيرة، كان هجوم انتحاري بسيارة مفخَّخة على مبنى شعبة التجنيد في حي الأزبكية وسط دمشق يسفر عن عدد كبير من الضحايا وعن خسائر مادية فادحة في البناء نفسه وفي الأبنية المحيطة... عمل إجرامي مجنون كانت نتيجته المباشرة الأساسية، من جانب السلطات، مسيرات استنكار، من جهة، والمزيد من الإجراءات الأمنية المشدَّدة التي عمَّتِ البلد، من جهة أخرى.

حينذاك، كان عملي الهندسي في "شركة الدراسات" هو مساعدة مدير التخطيط لدى الشركة والمسؤول عن إعداد دراسات المشاريع السكنية لضاحيتَي قدسيا وجبل قاسيون السكنيتين، صديقي، خريج پولونيا، المهندس زاهي الحارس. وأتذكر كيف كلَّفني الدكتور فؤاد يومئذٍ، بالاتفاق مع زاهي، إعدادَ دراسة جدوى فنية واقتصادية لتحديد الطريق الأمثل لتخديم الضاحية السكنية في قدسيا التي كانت في طور الدراسات التنفيذية. فانكببت على هذه الدراسة، التي سرعان ما أنجزتها وقدَّمتها، مع بعض المخططات والجداول الداعمة، إلى إدارة الشركة، مبيّنًا أن الطريق الأمثل لتخديم هذه الضاحية إنما هو الواصل بينها وبين نهاية أوتوستراد المزة: ذلك الطريق المعروف في وزارة المواصلات بالاحتمال "ب" لأوتوستراد دمشق–الحدود اللبنانية، الذي بات يُعرَف اليوم بـ"طريق القصر الجمهوري" والذي كان أيضًا قيد الإنشاء. وأتذكر كيف قبل الدكتور فؤاد مبتسمًا نتيجة الدراسة التي قدمتها إليه، معلقًا:

- أشاطرك الرأي بأن ما تقترحه حلاً هو الأمثل، يا أكرم. لكن... لِنَرَ ماذا ستكون ردة فعل السلطات والمسؤولين عن القصر الجمهوري وقرارهم بعدما نتقدَّم إليهم بهذه الدراسة.

وسرعان ما جاء "الرد"، حين استدعاني الدكتور فؤاد صبيحةَ ذات يوم، بعد حوالي عشرة أيام، ليبلغني بأن المهندس المسؤول عن مشروع القصر – وكان على ما أذكر من أسرة الرزاز – يرغب في اللقاء بي لمناقشتي فيما تقدَّمتُ به من دراسة. وأسارع إلى التوجه للقياه، وتوصية الدكتور فؤاد لي وأنا ذاهب كانت:

- لا تناقشه كثيرًا، يا أكرم... استمع إليه، فقط استمع... إنه، كما أعرف، شخصية غير ودودة.

وفيما يلي ملخص هذا اللقاء، الذي أرى أنه لا مناص من نقل بعض مقتطفاته لأهميته:

- أنت، إذن، المهندس أنطاكي... وقد ارتأيتَ في دراستك – التي قرأتها جيدًا – اختيارَ "طريق القصر" من أجل تخديم ضاحية قدسيا... خبِّرني، يا بني، لماذا اخترت هذا الطريق؟
- لأني وجدته أقصر وأفضل طريق لذلك، فنيًّا واقتصاديًّا.

فضحك ضحكة عريضة وأجابني:

- أفضل طريق! بالله عليك، تقول أفضل طريق! طيب، والقصر الجمهوري أيضًا أفضل مكان للسكن في البلد... لماذا لا تأتي لتسكنه حضرتك؟!

فأجبته في برود – وقد كان واضحًا جدًّا مدى السخرية والاستفزاز في كلامه:

- هذا ليس من مقامي، يا سيدي.
- وكذلك هذا الطريق ليس من مقامك ولا من مقام أحد! وحدهما الرئيس ورفعت، يا بني، لهما الحق في استعمال هذا الطريق! لذلك، استمع إلي جيدًا: إن هذه المنطقة الجبلية، الممتدة من قدسيا، إلى مشروع دمر، فالقصر، فالمزة، هي منطقة انتشار دائم. فانسَها... أو، إن لم تشأ أن تنساها، اتصل شخصيًّا بالرئيس و/أو برفعت، اللذين قد يستلطفانك، فيقرران، كرمى لعيونك الحلوين، الموافقة على استخدام طريق القصر من أجل تخديم ضاحية قدسيا... قال ضاحية قدسيا، قال! لذلك – وهذا هو "رأيي"، بلِّغه للدكتور بشور – انسوا هذا الطريق!

وأغادر الاجتماع حزينًا، شاردًا ومتفكرًا، وأنا في طريق عودتي لمقابلة الدكتور فؤاد كي أخبره بما تبلَّغته من "قرار"، كم تدهورت الأحوال في بلدنا، حتى صار متملقون صغار، من أمثال هذا "المسؤول" الذي اجتمعت به، أصحاب أمر ونهي عندنا... وكيف لا يتوقف السير في باريس عندما يمر موكب رئيسها، المؤلَّف فقط من سيارتين ودراجتين ناريتين، وأنه أمام منزل الرئيس الفرنسي (فرانسوا ميتران آنذاك)، الواقع قرب كاتدرائية نوتردام وسط العاصمة الفرنسية، يقف حارسان فقط! وأتذكر، أيضًا، أنه على بوابة القصر الجمهوري القديم في المهاجرين، أيام "الرؤساء البرجوازيين" الأتاسي والقوتلي والقدسي – رحمتهم الألوهة – كان يقف أيضًا رجلا شرطة فقط! أما اليوم، فقد أصبحت المنطقة المحيطة بالقصر "منطقة انتشار" دائم، يحظر استخدامُها أو حتى المرور عبرها.

ضحك الدكتور فؤاد حينما أخبرته بما جرى معي وسألني:

- الآن، وقد تبلَّغنا "القرار"، أي حل تقترح، يا أكرم؟
- سأوصي باختيار الطريق الآتي من قدسيا والواصل إلى دمشق عبر مشروع دمَّر.

فضحك الدكتور فؤاد مجددًا، وأجابني مداعبًا:

- أنت "ابن حرام"، يا أكرم!... لأنك تفكر كما أفكر: حين ستعود الأمور طبيعيةً في بلدنا – وهي ستعود كذلك مع الأيام، لا محالة – فإن "طريق القصر"، الذي يلتقي بطريق قدسيا عند نهاية مشروع دمر، سيعود ليصبح الطريق الطبيعي لتخديم المنطقة، ومن ضمنها ضاحية قدسيا.

وأتذكر أنه حينذاك كانت الأخبار كلها تتركز على ما يجري حولنا من أحداث، كان أهمها قطعًا الحرب الأهلية في لبنان، الذي أصبح جنوبُه متوازَعًا بين منظمة التحرير الفلسطينية، من جهة (ما بات يُعرَف دوليًّا بـ"أراضي فتح" Fatah Lands)، ومن جهة أخرى، بين "جيش لبنان الجنوبي" بقيادة سعد حداد،

المنشق عن الجيش اللبناني الرسمي، الذي كان مؤلفًا، كما قيل، من فقراء الشيعة والمسيحيين من أبناء المنطقة والذي كان متعاملاً مع إسرائيل.

وأتذكر أنه حينذاك، تحديدًا في 13 كانون الأول 1981، كإجراء استفزازي من طرف واحد، أعلن إسرائيل ضمَّ هضبة الجولان السورية، التي كان يحتلها منذ العام 1967، وأن ردة الفعل السورية الرسمية على الإعلان الإسرائيلي كانت باردة جدًّا، إن لم نقل "غير مكترثة" ظاهريًّا.

وعلى الجبهة العراقية–الإيرانية، حيث الحرب المحتدمة قد دخلت عامها الرابع، كانت الأوضاع القتالية تتطور لصالح إيران.

أما في الداخل السوري، فكانت أعمال الإرهاب تتصاعد، حتى باتت متمركزة في منطقة أساسية من وسط البلاد، منطقة حماه، التي كانت الأوضاع فيها في توتر متزايد ومستمر... حتى كان تفجُّر تلك "الكارثة الوطنية" التي أضحت تُعرَف، من بعدُ، بـ"أحداث حماه"...

2

تلك الأحداث التي مرَّ عليها حتى اليوم، وأنا أكتب هذه السطور، 24 عامًا ونيف؛ وهي أحداث عشتُها، كما عاشها آنذاك معظم أهل البلد في معظم المدن الأخرى (ماعدا حماه)، من خلال أحاديث الناس والأقاويل والشائعات... وهذه، على الرغم من هول ما جرى وفداحته، كانت، من وجهة نظري اليوم، مبالغًا فيها إلى حدٍّ ما.

فما جرى، على حدِّ ما كنا نسمع، هو أنه في الثالث من شباط 1982 استولى الأصوليون، الذين كانت خَلِيَتْ لهم الساحةُ يومئذٍ، على المدينة ونكَّلوا تنكيلاً وحشيًّا بالقلة التي ظفروا بها من جماعة السلطة. ثم كانت محاصرة السلطات للمدينة بقوات عسكرية ضخمة واجتياحها لتنظيفها من المتمردين. وقد استغرقت عمليات "التنظيف" هذه، التي كانت، على ما يبدو، في منتهى القسوة والوحشية، حوالي الثلاثة أسابيع.

وأتذكر أننا لم نكن نسمع شيئًا تقريبًا عما كان يجري من وسائل إعلامنا الرسمية. ما وصلنا عنه كان فقط عبر وسائل الإعلام الأجنبية، كإذاعتَي لندن ومونتي كارلو، وعبر ما كان يُتداوَل في البلد من شائعات وأخبار تصلنا من أصدقائنا في أحزاب السلطة أو من أولئك الذين هم من أصول حموية – مما كان يزيد في تهويل صورة الأحداث ومدى صداها في البلد ووقْعها عليه. فعلى سبيل المثال، فيما يتعلق بعائلتي وأقربائي، انقطعت عنَّا لمدة تزيد عن الشهر أخبارُ غزوة، ابنة هيلدا شقيقة منى، التي كان زوجها مدحت قنواتي من أصول حموية، والتي كانت، حين وقعت الأحداث، في زيارة لأقاربها هناك، ثم أُخبِرنا فيما بعد أنها عادت إلى حلب بعد أن بقيت تلك المدة كلها مخبأة لدى معارف عائلية في ريف المدينة؛ كذلك كانت حال محمد خير، ابن هاشم، الذي انقطعت أخباره عن أهله لأكثر من شهر والذي

خبِّئ أيضًا لدى بعض أقاربه في ريف المدينة. ثم سمعنا فيما بعد عن الكثير من تلك الحالات، التي كان معظمها مؤلمًا وحزينًا: فزميلي من الجندية مسعف س.، مثلاً، فَقَدَ يومئذٍ والدَه العجوز وشقيقَه اللذين قُتِلا خلال الحوادث؛ وأحد معارفي من جماعة أكرم الحوراني، المحامي زهير ق.، فَقَدَ شقيقَه الذي قُتِل أيضًا؛ وجارتنا في دمر أم طلال انقطعت عنها منذ ذلك التاريخ أنباء شقيقها الذي مازال مصيره مجهولاً إلى اليوم؛ ومحافظ دير الزور السابق، الذي عرفتُه من الميادين، كاد أن يُقتَل هو الآخر، ولم ينجِّه ومَن كان معه من أبناء حارته سوى أنه كان ذات يوم بعثيًّا[37]؛ وغيرها الكثير الكثير من القصص التي تؤكد كلها بأن ما جرى كان وحشيًّا ومؤلمًا. وأيضًا...

أتذكر بعده يوم الثامن من آذار الذي تلا، حين ألقى الرئيس حافظ الأسد أمام مجلس الشعب خطابًا تحدث فيه عن تلك الأحداث...

كان الجو باردًا في المدينة يومذاك، وكانت شوارع دمشق الحزينة، التي كانت تمزِّقها الشائعات، شبه فارغة من المارة، كأنها في حالة حصار أو منع تجول. كانت الساعة حوالي الحادية عشرة صباحًا، على ما أذكر، حين خرجتُ من منزل أهلي متوجهًا، عبر شارع الحمرا، نحو موقف الباصات عند الجامعة كي أعود إلى منزلي (منزل عاصم) في مشروع دمَّر، فاستوقفتْني عند تقاطُع شارع الحمرا مع شارع العابد، وسط الصمت المرعب المحيط، أصواتُ هتافات تتعالى متجهة نحو مجلس الشعب. ثم شاهدت مشهدًا غير مألوف على الإطلاق: شاهدت الرئيس حافظ الأسد شخصيًّا، على بُعد عشرة أمتار منِّي فقط، محمولاً على أكتاف بضع مئات من جماعته[38]، متَّجهين به إلى المجلس كي يلقي كلمته، فشعرت بالخوف فعلاً، لأنه في تلك اللحظة لم يكن في الشارع أحد إلاي... وإلاهم.

لذلك سارعت، بعد أن مروا من أمامي، عائدًا إلى منزل أهلي كي أستمع من هناك إلى ما سيقول في خطابه عن تلك الأحداث. وما قاله حولها يومئذٍ كان فقط جملة واحدة، مختصرة مفيدة، تقول: "ما حدث في حماه حدث وانتهى..."

وأتذكر أني لم أستوعب يومئذٍ أبعاد تلك العبارة القاسية، التي بقيت أهجس بها لفترة طويلة، والتي لم أسمع عبارة شبيهة بها – وإنْ من منظور آخر – إلاَّ على لسان أحد أبرز قادة المعارضة السورية، أكرم الحوراني، رحمه الله، وقد التقيت به بعد مضي أكثر من عشر سنوات على "الأحداث" في باريس، حينما سألته عما سيكون سلوكُه تجاه ما حدث في حماه عندما يعود إلى الوطن، فأجابني: "سننساها..."

وأتفكر اليوم أن كلاًّ من حافظ الأسد وأكرم الحوراني إنما كان يتكلم من منطق رجل الدولة الذي، انطلاقًا من مصلحة بلده أو سلطته وفهمه لها، رأى أنه يجب "نسيان" ما جرى من فظائع في تلك الأيام – وهو

---

[37] راجع ما أوردتُه حول هذه القصة في الفصل العاشر من مذكراتي بعنوان "ذكريات جزراوية."

[38] من عناصر الحرس الجمهوري، على الأغلب، باللباس المدني.

موقف صحيح جدًّا من منظوري اليوم. أما حينذاك، فقد كان تأثير تلك الأحداث مرعبًا، بحيث إنه أنهى أعمال الإرهاب دفعة واحدة، ولم يتجرأ أحد حتى على ذكرها...

لأن ما جرى كان في الحقيقة انتصار إرهاب على إرهاب، وبقسوة منطق حرب أهلية أو حتى طائفية... لأن ما جرى كان في الحقيقة انتصار إرهاب دولة، يحكمها نظامٌ قمعي شرس، على إرهاب جماعات أصولية منفلتة من عقالها وأشرس قطعًا. والنتيجة كانت هذه الألوف من الضحايا الأبرياء الذين لم تكن لمعظمهم علاقة بما جرى.

لذلك، كما أصبحت أتفكر اليوم، فإنه قد يكون من الأفضل للجميع طيُّ هذه الصفحة؛ أو، إن عدنا إلى التفكر فيها مع الزمن، فالتفكر يجب أن يكون من منطلق إنساني ومدني مسؤول، يضع اليد على الجراح، ويحدِّد تحديدًا واضحًا ما أوصلنا وأوصل بلادَنا إلى هذه الحالة من التأزُّم والتعصب والخيبة والهزائم. وهذا، من منظوري، كان منطق إيديولوجياتنا الخائبة من قومية وشيوعية، من جهة؛ ومن جهة أخرى أيضًا، منطق فهم مدني وديني إسلامي (وحتى مسيحي) متخلِّف، لم يستوعب – ومازال إلى الآن غير مستوعب – معنى الحداثة ومتطلباتها، التي هي حصرًا المجتمع المدني والديموقراطية وفهم متطور وعصري للدين والضرورة الملحَّة لفصله عن الدولة.

3

في تلك الأيام، كما سبق أن أشرت، لم تكن لي علاقة تنظيمية مباشرة بالحزب الشيوعي. زوجتي فقط كانت منتظمة في إحدى فرقه وعضوًا في الفرعية التي تقود منظمة الحزب في مشروع دمَّر ومنطقة الرز. لكني – وهذا أطرف ما في الأمر – ألاحظ، حين أعود فأتفكر في تلك الحقبة، أنني، على الرغم من انقطاع علاقتي التنظيمية بالحزب، إلاَّ أن صلتي الفعلية به أصبحت أكثر وثوقًا مع أوساطه القيادية، وخاصة مع جماعة الأمين العام وعائلته، كعمار (ابن خالد بكداش) وقدري جميل (الذي كان حينذاك متزوجًا من سلام، شقيقة عمار)، اللذين عادا من موسكو؛ هذا بالإضافة إلى أبو محمد (عمر السباعي، وزير المواصلات وعضو المكتب السياسي) وأبو سعيد (عبد الوهاب رشواني، عضو اللجنة المركزية) وخلوف قطان (عضو اللجنة المركزية وسكرتير "الجناح المبدئي" لمنطقية حلب)، وغيرهم، أخص منهم أيضًا، من جماعة يوسف فيصل، أبو راشد (مراد قوتلي، قبل أن يحلَّ محلَّ أبو محمد في وزارة المواصلات)، الذي كنت ألتقي به بين الحين والحين في مكتبه المشترك مع هاشم، أبو راشد الحبيب، – رحمتْه الآلهة – الذي قدَّم لي ذات يوم كتابًا قيِّمًا يتضمن بعض مقالات وخطب إنريكو برلِنغوير، الأمين العام للحزب الشيوعي الإيطالي، ذلك الحزب الذي كان يتعرض آنذاك لحملة مركَّزة من قبل موسكو وأتباعها بسبب مواقفه الاستقلالية وطروحاته المتقدمة. (والحزب الشيوعي السوري – وأقصد جناح بكداش–فيصل يومذاك، كان يساهم، بكلِّ جدارة، في تلك الحملة الشيوعية العالمية على

الحزب الإيطالي "الشقيق" ومواقفه، التي وصفتْها قراراتُ لجنته المركزية وصحيفة نضال الشعب بأنها "مساعدة مباشرة للإمپريالية"!

ويسألني أبو راشد عندما التقيت به ذات مرة في مكتبه:

- ما رأيك، يا أكرم، بما يطرحه بيرلِنغوير حول "المساومة التاريخية"؟
- إنه طرح ذكي وعميق، يا أبو راشد، ويستحق التفكر فيه.

فيضحك، ويقول لي بصوت خفيض، وكأنه لا يريد أن يسمعه أحد:

- أشاطرك رأيك هذا...

وأيضًا، أتذكر أنه، في تلك الأيام، كانت الأخبار الواردة من الاتحاد السوفييتي "العظيم" تتحدث عن وفاة ميخائيل سوسلوف، "المنظِّر الأكبر للحزب الشيوعي السوفييتي"؛ وعن وفاة أندريه كِرِيلِنكو، "نائب بريجنييف ورفيقه في السلاح"، الذي لوحظ منذ فترة غيابُه عن أضواء الكرملين بعدما هرب ابنُه إلى الغرب؛ وعن "انتحار" سيمون تزفيغون الغريب، صهر بريجنييف ونائب أندروپوف رئيس الـ"ك.ج.ب."[39]؛ وخاصةً عن تزايد تسليط الأضواء في الكرملين على شخص يوري أندروپوف، الذي أصبح سكرتيرًا للَّجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي، أندروپوف الذي كان الرفاق المسؤولون من جماعة أبو عمار يصوِّرونه لنا، في أحاديث جانبية توحي بمعرفتهم العميقة ببواطن الأمور، بأنه... "رائع"!

في تلك الأيام، على ما أذكر، انسحب إسرائيل فعلاً من سيناء، التي عادت بكاملها إلى مصر. لكن هذا الانسحاب كان "وهميًّا" في نظر حزبنا الشيوعي السوري، لأن سيناء "... تحولت إلى قاعدة ثابتة لقوات الولايات المتحدة، عدوة العرب الأولى..." – وهو تقييم أثبتت الأحداثُ أنه غير صحيح على الإطلاق!

وتتسارع الأحداث في منطقتنا...

ففي 3 حزيران 1982، أطلق "مسلحون فلسطينيون"[40] النار على شلومو آرغوف، سفير إسرائيل في لندن، فأصابوه بجراح خطيرة؛ الأمر الذي استخدمتْه الحكومة الإسرائيلية برئاسة ميناحيم بيغن، التي كان وزير دفاعها آنذاك آريئيل شارون، ذريعةً لاجتياح لبنان.

ففي يوم الأحد 6 حزيران 1982، اجتاحت القوات الإسرائيلية الحدود اللبنانية. وخلال أقل من 48 ساعة، استولت هذه القوات على معظم الجنوب اللبناني، بعدما دحرتْ قوات منظمة التحرير، ثم راحت تتقدم في اتجاه بيروت والشمال على ثلاثة مَحاور (الساحل والبقاع والجبال الوسطى)[41] ، حيث سرعان ما اصطدمت بطلائع الجيش السوري في البقاع، الذي، كما قالت الأنباء، تكبَّد خسائر فادحة، كانت

[39] المخابرات السوفييتية.

[40] أثبتت التحقيقات فيما بعد أنهم كانوا عملاء للمخابرات العراقية.

[41] راجع كتاب پاتريك سيل *الأسد أو الصراع على الشرق الأوسط*.

أهمها كتيبة من الدبابات دُمِّرَتْ برمَّتها... حتى كان وقف إطلاق نار بين إسرائيل، الذي قطعتْ قواتُه طريق دمشق–بيروت عند ضهر البيدر، وبين سورية، برعاية المندوب الأمريكي، السيد فيليپ حبيب.

وفي 13 حزيران 1982، كانت القوات الإسرائيلية تحاصر العاصمة اللبنانية بيروت، أرضًا وبحرًا، من الجنوب والشرق والغرب، وفي داخلها، كما قيل، 14000 جندي سوري ومقاتل فلسطيني. وقد انتهى هذا الحصار المدمِّر، الذي كانت بيروت خلاله تُقصَف أمام أنظار العالم، في 21 آب 1982، بناءً على اتفاق رعاه (أيضًا) المندوب الأمريكي فيليپ حبيب وفرنسا – الأمر الذي أدى إلى انسحاب قوات منظمة التحرير من بيروت عن طريق البحر، في حماية فرنسية، متَّجهين إلى تونس التي وافقت على استقبالهم. كما انسحبت القوات السورية إلى بلدها عن طريق ضهر البيدر والبقاع بعد أن أفسحتْ لها القوات الإسرائيلية المجالَ لذلك.

وأسترجع كم كان المشهد حزينًا، لا بل يُرثى له، خاصةً وأن الجميع – وأقصد هنا جميع منسحبينا المهزومين، من فلسطينيين وسوريين – كانوا يبتسمون لوسائل الإعلام ويرسمون بأصابعهم شارة النصر – ويا له من "نصر" هذا الذي أدى إلى اجتياح القوات الإسرائيلية لأول وأجمل عاصمة عربية على الإطلاق!

وأستعيد في حزن، من موقعي في تلك الأيام التعسة، كيف كانت بيروت المحاصرة تُقصَف، وتلفزيوننا "المناضل" ينقل بكلِّ حماس، وكأن الأمر لا يعنينا، أنباءَ مباريات كأس العالم في كرة القدم!

وأتذكر كيف اتصلت بي زوجتي في أحد تلك الأيام من منزلنا في دمَّر إلى حيث مقرِّ عملي في "شركة الدراسات"، لتخبرني أن صاروخًا إسرائيليًّا وقع على المشروع وأن بعض الأضرار لحقت بمنزلنا الذي تكسَّر زجاجُ نوافذه، كما انخلع بابُه، لكن – وللألوهة الحمد – من غير أن يصاب أحد بأذى، لا منى ولا الأولاد. فأسارع إلى العودة، لأخبَر بأن ما وقع لم يكن صاروخًا، بل خزان وقود فارغ تخلَّصت منه على ما يبدو طائرةٌ إسرائيلية مرَّتْ من فوقنا، فوقع قرب منزلنا في المشروع، مما أحدث بعض الأضرار.

وتوالت الأحداث في سرعة مذهلة...

ففي 23 آب 1982، في بيروت المحتلة، كان انتخاب البرلمان اللبناني للسيد بشير الجميل، قائد "القوات اللبنانية"، رئيسًا للجمهورية... وفي 14 أيلول 1982، كان اغتيال بشير الجميل بتفجير البناء الذي كان موجودًا فيه؛ وقد تبين فيما بعد أن منفِّذ عملية اغتياله كان من الحزب السوري القومي الاجتماعي...

ثم كانت مجزرة صبرا وشاتيلا، التي قادها ونفَّذها جهاز أمن "القوات اللبنانية" برئاسة إيلي حبيقة، بالتواطؤ مع القوات الإسرائيلية المحتلة، التي غضَّت الطرف، على ما يبدو، وسمحت لعناصره باجتياح المخيم...

وأتذكر كيف عمَّت مظاهرُ الاستنكار والاحتجاج على هذه المجزرة حينذاك أنحاء العالم قاطبة. لكن ما كان في نظري من أكثر الأمور إيلامًا هو أن أوهى مظاهر الاحتجاج كانت عندنا في البلد، حيث لا يحدث شيء عفوي ولا يتحرك أحد إلاَّ بإذن من السلطة، بينما كانت أكثر مظاهر الاحتجاج تعبيرًا وقوة في إسرائيل، عدوِّنا المفترَض، حيث النظام السياسي – شئنا أم أبينا – ديموقراطي.

لكن ممَّا لم يكن الأهم في نظري، وبقي عالقًا في ذهني عن تلك الفترة، إنما كان تلك القصة الطريفة التي رواها لي فيما بعد صديقي زهير و.، زوج زينب، التي تقول: "... كان المجلس الإسلامي الأعلى مجتمعًا في بيروت في تلك الليلة برئاسة رئيس وزراء لبنان الأسبق صائب سلام، حين اندفع إلى قاعة الاجتماع شخصٌ مضطرب وسأل الحضور:

- "هل سمعتم بما حصل، يا إخوان؟!" فسألوه:
- "وما الذي حصل؟" فأجابهم:
- "القوات اللبنانية ارتكبت مجزرة في صبرا وشاتيلا!" فسألوه:
- "وكيف عرفت أنهم القوات اللبنانية؟" فقال:
- "لقد كنت قرب المكان، وقرأت شاراتهم على أكتافهم." فأجابه أحدهم:
- ومنذ متى تعلَّمت القراءة؟!"

... ما يدل على مدى حكمة أولئك الذين كانوا، على الرغم من كلِّ ما يحدث، يحاولون "ضبضبة" الأمور حفاظًا على تعايُش أبناء البلد الواحد.

أما في 10 كانون الأول 1982، فكانت أنباء بلاد "الصديق الصدوق" تحمل إلى العالم أجمع خبر وفاة الرفيق ليونيد بريجنييف، الأمين العام للحزب الشيوعي السوفييتي، وتنصيب الرفيق يوري فلاديمروفيتش أندروپوف، الرئيس الأسبق للBGK، مكانه على رأس الهرم القيادي السوفييتي. فأستعيد ما كان يُنقَل لنا حوله في ذلك الحين: كيف كان أندروپوف قد باشر، – ساعيًا، على ما يبدو، إلى السلطة منذ أواخر أيام بريجنييف، – "حملةً ضد الفساد"[42] شملت حينذاك العديدَ من مؤيدي هذا الأخير الذين تم استبدال عناصر أمنية بارزة بهم؛ ثم كيف صُعِّدَتْ تلك الحملة فور تولِّي أندروپوف قيادةَ الحزب، فكان أول ما فعله إزاحة وزير الداخلية وصديق بريجنييف الشخصي، الجنرال نيقولاي شولوخوف، الذي، كما أذكر، بحسب ما كان يتناقله الرفاق في حماس، أوقِفَ... وحوكِمَ... وجُرِّدَ من رتبته... وطُرِدَ من الحزب... كما أُرسِلَ ابنُه بتهمة التشرد إلى معسكر اعتقال في سيبيريا... "لأنه هكذا يكون الحزم الثوري، أيها الرفاق، لأنه هكذا كانت الأمور أيام لينين..."! وأيضًا – والأهم من هذا كلِّه – "... هم هناك يقدِّرون جدًّا الرفيق أبو عمار [خالد بكداش]، الذي قُلِّدَ وسامَ غيورغي ديميتروف البلغاري بمناسبة بلوغه سنَّ السبعين..."!

[42] أليس غريبًا أنه مع كلِّ صراع على السلطة في بلدان من هذه الشاكلة هناك دائمًا "حملة ضد الفساد" تطاوِل "الآخرين!"

4

لكن... بعيدًا عن هذه الأحداث "العظام" كلِّها، كانت حياة الناس مستمرة، وكنَّا نحن من هؤلاء.

فعملي لدى "الشركة العامة للدراسات" كان يتطور. ففي الأشهر الأولى من العام 1983، بدعم كامل من الدكتور فؤاد بشور، باشرت مشروعي الأهم: الإشراف على "مشفى جامعة دمشق التعليمي"...

وأتذكر كيف وضع الدكتور فؤاد تحت تصرفي سيارةً وسائقًا لمتابعة أمور العمل، كانت بادئ الأمر سيارة مرسيدس مفرَزة إلى الشركة من رئاسة مجلس الوزراء، سرعان ما أعدتُها لأننا، لا أنا ولا منى، تحملنا نظرة الناس إلينا من خلالها، واستبدلتُ بها أخرى قديمة قليلاً، لكن ممتازة، من نوع بيجو 504، بقيت معي حتى نهاية المشروع. وقد ساعدني وجود السيارة معي كثيرًا في تأمين بعض شؤوني الخاصة، كإعادة الأولاد من المدرسة (دار السلام أو الفرانسيسكان سابقًا) وإحضار منى من مدرستها التي كانت عند فوج الإطفاء. وأسترجع، للمناسبة، كيف استعدتُ مهارتي في قيادة السيارة التي انقطعت عن قيادتها منذ أيام الجامعة...

وأسترجع كذلك من تلك الأيام بعض الأمور الطريفة: كيف بكت ابنتي نورا (وكان عمرها حينذاك أربع سنوات ونيفًا)، وقد تملَّكها الخوف حين رأت صورتَها على شاشة التلفزيون الذي كان ينقل احتفالات المدارس بأعياد رأس السنة، فسارعنا ضاحكين إلى احتضانها والتهدئة من روعها. و...

كيف لم تكن هناك شبكة مياه شرب في مشروع دمَّر يومذاك، فكنَّا نجلب ما يلزمنا من ماء الشرب من البلد بالبيدونات، وكيف كان الجميع من سكان المشروع يعرف الجميع القلائل آنذاك، بِمَنْ فيهم سائق باص النقل العام الأنيق الذي كنَّا نلقبه بـ"البارون"!

وأتذكر، خاصةً، كيف بدأتُ عملي الجديد بعد أن عيَّنني الدكتور فؤاد مهندسًا مقيمًا مسؤولاً عن طاقم الإشراف على مشروع "المشفى التعليمي"، وكيف باشرنا باستلام عقده مع المتعهد الذي كان يومئذٍ شركة بايكوك باو الألمانية، وكيف تعرَّفنا إلى طاقم المتعهد الألماني الذي كان يومئذٍ مؤلفًا من مدير ومحاسب وسكرتيرة، يقيمون في شقة مستأجَرة في المزة، ثم كيف بدأنا ندرس العقد والوثائق ونتلمَّس الثغرات – وما أكثرها! فقيمة العقد كانت كبيرة (حوالي 97 مليون دولار). أما المواصفات فكانت أقل من عادية؛ لكن الشيء الإيجابي الوحيد فيها، الذي لمسناه منذ البداية، كان أن "المشفى ووظائفه يجب أن يطابق الكود الألماني" – وهذا الكود، كما نعلم، دقيق جدًّا وجيد جدًّا. ثم بدأنا نلمس مشاكل العمل التي...

كانت أولاها من الإدارة الفنية في الجامعة، التي حاولت يومئذٍ جاهدةً إبعادَنا للاحتفاظ لنفسها بالإشراف على المشروع؛ وهو واقع سرعان ما تجاوزناه بفضل الدكتور فؤاد وما كان يلقاه من دعم بهذا الخصوص من رئيس مجلس الوزراء، الدكتور المهندس عبد الرؤوف الكسم.

وكانت ثانيتها ثغرات واقع العقد والمتعهد نفسه: حيث لمسنا، منذ البداية، أن هذا المتعهد، الذي قبض سلفًا سلفة المشروع برمَّتها، كان يتلكأ في البدء بالتنفيذ؛ مما أعطانا الانطباع بأن الشركة الألمانية تعاني من بعض المشاكل وأنهم، إذ قبضوا السلفة ودفعوا ما عليهم من عمولات لِمَنْ سهَّلوا لهم العمل، إنما يحاولون التهرب من التنفيذ، لا بل ينتظرون حجَّة لذلك.

وأتذكر، للمناسبة، كيف باشروا يومئذٍ بحفريات المبنى الرئيسي الذي لم تكن مخطَّطاته التنفيذية جاهزة بعد، وكيف، في بطء شديد، باشروا تجهيز الأبنية مسبقة الصنع لهم ولطاقم الإشراف، ثم كيف تقدَّموا لنا، مباشرة عند البدء بتهيئة الموقع وبالحفرية، بأول كشف لهم. وهنا – ويا للمصادفة العجيبة! – برز رأيان فيما يتعلق بتسديد قيمة هذا الكشف: الرأي الأول كان رأي الإدارة الفنية في الجامعة، التي ما تزال تحاول التدخُّل، القائل بعدم دفع قيمة الكشف لأن المتعهد لم يباشر بعدُ في شكل جدي؛ والرأي الثاني كان رأينا، أي رأي "الإشراف"، الذي توصلنا إليه بعد استشارة اثنين من أفضل محامي البلد، أستاذَي الجامعة الدكتورين كمال غالي وفؤاد دهمان، اللذين رافقانا من بعدُ طوال مدة المشروع، ويقضي بأن نسدد قيمة الكشف حتى لا نعطي المتعهد أية ذريعة للتهرب من التزاماته العقدية. وكان هذا ما حصل.

وأتذكر، بهذا الخصوص، ذلك الوفد الألماني الكبير الذي حضر للمناسبة يومئذٍ لمناقشتنا في مشاكل العمل وبدايات التنفيذ، وكيف كانوا يطرحون أسئلة عامة جدًّا لا تترك انطباعًا بأنهم جادون فعلاً بالمباشرة، إلى درجة أني، في آخر هذه الاجتماعات – وكنت يومئذٍ مجتمعًا إليهم وحدي – لم أتمالك نفسي، فسألتهم سؤالاً مباشرًا جدًّا:

- هل تريدون فعلاً تنفيذ المشروع؟

والطريف يومئذٍ أن الجواب على هذا السؤال، الذي بدا وكأنه فاجأهم، كان صمتًا مطبقًا... مما دفعني إلى الاستمرار في الحديث، قائلاً وأنا أضحك:

- لا أريد أن أعتبر صمتكم هذا جوابًا، وإنْ كنت سأخبر به الدكتور بشور. على كلِّ حال، أخبركم أننا، فيما يتعلق بنا كجانب سوري، جادون جدًّا في تنفيذ هذا المشروع. وقد صادقت الجامعةُ على كشفكم الأول الذي ستقبضونه خلال أيام. ونصيحتي القلبية لكم هي أن تسرِّعوا العمل وأن تباشروا.

والطريف أنه بعد أسبوعين من هذه الاجتماعات أُخبِرنا بأن شركة بايكوك باو، المتعهد الرئيسي لمشروع مشفى الجامعة، قرَّرت مشاركة تعهُّدها ذاك مع شركة فيليپ هولتسمان، الألمانية هي الأخرى؛ الأمر الذي نصحنا للجامعة بالموافقة عليه فورًا، نظرًا لما نعرفه من حسن سمعة هذه الشركة وجدِّيتها.

وأيضًا، أتذكر كيف بدأنا بتشكيل طاقم الإشراف: حيث أحضر الدكتور فؤاد له عددًا من خيرة مهندسي البلد، الذين أخص منهم خبير المعدات الطبية المهندس بشار العظمة، الذي كان رافق الدكتور فؤاد سابقًا في الإشراف على المشفى العسكري في القابون (الذي تعهَّدتْه شركة فوجرول الفرنسية)، ومهندسًا

من أسرة الحكيم للميكانيك، ومَن أصبح من بعدُ أحد خيرة أصدقائي، المهندس زياد الجابري. كما فَرَزَ الدكتور فؤاد للعمل معي في المشروع عددًا من خيرة مهندسي الشركة من مختلف الاختصاصات.

ثم كانت اتصالات مع شركة استشارية سويدية مختصة في المشافي، لم أعد أذكر اسمها اليوم، كانت ساعدت الدكتور بشور في الإشراف على المشفى العسكري حين كان ما زال في الجيش، وكان الاتفاق معهم على إرسال الدراسات الأولية إليهم كي يقدموا لنا رأيهم حولها، ثم أن نوافيهم هناك – وفدًا مسؤولاً من الشركة – لمناقشتهم في هذا الرأي. وكان هذا ما حصل: ذهبنا، بشار وأنا، إلى ستوكهولم، حيث قضينا أسبوعًا اطَّلعنا خلاله على ملاحظات الشركة على مشروعنا وناقشناهم فيها. وقد أفادتنا هذه الملاحظات جدًّا فيما بعد خلال الإشراف على مشروعنا.

زيارة إلى السويد طريفة وغنية، مازلت أتذكرها إلى الآن، وخاصة جمال هذا البلد ونظامه ورقيَّه، ما يجعله واحدًا من أرقى بلدان العالم إطلاقًا. وأيضًا...

أتذكر من تلك الأيام أمورًا كثيرة، وإن كانت تبدو لي اليوم متداخلة وغير واضحة تمامًا...

كيف توقفت الطائرة التي كانت تقلُّني عائدًا إلى الوطن مع بشار – وكانت، على ما أذكر، تابعة للخطوط الجوية الفرنسية – في مطار بيروت، حيث حذَّرونا من التصوير لأن المطار كان حينذاك تحت سيطرة القوات الأمريكية التي جاءت مع القوات الفرنسية إلى بيروت لتحلَّ محلَّ القوات الإسرائيلية التي انسحبت منها ومن باقي المدن اللبنانية، محتفظةً هناك، مع قوات سعد حداد، بما أضحى يعرف بـ"الشريط الحدودي"...

وكيف أحاط بي حين عدت عددٌ من مهندسي الشركة يسألونني عن انطباعاتي عن السويد وهل هو فعلاً بلد "إباحي"، فأجبتهم بأن انطباعي كان لا على الإطلاق، وأن شعبه خجول جدًّا ولطيف جدًّا، وأن بلدنا فاسق أكثر من بلدهم بما لا يقاس! حدَّثتهم كيف أن ملكهم يتنقَّل داخل المدينة على دراجته، ثم، لست أدري لماذا، أخبرتهم عن موضوع اللاجئين الآشوريين في ذلك البلد، الذي كان يومذاك قد لفت انتباهنا، فأجابنا الشخص الذي سألته حول الموضوع بأن "... اللجوء الإنساني سهل جدًّا عندنا: يكفي أن تمزِّق جواز سفرك في المطار وتلقي به في المرحاض، ثم تتقدم إلى السلطات المسؤولة على أساس أنك لاجئ إنساني لا تحمل جوازًا، فتجدهم، وفقًا لقوانين البلد، مضطرين إلى قبولك..." ولاحظت عندئذٍ أن عينَي أحد المهندسين العراقيين من الشركة، الذي كان يستمع إلينا، قد لمعتا – ما جعلني أتفكر: "يا إلهي! ها أنا ذا قد بلوت السويد بلاجئ إنساني جديد!" وكان هذا ما حصل فعلاً بعد بضعة أشهر!

وأسترجع، محاولاً تذكُّر بعض أحداث هذا العام الذي كان حافلاً بالأحداث فعلاً...

فأتذكر أنه في شباط 1983 كان انسحاب القوات الإسرائيلية من الشوف، حيث حلَّتْ محلَّها ميليشيات جنبلاط الدرزية التي كانت تدعمها سوريا والتي سرعان ما اصطدمت هناك مع ميليشيات "القوات اللبنانية"... وكيف حلَّتْ القوات الأمريكية والفرنسية في العاصمة اللبنانية مكان القوات الإسرائيلية

المنسحبة... وأنه في 13 نيسان 1983، كان تفجير سيارة مفخَّخة أمام مبنى السفارة الأمريكية في بيروت يسفر عن دمار هائل وعن العديد من القتلى والجرحى... وأنه في 17 أيار 1983، كان توقيع اتفاقية السلام اللبنانية–الإسرائيلية برعاية أمريكية – هذه الاتفاقية التي لم يقرَّها فيما بعد، وقد تغيَّرتْ الأوضاع على الأرض، مجلسُ الوزراء اللبناني في 5 شباط 1984.

وأيضًا من تلك المرحلة، مازالت عالقةً بذهني تلك القصة الطريفة التي رواها لي صديقي زهير و.، من صيدا، عن حوارية دارت بينه وبين أمِّه حول القوات الإسرائيلية التي كانت تحتل المدينة:

- خبريني، يا ماما، ما رأيك بالجيش الإسرائيلي الذي كانت إحدى دباباته واقفة تحت بلكون منزلنا خلال تلك الفترة.
- ما بخوِّفوا، يا ابني، هَوْلي متلنا...
- ولك كيف متلنا، يا ماما؟! كانوا محتلين بلدنا!
- هَوْلي مثلنا، يا ابني، بياكلوا بزورات متلنا...

وأيضًا، من بلاد "الصديق الصدوق"، كانت الأنباء في تلك الأيام تتحدث عن اختفاء أندروپوف المفاجئ عن أضواء الإعلام السوفييتي...

وعن انشقاق الموالين لسورية من قوات منظمة التحرير في البقاع، واصطدامهم مع قوات ياسر عرفات هناك، عرفات الذي حاصر الجيش السوري قواتِه في حزيران 1983 في طرابلس.

أما عندنا في البلد، فكانت الأوضاع الاقتصادية في تلك الأيام في منتهى الصعوبة، مما انعكس فقدانًا للعديد من السلع الأساسية من الأسواق، كالكلينكس والزيت والسمن، وانقطاعاتٍ شبه يومية للتيار الكهربائي في مختلف أحياء المدينة...

هذه المدينة التي كانت الشائعات تملؤها أواخر العام 1983، متحدثةً عن مرض الرئيس حافظ الأسد الذي غاب عن الأضواء في تلك الأيام، تاركًا الساحة، على ما كان يبدو، لصراع شبه علني بين مختلف أجنحة سلطته، وعلى رأسهم يومذاك رفعت الأسد و"سرايا الدفاع"، الذين بات حضورهم الثقيل ملحوظًا أكثر مما ينبغي!

أما فيما يتعلق بي، فقد تركت في تلك الأيام منزل صديقي الحبيب عاصم، لأني استلمت منزلي في مشروع دمَّر، الذي كانت "إكمالاته" قد انتهت.

الفصل الخامس عشر

موت المعلِّم

(1983-1987)

موت المعلِّم

"... جميع الأشياء رموز في النهاية..."

أوزفالد فيرث

"... أن تنتحب، أن تبكي، أن تصلِّي، هذا فعل جبان
تابع السير على درب الواجب الطويل والثقيل
ذلك الدرب الذي ناداك إليه القدر
ثم افعل مثلي: كابِدِ الألم، ومُتْ وأنت صامت..."

ألفريد دُهْ فينيي، من قصيدة "موت الذئب"

طائر الليل: لأن "كل ما في حياتنا هو محصِّلة لما سَبَقَه..." – أليس هذا ما قلتَه لي ذات يوم، يا معلِّمي؟

1

- كنتَ ملكًا في تلك الأيام، يا أكرم، وكانت عندك في المكتب ثلاث سكرتيرات.
- لا، كانت تساعدني سكرتيرة واحدة فقط، وكان اسمها أُنْس ي. أما الاثنتان الأخريان اللتان تقصدهما، فكانتا ضاربة الآلة الكاتبة سعاد م. ومترجمة اللغة الإنكليزية ريعان م.
- كانت ريعان سمراء وجميلة جدًّا، وكان جميع زوار مكتبك معجبين بها، كما كانت ترمقك دائمًا بنظرات الإعجاب.
- كانت ريعان جميلة فعلاً! وقد تزوجت الآن، وصار عندها أربعة أولاد. وكذلك سعاد تزوجت، وأصبح عندها الكثير من الأولاد. أما أنس، فكل ما أعرف عنها اليوم أنها هاجرت إلى كندا.
- وكنت تجتمع كلَّ يوم صباحًا، قبيل مباشرة العمل، مع أصدقائك المهندسين الذين اعتادوا المرور إلى مكتبك، فتشربون القهوة، تتحدثون في السياسة، وتدسُّون على الحكومة!
- فعلاً... وكنَّا لا نرحم أحدًا، وخاصة إنْ كان من أهل السلطة. لكن، كي يبقى فهم بعض ما نقوله محصورًا بيننا، اخترعنا، على سبيل المثال، اسمًا جديدًا وطريفًا لرأس الهرم الذي كنا نلقِّبه بـ"تيسير"، كما اخترعنا أسماء أخرى لجميع المسؤولين الآخرين.
- وهل تتذكر ذلك اليوم، حين قدمتَ صباحًا إلى مكتبك، فوجدتَ معلقةً على الجدار خلف المكتب صورةً ضخمة لـ"تيسير" كان وَضَعَها قبل أن تأتي المراقبُ أبو دياب؟

- وأتذكر أيضًا كيف أني لم أدع الأمور تبرد، حيث انطلقتُ مباشرة برفقة أبو دياب إلى خارج المكتب لأطلب منه أن ينزع هذه الصورة مباشرة من فوق مكتبي ويضعها في قاعة الاجتماعات، وإلا أريته نجوم الظهيرة!
- لكن، ألم تخفْ أن يعرِّضك هذا الفعل للاعتقال والمساءلة؟!
- بلى، خفت قليلاً... ولكن لم يحدث شيء، لأني تصرفت بسرعة، أولاً، ولأنه – وهذا ما تأكدت منه بعدئذٍ – لم يكن أحدٌ في المكتب واشيًا، ثانيًا.

وأتفكر بأني أتذكر في صعوبة حاليًّا ما كان يجري معي، ومن حولي، في تلك الأيام التي، حين أتفكر بها، أشعر بأنها كانت كالحلم: حلم كان بعضه، ومازال في نظري، جميلاً جدًّا، بينما كان بعضه الآخر مضطربًا، كئيبًا، وحزينًا.

وأنا لا أتحدث هنا عن السياسة عمومًا، وإن لم تكن هذه الأخيرة غائبة قطعًا، بل أتحدث عن سياق حياة ضمن ظروف كانت الأغنى التي خبرتُها من جميع النواحي، الشخصي منها والمهني، الفكري منها والروحي، وحتى السياسي. وأتذكر...

2

أنه، في ذلك الحين، كان صراعٌ على السلطة في البلد، إن لم نقل كان اضطرابٌ في قمة الهرم: فقد كان الرئيس حافظ الأسد غائبًا عن الواجهة منذ فترة، وسط شائعات كانت جميعًا تؤكد أنه مريض جدًّا. وكانت المظاهر كلها تشير إلى أن شقيقه رفعت، الشخص الثاني في قمة الهرم، كان يدعِّم مواقعَه الميدانية من خلال "سرايا الدفاع"، في محاولة واضحة للاستيلاء على السلطة في حال وفاة الرئيس. ثم كان أن عاد حافظ الأسد إلى الواجهة من جديد، وبدأ يظهر وكأن الأمور بدأت تتغير لغير صالح رفعت الذي بدأت سلطاتُه تتقلص. ففي آذار 1984، كان تعيين الثلاثي رفعت الأسد وعبد الحليم خدام وزهير مشارقة نوابًا لرئيس الجمهورية. ثم، كنتيجة لهذا التقليص في سلطات رفعت الأسد، الذي لم يعد نظريًّا مسؤولاً عن "سرايا الدفاع"، بدأنا نشاهد في دمشق تحركاتٍ عسكرية، بعضها له علاقة بـ"السرايا" وبعضها الآخر لا علاقة له بها – مناظر مؤذية لأعين المواطن العادي المسالم: عسكر يهلِّل ويهتف بلا مناسبة في شوارع البلد وهو يلوِّح بأسلحته ويرفع صور الرئيس على آلياته، من جهة، وعسكر آخر يهلِّل ويهتف أيضًا، للمناسبة نفسها، ويرفع صور الرئيس مقرونةً بصور شقيقه رفعت أو غالبًا صور رفعت وحده، من جهة أخرى. وكانت هذه التحركات مركزةً في شكل خاص حول مباني الأركان العامة والإذاعة و/أو في منطقة المعرض القريبة منها، حيث انتشرت "القوات الخاصة" التي كانت بقيادة علي حيدر.

وأسأل زميلي (البعثي) في العمل المهندس محمد يونس (رحمته الآلهة) عما كان يجري، فيجيبني، بعد تردُّد، بأن كلَّ شيء تحت السيطرة، وبأن الرئيس بخير (نشكر الله).

ثم سمعنا، في أيار 1984، على ما أذكر، كجميع الآخرين من مواطني هذا البلد الذين لا حول لهم ولا قوة، ما أذيع وتناقلتْه وكالاتُ الأنباء أن رفعت الأسد وجميع معارضيه غادروا البلاد في "مهمة مفتوحة" إلى الاتحاد السوفيتي "الصديق". ومع هذا "الوفد" الضخم، كما علمنا، كان هناك للـ"ديكور"، على الطريقة السورية طبعًا، صديقنا وزير المواصلات آنذاك المهندس عمر السباعي (أبو محمد رحمته الآلهة أيضًا). ثم سمعنا بعد ذلك أن "الوفد" عاد كله من المهمة التي أوكلت إليه – ماعدا... رفعت الأسد وعدد من أنصاره الذين بقوا خارج البلاد ليتابعوا أمورًا أخرى...

في سهرة كانت تضمنا وإياه، سأل هاشم أبو محمد ممازحًا:

- حدِّثْنا عما جرى معك، يا عمر، وكيف كانت رحلتك الأخيرة إلى روسيا مع الشباب؟

فضحك أبو محمد في خجل، وأجاب بلكنته الحلبية الثقيلة:

- كنت مع شلَّة مجانين، خاي، شلة مجانين حقًّا...
- وكيف هذا، يا أبو محمد؟
- تصوروا، يا شباب، تصور خيِّي هاشم، تصور خيِّي أكرم، أن أولئك الذين كانت مدافعهم موجهةً إلى بعضهم بعضًا قبل أيام من مغادرتنا، أولئك الذين كادوا، لو انفجر الخلافُ بينهم، أن يدمروا البلد على رؤوس أهله من خلال صراعهم على الكرسي، أمضوا الرحلة في الطائرة وهم يلعبون الورق ويضحكون ويتبادلون النكات البذيئة فيما بينهم، وكأن شيئًا لم يكن! وكانت أيضًا أمور أخرى كثيرة...

فيسأله هاشم مستفزًّا:

- مثل ماذا، يا عمر؟
- تصوروا أنه في الليلة التي تلت وصولنا، في فندق اللجنة المركزية في موسكو حيث استضافونا، استدعاني رفعت ليطلب منِّي مرافقتَه إلى اجتماع هامٍ سيعقده في الليلة نفسها مع قيادة الـ ك.ج.ب.
- وهل ذهبت معه؟
- وهل كان في إمكاني ألا أذهب؟!
- وماذا حصل في ذلك الاجتماع؟
- لن أحدثكم عن هذا... لكنهم مجانين حقًّا، يا هاشم، مجانين حقًّا... الله يستر البلد!

وأتذكر تلك السهرات التي كنا نعقدها في تلك الأيام بين الحين والحين مع شلتنا من "المهندسين الشباب" (الذين بدؤوا يشيخون!) التي اتسعت قليلاً. وقد بات يحضر جلساتِها أيضًا كلٌّ من هاشم، الذي أصبح

حضورُه معنا شبه دائم، وأبو محمد، الذي بات يحضر أحيانًا، على الرغم من مشاغله في الوزارة وفي الحزب.

3

حينذاك، باع هاشم منزلَه الفخم عند حديقة السبكي، واشترى بدلاً منه، وإنْ في منطقة قريبة (حي المالكي)، منزلاً آخر أصغر في الطابق الرابع من بناء عالٍ بلا مصعد. وأسأله:

- أليس صعود درج كهذا كلَّ يوم مُضِرًّا بقلبك، يا أبا الخير؟

فيبتسم في حزن ويجيبني:

- أحرص على صعود الدرج على مهلي، مما يجعل الأمر تمرينًا لقلبي...

ويضيف:

- لقد كنت في حاجة إلى بعض المال كي أدعم موقفي في هذا التعهُّد الصغير الذي أخذته من "مؤسسة عين الفيجة" والذي أتسلى به الآن.
- وهل "تتسلى" به حقًّا، يا أبو الخير؟
- لا، يا أكرم. لقد أضحى العمل في هذا البلد عامةً، ومع الدولة والقطاع العام خاصةً، كارثةً بكلِّ ما في الكلمة من معنى. فالفساد مستشرٍ، والغالبية العظمى من الموظفين تريد أن ترتشي. وهذا ما يتعبني أكثر بكثير من صعود الدرج!

لأنه، خارج نطاق سهراتنا، غالبًا ما كان هاشم يمر ويتفقدني في ورشة المستشفى التعليمي، التي كانت بدأت تتقدم تقدمًا جيدًا، فأُطلِعه على ما كنا نواجه من مصاعب، كما أُطلِعه، أيضًا وخاصةً، على تقدُّم العمل، وكأننا مازلنا نعيش معًا تلك الأيام الجميلة حين كنا نعمل سوية. وكان دائمًا يوجهني بملاحظاته وإرشاداته التي كانت دائمًا صائبة.

فيشير، مثلاً، ونحن نتدرج معًا في الموقع، إلى أحد الأعمدة الذي تم صبُّه حديثًا، وكانت فيه بعض التخرشات، ويقول لي:

- ربما من الأفضل لو أمرتَ بتكسير هذا العامود وإعادة صبِّه من جديد... لأنه يجب ألا تتساهل مع أيِّ خطأ في التنفيذ... يجب ألا تتساهل... ليس فقط لأن ثمن المستشفى مرتفع، بمعنى أنهم قابضون حقَّهم وزيادة، بل، أيضًا وخاصة، لأن القضية قضية مبدأ، كما تعلم، ولأن كل منشأة هندسية هي في النهاية عمل فني. وهنا تكمن مسؤوليتنا الفنية والأخلاقية...
- تصور، يا أبو الخير – وهذه مشكلة نواجهها الآن في هذه المرحلة من التصميم والتنفيذ – أن واجهة هذا المبنى، الذي قيمة عقده 100 مليون دولار تقريبًا، هي مجرد رشة إسمنتية تيرولية حسب المواصفات العقدية!

- هذا لا يجوز ! لكن بماذا تفكرون أن تستبدلوا بها؟
- صديقنا المهندس زياد الجابري اقترح أن نطالب بواجهة من البحص المغسول washed aggregates، مما سيجعلها مميَّزة، لا بل فريدة من نوعها في البلد.
- اقتراح جيد جدًا... تابعوه بلا تردد. أما ما سيترتب عنه من زيادة في الكلفة، فبوسعكم أن تقايضوا عليه خلال المفاوضات التي ستجري مع الألمان في نهاية المشروع.
- أمرك، يا معلم!
- الآن، وهنا في هذا الموقع، إياك أن تنسى أنك أصبحت أنت "المعلم"، يا أكرم... لكن دعنا من هذا كلِّه، وأخبرني كيف حال والدك؟
- وضعه من سيء إلى أسوأ، يا أبو الخير. إنه السرطان في مرحلته الأخيرة، وآلامه مرعبة، كما أنه لا يرحم.
- أعرف هذا... لذلك دعك من أيِّ شيء آخر، دعك حتى من العمل أحيانًا، وابقَ إلى جانبه قدر المستطاع، وخاصةً في هذه اللحظات الأخيرة، لأنه في أمسِّ الحاجة إليك، وخبِّرني في حال احتجتم إلى أيِّ شيء و/أو حدث معكم أي طارئ.

4

وأتذكر أنه حينذاك كان بدأ العد العكسي في حياة أريستيدي هذه. فقد كان والدي يعيش أيام مرضه الأخيرة. وهذه كانت قاسية جدًّا، بالنسبة له كما بالنسبة لنا. فالأدوية لم تعد تجديه نفعًا، خاصة وأنها أصبحت في مجملها في النهاية مجرد مسكِّنات من مشتقات المورفين.

آخر ما في الأمر، وقبيل أن نأخذه للمرة الأخيرة إلى المستشفى، طلب طبيبُه صورًا شعاعية لمنطقة المثانة. حملته بسيارتي، حيث كان يكاد لا يستطيع السير وهو متكئ علي. أخذنا الصور المطلوبة وأعدته إلى المنزل.

- وفقك الله، يا أكرم، وفقك الله، يا ابني!

هذا ما قاله لي باكيًا، وأنا أعيده إلى فراشه. فأجبته، وأنا أحاول إخفاء دموعي:

- ولو يا بابا! هذا أقل ما يمكن أن أفعله من أجلك. المهم الآن هو أن تستعيد صحتك.

فأجابني، وهو يحاول الابتسام من خلال دموعه:

- أنا انتهيت، يا أكرم... فلا تحاول مراعاة مشاعري، يا غشاش! المهم الآن أنت وعائلتك وروزين وريما... المهم أنتم... فانتبهوا لأنفسكم.

هذه المرة، حين أخذناه في اليوم التالي إلى المستشفى الفرنسي بعد أن تفاقمت آلامُه إلى حدٍّ لا يطاق، لم يَطُلْ مكوثُنا هناك إلا سويعات قليلة، لأنه سرعان ما أخبرتنا رئيسة الممرضات، الأخت جوزيف، كما أكد لنا طبيبه من بعدُ، أن:

- رأينا هو أن تعيدوه إلى المنزل... فهو قد لا يكمل هذه الليلة.

أعدناه، أمي وأنا، إلى المنزل، وقلوبنا تقطر ألمًا. وأتذكر أني حاولت أن أمازحه ونحن في طريقنا عائدين، فقلت له:

- انظر إلى فتيات دمشق، ما أجملهن يا بابا! انظر وتأمل... ألا تحن إلى أيام شبابك؟

وأتذكر كيف أنه حاول أن يجاريني في المزاح، لكنه لم يستطع. أما وجه والدتي روزين فقد أصبح قاسيًا كالحجر.

في اليوم الذي تلا، وجدتُني متوجهًا إلى منزل الأهل منذ الصباح الباكر، حتى قبل الذهاب إلى عملي. فتحت لي روزين الباب قبل أن أضغط على الجرس، وكأنها كانت تنتظرني، وقالت لي:

- لقد توفي والدك قبل عشر دقائق، يا أكرم!

فضممتها إلي، وانضمت إلينا شقيقتي ريما، وجلسنا على الأريكة المواجهة لسريره نبكي معًا.

ثم كانت مراسمُ دفنه، التي تابعتها بنفسي، بسيطةً ومتواضعة، على الرغم من أن الحضور كان كبيرًا. كانت بسيطة ومتواضعة لأن هذه كانت إمكاناتنا، ولأنه كان هو نفسه بسيطًا، طيب القلب، متواضعًا. وأتفكر، وأنا ألقي النظرة الأخيرة على نعشه وهو يوارى الثرى، أنه هكذا انتهى آخر "الأخوة من أبناء لطف الله أنطاكي". فطويت معه هذه الصفحة قبل الأخيرة من قصة هذه العائلة الصغيرة التي هي عائلتي. كما...

5

طويت أيضًا اليوم، بشكل كامل ونهائي، علاقتي بالحزب الشيوعي السوري الذي رافقتُه إبان ما يقارب العشرين عامًا – هذا الحزب الفاقد روحَه من زمان والممزق – كان ولم يزل – بصراعاته الداخلية التي لا تنتهي. وأتذكر أنه في تلك الأيام كان الحزب قد بدأ يهيِّئ لمؤتمره السادس، مما أدى إلى عودة الصراعات المستحكمة، لتستعر في صفوفه من جديد، بين خالد بكداش وأنصاره، من جهة، ويوسف فيصل وأنصاره، من جهة أخرى – تلك الأزمة التي مازلت أتذكر حيثياتِها جيدًا، لأنه، بحكم علاقتي آنذاك بالأوساط القيادية من جماعة بكداش، كان الكثير من الاجتماعات "التكتلية" لهذا لطرف، وكذلك قرارات تلك الاجتماعات غير الرسمية، يتم في منزلي.

وأتذكر أنه في حزيران 1984 كانت رسالة إلى منظمات الحزب تطلب ملاحظاتها حول النظام الداخلي؛ ثم تلتْها موضوعات اللجنة المركزية في تشرين الثاني 1985؛ فإقرار اللجنة المركزية في آذار 1985

للائحة انتخابية تعطي "الرفاق العمال" حقَّ التمثيل المضاعف (وهو إجراء تم تبنِّيه منذ أيام الأزمة الأولى التي أدت إلى انشقاق رياض الترك وجماعته).

ثم باشرت اللجان المنطقية تقديم تقارير عن أعداد منظماتها. وكما كان متوقعًا، كان كل طرف يقدم تقاريرَ مبالغًا بها عن عدد الرفاق والمنظمات التابعة له. لذلك، ولتدعيم مواقعهم الحزبية، اقترحتْ جماعة أبو عمار يومذاك، على ما أذكر، اعتماد نظام البطاقة الحزبية. فالحزب مكشوف، ولا ضير من منظورهم من كشف الأوراق. وقد رفضت جماعة يوسف حينذاك هذا الاقتراح لأسباب أمنية. والنتيجة كانت ما حَسَمَه المكتبُ السياسي، القاضي بقبول نتائج الإحصاءات التي قدَّمتْها جميع المنظمات من دون أي تدقيق!

ثم كان كونفرنس منظمة الحزب في الاتحاد السوفييتي حيث، وفق سيناريو بات كلاسيكيًّا، أسقطتْ جماعةُ أبو عمار مندوبًا ليوسف، مما أدى إلى انشقاق المنظمة وتدخُّل المكتب السياسي الذي قام بتعيين مندوبين إضافيين مؤيدين ليوسف، كان أحدهما ابن دانيال نعمة.

بعد هذا، جرت، من دون مشاكل تُذكَر، الانتخابات في 12 لجنة منطقية، تم فيها الاتفاق على قوائم تسوية عكست، إلى حدٍّ ما، نسبة القوى الحقيقية في هذه المنظمات وفي القيادة. ثم كان كونفرنس مدينة دمشق...

ولدمشق أهمية خاصة، إن لم نقل أساسية، في انتخابات الحزب الشيوعي. فهي المنظمة الأكبر والأهم التي تقرر مصير مؤتمر الحزب لصالح هذا الفريق أو ذاك. ويوسف فيصل وجماعته، الأضعف على ما يبدو على صعيد القواعد، كانوا يسعون فيها إلى قائمة تسوية. وقد توصلوا إلى هذا نظريًّا مع الطرف الآخر. لكن جماعة خالد كانوا مصممين على توجيه ضربة، ولو محدودة، إلى يوسف وعلى حسم الأمور لصالحهم.

وقد اتُّخِذَ القرار بهذا التوجه المغاير لما تم الاتفاق عليه في منزلي. فزوجتي منى كانت حينذاك مندوبة إلى مؤتمر دمشق، والكثير من الاجتماعات التحضيرية لقيادة جماعة خالد، كما سبق وأشرت، كانت تُعقَد عندي في دمَّر؛ وبالتالي، فإني مازلت أذكر جيدًا إلى الآن كيف، في ليلة ذلك الكونفرنس العظيم، بقينا أبو محمد وخلوف قطان وأنا، حتى ساعة متأخرة من الليل، ننتظر منى التي أعادها إلى المنزل الرفيقان عمار بكداش وقدري جميل اللذان أبلغانا تفاصيل ما جرى، وكنا نعرفه مبدئيًّا.

وما حصل كان أن أسقط طرف أبو عمار في هذا الكونفرنس سبعة من جماعة يوسف، من بينهم ثلاثة من أعضاء اللجنة المركزية، فأطلقوا بذلك الشرارة التي أدت إلى انشقاق الحزب الشيوعي السوري – للمرة الثالثة خلال عقد ونصف.

فما تلا كان أن رفض يوسف فيصل هذه النتيجة طبعًا، وحمَّل خالد بكداش مسؤولية ما جرى، وطالب بتأمين مناصفة أعضاء المؤتمر السادس من خلال الاتفاق المسبَّق على أسماء جميع أعضاء هيئات الحزب القيادية.

وقد رفض خالد بكداش وجماعته، طبعًا، هذا الاقتراح، وتمسكوا بنتائج كونفرنس دمشق الذي أصبح يؤمِّن لهم الأغلبية في المؤتمر القادم، – الموحَّد، – إنْ عُقِد، وسارعوا إلى تثبيت هذه النتائج بالدعوة إلى كونفرنس منظمة الحزب في حلب، حيث كانت لهم أيضًا الأغلبية.

وتصاعدت المعركة، وتدخَّل "الرفاق الكبار" الذين فرضوا على الطرفين، برعايتهم، في تشرين الثاني 1985، تسويةً تنص على:

- تثبيت نتائج جميع الكونفرنسات الحزبية التي عُقِدَتْ حتى تاريخه (بند يمكن اعتباره لصالح جماعة خالد).
- تأجيل عقد المؤتمر حتى آذار 1986 (بند متوازن، يمكن للطرفين أن يستفيدا منه).
- اعتبار جميع أعضاء اللجنة المركزية مندوبين للمؤتمر (بند لصالح يوسف وجماعته).
- تؤخذ جميع القرارات التنظيمية في الحزب، لحين عقد المؤتمر، بالإجماع (بند متوازن، يمكن للطرفين أن يستفيدا منه).
- إعادة توحيد جميع الهيئات وعودة جميع الرفاق المقاطعين إلى هيئاتهم (تمنيات).
- تحديد تمثيل وفد حلب للمؤتمر بـ18 مندوب لخالد و12 مندوب ليوسف (بند لصالح جماعة خالد).

ولكن الصراع استمر، على الرغم من هذا، لأن كلا الطرفين كان ما يزال يسعى إلى تأمين سيطرته على الحزب وعلى المؤتمر. وتفجَّر الوضع مع قرار يوسف فيصل، في اجتماع عَقَدَه لأنصاره في 24 شباط 1986، تعيين 24 مندوبًا للمؤتمر – قرار رَفَضَتْه طبعًا جماعة أبو عمار، الذين قرروا المضي قدمًا في عقد المؤتمر في آذار 1986، كما نصَّتْ على ذلك التسوية التي تمت سابقًا برعاية "الرفاق الكبار"...

أولئك "الرفاق" الذين عاد يوسف فيصل للاستنجاد بهم وبما تيسَّر له من الأحزاب الشقيقة، الذين ضغطوا في شدة على خالد بكداش وجماعته لمنعهم من عقد المؤتمر قبل التوصل إلى تسوية يتفق عليها جميع الفرقاء. فكان تأجيل آخر. لكن الاتفاق لم يتم. مما أدى إلى عقد جماعة خالد لمؤتمرهم السادس منفردين في تموز 1986، وذلك بعد أن انشق عنهم، في آخر لحظة، بتأثير من السوفييت طبعًا، ثلاثة من أهم أنصار خالد بكداش في المكتب السياسي، هم الرفاق عمر السباعي ورمو شيخو وإبراهيم بكري.

وأكتفي حول هذا الموضوع بهذا القدر، خاصة وأنه لا يعكس إلاَّ جانبًا من القضية الأهم في نظري، التي عجَّلتْ في تدهور علاقتي مع الحزب وابتعادي النهائي عنه، ليس تنظيميًّا وحسب، إنما، أيضًا وخاصةً، فكريًّا.

6

لأنه كانت هناك جوانب أخرى للقضية. وهذه كانت، في نظري، الأعمق والأهم. وأتذكر أن الظروف أتاحت لي آنذاك مجالَ التعرُّف عن كثب إلى التاريخ الفعلي للحزب، من جهة، وسطحية ما آلت إليه ممارساتُه العملية على أرض الواقع من خلال الشعارات الفارغة المطروحة و"الكلام الخشبي" الأجوف، من جهة أخرى.

فحينذاك، لست أدري كيف وجدتُني متورطًا في "مساعدة الرفاق" في الردِّ على طروحات يوسف وجماعته. ولا أخفي أن هذا سرعان ما جعلني أغوص في البحث والتنقيب والكتابة في تاريخ هذا الحزب الذي طبع شبابي. وما شجعني يومذاك على ذلك هو أنهم فتحوا أمامي، على مصراعيه، باب الاطلاع على ما بين أيديهم من أرشيف للحزب، وكان محفوظًا لدى أبو سعيد (عبد الوهاب رشواني). فتقدمتُ بمحاولة تأريخية أولية حاولت فيها، بكلِّ سذاجة، الدفاعَ عن مواقف الحزب كلِّها طوال تاريخه. وما أجهدت نفسي فعلاً للدفاع عنه، وكنت لا أزال أتمسك به من حيث المبدأ، هي قناعات كانت تهتز كلَّ يوم أكثر وأكثر، خاصة وأنا أكتشف أن تاريخ الحزب كلَّه أصبح، منذ الثلاثينيات، متمحورًا حول شخص واحد هو خالد بكداش ومتجسدًا حول أسطورة بدأ يظهر مدى هشاشتها وتآكُلها، وأقصد أسطورة ذلك "الاتحاد السوفييتي العظيم"! لكنهم، لحسن حظي، كما أتفكر اليوم، رفضوا محاولتي هذه لأنها، كما فهمت، لم تكن تتلاءم مع اللغة الخشبية التي كانوا – ومازالوا – يستعملونها. مما دفعني، لكن بلا إشراف من أحد هذه المرة، إلى المزيد من التعمق في هذا التاريخ، مستفيدًا مما أضحى بين يدي من وثائق. فكانت مسودة تاريخية ثانية لم أكملها، ولكنها أفادتني جدًّا اليوم في تذكُّر الكثير من الأحداث والتفاصيل التي استندتُ إليها في أثناء كتابة هذه المذكرات. وأيضًا...

أسترجع أنه حينذاك اتسعت جدًّا أيضًا دائرةُ مطالعاتي، التي أصبحت تتجاوز في مجملها الإطار الماركسي الذي حصرت نفسي فيه حين أصبحت شيوعيًّا. فأتذكر أني قرأت أيام ذاك رواية جورج أورويل 1984 التي هزتني كثيرًا – مما دفعني إلى البحث عن باقي كتبه. وقد تأثرت بأورويل لأني وجدت، من خلال ما كان يطرح، في قسوة وخيال جامح، ما يمكن أن تؤول إليه من عبثية ولامعقولية مجملُ الإيديولوجيات التوتاليتارية، وعلى رأسها طبعًا الإيديولوجيا الشيوعية. وأيضًا، تعلَّمت منه فهم أسُس "التقية" المعاصرة والكلام المزدوج، المقرون بالتفكير المزدوج، الذي تستعمله معظم الحركات الأصولية العقائدية في أدبياتها؛ الأمر الذي جعلني أفهم ما تعنيه، في نظر تلك الأحزاب والحركات،

هذه اللغة الخشبية التي يستعملونها. فمن خلال هذه اللغة يمكن قياس مقدار "ولاء" العنصر الملتزم وخضوعه الفكري و/أو استقلاليته؛ أي في اختصار، ومن منظور آخر، اكتشفت يومذاك أني لم أكن يومًا شيوعيًّا بالمعنى السائد لهذه الكلمة، وأنه بات يجب عليَّ، بالتالي، التمايز التام عن هذا الخط الذي لم يعد خطي، والابتعاد عن هذه الجماعة التي لم تعد تعنيني في شيء. وأيضًا...

أسترجع أنني حينذاك بدأت أطَّلع على اتجاهات فكرية أعمق وأكثر إنسانية. ففي البداية، وقع بين يدي كتاب لم يكن على عمق كافٍ، إنما لفت انتباهي إلى وجود بُعد آخر للأشياء وللديانات. كان الكتاب بعنوان الدم المقدس والكأس المقدسة؛ وكانت فائدته في نظري أنه جعلني أتعمق في قراءة ودراسة الكتب المقدسة وكتب التاريخ والتأريخ المقارن للأديان، وخاصة منها حينذاك تاريخ تلك الحقبة المتعلقة بالحروب الصليبية؛ وكذلك أيضًا، الاهتمام بالحركات الروحية والباطنية التي وُجِدَتْ آنذاك ومفاهيمها وصراعات السلطة ضدها. فتعرفت إلى "الكاثاريين" وإلى "فرسان الهيكل"، مثلاً، وقرأت في تمعُّن كتب المؤرخ البريطاني رانسيمان والمؤرخ الإسرائيلي جوشوا براهير حول الحروب الصليبية و"مملكة القدس اللاتينية"، ليس حصرًا. كما بدأت أيضًا الاطلاع في عمق على الماسونية "التأملية" ومفاهيمها الفكرية... عوالم جديدة سحرتْني، ووسَّعت أفق تفهُّمي لأشياء هذا العالم. وأيضًا...

بحكم موقعي في "شركة الدراسات"، ربما، بدأتْ تتوسع أيضًا دائرةُ معلوماتي البيئية من خلال ما كنت أقرأ من كتب وتقارير، كان بعضها عامًّا ونظريًّا، وبعضها الآخر، إن لم أقل معظمها، خاصًّا ويعالج المشكلات التي نعاني منها في بلدنا ومنطقتنا. من بين هذه المشكلات كانت مشكلة تلوث غوطة دمشق وحوضها المائي وما يستتبع ذلك من دراسات ترمي إلى معالجة هذا الموضوع الخطير بهدف حلِّه. وهنا، حول هذا الموضوع بالذات، حدث صِدامٌ حادٌّ بيني وبين قيادة الحزب على خلفية جدل عام دار حينذاك في البلد، في الصحف والإذاعات وعلى صفحات الجرائد. وكان هذا الموضوع، في نظري، "القشة التي قصمت ظهر البعير"، فأدت إلى تمايزي التام وابتعادي النهائي عن الرفاق وقطيعتي النهائية معهم.

وأسترجع ما حدث يومذاك: حين أثير في مجلس الشعب، كما في أوساط بعض المهندسين المهتمين بالموضوع وفي حلقاتهم المغلقة، موضوع الموقع المختار لمعمل معالجة مياه مجاري دمشق، وكذلك معمل معالجة قمامتها، اللذين كان يُفترَض إقامتهما في "عين ترما" الواقعة على مشارف الغوطة الشرقية.

ففي جلسة طريفة لمجلس شعبنا "الموقر"، تميزتْ بإلقاء القصائد الحماسية المعبِّرة، اتخذتْ الرفيقة "أم عمار" (صال فرحة، زوجة خالد بكداش) الموقفَ الذي كان يدافع عنه باقي النواب من أصحاب المصالح، أي موقفًا رافضًا لإقامة معملَي معالجة القمامة ومعالجة مياه المجاري في عين ترما. ثم تلا هذا الموقف، أو لنقل تلك المسرحية البرلمانية، حملةٌ مركَّزة في الصحف المحلِّية، حيث قامت رفيقةٌ

أخرى، هي السيدة ناديا خوست، بكتابة مقال عاطفيٍّ دافعت فيه عن أشجار الغوطة التي ستُقطَع، واحتجت أيضًا، وفي شدة، على إقامة المعملين في عين ترما. ثم تلاها رفيقٌ آخر، هو السيد وليد معماري، الذي كتب في إحدى الصحف المحلّية مقالاً آخر حول الموضوع نفسه ووفقًا للتوجه نفسه. مما دعاني إلى طلب عقد اجتماع مع الرفاق لأشرح لهم الأمر، وأبيّن لهم خطأ موقفهم ونتائجه البيئية السيئة، على الغوطة عامة وعلى دمشق تحديدًا. وقد عُقِدَ هذا الاجتماع فعلاً في منزل أحد الرفاق المهندسين (السيد بهجت اسطفان، على ما أذكر)؛ وقد حضرتْه أم عمار وناديا خوست وأبو سعيد، كما حضره معي مهندسان تقدُّميان لهما علاقة بالموضوع، هما صديقاي عاصم خليفة وزهير وفا. لكن هذا الاجتماع لم يؤدِّ إلى أية نتيجة. فالقرار المتعلق بموقف أم عمار وباقي الرفاق الإعلاميين كان متخَذًا مسبقًا، من دون أية دراسة للموضوع وقبل الاطلاع على أبسط حيثياته. والموقف كان رفض مكان إقامة المعملين في الموقع المذكور – عين ترما؛ والحجة كانت الدفاع عن الأشجار التي ستُقطَع في هذا المكان في حال إنشاء هذين المعملين. لكن القضية كانت أعقد من هذا بكثير!

فاختيار موقع عين ترما تم نتيجة دراسات مستفيضة قامت بها، لصالح وزارة الإسكان والمرافق، شركةٌ استشارية إنكليزية تدعى هَوارد همفريز. وهذه الدراسات دقَّقها أيضًا خبراءٌ اختصاصيون استدعتْهم الوزارة عن طريق البنك الدولي. ويمتاز الموقع الذي وافقت عليه وزارة الإسكان ومهندسوها الاختصاصيون بأنه مكان تلاقي مختلف تفرعات بردى التي تمر عبر دمشق لتعود فتلتقي وتتفرع من جديد – أيضًا في عين ترما – لتروي في راحة غوطة دمشق الشرقية. أي أن هذا الموقع كان الموقع الأمثل لإقامة مشاريع بيئية حيوية كهذه كانت دمشق وغوطتها في أمس الحاجة إليها؛ كما أنه كان يتمتع – بالقوة أيضًا – بخاصية منع التوسع السكني العشوائي لمدينة دمشق باتجاه الغوطة. لكن هذا لم يحصل.

إنما الذي حصل أنه تصاعدت الحملةُ الإعلامية على الموقع المقترح، وأن شُنَّتْ يومذاك على المهندسين الذين أيدوا المشروع، من دون تسميتهم، حملةٌ صحفية مغرضة، كان أهم كتَّابها الرفيقان ناديا خوست ووليد معماري، وذلك سواء في الصحف المحلّية الرسمية أو في نضال الشعب، لسان حال الحزب الشيوعي السوري. مما أدى إلى استجابة السلطات لمسرحية هذه "المطالب الشعبية المحقة" وإلى إيقاف الدولة للمشروعين مؤقتًا وقرارها بتغيير موقعهما.

وهذا ما دفعني يومذاك إلى كتابة تقريرين احتجاجيين مفصَّلين[43] إلى قيادة الحزب، شرحتُ فيهما الموضوع، لكن طبعًا من دون أية جدوى! فما كان يهم الرفاق وقيادة الحزب الشيوعي، كما تبين لي في وضوح حينذاك، كان تحقيق انتصار إعلامي متلفز، وليس معالجة مشكلة بيئية هامة وحيوية بالنسبة إلى دمشق وغوطتها – انتصار استفاد منه، في نهاية المطاف، كما تبين فيما بعد، تجارُ البناء في عين

[43] مازلت أحتفظ بهما إلى الآن.

ترما، ولم تستفد منه قطعًا لا دمشق ولا غوطتها، لا عمالها ولا فلاحوها. والنتيجة، كما نشهدها اليوم، كانت أنه:

- لم يبقَ في عين ترما شجرةٌ واحدة بسبب التوسع المعماري الذي اكتسح المنطقة وتجاوَزَها في اتجاه الغوطة، كما كان متوقَّعًا.
- تم نقل موقع معمل معالجة مجاري دمشق إلى ما بعد عدرا، مما أدى، لضرورات الاستفادة مما ينتج عنه من مياه معالَجة في ريِّ الغوطة، إلى إعادة ضخ هذه المياه صعودًا في اتجاه عين ترما كي تتم الاستفادة منها، أي المزيد من الأكلاف الباهظة والمزيد من الأشجار المقطوعة.
- كذلك تم نقل موقع معمل معالجة القمامة، الذي كان يُفترَض أن يكون قرب معمل معالجة مياه المجاري، ما عني أيضًا المزيد والمزيد من الأكلاف.

وأكتفي من هذا الموضوع بهذا القدر، متذكرًا في مرارة كيف جاءني، بعد ذاك بعدة سنوات، – وكنت أعمل حينذاك مع الشركة الإيطالية المتعهدة لمشروع محطة معالجة مجاري دمشق، الذي تأخر تنفيذه عشر سنوات وأصبح موقعه في عدرا، – (جاءني) الرفيق عمار بكداش ليقول لي بصوت خفيض إن موقفي حول هذا الموضوع كان الموقف الأصح وإن الموقف الذي اتخذوه في الحزب كان خطأ. فابتسمت في حزن وأجبته:

- لماذا لا تكتبون هذا الأمر؟! لماذا لا تعترفون، ولو لمرة واحدة وبشكل موثق، بخطئكم؟!

فلم يجب عمار.

وأتفكر اليوم أنه، في عدم إجابته، وإنْ لم يكن منسجمًا من حيث العمق، في دخيلة نفسه، مع ضميره، كان منسجمًا جدًّا مع عادات بلادنا وتقاليد مسؤوليها في تشويه الحقائق وإظهار تلك الصورة الكاذبة التي لا يهمهم سواها، القائلة بأنهم دائمًا على حق ودائمًا مصيبون في كلِّ شيء. فـ"الكذب يصير حقيقة مع الأيام"، على حدِّ تعبير أورويل، خاصة إن لم يكن يدقِّقه و/أو يذكِّر به أحد. والأمثلة على هذا أكثر من أن تحصى، في بلادنا وفي سواها.

فمشروع معالجة مجاري دمشق، مثلاً، أصبح اليوم واقعًا قائمًا في موقعه الجديد الذي هو عدرا. وما نجم عنه من كُلَف إضافية وأضرار صار اليوم من المنسيات التي لا يتفكر فيها ولا يتذكرها أحد. وفي نظر مَن يراجع اليوم، عن بُعد، أدبيات الحزب الشيوعي آنذاك، فإن ما كُتِبَ حول الموضوع يشكل "دليلاً ساطعًا" على "نضال" الحزب العنيد في سبيل حماية البيئة والدفاع عن مصالح العمال والفلاحين. فمَن يهتم في النهاية ببعض الأصوات الضائعة لبعض "المهندسين المغرضين"؟! وكذلك أيضًا...

المستشفى التعليمي أنشِئ اليوم وانتهى. وما يقال عنه اليوم أنه بُنِيَ على يد الألمان، – وهذا صحيح، – وأنه تم إنشاؤه في عهد "الرئيس المناضل حافظ الأسد" الذي سُمِّي المستشفى باسمه – وهذا صحيح أيضًا، وربما كان هذا هو الأساس، لأنه لم يعد مهمًّا على الإطلاق تذكُّر كيف أُنجِزَ هذا المشروع في

أقصر مدة ممكنة، وكيف لم يتجاوز من حيث الكُلَف – وهذا نادر جدًّا في بلدنا – كلفتَه العقدية؛ ولأن ما تم تحقيقه في قلبه من وظائف متطورة تجاوزت، إلى حدٍ بعيد، الإطار العقدي الرسمي للمشروع. فهذا لم يكن ولم يعد مهمًّا اليوم، لأن الأهم عندنا في البلد هو فقط الشكل والمظهر الذي من خلاله نبجِّل ذاك الذي في ظلِّ حكمه بُنِيَ المشروع!

7

وأتذكر، للمناسبة، كيف كنَّا نعمل في تلك الأيام – بقيادة الدكتور فؤاد بشور – كطاقم منسجم، وبكلِّ إخلاص، من أجل تأمين الإشراف الفعال على هذا المشروع الذي كان يومذاك من أهم مشاريع البلد؛ كيف كنا، مستفيدين من المواصفات الألمانية، نسعى جاهدين لتأمين أفضل تنفيذ وتصميم ممكن له؛ وكيف كنا، بالاعتماد على ما نملكه من خبرات فنية، نعمل على انتقاء أفضل التجهيزات الممكنة.

وأتوقف هنا قليلاً، لأستعيد بعض ما جرى معنا حين انتقينا معدات الأشعة التي كانت أهم معدات المشفى على الإطلاق وأغلاها. فأتذكر كيف تقدَّمت لنا شركة فيليب هولتسمان، متعهِّدة المشروع، بعروضها لهذه المعدات، التي كانت، على ما أذكر، وكما اتفق، ثلاثة هي: عرض لشركة "سيمنز" الألمانية، وعرض لشركة "فيليبس" الهولندية، وعرض ثالث لشركة "جنرال إلكتريك" الأمريكية. وقد كان واضحًا من هذه العروض التي قُدِّمَتْ، كما أوضح لنا يومذاك خبيرُ المعدات الطبية، صديقي المهندس بشار العظمة، أن العرض المفضل الذي يسعى المتعهِّد إلى أن يدفعنا لقبوله إنما هو عرض شركة "سيمنز". لذلك، بالاتفاق يومذاك مع المدير العام لشركة الدراسات، الدكتور فؤاد بشور، كان قرارنا أن ننتقي معدات الأشعة من أفضل ما تقدِّمه العروض الثلاثة مجتمعة. وكان هذا ما أبلغناه للمتعهد شفهيًّا. وهنا كان ما حصل أنه ارتكب المتعهد خطأً سحب عرضَي "فيليبس" و"جنرال إلكتريك" بحجة اعتذارهما، مبقيًا فقط على عرض "سيمنز". وكان هذا خطأً كبيرًا، لأن ادعاءه لم يكن صحيحًا، ولأنه، من باب المصادفة، كانت شركة "فيليبس" قد اتصلت بنا مقدِّمةً هدية قيِّمة للجامعة، قيمتها حوالي المليون دولار (وهي عبارة عن جهاز تصوير طبقي محوري) في حال وافقتْ الجامعة على منحها صفقة الأشعة بالكامل. فسارعنا مباشرة، بعد تبليغ رئاسة الجامعة بالأمر آنذاك، إلى إبلاغ المتعهد بما جاءنا من عرض لـ"فيليبس"؛ الأمر الذي اضطره وشركة "سيمنز" إلى تقديم عرض مشابه يتفوق قليلاً على عرض "فيليبس". وأيضًا...

أتذكر كيف دعونا المتعهِّد إلى التفاوض حول مجمل مطالباته العقدية التي قدَّمنا، كمقابل لها، مطالبَنا كجامعة وكإشراف، وكيف استغرقتْ هذه المفاوضات حوالي الشهرين، وتم فيها التوصل إلى تسوية، هي عبارة عن عُشر ما تقدَّم به المتعهد ولم ترفع كلفة المشروع بأكثر من 2% من قيمته العقدية الأصلية.

وهنا أجد أنه لا بدَّ لي أن أذكِّر بالدور الكبير الذي لعبه في هذه المفاوضات المهندس القدير خليل الفرا الذي كان يترأس الجانب السوري في هذه المفاوضات. وأيضًا وأيضًا..

أتذكر كيف كان العمل يتقدم في سرعة، وكيف شارف على الانتهاء، وكيف تم تشكيل لجنة الاستلام المؤقت للمشروع التي أنجزت أعمالَها في شكل عادي. و...

كيف كان الدكتور فؤاد يعتمد عليّ في تلك الأيام للقيام بمهمات أخرى، كان أهمها، على ما أذكر، مساعدة الدكتور وليد الجابري في تدقيق دراسات المدينة الرياضية في اللاذقية، التي كان متعهِّدها "الإسكان العسكري" والتي كانت قيد الإنشاء، وكيف غُصْتُ مع الدكتور وليد في هذا المشروع الأضخم الذي كان ينفَّذ في البلد والذي يمكن وصفه بـ"مشروع أبَّهة" نموذجي – "أبَّهة"، بمعنى أنه لم يقم دارسوه، الذين كانوا من "الإسكان العسكري" ومن الخبراء البولونيين، بأية محاولة لعقلنة النفقات وتحديد الأكلاف التي كان مبالغًا فيها جدًّا. وكان هذا ما حاولنا فعله، الدكتور وليد وأنا، بالاستناد إلى مَن وَضَعَهم الدكتور فؤاد تحت تصرفنا من مهندسين أكفاء.

وأتذكر، خاصةً، كيف لم ننجح في تحقيق شيء مما كنا نصبو إليه، حيث شنَّ "الإسكان العسكري" علينا حربًا شرسة، بقيادة مديرها العام حينذاك، العقيد خليل بهلول، معتبرين أننا جئنا لنخرب عليهم ما يفعلون! لأن كل ما كان مطلوبًا منا، من وجهة نظرهم، هو أن نوافق على ما يتقدمون به من دراسات لم تكن، في معظمها، جيدة، إن لم نقل إنه كان يفضَّل إعادة النظر بها – كتلك الكتلة المعدنية الثقيلة والضخمة التي اقترحوها كحلٍّ لسقف القاعة المغطاة. لذلك، سرعان ما اعتذرنا، الدكتور وليد وأنا، عن الاستمرار في تحمُّل المسؤولية المتعلقة بالإشراف على دراسة هذا المشروع، مما اضطر الدكتور فؤاد بشور إلى الموافقة، وهو مثقل القلب، على اعتذارنا، وإلى توكيل الأمر لمهندس أكثر منَّا "ليونة". وأيضًا...

أتذكَّر كيف ذهبت، خلال هذه الفترة الممتدة من 1985 إلى 1987، ثلاث مرات خلال الصيف إلى فرنسا لأقضي إجازتي السنوية. وهناك، كنت أنزل ضيفًا على صديقي الفرنسي جان فرانسوا فوركاد في منزله الواقع وسط باريس؛ مما زاد من تعمُّقي في التعرف على هذه المدينة الرائعة وتمتين الكثير من صداقاتي وعلاقاتي القديمة هناك. وأخيرًا...

وهذا طبيعي، كان المشفى التعليمي يشارف على نهايته. وأتذكر أني لم أكن أرغب يومذاك في تجديد عقدي مع "شركة الدراسات"؛ كما أني، لأني كنت متعبًا ومنهكًا فعلاً من العمل تحت الأضواء المسلَّطة، وما يحيط به من أجواء تجعلك دائمًا عرضة للاتهام وللمساءلة، من جهة، ولأنه جاءني عرضٌ مُغْرٍ من متعهِّد سعودي للإشراف على مستشفى يُزمَع إنشاؤه هناك في منطقة القصيم، اتفقت مع الدكتور فؤاد يومذاك أن أستمر معه حتى نهاية الاستلام المؤقت للمشروع. وكان هذا ما حصل. ولكن خلال هذه الفترة...

8

شاءت الحياة أن تضيف إلى أحزاني حزنًا إضافيًّا. ففي أواخر عام 1986، على ما أذكر، توفي هاشم. وأستعيد ما جرى عشية ذلك اليوم الذي سبق وفاته: كيف كنت وحيدًا في المكتب أراجع أحد التقارير وأضع ملاحظاتي عليه، حين قرع هاشم باب مكتبي في نعومة ودخل على عادته. كان يبدو منهكًا. وقد أردت الوقوف لاستقباله، عندما سارع يقول لي:

- أكمل ما بين يديك من عمل، يا أكرم. فأنا غير مستعجل، وقد جئتك على عادتي لأستريح. فأكمل عملك ولا تهتم بي، أرجوك!
- سأنهي ما بين يدي خلال عشر دقائق، يا أبو الخير. حتى ذاك، هل أطلب لك فنجانًا من القهوة؟
- لا، يا أكرم، فقط كأس ماء.

ثم جلس، آخذًا من أمامه من على المنضدة كاتالوغًا بدأ يتصفحه.

نظرتُ إليه مرة أخرى في تمعُّن. كان مظهره مختلفًا هذه المرة، وسحنته تميل إلى الاصفرار – الأمر الذي أقلقني إلى حدٍّ كبير. لذلك سارعت إلى طيّ ما بين يدي من عمل، وتوجهت إليه مخاطبًا:

- أنا الآن تحت تصرفك، يا أبو الخير. فهل تفضل أن نبقى هنا أم أن نتجول في الموقع لأطلعك على آخر ما استجد؟
- أفضل أن نتجول معًا في الموقع، يا أكرم.

وكان هذا ما حصل: خرجنا، وتجولنا في المشروع الذي كان يومذاك في مراحله النهائية من حيث الإكمالات. وقد مررنا، على عادتنا، على كلِّ شيء، حيث كان يمعن النظر في الإكمالات: يسأل سؤالاً هنا، معلقًا تعليقًا هناك، مدققًا باهتمام كبير في كلِّ شيء، مشيدًا غالبًا بما كان ينفَّذ.

- لأنه هكذا يجب تنفيذ الإكمالات، يا أكرم، وليس على الطريقة "البازارية" التي صارت سائدة في البلد! هكذا يجب أن توضع الفواصل بين البلاط في الأرضيات لمنع أي تشقق مستقبلي.
- لست أخفي عنك أني تعلَّمت في هذا المشروع الكثير مما كنت أجهله. فهذه أول مرة، كما تعلم، أستلم مشروعًا بهذه الضخامة!
- وقد نجحتَ فيه، يا صديقي.
- لكن... أخبرني ما بك، يا أبو الخير. فأنا لم أرَك يومًا منهكًا وحزينًا إلى هذا الحد!
- لا شيء، لا شيء محدد، يا أكرم. فقط أشعر بالوحدة وبالتعب من كلِّ شيء! لا شيء يبشِّر بالخير في البلد... حتى الحزب والرفاق أضحوا توافه ولا يعوَّل عليهم. حتى أبو محمد (عمر السباعي) وأبو راشد (مراد قوتلي)، صديقا شبابي، تغيرا وصارا بعيدين عني... لم يبقَ مَن أرتاح

لرؤيته إلا أنت وعاصم وفايز... حتى عائلتي أشعر بها اليوم بعيدة عني... حتى أشقائي... حتى زوجتي وأبنائي.

ولأول مرة رأيت عينيه تترقرقان بالدموع. فضغطت على يده في شدة، وشدَّ في قوة على يدي، وقال لي:

- سأعود الآن إلى المنزل لأستريح... وسأتصل بك غدًا لنحدد موعدًا لسهرة مع الشباب. فقد اشتقت إليهم كثيرًا.

وأوصلته إلى سيارته القديمة. ضمَّني إليه وقبَّلني.

- إلى اللقاء، يا أكرم.

- إلى اللقاء يا أبو الخير... انتبه لنفسك، أرجوك.

وكان صباح اليوم الذي تلا. غصة في القلب تملَّكتْني حين رنَّ جرس الهاتف في منزلي. على الطرف الآخر من الخط كان صوت أجش يقول:

- عمو أكرم... أنا محمد خير، ابن هاشم... لقد توفي بابا هذه الليلة!

الفصل السادس عشر

بمثابة خاتمة

طائر الليل يهذي...

بمثابة خاتمة

طائر الليل يهذي...

"... بالمجرفة تُلملَم الأوراقُ الميتة،
أرأيت، أنا لم أنسَ،
بالمجرفة تُلملَم الأوراقُ الميتة،
ومعها الذكريات ومعها الندم أيضًا..."
جاك بريفير

1

مع هذه "الخاتمة" نكون وصلنا إلى نهاية هذه "المذكرات" التي شاء صاحبُها أن يوقفها – وحياتُه لم تنتهِ بعد – قبل عشرين عامًا من تاريخ اليوم.

وهو يعرف أنه، خلال العشرين عامًا الماضية، حدث له، كما حدث لكم، الكثيرُ الكثير. لكن ما حدث – وإنْ كان "بعضُهم" يعرف بعض حيثياته – لم يشأ أن ينقله إليكم بالتفصيل من خلال هذا المخطوط، إنما...

اختار – وهذا شأنه! – أن يبقى، فيما يتعلق بهذا الماضي القريب، صامتًا، محدِّق العينين – كالبوم – يتأملكم، ومن خلالكم، يتأمل أعماق نفسه...

محدق العينين، نعم، لأنه لم يعد في وسعه أن يغلقهما من العجب مما رأى، ومازال يرى، و... لم يستطع فهمه!

لم يستطع فهمه، نعم، حتى هذه الساعة – هذا الذي هو، في النهاية، عالمه، كما هو عالمكم أيضًا، هذا العالم الذي حاول، ومازال يحاول، أن يعيشه معكم بكلِّ عفوية وصدق، ليجد نفسه، في نهاية المطاف، محبَطًا، وحيدًا، وحزينًا...

فهو مرآتكم في نهاية المطاف، أيها السادة، ألا تعتقدون ذلك؟! لأن كلاًّ منا هو، في النهاية، مرآة للآخر؛ وما تعكسه هذه المرآة أمام ناظرنا كان يمكن – أو لنقل كان يُفترَض – أن يكون جميلاً حقًّا، ولكنه، حتى هذه الساعة، مازال، في مجمله، مُخجِلاً إلى حدٍّ كبير!

لأنه كان بودِّه لو استمر في سرد قصته لكم، بكلِّ تفاصيلها... كان بوده فعلاً لو استمر يحدثكم عما يعتمل فعلاً في أعماق نفسه... عن عالمه، عن أسرته، وعمله، وبلده، وعلاقاته... نعم، كان بوده هذا، صدقوني. لكن هذا لم يعد في وسعه الآن.

كان بوده أن يستمر فيحدثكم عن كلِّ جميل في حياته قبل كلِّ حزين...

عن شقيقته إكرام التي أحبَّها، وكان دائمًا في حال صراع وصداقة وحب معها – إكرام التي توفيت ذات ليلة هناك، في أقاصي الأرض، وحيدةً، إثر نوبة قلبية.
كان بوده أن يحدثكم، باكيًا، عن آخر خلاف بينهما: كيف تفجر، ولماذا، وماذا كانت انعكاساته، ثم كيف بدأ هذا الخلافُ يزول وبدأت المياهُ تعود إلى مجاريها. كيف كان وإياها ينتظران التلاقي ليفضي كل منهما إلى الآخر بما في دخيلة قلبه من تراكمات حزن وألم. لكن الحياة لم تشأ هذا اللقاء، فبقي ما في داخل القلوب دفينًا لم يفصح عن نفسه.
كان بوده أن يحدثكم عما حدث فيما بعد، عن تطور علاقته مع مَن تبقى من أهله، مع والدته وشقيقته الصغرى... لكنه، وقد استعاد أنفاسَه اليوم، قرر بأن هذا لا يعنيكم. وأيضًا...
كان بوده أن يحدثكم عن صداقاته، عن قصص حبِّه، عن تطور أفكاره وقناعاته، عن حياته، كما عاشها في أدق تفاصيلها، بجوانبها الجميلة التي كان يتمنى، ككلٍّ منكم، أن تشاركوه فيها، وبجوانبها الحزينة التي طَغَتْ في النهاية، فجعلتْه يقرر أن يُبقي ما حصل معه مختبئًا خلف ما أصبح "قناع" وجهه القاسي، كما عبَّر له ذات يوم، بكلِّ سذاجة، مَن أحب أكثر من الجميع.
لأن ملامح وجوهنا هي "أقنعتنا" أيها السادة – ألا تعلمون؟! و"قناع" الوجه، الذي أضحى مخيفًا بنظر بعضهم، بقسوة الحجر ربما، بقيت تظهر منه بعض الطيبة من خلال التماع ابتسامة العينين أحيانًا، أو لمن رآه ذات يوم في لحظة ضعف، من خلال دمعة عابرة. ولكن...
وهذا ما يُشعِرُه ببعض السعادة، فإن ملامح وجهه القاسي لم تخدع حفيدتيه شام وغزل – ابنتَي لنا – اللتين مازالتا تتعاملان معه كصديقهما المفضل! فالبراءة سرعان ما تكتشف نظيرتَها. أما التشوه، أما القماءة التي تطغى على النفوس، فتجعلنا لا نرى من الأمور إلا ظاهرها فقط.
لهذا تراهما – وأقصد "شامو" و"غزولة" – في حاجة عفوية إلى حبِّه، كما هو في حاجة عفوية إلى حبِّهما: فهو، مثلهما، – وإنْ من وراء قناعه، وعلى الرغم من كبر سنِّه – في حاجة أيضًا إلى بعض العطف والحنان!
والتعبير عن حاجة كهذه أضحى ثقيلاً وممجوجًا في عالمكم الذي لم يفهمه، حيث يغلق كلٌّ منكم الباب على نفسه وفي وجه الآخرين ممَّن أحبوه فعلاً و/أو أحبهم حقيقة.
وأتفكر، يا إلهي، أن هذا ما حدث معي أيضًا في كثير من الأحيان، حينما أقفلت بابي، بدافع من كبرياء زائفة ليس إلا، في وجه مَن كان في حاجة إلي.
وأتفكر أن كلَّ واحد منَّا، لأسباب مختلفة تخصه، يصير في النهاية، من حيث الظاهر، كالوحش الذي – كما تروي الحكاية الشعبية – يبقى في أمس الحاجة إلى مَن يحبه حقيقةً، فيخلع عن وجهه قناعَه المشوَّه ويصير أجمل إنسان في الخليقة!
هذا الحب هو – تحديدًا – ما أصبحنا نفتقد...

2

وأتذكر أني كنت وحيدًا ذات ليلة في مكتبي، وحيدًا ألملم أشيائي، متهيئًا للعودة إلى منزلي، عندما قرع جرسُ الباب فجأة، ذاك الباب الذي سرعان ما فتحته متسائلاً عمن يكون يا ترى هذا الزائر غير المتوقع، فوجدتُني أمام زوجتي التي بادرتْني قائلة:

- انظر من أحضرت لك معي، يا أكرم!

وأقهقه ضاحكًا من كلِّ قلبي، لأن خلفها كان يقف فعلاً، من حيث لم أكن أتوقع، ... سلافا وفاليا!

ونتعانق في حرارة ونحن نكاد نبكي من الفرح! وتتابع منى قائلة:

- كنت أتمشى وحدي في طريق الصالحية أتساءل: هل سأمر على المكتب لنعود معًا إلى المنزل، عندما سمعت خلفي صوتًا ضاحكًا يقول بالروسية: "انظري، يا فاليا، انظري... إنها موني [أي منى كما كانوا يسمونها]." فنظرت خلفي لأجد فالنتينا وسلافا!
- كم نحن سعيدان لأننا التقينا بكما، يا أكرم! نحن في دمشق منذ شهر، وقد وقعت عقدًا لمدة عام مع "شركة الدراسات"، حيث كنت تعمل أنت، كما قيل لي. وأنا أسكن حاليًّا مع فاليا في منزل استأجروه لنا في "مشروع دمَّر".

ونضحك مرة أخرى. وأجيبه:

- إذًا نحن جيران، يا سلافا، جيران، كما كنَّا...
- نعم، يا أكرم، نحن جيران من جديد!

وهكذا عشنا خلال العام 1996، الذي كنت أعمل إبانه مع شركة "أنسالدو" الإيطالية وكان سلافا يعمل مع "شركة الدراسات"، تفاعلات صداقة عادت لتتجسد على أرض الواقع بعد طول ابتعاد.

- ما رأيك بما حدث عندكم، يا سلافا؟ ما رأيك بانهيار النظام الشيوعي في بلدكم؟
- إنه مؤسف، يا أكرم، مؤسف حقًّا ما حدث، وإن كان يجب أن نتوقعه... لكن، أتعلم؟، لأول مرة في حياتي أجد نفسي في المعارضة، ولأول مرة أجدني شيوعيًّا عن حق.
- لكنك "موجيك" [أي فلاح]، يا سلافا، والـ"موجيك" لا يمكن له أن ينتظم، خاصة في حزب شيوعي.

فيبتسم في حزن ويجيبني:

- أنت على حق، يا أكرم، فأنا مازلت في أعماقي "موجيك"!

ويقرع باب منزلي ذات يوم جمعة، وأجدني أمامه يقول لي بكلِّ لهفة:

- عليك أن تأتي معي، يا أكرم، لنلتقي صديقنا محمود العليوي [سائق رافعة "الآسپم"] الذي ينتظرنا الآن في مكان عمله في معربا، بعيد جسر الهامة.

- لنذهب، يا صديقي... فأنا متشوق إلى رؤية محمود الذي لم ألتقِ به منذ أن انتهيت من عملي في جسر الميادين.

ونذهب معًا لنلتقي بمحمود الذي كان بدأ شعره يشيب، محمود الذي رحَّب بنا بكلِّ حرارةِ وعرض علينا ما يواجهه من مشكلات فنية تتعلق بتركيب جوائز الجسر عند المنحني، تلك المشكلات التي ساعَدَه سلافا على حلِّها بلا مقابل.

وسرعان ما ينتهي العام، ويعود سلافا وفاليا إلى روسيا، وتنقطع الأخبارُ من جديد، حتى كان آخر تهاتُف بيننا. كان ذلك في صيف العام 2000، قبيل شهر من موعد زواج ابنتي لنا، حين اتصلتُ به هاتفيًّا لأدعوه وفاليا إلى عرس "ابنتهما":

- بريفييت ["تحية" بالروسية]، يا سلافا... ستتزوج لنا بعد شهر، وأنا أدعوك مع فاليا إلى عرسها.

ومن الطرف الآخر من الخط يجيبني صوتٌ متهدج، خفيض وحزين:

- لا أستطيع المجيء، يا أكرم، لا أستطيع، لأن فاليا مريضة جدًّا، فاليا مريضة!

وبكلِّ بلاهة أجيبه:

- لكن حاول، يا سلافا... حاولا أن تأتيا... فلنا ابنتكما!
- لا أستطيع، أقول لك آسفًا من كلِّ قلبي، لا نستطيع، لأن فاليا مريضة جدًّا، يا أكرم، فاليا مريضة جدًّا...

ثم بلغني بعد فترة، عن طريق صديق قادم من روسيا، أن فاليا توفيت وأن سلافا جعل من غرفتها "مزارًا"، حيث علَّق على الجدار صورةً كبيرة لها وأشعل أمامها الشموع!

3

انقطعت عني أخبارُ سلافا. ثم وصلني، عن طريق الصديق المشترك نفسه، أنه غادر هذه الفانية، لاحقًا بفاليا إلى حيث هي. وأتذكر أني بكيت في تلك الليلة، كما مازالت إلى الآن تدمع عيني كلما فكرت فيهما. نعم، – وأقولها بلا خجل! – أنا أبكي في صمت كلما تذكرت هذين الكائنين الرائعين اللذين يؤكدان مقولة لأراغون مُفادها أن

"الحب موجود وأنا أؤمن به..."

ولكن...

عندما أتأملكم في ظلمات الليل، أيها السادة، فإني أسترجع تساؤلاً للشاعر نفسه يقول:

"... هل هكذا يحيا البشر

وقبلاتهم عن بُعد تلاحقهم؟"

لأنكم – وأنا مثلكم ربما – لم تعيشوا ولم تحترموا كما يجب، و/أو كما كان ينبغي، قلوبَكم التي هي، في النهاية، أجمل ما تمتلكون ويميزكم كبشر... لأن قلائل منكم فقط – قلائل جدًّا، مع الأسف! – هم في عالمنا اللذين يحترمون حياتَهم ويعيشونها في صدق كامل، وخاصةً قصص حبهم... لا أقول كروميو وجولييت، على الرغم من روعة مسرحية شكسبير الخالدة، وليس كماريا وطوني في قصة الحي الغربي، المقتبسة عن المسرحية نفسها، إنما بشكل أكثر عمومية وخصوصية معًا...

كالذئب الذي لا مثيل له في عالم الحيوان الراقي و... كسلافا وفاليا في عالم البشر.

وأنا أقصد هنا ذلك الحب الصادق والوحيد – نعم، الوحيد الوحيد الوحيد! – والمعبِّر والبسيط... أقصد ذلك الحب الحقيقي، بكلِّ جوانبه الجسدية والنفسية والروحية، لا أكثر ولا أقل!

لأننا، في غالبيتنا، تبعنا، ومازلنا نتبع، غرائزَنا، إنْ لم نكن ننقاد وراء أكثرها انحطاطًا، فأسأنا إلى أجمل ما في نفوسنا، وعن دراية أو من دون أن ندري، أسأنا، ومازلنا نسيء، إلى الآخرين.

وأتساءل: لماذا هي الحال هكذا؟ – محاولاً تبرير هذا الانحطاط بضعف طبيعتنا البشرية.

وأتساءل من جديد، كأراغون الذي عاش أيضًا، كسلافا وفاليا، قصةَ حبٍّ رائعة – أتساءل، وأنا أتأمل نفسي وأتأملكم عن قرب في ظلام الليل:

"... هل هكذا [يجب أن] يحيا البشر

وقبلاتهم عن بُعد تلاحقهم؟"

والجواب هو قطعًا: لا، ليس هكذا يُفترَض في البشر أن يحيوا!

لهذا تراني أختتم قصتي – كما لا أرجو أن تختتموا قصصكم – وحيدًا ومحبطًا وحزينًا...

4

لأني وحيد وحزين، كما هي الآن تلك التي لم أتجرأ أن أبادلها الحب وحيدةٌ وحزينةٌ في الطرف الآخر من المعمورة، حيث يجتر كلٌّ منَّا ذكرياتِه. أو لنقل، هذا ما حدثني به ذات يوم أحد الأصدقاء، حين قال لي مرةً في لحظة صفاء:

- اجلس قليلاً، يا صديقي، اجلس، لأحدثك بهذه القصة، قصتي مع ليلى... التي كانت معنا في الجامعة... هل تتذكرها؟
- كنت على وشك التخرج، وكانت هي في سنتها الجامعية الأولى، حين التقيت بها لأول مرة في مكتبة الكلِّية، فبهرني جمالُها، ونظرت إليها في إعجاب، فالتقت نظراتُنا، وابتسمت، ثم أشاحت بناظرها عني.
- ثم ماذا؟

- لا أعرف... لم أتجرأ – ربما لجمالها، أو لغبائي على الأغلب! – على الاقتراب منها لأكلِّمها مباشرة...

لم أتجرأ طوال ذلك العام... ثم تخرجت، وابتعدت عن البلد لضرورات العمل. لكني كنت أتابع، خَجِلاً، أخبارَها عن طريق بعض الأصدقاء، فأعلم منهم – والأيام تمر – أنها تخرجت وأنها أصبحت تعمل في إحدى مؤسسات الدولة، لا بل إنها – ولست أدري لماذا وما الذي جذبها يومذاك إلى هذا الحزب اللعين – أصبحت من "جماعتنا". وأتذكر أني خلال تلك الفترة تزوجت. وأتذكر أيضًا أني...

كنت ألتقي بها أحيانًا مصادفةً في الطريق وحيدة (فمنزلها، كما اكتشفت فيما بعد، كان يقع قرب منزلي)، وفي كلِّ مرةٍ كانت نظراتنا تلتقي، فيحدق كلٌّ منا في الآخر بإمعان، وكالعادة، لا نتجرأ حتى على تبادُل السلام. ولكني، على الرغم من هذا، بقيت – وبلهفة – أتتبع أخبارها...

ثم علمت أنها، مثلنا، تركت "الجماعة"، وأنها عاشت حياة حزينة، وأنها فقدت شقيقتها التي توفيت في أثناء الولادة، فبقيت ترعى طفل شقيقتها، وأنها، أخيرًا، تركت البلد وهاجرت إلى كندا.

ثم كان العام الماضي، حين عادت إلى البلد لتصفِّي أعمالها وتغادر، نهائيًّا هذه المرة. وتشاء المصادفة أن نلتقي هذه المرة لقاءً مباشرًا. وتشاء المصادفة أيضًا أن نتحادث، لأول مرة منذ 40 عامًا، حديثًا مباشرًا وشخصيًّا، أي وحدنا، نعم وحدنا ووجهًا لوجه. وهنا كانت المفاجأة، يا إلهي، ...

- ... أنك اكتشفت بأنك كنت تحبها؟

- لا... أني اكتشفت بأنها كانت تحبني كما كنت أحبها، وأنها كانت تتابع أخباري عن بُعد، وبالتفصيل، مثلما كنت أنا أتابع أخبارها...

لذلك، بربك، أجبني:

"... هل هكذا [أجل، هل هكذا] يحيا البشر

وقبلاتهم عن بعد تلاحقهم؟"

وأتفكر، وأنا أتأملكم بعينيَّ المحدِّقتين، لماذا يفشل معظمنا في حياته؟ لماذا تكون محصلةُ هذه الحياة سلبيةً في معظمها بالنسبة لغالبيتنا، سواء على الصعيد الشخصي أم في شكل عام... وأجيب: لأننا، ربما، نقمع أجمل ما في قلوبنا، لأننا نفتقر إلى الكثير من الصدق، أيها السادة...

5

لأننا نفتقر خاصةً إلى ذلك الحب الصادق الوحيد والوفي والمستمر...

لأنك – وأقولها جازمًا ومتألمًا – لا تعرف ما هو الحب، يا صديقي... لا تعرف منه إلا قشوره وارتعاشاته، ولا تدرك منه خاصة ما يولِّده – ككمون وكواقع – من مسؤولية تجاه نفسك وتجاه الآخرين. فهذه المسؤولية – تحديدًا – هي التي مازلتَ، إلى الآن، تخافها وتتهرب منها وتحاربها في شراسة. وكل

ما أرجوه هو ألا تتعرف إليه مثلي بعد فوات الأوان، لأنك بهذا، إن لم تخسر نفسك، تكون قد خسرت أجمل ما في حياتك. وأتوقف هنا قليلاً...

لأن معظمنا لم يدرك بعد ماهية العلاقة بين الحب وبين المسؤولية. وأتذكر مقارنًا، متفكرًا في سلافا وفاليا و... في صديقي الآخر هـ...، رحمتهم الآلهة جميعًا!

فسلافا كان طوال حياته صادقًا مع نفسه ومحبًّا. كان محبًّا لأرضه ولناسه، وبالتالي، مسؤولاً تجاههم. ومن خلال هذه الحياة الصادقة أحبَّ – لا بل عَبَدَ – تلك المرأة الوحيدة – "الملكة" – التي ملأت حياتَه كما ملأ هو حياتَها، فكان من أجلها، ومعها، مسؤولاً عن كلِّ شيء، يحاول دائمًا تقديم أجمل ما عنده وأفضله لها ولكلِّ مَن حوله. لذلك لم يفكر سلافا يومًا في خيانة فاليا، لذلك لم تجذبه أية امرأة سواها، مهما كانت بالغة الجمال (خاصةً أن سلافا كان جميلاً جدًّا وجذابًا كالإله!). لذلك كان يسعى دائمًا، تجاه نفسه وتجاهها، لأن يكون، بكلِّ عفوية وكإنسان، أفضل وأفضل وأفضل، أجمل وأجمل وأجمل – تمامًا كما كانت هي معه، تجاهه وتجاه الآخرين.

وأتفكر في صديقي هـ... الذي، ربما، بحكم وسطه التقليدي، لم يستطع أن يعيش حبًّا كهذا، فكان زواجُه كلاسيكيًّا. لكنه كان أيضًا، بحكم قلبه الكبير الطاهر وبحكم حبِّه وإنسانيته اللامتناهية، مسؤولاً دائمًا عن كلِّ مَن حوله لا يتهاون، يقدم لهم دائمًا المثال الصالح وأجمل ما عنده. لكن ما ينقصه كانت حتمًا "فالياه" الخاصة. وهذا النقص كان فادحًا، فانعكس في النهاية على شخصه، في تلك الحدة والقسوة الظاهرة، أو لنقل، في ذلك الوجه–القناع الذي كان يبدو قاسيًا كالحجر، وإنْ كان يخفي وراءه قلبًا في منتهى الرقة ونفسًا في منتهى الجمال والحساسية.

وأتفكر بنا، أتفكر بنفسي، أتفكر بكم، أيها السادة... لأني اليوم فهمت، في النهاية، أن الحب هو أن نقدِّم حياتنا لإسعاد مَن حولنا...

من أجل ابتسامتهم، فقط من أجل ابتسامتهم، كما عبَّرتَ لي ذات يوم، يا صديقي.

وأشعر برغبة في ... البكاء!

6

ليس فقط لأننا لم نعرف الحبَّ كما يجب، إنما أيضًا لأننا، كبشر في هذا العالم، وفي هذه الرقعة منه تحديدًا، لم نعرف كيف نحافظ على أجمل ما كان يميزنا كبلد: أقصد ذلك التنوع وتلك المثالية التي تمخضت عن ثلاث ديانات إنسانية عظيمة، فلم نعرف كيف نحافظ على مثاليات هذه الديانات وقيمها، وتمسَّكنا بتوافهها وقشورها، فوصلنا إلى ما وصلنا إليه اليوم من انحطاط جَعَلنا نقيم للألوهة أحزابًا مسلحة ونستخدم اسمَها للقتل، لتسويغ القتل، ولتفريغ أحط ما في نفوسنا...

لأننا لم نعرف حتى كيف نحافظ على قيم رجالات استقلالنا الأوائل ومثالياتهم، فقضينا على ديموقراطياتنا الناشئة، مستبدلين بها مساخر حكومات ودول باسم ما كنا نعتقده ونؤمن به من مثاليات وقيم. أصبحنا اليوم، وقد يئسنا من أيِّ تغير إيجابي ممكن على الأرض، نبرِّر للحثالات التي تحكمنا جميع تجاوزاتها وجرائمها، التي هي، مع الأسف، خياناتنا وجرائمنا نحن أيضًا، لأن هؤلاء منا ولأننا لا نختلف عنهم كثيرًا من حيث العمق، يا أيها السادة!

وأشعر برغبة في البكاء حين أتفكر بأن أولادي، وقد كبروا وأصبح عندهم أولاد، لم يعرفوا خلال حياتهم إلاَّ هؤلاء "القادة الملهَمين"...

لأننا في الحقيقة تخلينا عن أحلامنا، يا إخوتي، لأننا تخلينا فعلاً عن أحلامنا!

وكيف لم نتخلَّ عنها، كشعب وكبلد، وقد أمسينا لا نتذكر حتى عظمة أولئك الذين كانوا يتخلون عن مناصبهم طوعًا من أجل مبادئهم، أولئك الذين في أيامهم لم يكن لرئاسة الدولة ولا لرئاسة الوزارة إلا سيارة واحدة فقط تبيت ليلاً في المرآب!

لأن أولادي يبتسمون اليوم حين أحدثهم عن عظمة إنسان كان اسمه شكري القوتلي وعن مثالية ابن عائلة أرستقراطية – وشيوعيٍّ مثالي – كان يدعى خالد العظم...

ولأني أشعر بالخجل منكم... ومن نفسي... يا إخوتي...

ولكن...

7

أشعر أحيانًا ببعض الأمل وببعض الرجاء...

حين أتذكر أيام "الجمعية الكونية السورية" ومحاضراتنا فيها، حين أتذكر أولئك الشباب الطيبين الذين تعرفت إليهم عن طريقها ومن خلالها... أشعر ببعض الأمل وببعض الرجاء، لأن هذه الجمعية مازالت قائمةً إلى الآن بفضل صديقينا الحبيبين فايز وموسى، فلم تنهَرْ ومازالت صامدة – إلى جانبنا...

نعم، إلى جانبنا، نحن الذين تركناها ذات يوم وأنشأنا موقع معابر الإنساني والفكري والفلسفي... أولئك الذين، مثلي، كانوا ذات يوم منها، فاستمروا في ذلك المسار الآخر الموازي والمكمل... ديمتري، يا صديقي الحبيب، ما أجملك!

وأتفكر كيف عملنا معًا، وحافظنا معًا على هذه المجلة التي أضحت اليوم من المواقع الهامة على الإنترنت... لأننا خاصةً – وهذا هو الأهم – تعرفنا من خلالها على أولئك القادمين من آفاق مختلفة، ممن انضموا إلينا وأضحوا يعملون معنا: أميمة... أميرة... هفال... عبد الجليل... وخاصة منهم دارين، الإنسانة والصديقة الوفية، التي أصبحت اليوم أحد "أعمدة" موقعنا.

وفي النهاية، أستودعكم الآلهة، أيها الأخوة.

محبط أنا، نعم... بشكل عام... ولكن عينيَّ هاهنا تبتسمان، لأني مازلت، كما مازال بعضنا – بعضكم – يحمل في قلبه نورَ حلمه بعالم أجمل وببشر أكثر إنسانية...

وفي هذا الحلم يتجسد الأمل...

***